في

الغزو الفكري

المفهوم الوسائل المحاولات

نذير حمدان



الغزو الفكري

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه محمـد المبعوث رحمـة للناس كـافة وعلى سائر إخوانه.

وبعد:

أقـدم الجـزء الأول من (الغـزو الفكـري) الـذي يشمـل: مفهـوم الغـزو وضغوطه، ووسائله وتآزره، ومحاولاته في فصل الإسلام عن المسلمين.

وسـوف أتبعـه بـالجـزء الثـاني الـذي يشمـل: مجـالات الغـزو ووسـائـل مقاومته... إن شاء الله.

وهذا الجزء ألقيت أصوله ومعظم موضوعاتـه على الـطلاب من قبل خمس سنوات في احد عشر فصلاً دراسياً.

ومن المناسب أن أنبّه إلى الأمور التالية:

١ ـ أصدرت دوريات وكتب بعض مسائل الغزو بقلمي منذ أكـثر من عشر سنوات داخل المملكة وخارجها.

٢ ـ نهجت البحث حتى شمل حقائق تاريخية في مطلع القرن الحـادي عشر الميلادي، ما قبل القرن السادس الهجري، كـما شمل الحقـائق الحديثـة والمعاصرة إلى يومنا هذا.

٣ ـ استـوعبت مع المنهج الجـامعي مـا يحتـاج إليـه البحث من إضـافـات اقتضاها التأليف والفائدة المرجوة للطالب خاصة وللمسلم عامة.

٤ ـ أبرزت ما أمكن، الدفوع اللازمة والمناسبة على شبهات الغزو وافتراءاته لتحصين الفكر، ونوهت بإيجابياتٍ وعـروض فكريـة بانيـة في الأصول الإسلامية والتاريخ واللغة وفضائل الثقافة الإسلامية عموماً.

٥ ـ جمعت بين النصوص الاسلامية وأقوال الغزاة من مصـادرها مـع ضبط أعلامهم وإنتاجهم، وأكثرت من الثانية ومن متطلبـات وطبيعة المـادة، وأيدت البحث بشواهد وأخبار من الدوريات المحلية والعالمية المعاصرة.

ولا غرو فإن فعاليات الغزو ما تزال دائبة النشـاط العالمي، وهـذا يقتضي من المفكرين المسلمين متابعة نشاطه الحالي، ومواصلة جهودهم في رصد زيوفه وأباطيله المدوّنة ونقدها. وهي جهود مضنية ولكنها مثمرة. أسأل الله أن ننفع وننتفع فنحصن ونبني الشخصية المسلمة وفق شريعة الله، إنه وليّنا نعم المولى ونعم النصير.

أولاً: مفهوم الغزو الفكري وأغراضه

١ ـ مفهوم الغزو الفكري:

فهو مصطلح مركب من:

الغزو: مصدر: غزا، يغزو: ويعني هنا الهجوم الذي يشن على المسلمـين وبلادهم في صورة مفاجئة لم يحسب لهـا حساب. ففيـه مد أجنبي، واجتيـاح خـارجي، وهجوم مخـطط ومباغت معـاً، وتهـوين وتعـظيم للخصم في وقت واحد.

والفكري: يشمل كـل ما ينسب إلى الفكـر من إعمال العقـل والدين من القيم المعنوية والروحية والخلقيـة ذات مضمون مبـدئي وفلسفة فكـرية، كـما يشمـل المؤسسات والمـظاهر المـادية التي تقـوم على القيم السـابقة كـالأنظمـة الاقتصادية ومظاهر الحكم والنشاطات المذهبية المتعددة. وعلى هذا فإن الغزو الفكري يعني هجمات فكرية متلاحقة ذات صلة بتاريخ المسلمـين وحاضرهم

تطرح شبهات وأفكاراً مزيفة مستوعبة تراث الإسلام وأحوال المسلمين. وقد انـطلقت من البـلاد الأجنبيـة شرقيـة أو غـربيـة عـلى يـد المنصرين وأقـلام المستشرقين وأعمال المستعمرين بعيدة عن العمل العسكري المسلح.

وهكذا فإن الغزو الفكري يتضمن:

أ ـ هجـمات متتاليـة تاريخيـة ومعاصرة من الإنسـان الغربي، مستعـرباً أو مستشرقاً أو منصراً.

ب ـ وهي فكـرية تستـوعب (الـدين) و (اللغـة) و (التعليم) و (الاعـلام) و (الانـظمة الاقتصـادية) و (منهـج الحكم) و (الـوحـدة الاسـلاميـة) و (القيم الخلقية) وكل مايتصل بالفكر والثقافة بمفهـومها العـام الذي يتناول قيم الأمة وأحوالها وعاداتها وتاريخها وعلاقاتها.

ج ـ ثم هي هجمات مدروسة ومخططة وهـادفة ضمن أعـمال كنسيـة عـالميـة ومؤتمرات استشراقية دولية ودراسات نظرية وميدانية لأوضاع المسلمين وقضايا الإسلام.

د ـ وأخيراً فهي تشويه الحقيقة الفكرية بـطرح شبهات وأفكـار مزيفـة في الثقـافة الإسـلامية وبخـاصة في الجـذور الفكريـة التي تمس العقيـدة والوجود الحضاري للمسلمين.

٢ ـ أغراض الغزو الفكري:

إذا كـان الغزو الفكـري حصيلة التنصير والاستشراق والاستعـمار فـإنها تشترك جميعها في غرض عام هو محاولة اخضاع المسلمين فكراً وحيـاة وسلوكاً في الحاضر والمستقبل إلى النفوذ والسيطرة الأجنبية في قيمه وتفوقه المدني، حيث يمكنه أن يتصرف بمقدراتهم وأحوالهم ويقبع الاستعمار في دياره من غير أن يستعمل جيوشه وأسلحته العسكرية، وهو نفوذ يأخذ طابعاً اقتصادياً يفرضه على الشعـوب الإسـلامية النـامية والمتخلفة بدءاً من الفكر وانتهاء باستلاب الخيرات الـطبيعية والأيدي العاملة، والعقول الخبيرة ثم جعلها أسواقاً رائجة لمنطلقاته الفكرية وانتاجه المادي.

وسيأتي معنا أنواع من الضغوط النفسية والفكرية والمادية والتعليمية والطبية التي كان يمارسها لتحقيق غرضه في **إيجاد روح التخاذل والقهر النفسي الذي يقتضي استمرار خضوع المسلم للغربيين**. وربما كان عامل (الإيحاء النفسي) أهمها وأكثرها استعمالاً. فقد أوهم الغزو المسلمين بعدم قدرتهم على دراسة التراث الاسلامي بالمنهجية الحديثة، وتفوق المدنية الغربية في جميع المجالات متخذين الدعاية الخادعة المضللة. على حين أنهم يظهرون الاهتمام بالتراث تحقيقاً ودراسة ونشراً، ويقدمون بعضه وبخاصة المخطوط منه وهو ما يزيد عن مليون مخطوط مبثوث في المكتبات العالمية.

وتبقى هذه الأوهام مسيطرة حتى كشف الباحثون المسلمون عنها فيضعون الأمور في نصابها الصحيح. كما تدفعهم لتحمل مسئولياتهم الفكرية للمساهمة في انتاج فكري سليم.

ومن المؤكد أن (توظيف) المعرفة الاستشراقية والاتجاه التنصيري في خدمة السياسة حيناً ودعمها الاستشراق والتنصير أحياناً في أعمال استخبارية وتجسسية ووظائف سياسية مرموقة، يقوي من شدة هذه الضغوط لتحقيق غرضها العام كما سيأتي معنا.

بالإضافة إلى سعة اطلاعهم على اللغات السامية والآرية، وتسهيل حصولهم على المصادر الإسلامية ودعم الحكومات الغربية لمؤتمراتهم وإصداراتهم.

إن حالات الانبهار بكل ما هو غربي تترافق مع حالات الخذلان والتحقير لكل ما هو شرقي أو مسلم، وتجعل من الغربيين رواد الحضارة وأساتذة العرب حتى في أخص ما يتصل بهم من الثقافة الشرعية في مناهجها وكلياتها وأنظمتها، وقبل كل شيء في أصالتها وتوجيهاتها.

وحينئذ تصبح الثقافة الشرعية المعرَّبة معاول هدم في شخصية المثقفين المسلمين الذين يفترض أن يؤهلوا (للعلمية) المتخصصة الموجهة كما

يتخذون بتبعية وولاء أجنبيين، في معارفهم الشرعية بعد أن افتقد زملاؤهم المعارف العلمية التطبيقية.

١ ـ التغريب Westernization :

وهو تغيير كلي مغرض في الإنسان المسلم يقوم على تثقيف فكري غربي أو تنصيري.

ويطلق عليه بعض الباحثين بـ (الفَـرْنَجـة) مشيرا إلى المستشرق **الأنكلواميركي** (هاملتون جب) في كتابه (وجهة الإسلام Whither Islam) الذي أشرف على نشره وجمع مواده ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م واشترك في تحريره أساتذة متخصصون في الدراسات الاسلامية والشرقية من جامعات فرنسا والمانيا وهولندا وانكلترا[١].

١ ـ التغريب فكري تنصيري:

أ ـ ويرى (جب) أن كثيراً من مظاهر التقليد الإسلامي للحضارة الغربية، لا يتوقف عليها مستقبل التغريب والدور الذي سيلعبه في العالم الاسلامي، باعتبار أنها مظاهر خارجية للتأثر والاقتباس، فهي ثانوية بالقياس إلى تغلغل الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية.

والسبيل الحقيقي في نظره للحكم على مدى التغريب يجري في التعليم والصحافة على الأسلوب الغربي.

ويبدو أن جب وزملاءه يركزون على الجانب الثقافي الفكري في (التغيير) التغريبي، منوهين بالتفوق الغربي والتقدم الأوروبي مقياس الحضارة الراقية الرائدة.

وهو اتجاه استعماري توسعي نفوذي يتقدم بالفكر المغرّب قبل أن يتقدم بالجيش والسلاح بل ومن غير أن يتقدم بهما أصلاً.

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الشعر المعاصر، د/محمد محمد حسين ١/ ١٤٠ ـ ١٤١.

ب - ولكن التغريب يتجه أيضاً في شكل تنصيري ينال فكر المسلم وعقيدته بالتغيير إلى فكر الغرب العقدي. و (إن أهم مظاهره متمثلة في حركة التبشير الذي يكشف لنا الدكتور (زويمر) مخططاته بقوله: ليس الهدف من التبشير هو إدخال المسلم في دين آخر، ولكن الهدف هو إخراجه من الإسلام حتى يكون خصماً له وعدواً[٢].
وواضح هنا أن المنصر والمستشرق الأمريكي (صموئيل زويمر) يلتقي في الوسيلة والغرض مع حركة الاستشراق اليهودية التي لا يعنيها التغيير الديني بقدر ما يعنيها التشكيك بالإسلام وبعدائه.
ولذا فإن بعضهم يرى (أن التغريب في ابسط مفهومه هو: حمل المسلمين العرب على قبول ذهنية الغرب والتخلي عن الدعائم الأصيلة التي تفرض ذاتية خاصة، وطابعاً مميزاً للإسلام، وإثارة الشكوك في الثقافة والاقتصاد والتشريع والتربية).

وهذا يعني خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، ثم تحاكم الفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم ولا سيما الحضارة الإسلامية، ولا ريب أن من يرى مؤسسات التبشير والاستشراق، وما يصدران من شبهات وتحديات يحكم بما لا يدع مجالاً للشك بوجود هذه الظاهرة (التغريب) وحركتها الدائبة[٣].

وينوّه (بارث) بأهمية صلة العالم الاسلامي بالغرب على أساس التفاهم الذي يصل بالمسلمين إلى (التغريب) وهو وإن يضع مشكلة (القطيعة) الفكرية بينهما على عاتق المسلمين فهو ينبه إلى أهمية (التثقيف) لدى الطبقة المسلمة المثقفة التي تحمل مثل هذه المسئولية.

---

(٢) من كتاب الإسلام والدعوات الهدامة: أنور الجندي، ص ٤٥، وأنظر: التبشير والاستعمار، د/عمر فروخ ومصطفى الخالدي ص ٤٧ ومواضيع أخرى.
(٣) شبهات التغريب ص ١٣ مع اعتراضنا على استعمال لفظة (خلق)، وتسييد فهي تسويد.

يقول بارث[٤]: إن الحكم الذي يكونه الناس في البيئات الإسلامية عن العالم المسيحي الغربي، حكم ما زال يشوبه في أغلبه لون الدفع والمشاحنة، ثم بتقدير أن هناك أيضاً مسلمين مثقفين كثيرين يكنون للعالم المسيحي الغربي تقديراً موضوعياً فلنأمل أن يكون اتجاه هؤلاء في المستقبل مدرسة. ودعا الدكتور محمد رحبار في المؤتمر الإسلامي العالمي الذي انعقد في (لاهور) في ديسمبر/ايلول ١٩٥٧، بحماس إلى هدف من هذا القبيل، ولكنه لقي معارضة شديدة... ثم يدعو بارث هنا إلى أن تنتشر بالتدرج صورة موضوعية لعالم الغرب بين الجماهير الواسعة.

ويشير (هانوتو) إلى أن (العلمانية) يمكن أن تحقق هذا الغرض، ويذكر في حديثه عن (سياسة فرنسا في المستعمرات الاسلامية) - وترجمت ١٣١٨هـ - ١٩٠٠م - إلى نجاح فرنسا في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية في تونس، وقال: إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الانقلاب العظيم بلباقة وحذق دون أن تثير ضجيجاً أو تذمراً، فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس، وتسربت الأفكار الأوروبية بين السكان بدون أن يتألم منها إيمان المحمدي، وبذلك انفصم الجيل بين هذا البلد وبين البلاد الإسلامية الأخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض[٥].

ويتضح أن التغريب يشمل عمليتين: التفريغ من الفكر الإسلامي الأصيل ومايتبعه من التثقيف العام، ثم إحلال الفكر الغربي والثقافة الأوروبية مكانه بصورة فعالة.

ويخطىء البعض حين يظن أن التغريب هو حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب فحسب، وإنما الحقيقة أن التغريب هو محاولة (خلق)

---

(٤) هو رودي بارث وكتابه: الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية، ص ١٣ - ١٤ بتقديم وتأخير.

(٥) الاتجاهات، السابق ١/٣٤٩.

دائـرة فكـر تهـدم بنـاء المسلمـين والعـرب، وتنتقص فكـرهم، وتشيـع فيـه الشبهات والمثالب ثم لا تدفعهم إلى أي جانب من جـوانب البناء أو النهضـة مستمدة من أي فكر آخر.

وفي عشرات المجالات والقضايـا عمل (التغريب) في مجالات التفـرقة بـين الإسـلام والعروبـة، وفي النظرة الجـزئية، والفصـل بـين الـدين والمجتمـع، واللغة والتاريخ، وعن طريق إحياء الروابط القديمة[٦]...

٢ ـ صور من التغريب العام:

أ ـ **المفاهيم الغربية**: وهي مقاييس يحكم بها على المجتمعـات الاسلاميـة ومدى رقيها ضمن هـذه المفاهيم الـواقعية (والمقـارنة بـالواقـع الغربي تبدو وكأنها المحك الذي يسهل الفهم على ضـوئه... بحيث يصبـح أي مجتمـع غـير منـظم حسب النسق الغـربي كـأنـه مبتـور ومنقـوص ومشكـوك حتى في انسـانيتـه... وأن محـورة كـل شيء لا تتم إلاّ في نـطاق مفاهيمهم الغربية... والغـريب أن يصـدر ذلـك عن أوسـاط جـامعية تـدعي العلم والمـوضـوعيـة والـدقـة والتثبت في الشـك وفي اليقين[٧].

ب ـ **القانون الغربي**: إن الدراسـات الاستشراقية لا تـألو جهـداً في إظهار عيوب في المجتمعات الاسـلامية عـلى أساس اتبـاعها الإسـلام الذي ينبغي أن تتخلى نهائياً عنـه وتقتدي بـالغرب بعيـدة عن (جمود الفقـه) حسب ما يدعيه (ريمون شارل) و (في تضاربه (الفقه) مع واقع العـالم العصري، وطبيعة العالم العصري في نظره: إما أن تكون غربية أو لا تكون... والهدف من هذه الاتهامات... تسويغ عمليات الفـرنسة وتجذيرها في شمالي أفريقيا، إذ بـإثبات هـذه العيوب يمكن للقـراء أن يستحسنوا السياسـة الفرنسيـة الراميـة إلى طمس الشريعة الإسـلامية

---

(٦) المرجع السابق، ص ١٥ ـ ١٧.
(٧) مقتبس من: مناهج المستشرقين ٢/١٤٦.

وإلى تعويضها بالقانون الفرنسي الوضعي . . .)[8].

ولا يكتفي ريمون شارل وهو المستشار الفرنسي، في كتابه: الروح الاسلامية، عن الفقه الإسلامي، وإنما تناول قضايا اجتماعية كالأسرة وحرمان المرأة من حقوقها فيها، وانسياق المسلمين وراء شهواتهم، واستبدادية الإسلام، وتوحشهم في التقتيل والتعذيب وأكل لحوم الأعداء، وأنه مانع من النمو الاقتصادي والاجتماعي . . . مما (سوغ كل التصرفات الفرنسية من غضب للأرض وسلب للحكم وادماج للأمبراطورية . . . وإقامة الحجة على أن المسلمين غير مؤهلين لأن يستغلوا خيرات بلادهم، وأن الوصاية عليهم وحدها كفيلة بالنهوض بهم)[9].

ج - **التنصير يحمل لواء التغريب**: من المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك، ثم يرمون مما يكتبون أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية، أو بين العلوم الاسلامية والعلوم الغربية ليفضلوا الثانية على الأولى . . .

وغايتهم (خلق) تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين، وحملهم من هذه الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية[10].

وفي التعليم التنصيري يصرح المشرفون عليه: إنه واسطة إلى غاية وهي قيادة الناس إلى المسيح حتى يصبحوا مسيحيين. والموضوعات العلمانية التي تعلّم من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين تحمل معها الآراء النصرانية[11].

---

(8) المرجع السابق، ٢/١٤٩.
(9) مقتبس من السابق ٢/١٥٤ - ١٥٨.
(10) بتصرف من: التبشير والاستعمار ص ٢٤ - ٢٥.
(11) من المرجع السابق، ص ٦٦.

ففي تصريح (بنروز) رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م: لقد أدى البرهان إلى أن التعليم أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان. . . ومن أجل ذلك تقرر أن يختار رئيس (الجامعة) من مبشري الإرسالية السورية[١٢].

ومن قبل عقد اجتماع ١٨٦٣ حضره (فانديك) و (فورد) و (جب) و (هرتر) من الإرسالية الأمريكية، ثم حضر (جونسون) قنصل الولايات المتحدة في بيروت وأصدروا قرارهم: نحن نصر على الطابع التبشيري للكلية، وعلى أن يكون كل استاذ فيها مبشراً.

وعلى هذا الأساس عاد (دانيال بلس) أحد رؤسائها إلى امريكا ليثير رغبة الجمهور المسيحي لمحاولة تأسيس معهد أدبي يعمل على نشر الإرساليات البروتستانتية والمدنية المسيحية في سوريا والأقطار المجاورة[١٣].

وأقامت فرنسا اليسوعية دعاية لها في تحبيب الانتداب الفرنسي وقالوا: إن قسماً كبيراً من نشر الآراء الممدنة المستمدة من العالم المسيحي والفرنسي يعود الفضل فيه إلى إرساليتهم.

حتى أن كلية الهندسة في بيروت (الفرنسية) قد استمرت في أداء عملها واستطاعت أن تساهم في رسالة فرنسا الممدنة[١٤].

ويفتري المبشرون على المرأة المسلمة زوجة وأماً وابنةً ويثيرون الشبهات الكثيرة حولها من التعدد والعقد والطلاق والمعاملة الأسرية، ويقصدون من ذلك غايات منها: أن يحطموا من عزيمة المسلمين ويحملوهم على الشعور بالنقص في أنفسهم[١٥].

وربما استولت أطماع توسعية على بعض الكنائس المهملة لتسترد مكانتها

---

(١٢) المرجع السابق، ص ٦٧.
(١٣) المرجع السابق ص ٩٩.
(١٤) المرجع السابق، ص ١٧١.
(١٥) المرجع السابق، ٢٠٤.

الدينية، ويتم ذلك عن طريق (التنصير الغربي) كما فعلت الكنيسة الأرمنية التي حاولت التقدم إلى إيران والعراق وسوريا وفلسطين وآسيا الصغرى[١٦].

وبصورة عامة أصبحت الطريق ممهدة أمام المبشرين، فانتشرت النصرانية مع اتساع السيطرة الأوروبية في العالم. ولقد قام الاستعمار والسيطرة العسكرية بدورهما في نشر النصرانية. . . وإن الحربين العالميتين قد حطمتا الجاه الأوروبي في عيون الآسيويين والأفريقيين، فإذا هؤلاء لا يتقبلون النصرانية على أنها جانب من حضارة راقية متفوقة[١٧].

وصور تنصيرية أخرى توضح رغبة المنصرين في تغريب المسلم، متآزراً مع الاستشراق، في دعم استعماري تحاول تغيير فكره وعقيدته وسلوكه وتصوره للتراث الاسلامي حتى يعيش بثقافة مغربة على الرغم من اسمه وبلده الإسلاميين.

٢ ـ اضعاف المسلمين وتمزيق وحدتهم وتوزعهم إلى كيانات واتجاهات ذات انتماءات مختلفة مما يؤدي إلى الاختلاف وإثارة النعرات الطائفية والقومية والانتمائية المضللة كالعلمانية والماركسية والرأسمالية. . . وربما أدى بهم ذلك إلى المواجهة والاقتتال الفردي والجماعي.

والمسلمون أمرهم الله بالتوحيد والوحدة وبالاعتصام بحبل الله ورسوله فهم قوة عالمية كبرى لهم وزنهم الحضاري الذي يؤهلهم لقيادة عالمية فكرية، فيحاول الغزو أن يشغلهم بأنفسهم في خصومات كلامية اعلامية وحروب مادية طاحنة أحياناً، حتى يزيل مخاوفه في وحدتهم بتهديد مصالحه.

إن موقع المسلمين وكثافتهم وخيراتهم في ظل شريعتهم مما يتخوف منه الغربيون، ويحسبون حسابه مع أن الإسلام يحفظ عهودهم ويبر محايدهم. ويتعامل معهم بالحق والخير والعدل والتسامح.

---

(١٦) المرجع السابق، ص ٢٦١.
(١٧) السابق، ص ٢٥٥.

فالمسلمون موزعون في (٦٧) دولة قد تبدأ نسبتهم من ١٪ ـ ١٠٠٪، منها (٥) دول في أوروبا و (٢٣) في آسيا و (٣٩) في أفريقيا، وأقليات في (٢٩) دولة أخرى. وهناك دول نصف مسلمة تقريباً أو تزيد مثل: لبنان، واثيوبيا، ونيجيريا، وتشاد[١٨]. . . وهم منتشرون في أخطر موقع استراتيجي ويملكون أغنى الثروات الاقتصادية والبشرية، ومن ثم فإنهم قادرون على توجيه امكاناتهم وتضامنهم وتكاملهم.

ولكن اهتمام الدول الغربية بتفتيت الدعوة العربية كان ظاهراً، فلم يجمع خبراؤها على شيء مثل إجماعهم على توقع الخطر من جانب الشعوب الإسلامية، وقد نوّه لوثروب ستودارد الأمريكي في: حاضر العالم الاسلامي، بخطورته، كما تكلم (هانوتو) الوزير الفرنسي في مقاله ١٩٠٠ عن تاريخ النزاع بين الاسلام والمسيحية وتحقق الظفر للديانة الأخيرة في القرن التاسع عشر وقال: إن فرنسا صارت بكل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت صدر الإسلام وكبده. فالإسلام يحيط بها في أفريقيا، ويمتد في آسيا إلى الصين وهو قائم في أوروبا في الأستانة. . . وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أن تفترسنا إن اغمضنا الطرف. . .[١٩].

وأصرح منه كتاب: وجهة الإسلام Whither Islam السابق لجب وزملائه المتخصصين في الدراسات الاسلامية والشرقية، إذ يصرح في تقديمه لبحوثهم بأن اهتمام انكلترا بدراسة الإسلام ناشىء عما يعرفه الانكليز من سيطرة تعاليمه على المسلمين، مما يجعل له مكاناً بارزاً في أي تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامي، ويلفت النظر ـ كما فعل هانوتو ـ إلى أن العالم الاسلامي المترامي الأطراف يحيط بأوروبا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم، ملاحظاً أن وحدة الحضارة الاسلامية تمحو من الأذهان حيثما حلت كل ما

(١٨) من صحيفة الشرق الأوسط العدد؟.
(١٩) الاتجاهات الوطنية ١/٣٤٧ ـ ٣٤٨.

يتصل بالتاريخ القومي، لتحل محله الاعتزاز بالتاريخ الاسلامي والتقاليد الإسلامية[20].

و (كامغاير) الاستاذ في جامعات المانيا وأحد المشاركين في: وجهة الاسلام، يظهر تخوفه من خلال أسئلة يطرحها في بحثه: مصر وغربي آسيا، ويقول: هل يستطيع الإسلام أن يستعيد وحدته الداخلية في ظل التجزئة السياسية القائمة، وتحت تأثير الآراء العصرية والعلوم الغربية؟ وهل سيكون الإسلام عند ذلك عدواً، أم أنه سيكون صديقاً وحليفاً؟ وأسئلة أخرى. . .

ثم يجيب: إن من المؤكد أن العالم العربي، ولا سيما الكتلة المتحدة التي تكون مركزه الكبير، والمكونة من مصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا والعراق ستلعب دوراً بالغ الأهمية ـ بل ربما كان حاسماً، بسبب تطور ثقافتها ووحدة لغتها وسهولة المواصلات بينها. . .[21].

ولا يختلف المنصرون عن المستشرقين في محاولاتهم الظاهرة بتمزيق لوحدة المسلمين وإضعافهم، فإنهم أكثر خشية وتخوفاً من أية فئة أخرى على مصالحهم الكنسية، وعلى مشاعر قومهم الدينية.

فهم يربطون العداء المستحكم بينهم وبين الإسلام إلى الحروب الصليبية، يجمعون على خطر الوحدة الاسلامية على الغرب بسببه فالمبشر (جب) مثلاً يود أن يمحي الإسلام من العالم، و (غاردنر) يرى أن القوة الكامنة في الإسلام هي التي تخيف أوروبا. ويوسع بعضهم نظرته إلى الجانب السياسي بالإضافة إلى الديني، فيؤنب (رشتر) ـ وهو المبشر البروتستنتي ـ النصارى على قصر نظرهم في العصور المتطاولة عقب ظهور الاسلام، فإنهم كانوا وادعين غافلين بينما كانت الامبراطورية البيزنطية تغيب شيئاً فشيئاً في الامبراطورية الاسلامية حتى سقطت القسطنطينية نفسها ٨٥٧هـ ـ/١٥٤٣م.

ويظهر ألمه السياسي الديني في أن سكان الامبراطورية الشرقية كانوا

---

(٢٠) المرجع السابق، ٢/١٤٠.

(٢١) بتصرف من السابق ٢/٢١٤ ـ ٢١٥.

نصارى بالإسم، مع أنهم كانوا على المذهب الأرثوذكسي والمسلمون متفرقون في دول وكيانات لا وزن لهم ولا تأثير على حد قول (لورنس براون) حين أعلن ذلك: إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون بلا وزن ولا تأثير.

والوحدة الإسلامية تجمع آمالهم وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية، كما قال القس سيمون. ولذا فإن كانت الوحدة الاسلامية تكتلاً ضد الاستعمار الأوروبي، ثم استطاع المبشرون أن يظهرواوالأوروبيين في غير مظهر المستعمر، فحينئذ تفقد هذه الوحدة حجة من حججها وسبباً من أسباب وجودها.

أما سبيل التفرقة الإسلامية فهو بالتبشير الذي يحولون به مجاري التفكير بالوحدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل في المسلمين[٢٢].

ولقي الاحتلال الأجنبي للعالم العربي والاسلامي نجاحاً كبيراً للفكر الاستشراقي والتنصيري، حيث تعمقت الفرقة بتوزيعه بين الدول الاستعمارية الكبرى التي قوت من الحركات الاقليمية الانفصالية، وفي مقدمتها المعاهدة السرية الانكليزية الفرنسية سايكس - بيكو ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م التي اتفقت فيها انكلترا وفرنسا على اقتسام الغنائم بما تقيمه من خطوط وهمية.

وهل هناك اقسى من تمزيق البلد الواحد كسوريا مثلاً إلى خمس دويلات، لكل واحدة وزارة مستقلة بها وأصبح كل مواطن يمنح إخلاصه وجهده للقطعة الصغيرة لها[٢٣]؟

إن تجزئة العالم الاسلامي إلى دول مرتبطة بالتغريب، وبإثارة الإقليميات،

---

(٢٢) التبشير والاستعمار ص ٣٦، ٣٧ بتصرف بسيط.

(٢٣) الاتجاهات الوطنية ٢/١٣٦.

وببعث الحضارات القديمة، وبتشجيع اللهجات المحلية، وبتحقير التاريخ العربي الاسلامي، ثم بالانتماءات الفكرية السياسية المتعارضة.

٣ ـ تشويه صورة الإسلام والمسلمين في دعوات وإصدارات مغرضة:

فقد كانت دعوات التنصير أشبه بدعايات طائفية تنال من الإسلام أكثر من الدعوة إلى المسيحية، وهو لهذا يعوض عن جهله وسخافاته بالاستهزاء والتهكم عليه وعلى كل مظهر فيه، ثم يطلب الإذعان والتسليم لوجهة نظره التي لا يرى لغيرها فضلاً أو مزية، كما لا يرى أنها موضع نقاش وحوار، فهي حقائق ثابتة مطردة.

١ ـ فالمسلمون أعداء الصليب وأعداء الديانة الكاثوليكية، وهم جهلة لأنهم يعتقدون تنزيه الله تعالى عن صفات البشر، وأن أحسن ما في اسلامهم مأخوذ من النصرانية، وسائر ما فيه من الوثنية، وانهم لصوص وقتلة ومتأخرون وأن التبشير سيعمل على تمدنهم، وأنهم أفسدوا المرأة واستعبدوها، وهم لا يفهمون الأديان ولا يقدرونها، أما الرسول فهو في تعصبهم، عابد أصنام، كذاب مكة، لم يستطع فهم النصرانية، ولم يكن في خياله سوى صورة مشوهة بنى عليها دينه العربي.

ويتخبطون في الإسلام مثل ما فعلوا في المسلمين ونبيهم فيقولون: إنه تنقصه الروحية ونظام شرعي أكثر منه أخلاقي، وأنه مفروض على المسلمين فرضاً، وأن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً مع كثرة الأخطاء فيه، وأن الاسلام مزيج مشوه من الآراء والمدركات الخاطئة.

يقول نلسن: وأخضع سيف الإسلام شعوب افريقيا وآسيا شعباً بعد شعب.

ويزعم ليفونيان: أن تاريخ الاسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح.

ويقول جب: إن القرآن دعا إلى ضرب المرأة، حتى المرأة الفاضلة تخشى

مثل هذا العقاب، ذلك لأن الاسلام نظام ناقص، والمرأة فيه مستعبدة.

ولم يكتف المنصرون بمثل هذه الدعوات التافهة المغرضة وإنما راحوا يعيبون على الحركات الاسلامية التحررية المعاصرة فالسنوسية التي أرهبت الاستعمار الايطالي، والمهدية التي أقلقت الاستعمار الانكليزي، وينسبون حركاتهم إلى التعصب الاسلامي ضد الثقافة الغربية.

عن الحركة المهدية:

يقول (رشتر)... هذا التعصب الاسلامي الضيق الأفق بكل ما فيه من بغض للثقافة...

ويقول (رايد) عن التبشير في طرابلس... ثم إن ذلك الحاجز العظيم الذي يدعى عادة بالتعصب، وهو ذلك الجدار الشاهق من الشك والاعتزاز بالذات ومن الكره، قد بناه الاسلام حول اتباعه ليحميهم في داخله وليترك المبشر خارجه[٢٤].

وواضح أن تصوير المبشرين للإسلام لم يكن الدعوة إلى المسيحية والعمل على ارتداد المسلمين إلى النصرانية مباشرة، وإنما كان طريقه تشويه الإسلام، ومحاولة إضعاف قيمه، ثم تصوير المسلمين في وضعهم الحالي بصورة مزرية بعيدة عن المستوى الحضاري المعاصر، فالمنصر كولي في كتابه: البحث عن الدين الحق، يصور الإسلام في نشأته عدواً جديداً مبنياً على القوة والتعصب والتساهل في أقدس الأخلاق والسماح لأتباعه بالفجور والسلب...

كما يقول لوستير في: تاريخ فرنسا إن محمداً مؤسس دين المسلمين، أمر أتباعه أن يخضعوا العالم، وأن العرب فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس: أسلموا أو موتوا... وهكذا الإسلام دين السيف وليس دين الإيمان، ودين مادي وليس بروحي[٢٥]...

---

(٢٤) مقتبس من: التبشير والاستعمار ص ٣٩ ـ ٤٤.

(٢٥) رسالة، المبشرون والمستشرقون: د. محمد البهي من ص ٧ ـ ٩.

وكتب أخرى منهجية عامة مثل: قس ونبي: فؤاد أفرام البستاني، و: الاسلام: لامانس اليسوعي، و: الإسلام تحد لعقيدة المبشر زويمر.

٢ ـ ولم يقتصر المنصرون في تشويه الاسلام على النشرات والمقالات والكتب وإنما عمدوا إلى ضغوط مادية ومعنوية وسلكوا سبلاً منحرفة وفاسدة لا تليق بعملهم الروحي.

أ ـ قدموا الرشاوى لإفساد ضمائر الذين يستميلونهم، واتخذوا سماسرة يجلبون لهم المرتدين، وكانوا يدفعون عن كل رأس عشرة قروش ذهباً.

ب ـ **مخالفتهم العقيدة المسيحية**: فقد بدل الكثير منهم خططه التنصيرية، وهم مستعدون لقبول أفكار تخالف عقيدتهم حتى أنهم تسامحوا مع الوثنيين وقالوا: إن الله يتشكل في مظاهر مختلفة، ويتأولون التعبير المسيحي: المسيح ابن الله، تأويلاً روحياً.

ج ـ **التمويه والتضليل**: فالمنصر تشارلس واطسون يقول: يجب أن يظل المبشرون براء كالحمام، ولكن هذا لا يمنعهم أيضاً من أن يكونوا حكماء كالحيات. وزعموا أن العلويين من أحفاد الصليبيين، وأن يطعنوا بالرأسمالية ومصادقة الشيوعيين وإن كانوا غربيين رأسماليين.

د ـ **استغلال الانتداب الأجنبي**: فقد اهتموا بالدول المنتدبة في كل من سوريا ولبنان، وراحوا يخلقون المشاكل الدينية والوطنية بين المواطنين، وتمكن اليسوعيون بمساعدة الفرنسيين أن ينقلوا (٨٠) شخصاً إلى المذهب اللاتيني المسيحي ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣٠[٢٦].

٣ ـ اصدارات استشراقية مشوهة للإسلام: إن الغرض المبطن غالباً في دراسات المستشرقين وحشوها بالأغلاط وتحيزها الصليبي والسياسي والفكري يجعل من (الاستشراق فرقاً وتيارات مختلفة يرتدي جميعها ثوب الموضوعية

---

(٢٦) التبشير والاستعمار، ص ٥٠ ـ ٥٤.

والتجرد والدقة والنزاهة والعلم... ولكنها تخفي حقيقتها على القارىء فلا يتفطن إلى ما يتسم به معظمها من ضعف في التحليل، ونقص في الاطلاع، وتسرع في إطلاق الآراء المسبقة إلى حد أن الكتابات الاستشراقية تعد اليوم عبارة عن خليط من المعلومات الصحيحة والأخطاء الفادحة...[27].

ولذا فإن جل دراساتهم في (المقال) و (الرسالة) و (الكتاب) مشوهة ولا تعبر عن (الحقيقة) في الثقافة والتراجم الاسلامية[28].

ونشير إلى عدد منها سيأتي تفصيل بعضها:

١، ٢ -	ترجمة القرآن، ومعضلة محمد: بلاشير
٣، ٤ -	مذاهب التفسير الاسلامي، الشريعة والعقيدة في الاسلام: جولدزهير
٥ -	عقيدة الاسلام: فنسنك.
٦، ٧، ٨ -	كتب: الاسلام: هر جرونيه، ولامانس، آربري.
٩، ١٠ -	أصول الشعر الجاهلي (مقال)، التطورات المبكرة في الإسلام: مرجليوث
١١، ١٢ -	أصول الفقه الإسلامي، المدخل إلى الفقه الإسلامي: شاخت
١٣ -	تاريخ العرب (مطول) فيليب حتي
١٤ -	دعوة المئذنة: كينيت كراج.
١٥، ١٦ -	الأعياد المحمدية، محاولات في شرح الاسلام المعاصر: فون جرونبادم

---

(٢٧) مناهج المستشرقين، ٢/١٤٠ من مقال د. عبدالوهاب أبو حديبية عن الحياة الاجتماعية كما صورها بعض المستشرقين مع اعتراضنا على بعض عباراته.

(٢٨) انظر جداول بأسمائها في: المستشرقون د/عفيف العقيقي، وموسوعة المستشرقين د/عبدالفتاح بدوي وغيرهما.

١٧ ـ دراسات في اللهجات المحلية:
عدد من المستشرقين الفرنسيين والانكليز[٢٩]
مثل: دودا، النمساوي، و: كولان، الفرنسي ورايفر الانكليزي

ومن المناسب أن نعرض ملخصاً لدراستين استشراقيتين مختلفتي الاتجاه:

أ ـ **كتاب الروح الاسلامية**: ريمون شارل الفرنسي المستشار الكاتب في الشريعة ثلاثين سنة والمدرس بالجامعة والقاضي، والقطب في معرفة أسرار الشريعة. ولكنه مع كتابه مثال على الهذيان وفقدان الموضوعية، وإثارة الضغائن وبث السموم فهو يمثل له بتأثر المجتمع الاسلامي بالفقهية والتعصب والقدرية بسبب انتمائهم للإسلام والتزامهم بتعاليمه[٣٠].

ويرجع الكتاب عدم قدرة المسلمين المزعومة على التقدم والتطور والاختراع والابتكار لأن الفقه بمثابة العقبة أمام الفكر الحر (الخلاق) وأمام إمكانية تقبل المجتمع للتغير والبدع والاكتشافات، بسبب التزامهم بالحرفية القانونية الجامدة الشكلية في القانون التجاري والجزائي ثم يستنبط حلاً وحيداً هو تخليهم عن الإسلام والاقتداء بالغرب، وإذا صعب عليهم هذا فإنه ينصحهم بالبقاء على حالهم. وهذا تسويغ عمليات الفرنسة وتجذيرها في شمالي افريقيا.

ويعرض أيضاً للأسرة المسلمة ويوازنها بالأسرة الفرنسية ويقول: إن خضوع المرأة لزوجها... باق فيها، على عكس المرأة الفرنسية ويبرز مسائل فقهية فردية أو شاذة عن زواج الكهل ببنت رضيع، ونكاح المتعة، ثم يستنتج هو وغيره منها أن المسلمين ينساقون وراء غريزتهم كالبهائم، ويرجع

---

(٢٩) انظر خاصة: الاتجاهات الوطنية ٢/٣٦٤ ـ ٣٦٥ والحاشية، وانظر مقدمة: مستشرقون سياسيون... للمؤلف.
(٣٠) مناهج المستشرقين، ٢/١٤٦.

تحكم الشهوة إلى التهاب الطبيعة. . . ويقول: إن النموذج الأوروبي للحب والعشق سيخلص الحب الإسلامي من بهيميته وخاصة بالمغرب وفي المجتمعات الإسلامية التي سادها الإسلام دين استبدادي. . . ، والديمقراطية الإسلامية مزعومة لأن مصدر السلطة والشرعية يبقى في مستوى الله ، فالله وحده فاعل حر بيده السلطة على الكونين يوزعها كما يشاء[٣١].

وهكذا فقد روج الكتاب إشاعة أن الإسلام وقف حجر عثرة أمام النمو الاقتصادي والاجتماعي، وأنه استسلام في جوهره ومضمونه يسوغ كل التصرفات الفرنسية من غصب للأرض وسلب للحكم وإدماج في الامبراطورية. . . والذنب ملقى على عاتق الاسلام كدين هيأ ذهنيات المسلمين إلى الإساءة إلى مواردهم الطبيعية. . وأنهم غير مؤهلين لأن يستغلوا خيرات بلادهم وأن الوصاية عليهم وحدها كفيلة بالنهوض بهم[٣٢].

ب ـ **كتاب الخلافة**: توماس أرنولد الانكليزي نشره ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م للمرة الأولى، وهو مثال (عكسي) يستنتج منه المؤلف نظام الخلافة الاسلامية من واقع المسلمين. فالأحاديث الموضحة لنظرية الخلافة، في القرآن، يؤكد وضعها لصالح أسرة أو أخرى بقصد بناء نظرية سياسية للخلافة مفصلة على الواقع التاريخي.

وينتهي إلى أمرين: الخلافة حكم استبدادي مطلق، وإلهية المصدر وأن على الرعية الطاعة سواء كان الحاكم عادلاً أم جائراً. ومع هذا فإن السلطة التحكمية الأوتقراطية السابقة للخليفة مقيدة بالخضوع للشريعة الاسلامية متساوياً مع سائر المسلمين لكون هذه الشريعة من مصدر إلهي. ومن هنا فإنه كان من المفروض أن تكون إدارة الدولة (الإسلامية) على انسجام مع أحكام القانون المقدس (الشريعة الاسلامية) ويبدو لي أن نظام الخلافة وما يتضمنه

---

(٣١) المرجع السابق، ١٥٥.

(٣٢) وانظر ردوداً على الشبهات السابقة في: مناهج المستشرقين ٢/١٥٨.

من البيعة وشروط الإمامة ومسئوليات الإمام الدينية والدنيوية وصلاحياته في الحكم الإسلامي وما يتصل بها من أهل الحل والعقد، بعيد التصور في الفكر السياسي الغربي وتطبيقاته في مبدأين: (الشرعية بمعنى الالتزام بالقانون المقيد للسلطة الحاكمة، وبسيادة الشعب المتمثل في المجالس النيابية)[٣٣]..

وإذا ثبت فشل الكثير منها في العالم العربي والغربي بسبب سيطرة الرأسمالية وتمويه أو خداع الناخبين، والتحايل على المواد القانونية، وتكوين المعارضة لاتخاذ القرارات المناسبة للسلطة فإن تحليل (أرنولد) لنظام الخلافة الإسلامية يبعده في نظره عن الفلسفة والإجراءات والمظاهر الغربية الحديثة، وبالتالي فإنه لا بد أن ينظر لها نظرة تاريخية وليست نظرة واقعية أو يمكن تطبيقها في الواقع المعاصر.

على أن (أرنولد) وقع في تصويره للنظرية السياسية للخلافة في خطأ مرده إلى أمرين أولهما: إنه بدأ من تصوير غير صحيح للمضمون الاصطلاحي لعبارة النظرية السياسية، مما أدى به إلى الخلط بين تاريخ واقع الخلافة الاسلامية وبين الخلافة الاسلامية نفسها كنظام سياسي اسلامي، وثانيهما: أنه بعدم تصوره للمضمون الفني للفظتي «الاستبداد» و «التحكم» قد فوت على القارىء إدراك حقيقة نظام الخلافة الجدير بانتسابه إلى الإسلام..[٣٤]. ومعلوم أن «التحكم» يعني عدم التزام الحاكمين بقواعد النظام القانوني للدولة، و «الاستبداد» يجاوز ذلك إلى الخروج على القيم الأساسية والأهداف العليا للمجتمع وهي مضامين بعيدة عن نظام الخلافة الاسلامية التي قال عنها: إن النظرية السياسية للخلافة الاسلامية قد صيغت كسند للاستبداد والتحكم..[٣٥]. فإن التزام الخليفة المسلم بأحكام الشريعة وبالقيم الأساسية

---

(٣٣) المرجع السابق، ١١٩٨/٢ من مقال: بحث في النظام السياسي الاسلامي رداً على المستشرق الانكليزي أرنولد. د/محمد طه بدوي.

(٣٤) المرجع السابق، ١٢١.

(٣٥) المرجع السابق، ١٢٠.

والأهداف العليا، يقطع بسلامة صلاحيتها.

وهكذا فإن تشويه الإسلام في العقيدة والعبادة والأخلاق والاجتماع والنظم والتاريخ والآداب والعلوم والفنون للمسلمين ولغيرهم يقلل من أهمية الإسلام كدين ومنهج، والثقافة الاسلامية كتراث وحضارة، مما يعكس آثاراً خطيرة في واقع المسلمين وعلاقاتهم بالمدنية الغربية.

ضغوط الغزو الفكري:

تتنوع ممارسات الغزو المادية والمعنوية في أساليب شتى من الإغراء المزيف. والضغوط المادية والنفسية والعلمية والاجتماعية، لمعالجة القضايا الفكرية، والأحوال المرضية، والأوضاع المعاشية والاجتماعية. ولا نريد هنا تتبع أساليب هذه الممارسات الغازية التي كثر الحديث عنها، وإنما يعنينا إبراز **(العوامل الضاغطة) التي استخدمها الغزو في نشاطاته المترامية الأطراف. وذلك لـ (تحجيم) قضية (خطيرة) و (عريضة) يثيرها الغزو ومن ثم** لوضعها في إطارها الصحيح، والقضية هي: رواج أعماله، ونجاح مخططاته، وسريان قيمه وأفكاره إلى غير حد. ثم لـ (تحرير) هذه القضية من الهالة (الدعائية) الرخيصة التي لا تقوم على حقيقة دينية أو علمية، كما لا تبنى على (رعاية) انسانية واجتماعية، ولا تنطلق أصلاً من (دوافع) نظيفة ونبيلة.

ولكنها على أية حال بتعددها وتنوعها وتآزرها وهجماتها المدروسة نفسياً وفكرياً واجتماعياً تولد مشاعر الضعة والتحقير والإذلال النفسي، تتحكم في ذاتية المقهور حتى يتوهم أو (يقتنع) أنه أفرغ موهبة، وأدنى مقدرة، ينعكس كل ذلك في أعمال مترددة وسلوكيات تافهة، مما يفقده مقومات شخصيته أو ضياعها أو ذوبانها.

وغالباً ما تولد شراسة البؤس، وضراوة الفقر والمرض مثل هذه الشخصية على اختلاف في نسبة الضياع والذوبان.

وقلما تسلم شخصية من شرورها إذا مارست التربية عليها **ضغوطاً** تعليمية تربوية مقترنة بضغوط الطبيعة والبيئة الشحيحة **القاسية**، مثل ما كان يمارسه التنصير في مختلف مؤسساته التعليمية والصحية والاجتماعية. ثم إن إخضاع فكر المسلمين غير المحصن، وبخاصة الطبقة المثقفة فيهم إلى الضغوط الفكرية الاستشراقية المصطنعة، مستغلة ضحالة التثقيف الشخصي، أو بساطة المعرفة بالثقافة الإسلامية الأصيلة حقق خذلان هذا الفكر، وقصوره عن الإبداع، وتبعيته التغريبية.

فقد مارس الاستشراق ضغوطاً فكرية بحثية توهم المسلمين بتفوق في المنهجية، وسعة في الرجوع إلى مخطوطات نادرة، بالإضافة إلى تضلعه باللغات السامية والآرية. وربما كان أشدها نفوذاً وأثراً دعم الاستعمار والتنصير المتبادل، ووصول المستشرقين إلى أعلى المؤسسات الفكرية في العالم الإسلامي فأصبحوا جامعيين ومجمعيين وخبراء وسياسيين.

ومن الخذلان النفسي خنوع المسلمين للاستعمار القديم والحديث واستسلامهم إلى حين لضغوطه الفكرية والاقتصادية والنفوذية والاعلامية.

فقد طرح الاستعمار عن طريق التنصير والاستشراق أيضاً مبادئه التي توهم بالمدنية والانسانية، وأوجد **جميعات** ومؤسسات تربط الدول المغلوبة بالأم، بعد نشر لغته وتاريخه وثقافته، **فعزفت** هذه الدول عن الخوض في بناء مستقبلها الثقافي والاجتماعي، **فضاعت** شخصيتها **وفقدت مقومات** استقلالها.
والضغوط الغازية ثلاثية الأنواع: **فهي تنصيرية، وفكرية، واستعمارية، وخاصتها الكبرى أنها متآزرة فيما بينها متعاونة في الشخصيات والأعمال والخطط.**

أولاً: الضغوط التنصيرية:

فقد تعرض المسلمون للضغوط التنصيرية في حاجات الإنسان والمسلم خاصة: الطبية والمعاشية والاجتماعية والمعرفية واستغلوها أسوأ استغلال، ولم

يقتصر على جعل هذه وسيلة للتنصير وحسب وإنما حاول نشرها بضغوط بالغة التأثير.

ثم إنها بتنوعها من الإلزام القولي والعملي والحالي، ثم بابتكار مزيد من التصرفات المدروسة يمكنها أن تثير الأحقاد حيناً، ولكنها ستلجىء المضطر إلى الإذعان والخنوع.

يضاف إلى ذلك، تعدد الشخصيات التنصيرية ضمن وحدة الأغراض والأساليب في إمكانات مادية هائلة وأدوات متطورة ومشاريع عمرانية تسلب الألباب وتخدع النفوس.

إن الضغوط التنصيرية من مصادر يفترض فيها نشر المحبة والتسامح والخدمة الانسانية منطلقة من الصفاء النفسي والروحية المبرأة، ويمكنها أن تزيد من شدة الضغوط الممارسة في نفسيات المقهورين، ولكنه لا يمكنها أن تحسن الصورة التي تبدو فيها مسحات الفضيلة الانسانية.

١ ـ **التطبيب**:[٣٦] وهو بصورته الإنسانية الظاهرة مجال هام في الاستغلال التنصيري، وقد اتخذ اشكالاً متعددة:

أ ـ **زيارة الطبيب مريضه**: فقد (يفضل موريسون أن يزور الطبيب المبشر المريض المسلم حتى يكون هذا المريض واسطة لجمع عدد غفير من المسلمين عنده في انتظار زيارة الطبيب، وحينئذ تكون الفرصة سانحة حتى يبشر هذا الطبيب بين أكبر عدد ممكن من المسلمين في القرى الكثيرة). وقريب منه: اعلان المبشرين بمجيء الأطباء قبل قدومهم بوقت طويل حتى يتجمع المرضى منتظرين، بينما يقوم المبشرون بعملهم، متغافلين عن الآلام الانسانية.

ب ـ **وعظ الطبيب المنصر**: وهو اسلوب يقوم به في المستوصف أو

---

(٣٦) انظر فصل: التطبيب حيلة للتبشير من: التبشير والاستعمار ص ٥٨.

المستشفى (فحينئذ يستطيع الطبيب أن يجد في غرفة الاستشارة أو في العراء فرصاً مناسبة لينثر بذور التبشير في قلوب المرضى، وفي هذه الحال يكون كل من دخل المستشفى أو اتى إلى المستوصف قد تلقى من طبيبه المبشر تلك الكرازة التي توجهه نحو المسيح).

ج - **ملاحقة الناقهين**: ويغتنم الطبيب علاقته بمريضه الناقه لتثبيت ما بدأه من الوعظ الكنسي ويبذل من أجل ذلك جهوداً فردية أو مع الآخرين (فقد كان أطباء دوارون يزورون القرى ليلاحقوا الناقهين الراجعين إلى قراهم فيكرزوا فيهم).

د - **خداع المرضى**: فحين أنشأ نفر منهم مستوصفاً في بلدة الناصرة في السودان كانوا لا يعالجون المريض إلّا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح، وفي الحبشة كانت المعالجة لا تبدأ قبل أن يركع المرضى ويسألوا المسيح أن يشفيهم، وفي بلدة الشيخ عثمان باليمن لا يبدأون بعلاج المرضى إلّا بعد أن يكرزوا عليهم، وقد مات طفل سوداني من طول الطريق والانتظار.

تقول هاريس: يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرز لهم بالإنجيل، إياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق.

هـ - **استغلال الممرضات والطبيبات**: فكانوا يرسلون (الطبيبات المبشرات إلى البيوت والقرى... حتى الممرضات فإن المبشرين يرون أن الممرضة لا تعمل على تخفيف الألم عن المرضى فقط بل تحمل إليهم أيضاً رسالة المسيح، ولذلك حرص المبشرون على إنشاء مدارس للتمريض في ايران خاصة).

وتؤكد الصور الاستغلالية السابقة ما كان يكتبه المنصرون وأحياناً الرهبان المستشرقون ويبتكرونه من صور أخرى ملائمة.

فقـد كتب س. أ. موريسـون في مجلة العالم الاسـلامي النالتبشيريـة **يقول**: نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الأساسية من أعمال التنصير بين المـرضى الخارجين في المستشفيات أن تأتي بهم إلى المعرفة المنقـذة، معرفـة ربنا يسـوع المسيح، وأن ندخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية . . .

وكذلك كتاب: ارساليـات التبشير الـطبية: جـون لو (١٣١٤هـ - ١٨٩٦م نيويورك) المحشو بصور الاستغلال الطبي.

٢ ـ **التعليم**[٣٧]: وهو في منهجه الديني الكنسي أو في منهجه العلماني لا يقل أهمية عن التطبيب إن لم يزد عليه، فقـد توسعت نشـاطات التنصـير في إنشاء معاهده لجميع المراحل ولكل من الطلاب والطالبات.

أ ـ **ففي الرياض يقول جون موط**: يجب أن نؤكد في جميع ميادين التبشـير جـانب العمل بـين الصغار وللصغـار، وبينما يبـدو مثل هـذا العمـل وكـأنـه غـيرية، تـرانا مقتنعـين لأسباب مختلفـة، بأن نجعله عمـدة عملنـا في البـلاد الإسلامية، ان الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً، من أجل ذلـك يجب أن يحمـل الأطفال الصغـار إلى المسيح قبـل بلوغهم الرشـد، وقبل أن تـأخذ طباعهم أشكالها الإسلامية، إن إختبار الارساليات في الجزائر فيما يتعلق بهذا الأمر، وكما ظهر من بحوث مؤتمر شمالي أفريقيا، اختبار جديد ومقنع.

وواضح أن التعليم في رياض الأطفال يرمي إلى غرضين: فهو يفتح بـاب التنصير واسعاً للتأثير في عقول الأطفال **الغضّة**، ثم يجعل من المشرفـين عليه أكثر صلة بأهل الرياض.

وربمـا تمكنت صـورة الاستغـلال في (الـريـاض) أكـثر فـأكـثر في (تعليم البنات)، فقد أقام التنصير أول مدرسة له للبنات في الأمـبراطوريـة العثمانيـة عام ١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م في بيروت، ثم فتحوا مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسوريا وفي الهند والأفغان. . .

---

(٣٧) انظر فصلي التعليم في: التبشير والاستعمار السابق.

وإذا كان حرص التنصير على إنشاء مدارس للبنات فإنه أكثر حرصاً على أن تكون مدارس داخلية فقد قالوا: إن التبشير يكون أتم حبكاً في مدارس البنات الداخلية (صغيرات وكبيرات) لما يكون فيها من الأحوال المواتية والفرص **السانحة**، وبخاصة إذا اجتمع بنات من أسر معروفة. تقول المبشرة أناميليغان: في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي، وليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة.

ب ـ **وفي المراحل الأخرى**: كان التعليم الابتدائي مثلاً (وسيلة ثمينة للتبشير **لأنه يمكن المبشرين** من أن يثبتوا أقدامهم في القرى تحت ستار التعليم الابتدائي الذي تحتاج إليه القرى. . . ثم إن للمدارس الابتدائية فضلاً على الكليات لأنها تمكن المبشر من أن يصل إلى **العقول** وهي لا تزال تتأثر بما يلقى إليها).

(ويفتخر جب، بأن مجموع عدد التلاميذ في المدارس الأمريكية **البروتستانتية** عام ١٣٠٩هـ ـ ١٨٩١م يبلغ (٧١١٧) فإذا أضيف إليهم عدد الطلاب في سائر المدارس البروتستانتية كان ثمة (١٥) ألف طفل في قبضة التعليم الانجليلي، وبعد (١٨) سنة أي عام ١٣٢٨هـ ـ ١٩٠٩م كان للأمريكان وحدهم (١٧٤) مدرسة في سوريا وحدها منثورة في المدن والقرى. . .).

أما التعليم العالي فقد استغل التنصير تفوق القدرات عند النابهين من الطلاب (ليؤثروا في قادة الرأي. . . وعلى هذا الأساس **أوجد** المبشرون البروتستانت كلية في بيروت عام ١٢٧٩هـ ـ ١٨٦٢م وجعلوا على رأسها المحترم دانيال **بلس**، **هذه** الكلية أصبحت فيما بعد: الكلية السورية **الإنجيلية**، ثم هي اليوم الجامعة الأمريكية في بيروت. . . وأرادوا أن يكون ثمة كلية في القاهرة إلى جانب الأزهر بعد كلية روبرت في استنبول،

وللفرنسيين كلية في لاهور إلى جانب الجامعة اليسوعية في بيروت، كما أن للإنكليز كلية غوردن في الخرطوم ١٣٢١هـ /١٩٠٣م.

ويمكن تلخيص بعض صور الاستغلال هنا:

١ ـ أعطى البابا ليون الثالث عشر اليسوعيين في سوريا عام ١٢٩٩هـ/١٨٨١م حق منح الشهادات بأنواعها.

٢ ـ في الكلية الانكليزية في القدس طلاب مسلمون ونصارى ويهود تبشر فيهم وتنصرهم، والمقصودون أولاً المسلمون.

٣ ـ في الكلية السورية الانجيلية كان الطلاب المسلمون يجبرون على دخول الكنيسة وعلى حضور دروس التوراة ثم أعفوا من دخول الكنيسة. وفي سنة ١٣٣١هـ ـ ١٩١٢م كان على جميع الطلاب أن يحضروا قداس الوعظ يوم الأحد... وحتى عام ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٢م كانت الجامعة الأمريكية لا تزال تصرّ على تعليم التوراة باسمه الصريح أو تحت اسم درس الأخلاق.

٤ ـ يستطيع التنصير أن يستغل ظروفاً أسرية واجتماعية عن طريق التعليم لتمتين الصلة بأولياء الطلاب، إلى جانب صلاتهم القوية بقادة الرأي والحكم طلابهم السابقين كما أشرت إلى ذلك.

وسبق قول بنروز وهو يتسلم رئاسة الجامعة الأمريكية عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨ في أهمية التعليم الذي استغله المبشرون الأمريكيون.

٥ ـ حتى إن تعليم اللغة الانكليزية كان يقصد منه إفساد الطلاب خلقياً وزعزعة يقينهم دينياً. يقول المبشر تكلي: يجب أن نشجع إنشاء المدارس، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي، إن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما **تعلموا اللغة الانكليزية**...

٦ ـ ويستغلون رغبة الطلاب المسلمين في الخارج فإن ذلك (يكسبهم شيئاً من أساليب الحياة الغربية ومن الاتجاه الغربي في التفكير والعلم

والسلوك. . . ولذلك حسناته وسيئاته، ولكن المبشرين يريدون أن يفيدوا من دراسة الطلاب الشرقيين أمراً آخر، إنهم يريدون أن يجعلوا منهم نصارى **بالفعل** أو ممالئين للنصرانية ويدخل في هذا الباب زواجهم بالغربيات. . . وتطيب هذه الفكرة للمستشرق المبشر لويس ماسينون فيدبج المقالات الطوال ويقول لقومه: إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يلوّنوا بالمدنية المسيحية.

٣ ـ في الظروف المعاشية القاسية:

كشف الكاتب الاسلامي الماليزي (فضل الله وبلموت) ضمن احصائيات أصدرها مؤخراً أن ٧٧٪ من اجمالي اللاجئين في العالم مسلمون، كما كشف عن المحنة التي يعيشها مسلمو جنوب شرقي آسيا فقال: إن أكثر من مليون في كل من بورما والفليبين وتايلاند أصبحوا من اللاجئين المشردين، وأكد الكاتب أن مسلمي هذه الدول يجبرون من قبل سلطاتهم على مغادرة أراضيهم التي عاشوا عليها أجيالاً من الزمن. . .

وهؤلاء اللاجئون المشردون وقعوا تحت ضغوط عدة: ربما كان من أقساها البؤس والفاقة التي كانت تلازم حياتهم وحياة أسرهم، إلى جانب الضغوط التعليمية والصحية التي سبق الكلام عليها.

١ ـ في آسيا:

١ ـ تفيد المعلومات الواردة من (بنغلادش) أن حوالى مليون مسلم قد ارتدوا عن الإسلام واعتنقوا دين المنصرين، وذلك خلال الأعوام الخمسة عشر الماضية، ونسبت صحيفة (سانجياد) التي تصدر في (داكا) إلى (محمد عبد السبحان) المدير العام للمؤسسة الاسلامية التابعة للدولة قوله: إن الفقر المدقع والأمية وانعدام الرعاية الطبية تمثل بعض أسباب هذا التحول، وأشار إلى أن بعض مسلمي المناطق الفقيرة يغيرون عقيدتهم بسبب وجود منشآت أفضل للتعليم والرعاية الطبية تتولى توفيرها نحو (٤٠٠) بعثة تنصيرية.

وطلب د. ميلتون كوك مدير قسم بنغلادش لمنظمة الرؤية العالمية، من الكنائس أن ترشح أفضل العائلات لديهم، لمهمة غير عادية، وهي العيش بين جماعات غير مسيحية في القرى التي نكبت بالفيضانات حيث طلبت الحكومة من هذه المنظمة أن تعمل... وقد استجاب لنداء المنظمة أكثر من العدد المطلوب فتقدمت (٦٠) عائلة انتقي منهم (٢٥) عائلة من الشباب، حيث بنوا بيوتاً من القش لإقامتهم في (شامبارا) ولم يعترض أحد لكونهم منظمة مسيحية وهي تساعد حوالى (٢٠٠٠) عائلة منكوبة بالفيضانات[٣٨]...

٢ ـ وإذا كانت الموارد الطبيعية تشح على المسلمين أو تنعدم تماماً في بعض الأحيان ويستغلها المنصرون فإن الأقليات الاسلامية في مناطق أخرى بآسيا تحرم من أموالها وتمنع من مواردها بشتى الأساليب. ففي الهند مثلاً تبلغ الأقلية المسلمة (١٠٠) مليون مسلم أي $\frac{١}{٦}$ العدد الاجمالي لسكان القارة الهندية ويتعرض الكثيرون إلى أحداث شغب مميتة تؤدي إلى أضرار جسيمة نتيجة الاضطهاد المخطط الذي يهدف إلى قتل المسلمين وإحراق بيوتهم لإضعاف اقتصادياتهم ونهب متاجرهم... وقد نتج عن سوء أحوال المسلمين العديد من المشكلات من أبرزها المشكلات الاقتصادية.

فقد تعرض المسلمون في مدينة (جمشديور) إلى عمليات إبادة نتيجة مؤامرة تمت في سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٨م حيث استولى قطّاع الطرق على المدينة، وتعرض المسلمون لمدة ثلاثة أيام بها لحركة إبادة وتدمير بعلم السلطات الحاكمة، فقام الهندوس بمهاجمة أحياء المسلمين بالمدينة وقتلوا حوالى (ألف) منهم وجرحوا أكثر من (١٥٠٠) مسلم، ودمرت منازل قدرت قيمتها بـ ٣ ملايين دولار...[٣٩].

---

(٣٨) مجلة: رابطة العالم الإسلامي العدد ٨ السنة ٢٣، وانظر: الأقليات المسلمة في افريقيا العدد ٤٢ ص ٣٢.

(٣٩) الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا، العدد ٢٣، ص ٢١٧، ٢٢٥، ٢٢٧.

ومن المؤكد هنا أن الهندوس قد شحنوا بعواطف الكراهية والتنافر بأسلوب تنصيري من الاستعمار البريطاني الذي مكن الخلاف فيما بين الطرفين الاسلامي والهندوسي. وبالإضافة إلى هذا فإن (الهندوس درسوا طريقة القضاء على المسلمين في اسبانيا في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ليطبقوا نفس الأساليب في الهند... ويمكن مقارنة التطورات (في الأندلس) بما حدث في الهند بعد التقسيم عام ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م حيث تتابع الهجوم على المسلمين وممتلكاتهم[٤٠]...

٢ - في افريقيا[٤١]:

ففي أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عملت أكثر من (١٥) كنيسة أوروبية محتكرة المجال الصحي إلى جانب المجالات التعليمية والاجتماعية والسياسية، ثم تفرعت ونشطت اضعاف ذلك بإشراف (مجلس الكنائس العالمية) ويتوقع التنصير أن تصبح قارة أفريقيا والبالغة (٤٥٠) مليون نسمة قارة مسيحية في سنة (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

وعلى الرغم من أن الأغلبية السكانية مسلمون حيث يبلغون (٢٣٥) مليوناً[٤٢] فإن نشاط التنصير لا يقف عن حد، مستغلاً المعاناة المريرة التي يعيشها الافريقيون من الفقر والجهل والمجاعة والتخلف. فقد بلغت تراجم الإنجيل للغات واللهجات الأفريقية (٧٠٠) لهجة، منها أكثر من (١٥) ترجمة له بلهجات جنوب السودان وجبال النوبة، وما زالت هذه الترجمات تعدل وتنقح لتمريره إلى المسلمين.

ويزداد التنصير ضراوة تحت مظلة المعونات الاستعمارية الأوروبية في تنصير

---

(٤٠) مجلة الرابطة، العدد الأول السنة ٢٤.

(٤١) جريدة المدينة (الأربعاء) العدد ٦٤.

(٤٢) في الأقليات المسلمة ج ٢، العدد ٤٢ أن عدد المسلمين ٢٤١,٤ مليون من أصل ٤٦٦,٩ مليون سكان أفريقيا أي بنسبة ٥١,٧٪ من المسلمين.

عشرات الملايين من الوثنيين بدعم من الهيئات والمنظمات المسيحية العالمية، حيث أخذت في بناء الكنائس وتشييد المدارس وإقامة المستشفيات واستغلال الجفاف وحالات البؤس.

١ ـ **في الصومال**: وهو البلد المسلم ٩٩٪ منه حيث يزيد عدد سكانه عن (٤,٥) مليون نسمة، لم ينج من النشاط التبشيري على الرغم من حداثة استقلاله عن الاستعمار البريطاني عام ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.

فقد (أحيل طلب التبنّي المقدم بتاريخ ١٤٠١/١/٢٧هـ ـ ١٩٨٠/٨/٢٩م من قبل السيد والسيدة: سبي دو جارين، البلجيكي الجنسية، ووكيلهم المحامي الدكتور محمد راجي محمد إلى محكمة منطقة مقديشو. . . وبعد الإطلاع على قانون الأسرة الصومالية. . . أصدرت المحكمة حكمها بالموافقة على الطلب والمتعلق بتبني(٣٠,٩٠٣)طفل صومالي فقد وافقت المحكمة، وصدقت على اعتبار الشخصين المذكورين، الوالدين المسؤولين عن الأطفال من تاريخ ١٤٠٢/٦/٢٣هـ ـ ١٩٨١/٤/٨م.

وربما كان أبسط الدلائل في الخبر المؤلم هو عجز أولياء الأطفال عن إعالتهم، وكذلك عجز أولياء الأمور عن إيوائهم وغفلة المسلمين في العالم عن مسئولياتهم.

والدلالة البعيدة المدى هي صهر هذه البراعم الإسلامية في العمل التنصيري قوة داعمة كبرى لنشاطه في المستقبل القريب والبعيد.

ولكن الدلالة الخفية تلوح في السرعة المذهلة التي تمت فيها الموافقة على التبني الجماعي **المغرض** الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ، حيث إنه لم يزد على خمسة أشهر.

وقبل هذا وذاك فإن (التبني) طلباً وموافقة ومعاملة مما أبطله الإسلام.

٢ ـ **الفولاني**: وهي قبيلة نيجيرية يربو عدد سكانها على (٧) ملايين نسمة من أصل ما يزيد على (٧٧) **مليون** نسمة سكان نيجيريا التي تبلغ نسبة

المسلمين فيها ٥٦٪ أي ما يزيد عن (٤٣) مليون مسلم.

والمسلمون هناك عموماً يتعرضون لضغوط كنسية وإرساليات تستغل الأحوال المناخية القاسية، والظروف الصحية السيئة.

وقبيلة (الفولاني) الفقيرة التي بلغ فيها الجهل والتخلف هي موضع اهتمام التنصير الأهلي والخارجي معاً، فقد جاء تقرير عن **حملة** ١٩٨١ أن لجنة التبشير التابعة لـ (س. ر. س. ن) عينت (١١) مبشراً جديداً بناءً على طلبات تلقتها اللجنة من الأهالي كما يقول التقرير.

وفي قرية (جكواي) ألقى طبيب من الأهالي حديثاً مؤثراً أعلن فيه قبوله للمسيحية، وأصبح عدد المعتنقين للمسيحية (٢٨) في شهر يولية.

وعين مبشر جوال على دراجته النارية في المناطق الرعوية. وكان مجموع التبرعات من الأهالي الفقراء (٦٧٩٥) دولار. ويخطط التبشير إلى جعل المبشرين دائمين في القرى السابقة والجديدة، وإلى اقتناء قارب بخاري للانتقال من ساحل إلى ساحل، وزيادة المرتبات إلى أكثر من (٢,٥) مليون دولار بمعدل (١,٥) الف للبشر الواحد...)[٤٢].

ومن الدلالات الواضحة: مشاركة الأهالي البائسين بجزء من أموالهم لدعم النشاط التنصيري، ودفعهم إلى القيام بهذا النشاط شخصياً بحماسة حيث إنهم أقدر على الاختلاط بقومهم، والتخطيط التنصيري للمستقبل القريب...

أما الدلالة الأوضح فهي تعثر النجاحات التنصيرية بسبب نفور الإنسان الافريقي في فطرته عن قبول الأشكال الكنسية الوثنية ومعارفها الغامضة، وهي دلالة تلقي بمسؤوليات اسلامية جسيمة في العمل للإسلام قولاً وفعلاً.

٣ ـ مسلمو موزمبيق: ويبلغون ٥٠٪ من مجموع السكان الذين يزيدون

(٤٢) مقتبس صحيفة الجزيرة العدد ٧٤٢٨.

على (١٢) مليون نسمة. و (يعاني المسلمون من التخلف وانخفاض المستوى، وضعف التأهيل المهني، لذا يهاجر العديد منهم إلى الدول المجاورة للعمل في الحرف الشاقة، كما يعاني المسلمون من نفوذ إسرائيل الاقتصادي في المنطقة، لا سيما في الأقطار التي يهاجر إليها العمال من موزمبيق، كما يعاني المسلمون فيها من رواسب التنصير في ظل الاستعمار البرتغالي وبعده، فلقد باشر البرتغاليون عدة أساليب للقضاء على الاسلام في موزمبيق منها: استخدام القوة العسكرية ضد المسلمين وتعطيل المدارس الاسلامية، ومنع استعمال اللغة العربية...)[٤٣].

وواضح هنا أن الاستعمار البرتغالي الكاثوليكي مارس ضغوطاً عسكرية وفكرية على المسلمين غير آبه لتشرد رجاله بسبب ضراوة الطبيعة والاستعمار معاً، ثم استغلال اليهود السوق الاقتصادية فيها وهم يتآزرون مع الاستعمار الكنسي البرتغالي من أجل اخضاع المسلمين إلى النفوذ الأجنبي، تماماً مثل ما كان يحدث من تآزر الماركسية مع التنصير في أثيوبيا المسلمة، وكما يحدث من التآزر بين الماركسية والأمريكية في جنوب السودان.

٤ - **في الميادين الاجتماعية**: إن امتداد الاستعمار العسكري الطويل في البلاد الاسلامية، وإخضاعها إلى نفوذه بعد استقلالها، **واستخدامه** القوى التنصيرية لتثبيت نفوذه فيها يعقد المشكلات الاجتماعية التي **يظفر** الاستعمار التنصيري **منها بأوفى نصيب من النجاح المتزايد**.

ولا ريب أن معاول الهدم الاجتماعي من البؤس والتخلف والجهل وضراوة المعاناة نتيجة الاستعمار وانحراف أخلاقيات المسلمين تفسح مجالات أوسع ونشاطات أكثر في الاستغلال **التنصيري، إلى جانب ما تحدثه من** أزمات وتصدعات في البنية الاجتماعية.

أولاً - في الأقليات الاسلامية: إن الدراسات الميدانية للأقليات في آسيا

(٤٣) الأقليات المسلمة ١٤٥/٤٢.

وافريقيا خاصة تظهر الروح الانفصالية السائدة في الوسط الاجتماعي العام. حيث إن الأقليات (تتجنب الاختلاط لأسباب منها: الإلحاد، والتحرركشأن الأقليات المسلمة في أوروبا الغربية، أو بسبب انخفاض مستوى دخولها في هذه المجتمعات، فمعظم الأقليات من العمال المهاجرين وهؤلاء يبحثون عن الأحياء الفقيرة لانخفاض تكاليف الحياة فيها، كما أن الترابط بين أفراد هذه الأقليات غير منظم، ومعظمهم من الأميين. لذا فثقافتهم الدينية محدودة...)[٤٤].

١ ـ ففي استغلال الجهل السائد كتب بنيامين ماراي مقالاً في مجلة (العالم الاسلامي) بعنوان: شمالي نيجيريا ميدان للتبشير، استعرض فيه حالة تلك البلاد وما هي عليه من التأخر العلمي على الأخص، إذ إن الذين يحسنون القراءة والكتابة، أو شيئاً من الكتابة فقط لا يتجاوزون ٢,٥٪ ثم قال: وهذا يتيح فرصة عظيمة للتعليم التبشيري المسيحي.
والجهل ليس أمية شائعة بين الأفراد وحسب وإنما هو عامية مستحكمة فيهم يشمل المعرفة العملية والمهن التي يحتاجون إليها قواماً لمعاشهم، والأعمال التي يكسبون رزقهم منها ليعيشوا نمطاً بسيطاً من الحياة.

٢ ـ وفي التمزق الاجتماعيماينبه إلى الانتماءات المذهبية والسياسية التي تفرق بين طوائف الأقليات. ومنها مشكلات الأسرة التي تبدو بخضوعها إلى التقاليد البائدة مثل: حرمان المرأة من اختيار زوجها، وزواج الشغار، وتعدد الزوجات غير المحدود، وإهمال تربية الأولاد، واستفحال الخصومات بين الأقارب بعضهم مع بعض.

٣ ـ فقدان الشعور بوحدة اجتماعية منظمة ممثلة في أجهزة الحكم، فقد استغل الحكام الفرقة في الأقلية المسلمة فأهمل تمثيل أفرادها للمطالبة بضرورات الحياة وحرمت كثيراً من حقوقها المدنية والسياسية

---

(٤٤) الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا ٢٣/١٨.

والاجتماعية، كما حرمت من المطالبة بحق تقرير مصيرها في كيان اسلامي مستقل. وهذا ما حدث في الفليبين...

٤ - وربما كان من أقسى أساليب الاستغلال الإنساني والإجتماعي معاً احتراف صناعة الرقيق في افريقيا وترويجها على نطاق قل نظيره في التاريخ.

ودور التنصير خاصة في التعامل مع الرق ذو ثلاث شعب:

أ - **التعامل الخفي أو غير المباشر**: فمن المحتمل ألّا تمتد يد التنصير غالباً إلى أسواق النخاسة مباشرة، فيكون طرفاً ظاهراً في المتبايعين، ولكنه بإجازته لأسياده المستعمرين وبتشجيعه على استعباد الانسان، وبإعلامه عن فضل التمدن الغربي، وحضارة تصرفاته، ومنها استرقاق الإفريقي يعد مساهمة في عملية الإذلال الإنساني في أسلوب كنسي (فقد كانت الكنيسة بصفة عامة تشجع على اعتناق العبيد، وكان هناك كثير من العبيد التابعين لرجال الكنيسة وكثيرون آخرون تمتلكهم الكنيسة نفسها...)(٤٥).

ب - **مساهمة الكنيسة في الإثراء الرقي**: فقد عمدت إلى اقتناء الرقيق وبيعه بأساليب شتى، حيث (كانت الكنيسة تحصل على الضريبة على شكل رؤوس من الرقيق تبيعهم في الأسواق وتمول بهم مشاريعها الدينية...)(٤٦) في حفل كنسي كبير يعلنون عنه وتحت رعاية الأسقف.

ج - **الافتراء على المسلمين**: إن ما يزيد على(٨٢) مليوناً من الزنوج الافريقيين في العالم الجديد وحده يفسر تهافت الغربيين والأمريكيين

---

(٤٥) الموسوعة العربية الميسرة.

(٤٦) الأقليات ٢٤/٤٢.

على الاسترقاق وبخاصة البرتغال والانكليز والاسبان، بينما كانت الكنيسة تلصق تجارة الرق العالمية بالمسلمين كدعوى مضادة للحقيقة الواقعية.

وهكذا استكملت الكنيسة حلقات الاستغلال الانساني فكانت تدعم تجارته من غينيا، وناميا، وساوتومي، وسيراليون، وساحل الذهب، وزائير، وموزمبيق وغيرها من المقاطعات الافريقية التي كانت ضمن النفوذ الكنسي. ولا ريب أن من أبشع الأثمان للأرقاء مقايضتها بالخمور التي أدخلها الأوروبيون إلى القارة السوداء تحت سمع التنصير وبصره.

ومن ناحية ثانية: فإن التدخل الكنسي بدا ضعيفاً في ترويج تجارة الرقيق في آسيا، وذلك على الرغم من استمراره في مقاطعات واسعة في آسيا الوسطى، وأجزاء من الصين بعد إلغائه في أمريكا على يد ابراهام لنكولن ١٢٨٠هـ - ١٨٦٠م.

ثانيا - في البلاد الاسلامية:

وإذا استغل التنصير بدعم من الاستعمار وجهاز الحكم العام الأقليات الاسلامية بسبب قلة عددها وتوزعها **وتخلفها**، فإن التنصير لم يأل جهداً في اغتنام أثمن الفرص وأحياناً أقساها وأشدها التواءً وانحرافاً ما دام الاستعمار يدعمه، والمسلمون متغافلون عنه.

١ - **استغلال المرأة المحافظة والمريضة**: فمن المعروف حرص التنصير على العنصر النسائي عموماً فتاة أو أماً لما له من أهمية بالغة في بناء الخلية الاجتماعية (الأسرة المسلمة). ومن هذا الحرص فإن المنصرين (وجهوا اهتمامهم إلى التأثير عليها وجعلوا يبشرون في مستشفيات النساء وفي المستوصفات، وكذلك أرسلوا الطبيبات المبشرات إلى البيوت والقرى للاتصال مباشرة بالنساء واستخدام نفوذ المرأة في الوصول إلى أهدافهم التي يزعمون أنها نبيلة، ولكنها لا تنكشف دائماً الا عن سعي لبسط نفوذ سياسي استعماري) النشير: ٦٤.

٢ ـ **التمويه على الأميين**: فالتنصير يتجه إلى العامة حيث يمكن أن تنطلي عليهم جهالات الكنسيين وضلالاتهم طالما أنهم لم يتحصنوا بالحقائق الاسلامية. (ولقد عد المبشرون ذلك صعوبة بالغة ثم تفتقت قريحتهم في الاتصال الشخصي بالأميين، وأن يبدأ المبشر معهم على مقام عيسى عليه السلام في القرآن الكريم وأنه من روح الله، أو يقول عنه: حضرة عيسى، كما يقال في الهند، وعلى المبشر أن يقول أمام الأميين: القرآن الكريم. وأن يذكر الشفاعة والجنة وما إلى ذلك من الألفاظ الإسلامية استمالة للسامعين الأميين، فإذا وثق من آذانهم صب فيها تبشيره). وهو أسلوب كان يفضله المستشرق الفرنسي اماسينون، باعتباره راعياً للكثلكة الشرقية.

ولم يكتف التنصير بالوعظ الملتوي وإنما عمد إلى إنشاء مراكز له تشبه في مظهرها مظاهر الحياة الاسلامية. (فقد اقترح لافيجري أن يجعل من مدينة بسكرة في الجزائر، زاوية مسيحية تسمى بيت الله، ثم اقترح أن يكون لباس رواد الصحراء المسلمين، أو الإخوة المسيحيين الذين يعيشون في الزاوية المسيحية مشابهاً للباس «الإخوان» المسلمين ما عدا لباس الرأس المتمثل في القبعة فوق الكوفية... وهكذا يستطيعون أن يتخللوا بين المسلمين تخللاً سلبياً...).

٣ ـ **التظاهر باهتمامات خاصة بالشباب**: وهو اتجاه يستوعب استهلاك أو تعطيل الطاقات الاسلامية الفعالة وإهدار قدراتها الشابة ثم استخدامها في تدمير البناء الاجتماعي الإسلامي.

فلا مانع لدى المنصرين مثلا في عقد ندوات تدرس فيها (مشاكل الشباب المختلفة وبذلك ينفذون إلى نفوس الشباب من أهون الطرق لاجتذابهم إلى أديانهم ومذاهبهم، وإذا لم يستطع المبشرون ذلك فما عليهم إلاّ أن يوجهوا الشباب توجيهاً مسيحياً).

وربما كان من أنجح وسائلهم (الإصلاحية) تشجيع اختلاط الشابات بالشباب في الحفلات والمعاهد والرحلات التي تكون في الغالب برعاية

الأسقف أو المبشر، وبذلك يمكن للمنصر أن يحقق أمرين: تأثير المرأة على الشباب وبخاصة إذا كانت موجهة ومدفوعة، وخضوع الشباب للتأثير التنصيري المباشر في المناسبات المتعددة. ومع هذا كله فلا يمكن أن يغفل الشباب المسلم في السياسة الاستعمارية عن سد أبواب التوظيف أمامه وفتحه على مصراعيه أمام النصارى. (إن المسلمين لا يكونون إلّا أقلية في جهاز البلد الخاضع للاستعمار. . . ثم إن المسلمين لا تلقى إليهم مقاليد المناصب الرئيسية أبداً. قد لا يصدق أحد إذا قلنا إن في الدوائر العقارية في حكومة الجزائر (٢٠٠٠) موظف منهم (٨) فقط من المسلمين، ولعلهم من الحجاب، ولما استقلت مراكش كان في وزارة الشؤون الاجتماعية (٢٥٠) موظفاً منهم (٤) من المسلمين، وكانوا حجاباً، وليس هذا شأن الدول المستعمرة وحدها، بل إن الشركات الأجنبية تسير على هذه السياسة نفسها، ويكفي أن يستعرض أحدنا الموظفين في هذه الشركات في لبنان وسوريا والعراق ومصر وتونس، حتى يدرك كره المستعمرين والشركات الأجنبية للموظفين المسلمين. . .).

٤ ـ **الاستمرار في الأعمال الاجتماعية**[٤٧]: وضع كتاب: مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين جملة من مصارف الإحسان تشمل الأطفال والنساء والرجال. وراح يدعو إلى تشجيع جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات لتوسيع دائرة نشاطهما في العمل الاجتماعي، كما طلب من المبشرين التعرف إلى أحوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية ثم (يسعون إلى الإصلاح، سعياً إلى التأثير على الرأي العام. . .).

ومن المؤسسات التي يحرص التنصير على إقامتها:

أ ـ **إيجاد** بيوت للرجال والنساء، وخصوصاً للطلاب والطالبات، أو ما يسمى ببيوت الشباب.

---

(٤٧) انظر فصل: الأعمال الاجتماعية طريق للتبشير من ص ١٩١ في: التبشير والاستعمار.

ب ـ ايجاد أندية وجمعيات رياضية واجتماعية.

وفي سبيل ذلك يوجب الاهتمام بالحاجات الاجتماعية الملحة مثل: إصلاح الأحداث ـ الحيلولة دون الزواج المبكر ـ الحيلولة دون تشغيل الأطفال ـ محاولة اصلاح الأحوال العامة للعمال فيما يتعلق بساعات العمل وبالأجور وبالأمور الصحية في المعامل.

ويصرح المبشر (رايد) في كتاب له: أنا لا أحب المسلم لذاته، ولا لأنه أخ لي في الانسانية، ولولا أني أريد ربحه إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده.

٥ ـ **استغلال المبرّات وأعمال الإحسان**: فلم يكن المبشرون محسنين بالمعنى النبيل ولكنهم كانوا يستغلون ما بأيديهم من وسائل الإحسان حتى يصلوا إلى أهدافهم التبشيرية فالاستعمارية... ثم إنهم لا ينفقون إلاّ بمقدار ما ينتظرون من فوائد عاجلة، فقد ألف جماعة من المبشرين كتاب: أسس جديدة للتبشير. ذكروا فيه: ... أما أعمال الخير فيجب أن تستعمل بحكمة فلا تنفق الأموال إلاّ في سبيلها، يجب أن تعطى الأموال أولاً للبعداء، ثم يقل دفعها تدريجياً كلما زاد اقتراب هؤلاء إلى الكنيسة، فإذا دخلوها منعت عنهم أعمال الخير.

وكتب (المر دوغلاس) مقالاً بعنوان: كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر. ذكر فيه، أن ملاجىء قد أنشئت في عدد من أقطار الجزائر لإطعام الأطفال الفقراء وكسائهم وإيوائهم أحياناً، ثم قال: إن هذه السبيل لا تجعل الأطفال نصارى ولكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم...

وكتب (صموئيل زويمر): صاحب مجلة: العالم الاسلامي مقالاً في مجلته بعنوان: استخدام الصدقات لاكتساب **الصابئين**. قصد منه استخدام الإحسان في سبيل التبشير المسيحي.

ويظهر أن **الكاثوليك** أكثر استخداماً للإحسان من البروتستانت، وهؤلاء

وأولئك يروجون له بأنه من أعمال الغرب المتقدم المتحضر في الشرق المتأخر، وأنه نعمة مسيحية بين مسلمين مقهورين.

٦ - وفي التثقيف العام: ينشط التنصير في توزيع الأناجيل والنشرات الكنيسة، ويقوم بالمحاضرات العلمية المبسطة ويهتمون بالحياة الروحية والاجتماعية ونشر التعليم المجاني، وترويج المكتبات الخاصة، واستغلال الصحافة، ووسائل الاعلام العامة..

ثانياً: الضغوط الفكرية

فقد أوحى إلى كثيرين من العلماء والباحثين ومعظم المستغربين بأن المسلمين لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وراح يوهم بـ (**تحقير التراث الثقافي**)، مع ان ذخائر الثقافة العربية الاسلامية التي زخرت بها مكتبات العالم، وكانت اساس النهضة الأوروبية الحديثة في المنحى التجريبي والنظري، جذبت إليها الفكر العالمي ثم عاش أبناؤه ينهلون من ينابيعه ويقيمون الدراسات حوله، ويعملون من أجله في جميع المستويات الفردية والجماعية والدولية.

ومن ثم فإنهم يتنكرون لفضائله ويشجبون مزاياه ويطعنون في قيمه ويصنعون ذلك في اسلوب دراسي بحثي إذ يسلبون منه دوره الفذ حتى يعرض على الإنسان العربي والمسلم، صوراً باهتة هزيلة توحي بالمهانة الفكرية والتبعية الثقافية.

وحينئذ يطمعون في الوصول بالمسلم إلى حالتين نفسيتين، كل منهما أشد من الأخرى: حقارة النسبة الثقافية للتراث، والخضوع إلى الضغط الثقافي الغربي.

وينتج عن ذلك أوضاع علمية وعملية معاصرة مزرية منها: بتر المسلم فكره عن العلوم العربية الإسلامية كأساس يمكن معه المسيرة العلمية، والإلتجاء إلى متابعة التحصيل والإنتاج الغربي، ثم التغريب النظري والعملي.

١ - **الإيهام بفقدان الفكر التربوي**: فعلى الرغم من أن المصنفات الإسلامية العامة، روعي في تأليفها أغراضاً تربوية متعددة لتحقق أغراضها التربوية العامة فإن ما ألفه المسلمون من الكتب التربوية الاختصارية تربو على (٥٠) مؤلفاً، وهي بلا ريب تمحو الوهم الإستشراقي المغرض وتربط الإنتاج التربوي بأصوله الإسلامية التي أوحى بها الله هدى للناس وبصائر. (ويحظى تراثنا الثقافي بوافر من الإنتاج الفكري التربوي، وذلك على الرغم من جهالة مستشرقين مثل (كارادفو) و (زويمر) أو تعنتهم وتزييفهم حقائق التراث).

(وعبر ألف عام تقريباً وبدءاً من الإمام أبي حنيفة (ت ١٥٠) ونهاية بالمربي اليوسي (ت ١١٠٢هـ) كانت المؤلفات والأفكارالتربوية متداولة من جيل إلى جيل بين المثقفين وطلاب العلم في المشرق والمغرب العربيين. . .)[٤٨].

٢ - **التزييف في قضايا العقيدة**: وهو مجال فسيح للطعن فيه طعوناً لم يحدث مثلها في عقيدة أخرى. فالوحدانية وثنية عامة وجاهلية، والوحي القرآني تعلم من نصرانية تشهد له (المقابلات) و (النظائر) القرآنية ومحمد ﷺ لم يعرف النبوة، أو عرف في شكل استبطاني خاص، والقدر تثبيط للهمم وخذلان للقدرات. . . و (مرجليوث) الانكليزي كتب: محمد ومطلع الاسلام. أتى فيه بكل غريب وباطل، وكذلك (رينان) الفرنسي. أما (جب) في كتابه: المحمدية فقد أنكر صلة الرسول بالوحي الإلهي كشأن الأنبياء السابقين، ويتجاوز (لامانس) البلجيكي ذلك إلى التشكيك باسم الرسول محمد ﷺ ويعده لغزاً من الألغاز التي لم تحل.

ويعمم (هيلر) تحقيره الأنبياء جميعاً ما يورده عنهم من القبائح التي عصمهم الله عنها، حتى إن (المسيح) عليه السلام لا يطمئن الباحث إلى (وجوده) تاريخياً على رأي (بابيه).

و (الله) في رأي (ماكدونالد) عند المسلمين متوافق مع عقيدة الجاهلين،

---

(٤٨) من: قضايا تربوية في التراث (المقدمة) للمؤلف.

وفي اسم (الرحمن) أخذه الرسول من (جنوب بلاد العرب) و (عبادة الطبيعة) واردة في القرآن في نظر (كاراديه) ويغرب في تفسير (الآيات التي فيها تشبيه بالإنسان)[49]. بينما يغفل (رينان) (علم العقيدة) ودور العقل فيه، فيعتبر العقل العربي مغلق المنافذ يواجه الألوهية في (حلقة مفرغة مستمرة: الله هو الله)[50].

٣ ـ التبعية الأجنبية في الفقه وأصوله: فمن المعلوم استقلال الفقه الاسلامي في استنباط أحكامه من أدلتها الشرعية، وأن طبيعة التأليف في الفقه الاسلامي ترد كل ما زعمه (شاخت) وغيره من اقتباسه من القانون الروماني. فكتابه: أصول الفقه الإسلامي، الذي يدور حول تبعية الإسلام وفقهه رده أمثاله من المستشرقين: في طريقة نمو الفقه الإسلامي، واستخراج أحكامه من الواجب والفرض والمندوب والجائز والمكروه والحرام، كما يستبعده عدم رجوع الفقهاء إلى أي دليل روماني، معتمدين في ذلك على المصادر الفقهية الأساسية والتبعية المشروعة.

ولا ريب أن غنى الفقه الإسلامي بالمسائل الجامعة للعبادات والمعاملات والأقضية والجهاد والنظم خير دليل على شمول الإسلام واستقلاليته، ثم إنه بتنوع طرائق الإستدلال الفرعية واختلاف الأحكام تبعاً لها ينوه بالحرية الاجتهادية التي مارسها الفقهاء بشكل واسع، مما يغنيهم عن الأخذ من القانون الروماني أو غيره.

(إن المستشرق الألماني جوزف شاخت، يذهب بغير سند تاريخي معقول إلى أن الإمام الأوزاعي تأثر في فقهه بالتشريع الروماني.. وهذا يتنافى أصلاً مع المبادىء المنهجية للبحث العلمي... لأن فقه الأوزاعي لم يكن ماثلاً بين

(٤٩) من مخطوط: قضايا الإسلام في كتابات المستشرقين فصل (الله).

(٥٠) من: مناهج المستشرقين ٢/٢٤ عن كتابه: مساهمة الشعوب السامية في تاريخ الحضارة، ص ٣٩.

يديه لتفرقه في مئات كتب التفسير والحديث والفقه والأصول والتشريع وعلم الكلام والسير. . . منذ عصره إلى يومنا هذا. . . ونماذج أحكامه لا تختلف مع القانون الروماني وحسب وإنما تصطدم معه، لأنها أحكام مستمدة من عقيدة السماء، مقتبسة من شريعة الرحمن، وما من حكم أصدره إلّا وهو موثق بآية من الكتاب العزيز أو أثر من السنة الشريفة او قائم على اجتهاد أو قياس[51]). وفي المصطلحات الفقهية ذات الأصول الشرعية والاسلامية يقول جولد زهير: كثيراً ما استعيرت بعض المعايير القانونية من القانون الروماني في الفقه[52]. . .

ويبدو أن مسألة (المرجعية) في الفقه الإسلامي عند (شاخت) استلت من قضية جامعة ومنقوضة سلفاً تحدث عنها بالتفصيل (جولد زهير) و (هورجرونيه) و (هيوم) و (لامانس) وغيرهم كثير، وهي محاولتهم إثبات تبعية الإسلام جميعه في أصوله ونصوصه إلى الكتب السماوية السابقة، إلى جانب تأثره بالفارسية والبوذية، وتأثر حضارته بالحضارة الهيلنية[54]. وفي مقدمتها قضايا ومسائل فقهية ذات آثار نفسية واجتماعية واقتصادية ودولية.

أ ـ المرأة: فالمستشرقون (والمبشرون يرون أن يهاجموا هذا المعقل الحصين في الإسلام فزعموا أن المرأة المسلمة متأخرة. . .) وهم يقصدون (أن يحطموا من عزيمة المسلمين ويحملوهم على الشعور بالنقص في أنفسهم. . .).

ب ـ **القراض (المضاربة) خاصة والشركات عامة**: يرى (يودوفيتش) أن القراض عرف في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وبأن التحويل الاسلامي للأعراف السابقة للإسلام والمتصلة بالقراض والشركات كان تحويلاً محدوداً.

---

(٥١) مقتبس من: مناهج المستشرقين ٢/٣١٠ ـ ٣١٢.
(٥٢) المرجع السابق، ١/٣٨٨ عن: الدراسات الاسلامية ٢/٧٩ (لندن ١٩٧١).
(٥٣) المرجع السابق، ١/٣٥٣.

ولكن (التوجيهات الاسلامية التي اتفق (الفقهاء) عليها طبعت مؤسسات القراض والمشاركات بطابع اسلامي عميق الأثر، بصرف النظر عن البيئات التاريخية والأعراف المحلية التي ترعرعت فيها تلك المؤسسات قبل الإسلام أو بعده، واستنتاج يودوفيتش بأن أثر الإسلام على القراض والشركات كان ضئيلاً هو استنتاج مخالف للواقع)[٥٤].

وهذا واضح من (الشروط) والتقنين الفقهي غير المعروفة في الجاهلية، ثم هو أوضح، بسبب إقرار الإسلام لها ولغيرها من الزواج والميراث والتجارات... حيث إنها مطالب اجتماعية واقتصادية لجميع الناس، ولكن المهم هو تنظيمها وتحسين صورها لتكفل المصالح الفردية والإجتماعية.

ج - **الزكاة**: فقد زيف شاخت قضية الزكاة كعبادة ذات آثار هامة اقتصادية واجتماعية، ونفسية، في أصالتها ودلالاتها المعنوية الدينية، وخلط بين مفاهيم الزكاة والصدقة والإنفاق، وابتعد عن الحقيقة في بداية مشروعية نصابها ومقاديرها ومصارفها، وأخذ الرسول لها من اليهودية، ثم شبهات أخرى في مقاله القصير.

د - **الصوم**[٥٦]: وتناوله العديد منهم مثل (بلنسر) و (بيرك) اللذين جمعا إلى الأخطاء السابقة خطأ منهجياً في الرجوع إلى المصادر غير المختصة، ثم أخطآ في نقل أحكام تتصل بالصوم مثل: الصوم بدل الحج والكفارات، ونقولاً غير دقيقة في صوم المميز والقادر عليه، وفي

---

(٥٤) استنتاج من مقال: د/محمد أنس الزرقا في مناهج المستشرقين ١/٢٤٣ - ٢٤٥.

(٥٥) انظر المادة في دائرة المعارف الاسلامية، ودراسة لها للدكتور محمد أنس الزرقا في مناهج المستشرقين السابق.

(٥٦) وتفصيله في مخطوط: قضايا الاسلام في كتابات المستشرقين للمؤلف.

حكمته، بينما يربطان صوم يوم عرفة بالأعراف الجاهلية وحكمه في اليهودية، ثم أحكام متعارضة ونتائج متباينة يخالف فيها (سبرنجر) و (نولدكه) و (شفالي) وغيرهم، ولكنها تلح على اقتباس الرسول مشروعيته من الأمم السابقة والديانات السماوية.

هـ - **الحج**[57]: وعرضه معظم المستشرقين كما سيأتي خليطاً من الوثنية والسامية واليهودية، ويزعم (هوتسما) أن الإفاضة شعيرة شمسية، كما يزعم (فنسنك) أن الوقوف بعرفة بقية من الوثنية. ولكن (دوزي) يرد كثيراً من أعماله إلى اليهودية مثل التشريق والتروية، ودحضها زميله (هرجرونيه)، ثم أخطاء مقصودة في الطواف. ورمي العقبة، والإحرام، والرمي بعد الزوال، بالإضافة إلى التشكيك في صحة الأقوال الراجحة بين فقهاء المسلمين...

د - **الصلاة**[58]: وهي أهم العبادات التي تشترك الديانات في أصل مشروعيتها ومشروعية غيرها كالصوم والزكاة، وتناولوها في أصلها اللغوي وربطها بصلاة اليهودية والنصرانية ومنهم: فنسنك، ونولدكه، وكايتاني، وهوتسما، ولامانس، ومرمرجي الدومينكي وآخرون غيرهم بما يتناسب مع أهميتها عند المسلمين، يضاف إلى ذلك أخطاء فقهية وتاريخية وأقوال جاحدة لنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ينسبون فيها مشروعيتها وأركانها وأدعيتها وأنواعها إليه، ومما أخذه من كنائس النصارى وبيع اليهود.

و - **الجهاد**[59]: وعرضوه كما سنفصله فيما بعد بصور متباينة ومتطرفة بين

---

(٥٧) وانظر مقالاً مستفيضاً عن الحجج في مجلة التضامن الاسلامي الجزء العاشر السنة ٣٨ ربيع الثاني ١٣٩٩، آذار ١٩٧٩ م للمؤلف.

(٥٨) من مخطوط: قضايا الاسلام السابق.

(٥٩) المرجع السابق: الجزء ٧ السنة ٣٣ محرم ١٣٩٩ كانون الأول ١٩٧٨ للمؤلف.

صورة مفزعة همجية وصورة استخذاء واستكانة ويصرح (ماكدونالد) بنشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين، ويعقب (كرين) بإكراه الناس في الهند الشرقية على اعتناق الإسلام. . . ولا يقتصرون عليه وإنما يتناولون توابعه من: الخراج في حديث (جونبيل) ومعاملة الأسرى (غير الإنسانية) عند (ماكدونالد) السابق، والجزية والغنائم عند (توماس ارنولد).

وربما كان الجهاد أخطر قضية عالجها المستشرقون بالروح الصليبية الاستعمارية ومن خلال العلاقات الخارجية وآثارها في المعاهدات الدولية، وما يتقدمه ويتزامن معه أو يتأخر عنه من الدعوة إلى الإسلام منطلقه ومقصده وحكمته ومفهومه الحضاري الإسلامي الأشمل. وقضايا اخرى اقتصادية وخلقية وسياسية واجتماعية ودينية شوهت حقائق الاسلام ونظمه في تحيز وغرضية تعد ضغوطاً درسية توهم بسطاء المسلمين بعزلتهم الحضارية من حيث التشريع والنظم.

٤ ـ إهمال الدور الحضاري في التاريخ الإسلامي:

أ ـ **في النظرة العامة للتاريخ الإسلامي**: إن (بكر) يقول: إن كتابات العرب عن الفتوحات الإسلامية مفعمة بالأكاذيب والأغلاط خصوصاً في مسألة التاريخ، وترتيب زمن الحوادث، ويعضده (جين) بقوله: إن النبوغ في التاريخ مفقود عند الشعوب الآسيوية، لأنهم يجهلون قوانين النقد والفلسفة[٦٠].

ب ـ **العلوم والفنون العربية الاسلامية**: يقول (رينان): الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية (ونحن لا ننكر أن يكون

---

(٦٠) من: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ط ٢، ص ١٧٨ للمؤلف وقارن بردود: نللينو، وبراون. . .

العرب قد بنوا فلسفتهم على أساس ما قدمه اليونان للعالم... إن العرب قد زادوا في الفلسفة وناقشوا ونقحوا وصححوا وشرحوا وأدوا رسالة قل أن أدت مثلها أمة في التاريخ).

وفي أدب العربية: ينكرون أهميته، ويصفونه بالنقص والجمود والتخلخل، وبأنه بعيد عن النزعة الانسانية مع أن الأدب (البروفنسالي) مثلاً (أدب جنوب فرنسا في العصور الوسطى) قد بني فعلاً على ما عرفه الفرنسيون الأولون من ألوان الأدب العربي في الشرق أثناء الحروب الصليبية أو في الأندلس، و (دانتي) الايطالي استمد كتابه: الكوميديا الإلهية من مصادر اسلامية: من (الفتوحات المكية) لابن عربي على القطع، ومن (رسالة الغفران) للمعري في الأغلب.

وفي الجغرافية نشرت مجلة (لاروس) الباريزية فصلاً عن العالم العربي فيه: العالم العربي هو مصر والشام والعراق والحجاز واليمن ونجد، مساحته (٣) ملايين كم٢[٦١]. وسكانه (٤٠) مليوناً.

ورد محمد كرد علي بقوله: العالم العربي أوسع رقعة وأكثر سكاناً مما زعم الكاتب الفرنسي المستعمر، مثل حذف المغرب العربي كله، ثم إن مساحة شبه جزيرة العرب وحدها (٣) ملايين كم٢[٦١].

ويزيد عدد سكانه عن (١٠٠) مليون عربي.

وتضطرب آراء (ليفي بروفنسال) في تقسيم سكان الأندلس فيسقط النصارى واليهود الباقين على دينهم في تقسيمه الأول، ويسقط العرب والبربر في تقسيمه الثاني.

ويزداد اضطراب بعض المستشرقين في دور العرب (العلمي)، فيتابع (رينان) قوله: وفعلاً، إن العرب كانوا اساتذتنا فيهما (الفلسفة، والعلم)

---

(٦١) التبشير والاستعمار ص ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١.

طيلة قرن أو قرنين من العصر الوسيط، ولكننا ما لجأنا إلى ذلك إلّا ريثما نحصل على الأصل اليوناني... فهذا العلم العربي وهذه الفلسفة العربية لم يكونا إلّا نقلاً حقيراً للعلم والفلسفة اليونانيين... هذا إلى اننا إذا (تمعنا) في كل هذه الآثار نجد أن العلم العربي لا شيء عربي فيه... وأن صفحة من روجر بيكون لتحوي من التفكير العلمي الحق أضعاف ما في هذا العلم غير الأصيل بأكمله[٦٢]...

ويلاحظ الإضطراب في تردده عن تلمذة الأوروبيين (قرناً) أو (قرنين)، ثم حصولهم على (الأصل) اليوناني و(النقل الحقير) للعلم والفلسفة وتمثيله بروجر بيكون (المفكر العالم) وهو (حامل التراث العلمي الاسلامي).

أما (سيريل القود) ومثله (براون) (فيشرّقان) في الجحود العلمي للمسلمين ويقول الأول: إن ما عرف بالعلم العربي ما هو إلّا انتاج الفرس ويستشهد بقول براون في كتابه عن الفرس: إذا حذفنا من علوم العرب ما كان من انتاج الفرس حذفنا منها أجلّ ما حوت من مادة[٦٣]...

ويلاحظ الاتجاه العنصري في تقسيم العلماء إلى عرب وفرس، من غير اكتراث بـ (العلم الإسلامي) الذي جمع العرب والفرس والهند... ثم هو كتب قبل كل شيء (بالعربية) أيضاً.

٥ ـ صانعو الحضارة الإسلامية ليسوا عرباً ولا مسلمين:

فقد أنكر (لامانس) نبوغ الصحابة وأهليتهم الحضارية وقدرتهم على قيادة الأمة الاسلامية وجعلهم بسطاء جاهلين منقادين بينما يهيب بدور (كفار مكة) كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف، وغيرهم، في (المعارضة

---

(٦٢) مناهج المستشرقين ٢/٢٤ عن: محاضرة رينان في السوربون ٢٩ مارس/آذار ١٨٨٣ بعنوان: الاسلام والعلم.

(٦٣) المرجع السابق، ص ٢٦ وانظر ص ٦٥، ٦٦ أسماء مترجمين وعلماء عرب نقلاً عن الفهرست لابن النديم.

العربية) للإسلام ولدعوة الرسول[٦٤]، كما سيأتي تفصيله.

ولم يسلم قضاة الأندلس الرواد مثل: مهدي بن مسلم، وعنترة بن فلاح، ومهاجر بن نوفل القرشي، من انكار وجودهم أصلاً من كبار المستشرقين دوزي، وبلاثيوس، ودعواهم أن مصدر خبرهم عالم نسبه البعض إلى الزندقة هو أحمد بن فرج بن فُتيل[٦٥] من غير تحقيق، وهم المعروفون بالعلم والورع والحكمة والأدب. بينما كذب ليفي بروفنسال زملاءه في المقدمة التي كتبها لكتاب: تاريخ قضاة الأندلس: لأبي الحسن النباهي، وقرر أن اخبارهم صحيحة.

وكذلك فإن الإساءة إلى المفكرين بلغت مداها في نفس سيمونيت (المفعمة بالحقد على كل انجاز حضاري إسلامي... فلا يرتاح له بال حتى يقلل من شأن العالم الجغرافي الجليل أبي عبدالله البكري: ٤٣٢ - ٤٨٧، فيضن عليه أن يكون أصيلاً في عمله مبتكراً في نهجه فيضرب بكلام زميليه: دوزي، وجنثالث، عرض الحائط، ويهون من شأن كتابه النفيس: معجم ما استعجم، ويزعم أنه أخذه من كتاب: أصول الكلمات لإيزيدور الإشبيلي... مع أن الثابت أنه لم تكن توجد ترجمة عربية لكتاب إيزيدور الإشبيلي. وابن رشد الحفيد[٦٦] (٥٢٦ - ٥٩٥) أبو الوليد محمد بن أحمد، المفكر الفقيه والفيلسوف والقاضي لم ينل المستشرقون من سيرته وعلمه وحسب وإنما تجاوزوا إلى دينه مدعين أنه كان منكراً البعث بحجة الحرية الدينية في الأندلس[٦٧].

ويعمم سيمونت حكمه في الازدهار الفكري والعلمي أيام عبدالرحمن

---

(٦٤) في المجلة العربية العدد ١٠ السنة الرابعة مقال مطول للمؤلف.

(٦٥) في كتاب: تاريخ قرطبة للخشني، انظر مناهج المستشرقين ٢/٣٠٣ - ٣٠٨ عن: فجر الاندلس د/حسين مؤنس ص ٦٤٠.

(٦٦) صاحب: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، واسم جده كاسمه وهو صاحب: المقدمات، ويفرق بينهما: الأول بالحفيد، والثاني بالجد.

(٦٧) مناهج المستشرقين ٢/٣٠٩ - ٣١٤ بتصرف بسيط.

الناصر (بالمستعربين الأندلسيين - النصارى - (حيث) عرفت الأندلس الإسلامية العلوم الرياضية والفلكية والطبية التي كان يكرهها عامة الشعب المسلم)[٦٨] مع أن عدد العلماء المسلمين في الطب والرياضيات خاصة كثيرون.

ويرى (أندري سرفيي) أن العنصر العربي (لم يساهم إلا بمقدار هزيل يكاد لا يذكر. . . فالكندي مثلاً وقد كان له صيت عظيم في القرون الوسطى. . . لم يكن سوى يهودي من الشام اعتنق الإسلام، وما كتبه في الرياضيات والهندسيات والطبية والفلسفية وغيرها إلا مجرد نقل واقتباس من أرسطو وشراحه. . . وكثيراً ما نسب استنباط الجبر إلى العرب، والواقع أنهم لم يكونوا إلا نسخة عملوا على نقل رسائل (ديونا نطس) الإسكندري الذي كان حياً في القرن الرابع للميلاد. . .).

ويقول مقدما ومعمما: إن ما يدعى بالحضارة العربية لا وجود له البتة كظاهرة مبرزة للعبقرية العربية، فهذه الحضارة إنما أنشأتها شعوب أخرى كانت لهم مدنيات قائمة قبل أن تستعبد قهراً من قبل الإسلام، فاستمرت خصالها القومية في نمو برغم ما صب عليها الفاتح من ألوان الاضطهاد[٦٩].

ويتجه سيمونت اتجاه التعميم ذاته في المشرق والمغرب المسلمين فيقول: إذا كان العرب الذين أخضعوا الشام ومصر وغيرهما من بلاد الشرق لم يستطيعوا أن يدخلوا أية ثقافة ذات قيمة بحكم كون نصارى هذه البلاد كانوا أرقى منهم في المستوى الحضاري، فإنهم من باب أولى لم يكونوا قادرين على أن يقدموا شيئاً لنصارى بلاد المغرب ورثة الحضارة الرومانية[٧٠]. ونحن

---

(٦٨) المرجع السابق، ٣٣٢ من كتابه: المستعربون ص ٤٥، وعدّدهم الكاتب (١٥) عالماً وطبيباً مشهوراً من المسلمين في ص ٣٣٣ من أمثال أبي القاسم، وابن زهر، وابن البيطار.

(٦٩) المرجع السابق.

(٧٠) المرجع السابق، ٢٢٣/٢ وانظر ردود الدكتور مصطفى الشكعة فيه عن: مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية في الأندلس.

إذا تأملنا قليلاً في طرح شبهاتهم وطعونهم فإننا نلاحظ وبشكل قوي أنهم يخصّون بها (العرب) أو (المسلمين العرب) فهل يقصدون معها النيل من محمد ﷺ لأنه عربي وحملة الإسلام الأولين العرب لأنهم عرب. وبالتالي فالطعن بالعروبة طعن في الإسلام؟

ثم إذا كان غرضهم التقليل من الإسلام (حضارة عالمية) دينية ودنيوية فهل بعث الحضارات القديمة وصانعيها ومعطياتها يحقق لهم غرضهم فلا يكترث بسواها، وبالتالي، فهل يقنع المسلمون بصراع حضاري يدفع إلى (العصبية) الفكرية في قاعدة (العرب) و (غير العرب) وعلى أساس قومي وإقليمي، مما يؤدي إلى تنازع العصبيات والإقليميات في العالم الإسلامي الذي يفترض أنه تحت مظلة وحدة فكرية جامعة؟

إن أحدهما أو كلاهما يؤدي إلى التهافت الحضاري، وتحكم البأس الشديد بين العرب وغير العرب المسلمين من جهة وبينهم وبين سائر العرب غير المسلمين من جهة أخرى، وذلك بسبب قناعات وهمية وتخاذل نفسي.

وهذا يعني أن إثارة العصبية الصليبية بالإلحاح على النزعة العربية وحدها في الوسط الحضاري لا يبعث على الريبة في إثارة العنصريات الفكرية وحدها، وإنما يوجه إلى تناول الحضارة الثقافية من زوايا ضيقة ومحددة تعجز عن التعبير الإنساني للعربية في رسالتها الإسلامية.

وبالتحديد فإنه يلبي غرضاً استشراقياً هاماً وهو حصر النشاط الثقافي في مجال عنصري ضيق، بعد طمس النشاط الثقافي الاسلامي المتسع وإهمال مجالاته الفسيحة.

الحـملات الصليبيـة
(٣٩٠-٦٩٢ هـ/١٠٩٥-١٢٩١ م)

أولاً: الإطار الجغرافي والتاريخي للحملات الصليبية

أ ـ الإطار الجغرافي:

الحملات الصليبية: مجموعة من الحملات العسكرية التي انطلقت من أوروبا: فرنسا، النمسا، انكلترا، اسبانيا، المانيا، هنغاريا، ايطاليا. . . قاصدة الشرق الأوسط الاسلامي وبخاصة بلاد الشام والقسم الغربي من العراق والقسم الشمالي من مصر.

وشملت ما بين النهرين: الرها (أورفا) والرقة، وقلعة جعبر، والبيرة، وعينتاب، وحلب، ومعرة النعمان، وحماة، وحمص، ودمشق، في محاولات صليبية فاشلة، ثم القدس وطبرية، والرملة. وهي جميعها من المدن الداخلية، كما شملت الساحل السوري واللبناني والفلسطيني بأكمله وقسماً من الساحل التركي في الشمال، والمصري في الجنوب.

وهو ساحل غاص بالمدن الشامية المشرفة على البحر المتوسط، المعروف حينذاك ببحر (الروم) وثبت أن من مطامعها غزو الحرمين مستغلة تفرق المسلمين وضعفهم، حتى إن أطماعهم التوسعية حاولت استرجاع البحر المتوسط إلى الصليبية، والإستيلاء على الممر المائي والبري للحرمين الشريفين في عرض البحر الأحمر والمعروف ببحر (القلزم).

ولا تخفى أهمية هذه البلاد من الناحية الجغرافية باعتبارها همزة الوصل بين الغرب الأوروبي والشرق الأقصى، وأهميتها الدينية باعتبارها مهبط معظم الديانات المعروفة وبخاصة الديانات الكبرى الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي جميعها تتجمع في مدينة القدس الشريف الذي جعلوه عاصمة مملكتهم لفترة تزيد عن قرن وكان من ملوكها (جودوفري بويون) الملقب بحامي القبر المقدس.

أضف إلى ذلك أهميتها التاريخية في نظر الغربيين الصليبيين بتبعيتها للإمبراطورية الرومانية البيزنطية التي كانت على النصرانية الشرقية، وفتحها الإسلام، مع أنها كانت عربية الأرومة في دولتين: الغساسنة في بلاد الشام والمناذرة في العراق، حررهما الإسلام من السيطرة الرومانية. أما أهميتها الحضارية فكانت معظم بلدانها مراكز المعارف والعلوم والآداب والفنون، لم يعرف الغربيون لها نظيراً في بلادهم، وتوجت بالحضارة الإسلامية الخالدة.

٢ً - الإطار التاريخي:

انقسمت البلاد الإسلامية إلى إمارات وسلطنات وأحيانا إلى مقاطعات يحكمها أكثر من خليفة للمؤمنين، في بغداد، والقاهرة، والمغرب العربي والأندلس، في وقت واحد. فالخلافة العباسية: حكمها القادر بالله ٣٨١ هـ - ٩٩١ م والفاطمي الحاكم بأمر الله ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م. والمؤيد هشام الثاني على الأندلس، واستمر ذلك أثناء الحملات الصليبية في خلافة الراشد ٥٢٩ هـ - ١١٣٥ م الذي زامنه الفاطمي أبو اليمون عبدالمجيد ٥٢٤ هـ - ١١٣٠ م ومعهما الخليفة الموحدي على المغرب عبدالمؤمن بن علي ٥٢٧ هـ - ١١٣٢ م. واجتماع خلفاء الإسلام في زمن واحد يدل على تمزيق رهيب في الوحدة الإسلامية ويتجاوزه أحياناً إلى ممالأة بعض الفاطميين للحملات الصليبية التي كانت تجتاح البلاد الإسلامية. فكانت بسبب اختلافها وتنازعها تسهل العمليات العسكرية الغازية في المشرق والمغرب ضد بلاد المسلمين وتقضي على أهلها وبلادها في زحف صليبي استعماري عالمي.

حتى إن الخلافة الواحدة مثل: الخلافة العباسية بلغت من ضعفها واختلاف أمراء مدنها ما جعل بعضها يستعين بالفرنجة لاستعدائها على مدينة إسلامية مجاورة، مثل ما كان يحصل من الخيانات لبعض الأمراء المسلمين ضد الآخرين، ثم محاولتهم استصدار فتاوى من الشيخ عزالدين عبدالسلام لمصالحة الصليبيين والتنازل عن حصون اسلامية لهم، ليعينوهم على إخوانهم الأمراء الآخرين[1].

ومن الملاحظ أن البلاد الإسلامية التي كانت مسرحاً للعمليات العسكرية الصليبية كانت في حكم الخلافة العباسية (اسماً)، ولكنها كانت خاضعة إلى سلالات وأسر حكمتها فعلاً، وإن راحت تخطب بالطاعة والولاء لها.

وبلغ من ضعفها أن تجرأ (جلال الدولة) على الخليفة (القائم بأمر الله) (ت ٤٦٧ هـ - ١٠٧٤ م) ليخاطب بملك الملوك ويخطب له في ذلك على المنابر وكان ذلك في سنة ٤٢٩ هـ - ١٠٣٧م[2]. وفي سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م خطب في جامع المنصور ببغداد للفاطمي المصري المستنصر بالله، وأذن له بـ (خير على حي العمل)[3]. . . ولكننا إذا توسعنا في نظرتنا إلى الحركة الصليبية العالمية فإننا ندرك أن معظم العالم الإسلامي كان ميداناً فسيحاً للغزوات الأجنبية عسكرية وفكرية، ثم ندرك صلات بين أحداث الاجتياح الصليبي وتآزره في بعض الأحيان.

ولولا أن قيض الله لهذه الأمة قيادة (مجاهدة) تنتصر للإسلام ودياره مدافعة عن حرمات المسلمين مقدرة المسؤوليات الخطيرة في صون مقدساته، لتغيرت خارطة العالم الإسلامي إلى أسوأ ما يتصور لا من حيث الاستيطان

---

(١) انظر مثلاً حوادث سنة ٤٩٧ الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠).
(٢) الرجع السابق، ١٦/٨.
(٣) المرجع السابق، ٨٢/٨.

الأجنبي المبكر وحسب ولكن من حيث قلب المفاهيم الإسلامية وتغييرها جملة وتفصيلاً.

ومهما يكن من أمر فإن الأزمات السياسية الخطيرة تكررت في العالم الإسلامي ومنها الغزو الصليبي، لم تؤثر كثيراً في المسيرة الحضارية وبخاصة في النشاط الثقافي، حيث أثرت مصادر المعرفة الإسلامية ما كانت تتلفه الأزمات والتمزقات والخلافات.

ولذا فإن من المناسب بيان السلالات الحاكمة بإيجاز ودورها في تحصين البلاد الاسلامية من أخطار الصليبية ثم موقفها التحريري من تسلطهما واستعمارهما.

أولاً ـ الاطار التاريخي للحملات الصليبية في بلاد الشام

ونبرز ثلاث أسر تعاقبت على الحكم عرفت (بالدول المتعاقبة):

١ ـ الأسرة الزنكية:

وهي تركية تنسب إلى السلاجقة وقد حملت لواء الجهاد ضد الصليبيين، وعرفت بشجاعة أبنائها وصلاحهم وإخلاصهم للخلافة العباسية، واستمرت في فترتها فنون النقش والمعمار المتقدم وبناء المساجد، كما استمرت المدارس والمستشفيات، وعمارة الطرق والجسور...

واشتهر منهم:

أ ـ زنكي بن آق سنقر الملقب بعماد الدين (ت ٥٤١ هـ ـ ١١٤٦ م)، وكان والده أول ملوك الدولة الأتابكية السلجوقية بالموصل، وتولى عماد الدين مدينة واسط في عهد الخليفة المسترشد بالله ثم أُقطع البصرة وسائر بلاد الجزيرة، وتملك حلب، وكان قوي المجابهة للفرنج في الشام والعراق فتصدى لهم وأجلاهم عن حلب ـ حماة سنة (٥٢٤ هـ ـ ١١٢٩ م)، وتوغل

في وسط سوريا وأدخل دمشق في طاعته، واستعاد (الرها) من الفرنج (٥٣٩ هـ ـ ١١٤٤ م) وقتل محاصراً قلعة جعبر على يد بعض مماليكه وهو نائم، فسماه ابن الأثير (بالملك الشهيد). يقول العمادي[٤]:

كان فارساً شجاعاً ميمون النقيبة، شديد البأس، قوي المراس، عظيم الهيبة... واقترن اسمه بتحرير الرها من أميرها جوسلين الصليبي (٥٣٩ هـ ـ ١١٤٤ م).

ب ـ العادل نور الدين بن زنكي السابق[٥]: (ت ٥٦٩ هـ ـ ١١٧٣ م) لقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه، وأصلبهم وأفضلهم، ضم دمشق إليه مدة عشرين سنة، وامتدت سلطته في الممالك الإسلامية حتى شملت جميع سوريا الشرقية وقسماً من سوريا الغربية والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب وجانباً من اليمن، كان مداوماً على الجهاد بنفسه، موفقاً في حروبه مع الصليبيين، وحصّن قلاع الشام وبنى الأسوار على مدنها كدمشق وحمص وحماه وشيزر وبعلبك وحلب، وبنى مدارس كثيرة منها: العادلية، ودار الحديث في دمشق، وبنى الجامع النوري بالموصل، وكان متواضعاً مهيباً وقوراً مكرماً للعلماء، سمع الحديث بحلب ودمشق من جماعة وسمع منه جماعة، وخرّج بعض أحاديث الجهاد باسناده ووقف كتباً كثيرة، ومات بدمشق فقيل له الشهيد ودفن في المدرسة النورية ـ دمشق.

يقول العمادي: هزم الفرنج غير مرة وأخافهم وجرعهم المر، وافتتح من بلاد الفرنج ما يزيد على (٥٠) حصناً، وبنى المكاتب للأيتام ووقف عليها الأوقاف، وبنى الربط والبيمارستان، كثير المطالعة، لاعباً بالكرة في ميدان دمشق، متواضعاً زاهداً، عف اللسان عاقلاً ويقترن اسمه بتحرير مدن كثيرة

---

(٤) شذرات الذهب ١٢٨/٤.

(٥) المرجع السابق، ٢٢٨/٤.

وفي مقدمتها انطاكية من أميرها الصليبي (بوهمند) (٥٥١ هـ ـ ١١٥٦ م) وطرابلس من أميرها (ريموند) الثالث، وأسرهما ثم أطلق سراحهما.

٢ ـ الأسرة الأيوبية

هي من أصل كردي منسوبة إلى جدها (أيوب بن شاذان) أو شاذي (ت ٥٦٨ هـ ـ ١١٧٢ م) من تكريت ثم رحل إلى الموصل فدمشق، كان في خدمة نورالدين محمود بن زنكي، وكانت تعرف بالسلاطين.

واشتهر منها عشرة سلاطين باخلاصهم للخلافة العباسية، وعرفوا بشدتهم في محاربة الفرنج، عظماء في بلادهم، مشهورين في آثارهم المعمارية الفنية مثل قبة الشافعي، وقلعة صلاح الدين في القاهرة، والمسجد الكبير بحلب، ومدارس في القاهرة...

أ ـ أولهم يوسف بن أيوب بن شاذان الذي عرف بصلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩ هـ ـ ١١٩٣ م) الملقب بالملك الناصر ولّي السلطنة عشرين سنة. يقول العمادي: ملك البلاد ودانت له العباد، وأكثر من الغزو، وكسر الفرنج مرات، شديد الهيبة، محبباً إلى الأمة، عالي الهمة وتوفي بقلعة دمشق، ثم نقله الملك الأفضل شمالي الجامع الأموي سنة ٥٩٢ هـ ـ ١١٩٥ م.

ونقل عن ابن شهبة قوله في تاريخ الإسلام: كان مغرماً بالإنفاق في سبيل الله، شجاعاً سمحاً مجاهداً في سبيل الله، شديد الرغبة في سماع الحديث...

وفتح (٦٠) حصناً، وزاد على سلطان نور الدين مصر والمغرب والحجاز واليمن والقدس والساحل.

واقترن اسمه بالمواقع المظفرة ضد الصليبيين وبخاصة في (حطين) (٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م) ثم تحريره القدس. وعرف عند الأوروبيين بالتسامح والمعاملة الحسنة وكرم النفس وفي مقدمتها معاملته أسرى الملوك والأمراء.

ب ـ **محمد بن أيوب بن شادي** (شاذان) الملك العادل (ت ٦١٥ هـ ـ ١٢١٨ م) أخو صلاح الدين، استقل بالديار المصرية (٥٩٦ هـ ـ ١١٩٩ م) ثم الشامية ثم أرمينية (٦٠٤ هـ ـ ١١٠٧ م) وبلاد اليمن (٦١٢ هـ ـ١٢١٥ م) كان عظيماً حنكته التجارب حازماً داهية، حسن السيرة محباً للعلماء، دفن في مدرسته المعروفة بالعادلية (مقر المجمع العلمي العربي بدمشق).

يقول العمادي[6]: كان أخوه يستشيره ويعتمد على رأيه وعقله ودهائه، ذا حلم وسؤدد وبر كثير.

ويقترن اسمه بالمواجهات الكثيرة ضد الصليبيين وبخاصة ظفره على القائد الصليبي (أرناط) قرب ينبع (١١٨٢ م) حين طمع هذا بغزو الحرمين واعتراض قوافل الحجاج.

٣ ـ الأسرة المملوكية:

نسبة إلى أصلهم من الموالي الشركس والترك عند الأيوبيين وقبلهم الفاطميون الذين قوي مركزهم عندهم واستأثروا بالسلطان لأنفسهم، ومؤسسها المملوك (أيبك بن عبدالله) في مصر ٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م المعروف بشجاعته وحزمه ووقائعه مع الافرنج.

وقد أقامت في حكمها لمصر حوالى (٢٥٠) عاماً، وتركت آثاراً جليلة من المساجد والمدارس والتكايا في القاهرة، وكانت نهايتهم على يد محمد علي في مذبحة القلعة (١٢٢٦ هـ ـ ١٨١١ م) أما النشاط العلمي فكان موفوراً في التأليف التاريخي والديني والعربي وعرف من العلماء: عزالدين بن عبدالسلام، ومحي الدين النووي، وتقي الدين بن دقيق العيد، وتقي الدين بن تيمية، وابن قيم الجوزية، والسبكي، والمقريزي، وابن حجر،

---

(٦) المرجع السابق، ٥/٦٥.

والسيوطي. وقامت بشن حروب حامية ضد الصليبيين في أواخر عهدهم لسوريا، وضد المغول في سوريا وآسيا الصغرى.

ومن أشهرهم:

أ ـ **الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (ت ٦٧٦ هـ ـ ١٢٧٧ م)** رابع الأمراء المماليك من أصل تركي، تولى سلطنة مصر والشام (٦٥٨ هـ ـ ١٢٥٩ م) وكان شجاعاً جباراً له الفتوحات العظيمة حتى لقب بأبي الفتوحات، يباشرها بنفسه وآثاره وعمائره كثيرة جداً، توفي في دمشق في مرقد أقيمت حوله (المكتبة الظاهرية).

يقول العمادي: وكان ملكاً سرياً غازياً مجاهداً مؤيداً يضرب بشجاعته المثل، فتح (٤٠) حصناً كانت مع الفرنج كما نقله عن ابن شهبة في تاريخ الإسلام.

ويقترن اسمه بالمعركة الفاصلة بينه وبين التتار والصليبيين في (عين جالوت) (٦٥٨ هـ ـ ١٢٥٩ م) وقبلها معركة المنصورة ٦٤٧ هـ ـ ١٢٤٩ م في (يوم الكبسة).

ب ـ **الأشرف خليل بن قلاوون** (ت ٦٩٣ هـ ـ ١٢٩٣ م) الذي استفتح ولايته (٦٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م) بالجهاد، فقصد البلاد الشامية، وقاتل الإفرنج فاسترد منهم عكا وصور وصيدا وبيروت، وبيسان وجميع الساحل، وتوغل في الداخل، وكان شجاعاً مهيباً عالي الهمة جواداً، له آثار عمرانية.

ويقترن اسمه بتحرير آخر الحصون والمدن التي استولى عليها الصليبيون، وخاتمتها طردهم من مدينة (عكا) بعد معركة حامية (٦٩١ هـ ـ ١٢٩١ م) وفشلهم العسكري وخيبة أطماعهم.

ثانياً ـ الاطار التاريخي في المغرب العربي

ومن المناسب ايجاز السلالات الحاكمة في المغرب العربي والأندلس، من

أجل ابراز صورة كاملة للواقع الإسلامي في العالم المترامي الأطـراف وايضاح أن الحركة الصليبية العالمية كانت تجتـاح الأندلس والـبرتغال وصقليـة، وهي على صلة وتعاضد مع الحملات الصليبية إلى بلاد الشام.

١ ـ ملوك الـطوائف: ومن أواخـرهم المعتمـد محمـد عبـاد(المعتضد) (ت ٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٥ م) المعـروف بأدبـه وحبه الشعـر، حيث جعل قـرطبة عاصمته، وأمـر أن تزرع هضـابها بـأشجار اللوز فـتزهر آخـر الشتاء بيضـاء كالثلج، وأمر بسحق الطيوب وذرهـا في ساحـة قصره وصب فيها مـاء الورد وعجنت بـالأيـدي حتى عـادت كـالطيـن، بنـاء عـلى رغبـة زوجتـه (اعتـماد الرميكية)، ثم آل أمره إلى الفقر وتكبيل يديه بالحديد،ونفيه مع زوجته وبناتـه إلى مراكش حيث كن يغزلن للناس بالأجرة، ومات على ذلك.

ومن المناسب أن نذكر هجمات (الفونسو) السادس لبلاده ونجـدة (يوسف بن تاشفين) من المـرابطين للدفـاع عن المسلمين وانتصـاره عليـه في معـركـة (الـزلاقـة ٤٨٣ هـ ـ ١٠٩٠ م) انتصـاراً مؤزراً لم ينـج منهـا الفـونســو الا بصعوبة.

٢ ـ الموحدون: وهم من قبيلة (مصمـودة) البربـرية، ورجلهم محمـد بن تـومرت (ت ٥٢٥ هـ ـ ١١٣٠ م) واتخـذ لقب المهـدي لإحيـاء السنـة، أمـا مؤسس دولتهم فهو عبدالمؤمن بن علي الذي وحـد الساحـل الإفريقي قـاطبة من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر بالاضافة إلى الأندلس، وصار يخطب له بـاسم أمير المؤمنـين. . . ثم تعاقب الخلفـاء حتى سقطت عـاصمتهم مراكش ٦٦٨ هـ ـ ١٢٦٩ م بيد (بني مرين) من البربر أيضاً.

٣ ـ بنـو الأحمر: استهـدفت الأندلس الممـزقة لغـارات عنيفـة من مملكتي ليون وكاستيل بعد توحيدهما (ت ٦٢٨ هـ ـ ١٢٣٠ م) على يد فردناند الأول ثم ولـده الفونس وطمعـوا فيها، حتى إن الفـونس السابـع لقب نفسـه بملك الـديانتـين. ولكن الخطر الأكـبر والأشد عنفاً في أيام غـرناطـة الأخيرة بعـد

منتصف القرن الثالث عشر حيث كانت مستهدفة لعمليتين: تنصيرها، وتوحيدها، وذلك بعد زواج ملك الأراغون بايزابيلا ملكة كاستيل ٨٧٤ هـ ـ ١٤٦٩ م، ودخلتها جيوشهما وسلخت غرناطة من أبي عبدالله محمد في كانون الثاني ٨٩٨ هـ ـ ١٤٩٢ م وقالت أمه له: يحق لك أن تبكي كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.

ولكن الاضطهاد والتنصير استمر على يد الملكين الكاثوليكيين اللذين نكثا العهد ونقضا الشروط، وعلى يد الكاردينال زيمس ٩٠٥ هـ ـ ١٤٩٩ م لحمل المسلمين على التنصير، واشعلت النار بالمخطوطات العربية بعد ترجمة معظمها إلى اللاتينية والإسبانية، ثم أنشىء ديوان التفتيش لامتهان المسلمين وتعذيبهم في صور مذهلة مفزعة.

ثالثاً: بين الفاطميين والتتار

أعلن الفاطميون خلافة المسلمين فيهم وكان منهم الحاكم بأمر الله (ت ٣٨٦ هـ ـ ٩٩٦ م) وأبو الميمون عبدالمجيد (٥٢٤ هـ ـ ١١٢٩ م) كما سبقت الإشارة.

ثم أدرك نور الدين بن عماد الدين زنكي ضعف دولتهم وتنازعهم فأرسل قائدة أسد الدين شيركوه الأيوبي ومعه صلاح الدين الأيوبي لحل المنازعات وتولى شيركوه بعدها منصب الوزارة من قبل آخر الفاطميين (العاضد) وبعد وفاة شيركوه تولاها صلاح الدين الذي أنهى فيها بعد الخلافة الفاطمية ٥٧٦ وسيطر على مصر بالدولة الأيوبية ثم تابع جهاده ضد الصليبيين في بلاد الشام.

وعلى حين أن المؤرخين عموماً والمسلمين منهم خصوصاً يستغربون وربما يستنكرون موقفهم السلبي من الاجتياح الصليبي، ومعايشتهم إلى جوارهم بعد استتباب مملكتهم في القدس، فإن معظم المؤرخين المسلمين ينوهون بصلات الخيانة والتآمر مع الصليبيين ضد المسلمين والقوى المجاهدة.

ذكـر ابن الأثير وغـيره صوراً من التـآمر المشـين في الحملة الصليبية الأولى، ومنهـا: ان أصحاب مصر من العلويـين (الفـاطميـين) لما رأوا قـوة الـدولـة السلجوقية (السنية) وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشـام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم. . . فخافـوا وأرسلوا إلى الفرنـج (الصليبيين) يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين[٧].

وأثناء الإستيطان الصليبي ذكر أن عسقلان كـانت للعلويين المصريـين ثم إن الخليفة الآمر بأحكام الله (الفاطمي) استعمل عليها انسانـاً يعرف بشمس الخـلافة، فـراسل بغـدوين ملك الفرنـج بالشـام وهـادنـه وأهدى إليه مـالاً وعروضاً، فامتنع به من أحكام المصريين عليه[٨].

أما التتار وهم المغول القادمـون من منغوليـا وشمال منشـوريا فقـد اسقطوا الخلافة الاسلامية في بغـداد سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م عـلى يد هـولاكو وقتـل الخليفة المستعصم بالله وكانت همجيتهم وبدائيتهم وتخـريبهم المدن واتـلافهم التراث الانساني ثم الإسلامي موضع إجماع المؤرخين مسلمين وغير مسلمين.

ووصفهم ابن الأثـير أبلغ الـوصف المؤثـر في حـوادث ٦١٧ من كتـابـه: الكامل. فكانوا غالباً يدينون بالبوذية معروفين بالمذابح الرهيبة على يد جنكيز خـان (ت ٥٦٣ هـ ـ ١١٦٧ م) وتيمـورلنـك (٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٥ م) الـذي اكتسح سورية الشمالية واستولى عـلى حلب، ثم سقطت دمشق في يـده، ثم زحف إلى بغـداد للمرة الثـانية، وهـو يعيث الفساد في كـل مدينـة أو قريـة. ويبـدو عنفوان صـلاتهم بالصليبيـة اتفاقهم معهم في حـرب المسلمـين ضمن جبهتين غربية وشرقية وبخاصة في معركة (عين جالوت) التي انتصر فيها قـطز مع قائده بيبرس (٦٥٨ هـ ـ ١٢٥٩ م).

إذاً فإن الفاطميين والتتار يدعمون الحملات الصليبية في أوقـات وأحوال

---

(٧) ابن الأثير في الكامل: ١٨٦/٨ في حوادث سنة ٤٩١.

(٨) المرجع السابق، ٢٦٠/٨ في حوادث سنة ٥٠٤.

متقـاربة. وربمـا كان ثمـة اتفاق مقصـوداً وغير مقصـود في مثل هـذا الـدعم الآثم.

ثانياً: بواعث الحملات الصليبية[٩]

إن الـدافـع الـديني هـو أقـوى الـدوافـع للحـروب الصليبيـة ومنهـا: الاقتصـادي، السياسي، الاجتـماعي وكلها دوافـع ثانـوية بـالنسبة للـدافـع الديني.

ثم إن هـذه الـدوافـع استغلت الحـماسـة الـدينيـة التي كـان ينـادي بهـا البابوات، والرهبان، وكذلك استغلت الحـماسة الشعبيـة المتأججـة في نفوس عامة الناس، ولذلـك فإننـا لا نستطيـع أن نهمل الـدوافع الأخـرى، ونتيجة لهـذه الحماسـة (الدينيـة والشعبية) حقق الصليبيـون مقـاصـدهم ومكـاسبهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية.

١ ـ الباعث الاقتصادي

فقد أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادي وأهميته في تحريك كثير من الهجرات والحروب الهـامة في التـاريخ، وتـوضح جميـع الوثـائق المعاصرة سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا وبخاصة في فرنسا في أواخـر القرن (الحـادي عشر م) الذي يعتـبر بدايـة الحملات الصليبيـة ـ فـالمؤرخ المعـاصر (نوجنت) يؤكد أن فرنسا كانت تعاني من مجاعة شاملة قبيل الحملة الصليبيـة الأولى، فندر أو قلّ وجـود الغلال، وارتفعت أثـمانها مما تـرتب عليه حـدوث أزمـة في الخبز. ويقـول في ضـوء هـذه الحقيقـة يمكننـا أن نفسر زيـادة نسبـة الفرنسيين الصليبيين، المشتركين في الحملة الصليبية الأولى. . .

ثم يقـول (نـوجنت) إن هـذه الأزمـة ألجـأت النـاس لأكـل الأعشـاب والحشـائش، وزاد من سوء الأحـوال الاقتصـاديـة في الغـرب الأوروبي كـثرة

---

(٩) انظر فصلاً كاملاً في: الحركة الصليبية ١/٢٧ د. سيد عاشور.

الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ولذلك ليس من العجيب أن تضم الحملة الصليبية الأولى جموعاً غفيرة من الفقراء والمعدمين والمساكين.

ومن ناحية ثانية نجد أن إيطاليا قدمت مساعدات بحرية كثيرة ولم تكن هذه المساعدات في مجملها إلا بدافع اقتصادي وذلك لتحقيق مصالح وأرباح من جراء الحروب الطويلة.

ونلاحظ ان الجمهورية الايطالية عقدت معاهدات مع القوى الصليبية بالشام وحصلت بموجبها على امتيازات إقتصادية هامة.

ففي معظم موانىء الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون، تمتعت المدن الايطالية التجارية باعفاءات خاصة إذ منح الملك (بلدوين) الثاني ملك بيت المقدس تجار مرسيليا حياً خاصاً بهم سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م ثم أعفاهم بعد ذلك من الضرائب.

إذاً فالعامل الإقتصادي لعب دوراً هاماً في دفع الفقراء والمعدمين إلى الحرب من ناحية كما دفع التجار والمستغلين من ناحية ثانية إلى المساهمة في الحملات الصليبية، فقد اندفعوا جميعاً وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب العالم العربي بغية استغلال موارده وخيراته والمتاجرة فيها.

ان التجار استغلوا الحماسة الدينية فحصلوا على مكاسب (مادية) وأقاموا مراكز للتجارة بين الشرق والغرب.

ولكن هذا الدافع ليس أساسياً أو رئيسياً وإنما دافع ثانوي. إذ أن الجفاف والضعف الإقتصادي لم يكن ليحمل هؤلاء الصليبيين إلى مغامرة قد تسفك بها دماؤهم في بلاد نائية.

٢ ـ الباعث الاجتماعي:

ويتمثل هذا الدافع في الأصل بتكوين المجتمع الأوروبي حينذاك فقد كان

مؤلفاً من ثلاث طبقات:

(١) طبقة رجال الدين: ـ وهم الكنسيون.

(٢) طبقة المحاربين: ـ وهم النبلاء والفرسان.

(٣) طبقة الفلاحين وهذه الطبقة تمثل الأكثرية بالنسبة إلى الطبقتين الأوليين.

وينبه بعض المؤرخين إلى أن الآلاف من الفلاحين عاشوا في غرب أوروبا عيشة منحطة في ظل نظام الإقطاع حيث لم يسمح لهم الا بتشييد أكواخ قذرة من جذوع الأشجار قد أخرجوا من بلادهم تحت ضغط البابوية وإلحاحها، بل وتهديدها بعزلهم من الحكم.

وأستثني من هذه المجموعة (لويس التاسع) ملك فرنسا الذي كان معروفاً بورعه وتقواه وتدينه.

وأبرز مثل لدينا على إكراه البابوية لهؤلاء الملوك هو: ـ إن الأمبراطور (فردريك الثامن) الذي أخذ البابوات واحداً بعد الآخر يلحّون عليه في الخروج على رأس حملةصليبية، ولم يجد الإمبراطور دافعاً يدفعه للقيام بمثل هذه الحملات ولكن البابوية كانت تتوعده وتهدده حتى أصدرت ضده قرار الحرمان، وعندئذ خرج (فردريك) مكرهاً على رأس فئة قليلة من رجاله إلى الشام.

وبادر بمجرد وصوله إلى الإتصال بالسلطان (الكامل الأيوبي) ليشرح له موقفه وانه ليس له غرض في القدس ولا في غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه (حقه) عند الافرنج، وكذلك فإن معظم الأمراء كانوا يجرون وراء الأطماع السياسية التي يمكن أن تخولهم في توسيع مراكزهم داخل الدولة وخارجها.

ويدلنا ذلك: ـ أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم ويتنازعون في مقادير الغنائم التي سيحصلون عليها فيما بعد قبل أن يصلوا إلى البلاد المراد الإستيلاء عليها...

لذلك فكان يعنيهم النفوذ السياسي كالملوك تماماً أكثر مما يعنيهم الدافع الديني.

ويضاف إليه أن الحملات قد رافقتها الفظائع والقتل الجماعي وخراب المدن وفروعها المغطاة بالقش.

ثم إن هذه الطبقة العريضة في المجتمع الأوروبي (الفلاحون) عاشوا مثقلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات المالية والخدمات المجانية أو شبه المجانية (خدمات للسيد الإقطاعي) مثل فلاحة أرضه فضلاً عن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل شق الطرق، واصلاح الجسور، وحفر الخنادق. وذلك كله بدون أجر مناسب... بل وكان على الفلاحين أن يدفعوا نوعين من الضريبة:

(١) ضريبة رأسية (على كل رأس منهم).

(٢) ضريبة إنتاجية على ما تنتجه أرضهم من خضروات وثمار وهذا كله أدى بهم إلى العيش في ذلة ومهانة، فوجدت هذه الآلاف الذليلة عند اعلان الحروب الصليبية أنها بحاجة إلى تحسين وضعها في المجتمع الأوروبي لذلك سارعت إلى المساهمة بأن تكون جنوداً فيها ليتخلصوا من ذلهم ومهانتهم والرغبة في حياة أفضل. وهذا الدافع ثانوي أيضاً لأنه لم تتغير الأحوال الإجتماعية عقب الحروب الصليبية كما أنه يصعب جداً على هؤلاء الفلاحين وغيرهم أن يعرضوا أنفسهم لمغامرات الحروب في بلاد بعيدة من أجل تحسين الأحوال الاجتماعية الموهومة. مما يجب أن نعرف أن الحماسة الدينية كانت تملأ قلوب هؤلاء الفلاحين فتدفع بهم إلى بيت المقدس.

٣ ـ الباعث السياسي:

وهو دافع استغلالي حيث إننا نجد ملوك الدول الأوروبية وأمراءها يستجيبون لدعوات البابا في الحملات الصليبية وذلك لترسيخ حكمهم وتعضيد سلطانهم، فقد ذكر المؤرخون أن (فردريك بربروسا) و (ريتشارد

قلب الأسد) و (فيليب أغسطس) وغيرهم والمذابح وسبب التعصب المقيت في جميع أعمالهم العسكرية التي ضربت البلاد وأبادت المحاصيل وأعاقت الحركة التجارية، وأضعفت الحركة العلمية، بينما استفادت الحركة الصليبية هي نفسها وأفادت غيرها من الأمم الغربية. بيد أن هذا الدافع ثانوي أو فرعي أيضاً لأنه لا يشمل جميع الأباطرة والملوك والأمراء المتعصبين لكنائسهم والخاضعين لسلطان البابوية.

٤ ـ الباعث الديني الكنسي الصليبي

وهو أعظم الدوافع وأبرزها وأهمها فهو يطغى على سائرها ويسخرها لمصالحه ومآربه ونتبين ذلك من المظاهر والاحداث التالية:

١ ـ ان البابا (أريانيوس) كان يحمس عامة الناس على خوض الحروب الصليبية، وقد خطب خطبة ألهبت عواطف الناس وكان ذلك في جنوب فرنسا في مقاطعة (كيرمونت) وهو يحث النصارى على الجهاد المقدس بنظرهم، واتخذ لذلك شعاراً يردده على الجماهير المحتشدة قائلاً (ديوس لوفولت) وتعني (ارادة الله) كما اتخذوا شعاراً بوضع شارات الصليب على أكتافهم لتزيدهم حماسة واندفاعاً.

٢ ـ ويبدو الدافع الديني واضحاً بإظهار الصليبيين أنهم حماة الأماكن المقدسة في بلاد الشام التي تعرض بعضها للدمار والخراب ويضربون لذلك المثل بكنيسة القيامة التي تعرضت للخراب وتعرض روادها للإيذاء وذلك في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي. علماً بأن الحكم الاسلامي كان يرعى هؤلاء الكتابيين رعاية تليق بدياناتهم السماوية ويتسامح معهم على ممارسة طقوسهم الدينية والمحافظة على كنائسهم فقد غفل عن ذلك كله وبرّر هذه الحملات بأنها حماية للكنائس والمقدسات المسيحية.

ويضاف إليه أن عمل (الحاكم) المضخم عمل فردي من حاكم قلما يفكر في التسامح الاسلامي عبر العلاقات الاسلامية البيزنطية.

وإذا كـان الغرض حمـاية الكنـائس وحجاجهـا فلماذا بقي الصليبيون مـدة قرنين بهذه الحجة بعد أن استولوا عليها وقـد تغيرت السـلالات؟ وما عـلاقة البلدان الأخرى التي لم تشملها حماية الكنائس؟

٣ ـ اعادة هذه المقدسات الـدينية وأهلهـا إلى النصرانية، ولم يـلاحظوا أن الإسلام، أتى محرراً لهم ولبـلادهم من عبادة الأصنـام ونقلهم إلى عبادة الله. فقـد عزّ عـلى الغربيـين أن يتحول أهـل الشام ومصر والعـراق إلى الإسـلام ويهـديهم الله تعالى بـه بعد أن كـان عرب الغسـاسنة والمنـاذرة في النصرانية، وكان بعضهم في الوثنية، فأراد هؤلاء الاحتفـاظ بالأمـاكن المقدسـة، وإعادة أهلها إلى دينهم القديم في ظل الاستعمار البيـزنطي، ولكن يجب أن نفهم أن أهل الشام لم يجبروا على ترك ديانـاتهم السماويـة إلى الإسلام وانمـا دخلوا فيه طـواعية، وقـد كان الاسـلام بالنسبـة اليهم فتحـاً عـادلاً وحضـارة فكـريـة استطاعوا بها أن يتقدموا في العلوم والمعارف.

٤ ـ أنشأ هؤلاء الصليبيون (صكوك الغفران) وهي شهادات يعطيها البابا أو من ينوب عنه تبين بأنها تمحو ذنوب إنسان قدم ماله كله أو بعضه في سبيل تجهيز المقاتلين الصليبيين حيث أعطوا أنفسهم وظـائف يستحقونها بـاعتبارهم بشـراً لا يملكـون من أمـر الغفـران ولا من أمـر الآخـرة شيئـاً، ثم أصبحت الصكوك مورداً مالياً للخزانة البابوية بقية العصور الوسطى.

٥ ـ ومن مظاهر الدافع الـديني الخطيرة محـاولات (أرناط) غـزو الحرمـين: وأرناط هذا كما سماه العرب هو (رينو دي شاينون) وصفه (كينك) أنه نمـوذج الفـارس اللص في عصره، اتصف بالجشـع وعدم الـوفاء والغـدر والوحشيـة والتعصب الأعمى، ولم تفلح الخمس عشرة سنـة التي قضـاهـا أسيـراً في (حلب) في تعـديـل سلوكـه أو تهـذيبـه، وذلـك حـين أسره المسلمـون سنـة ٥٧١/٥٥٦ هـ ـ ١١٧٥/١١٦٠ م.

كما وصفه المؤرخ المسلم (أبو شامة) أنه أغدر الفرنجـة وأخبثها وافحصهـا

عن الردى والرداءة، وأبحثها، وأنقضها للمواثيق المحكمة والإيمان المبرمة وأنكثها وأحنثها[١٠]. . .

وبشيء من التفصيل نقول: كان قد استولى على حصن (الكرك)، ولكنه كان يتطاول إلى طعن الإسلام في قلبه بغزو الحرمين وذلك سنة ٥٣٨ هـ ـ ١١٨٢ م، فدأب قبلها على مهاجمة قوافل الحجاج وهم في طريقهم إلى الحرمين.

وبدأ تنفيذ حلمه المشؤوم بالإستيلاء على (أيلة) المركز الهام على خليج العقبة، ثم بنى عدة سفن حيث أغار بها على الموانىء العصرية الصغيرة على البحر الأحمر، ثم نقل نشاطه الهدام إلى الشاطىء المقابل «فعظم البلاء وأعضل الداء، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم»[١١]، وقد دهش المسلمون لتلك الجرأة، إذ لم يسبق أن «وصل رومي إلى ذلك الموضع»[١٢]، بل ان المقريزي يؤكد أن الصليبيين صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة. . . فوصلوا إلى قرب (ينبع) حيث أغاروا على القوافل، وتعهد بعض الخونة من البدو إرشادهم إلى داخلية البلاد[١٢].

وفي رسالة للقاضي الفاضل أوردها أبو شامة وابن واصل أن الصليبيين استهدفوا من وراء تلك العملية الحربية تحقيق هدفين خطيرين: أولهما: قطع «طريق الحاج عن حجه» وضرب العالم الإسلامي في قلبه، وطعن المسلمين في قبلتهم، وثانيهما: الإستيلاء على (عدن) لأخذ «تجار اليمن وأكارم عدن» وبذلك يتمكنون بفضل السيطرة على أيلة شمالاً، وعدن جنوباً، من إغلاق البحر الأحمر في وجه أعدائهم، واحتكارهم تجارة الشرق والمحيط الهندي[١٣].

---

(١٠) الروضتين ٢/٧٥ نقله الحركة الصليبية، المرجع السابق، ٢/٧٨٥ حاشية.
(١١) المقريزي في: السلوك في معرفة دول الملوك، ١/٧٩.
(١٢) ابن واصل في: مفرج الكروب ٢/١٢٧.
(١٣) الروضتين ٢/٣٧.
(١٤) انظر ابن واصل ٢/١٣٠ وأبو شاقة ٢/٢٦ ـ ٢٧.

وأسرع (العادل) أخو صلاح الدين إلى إعداد اسطول قوي تحت قيادة الحاجب (حسام الدين) الذي بدأ بحصار (آيلة) «وظفر بمراكب الفرنج فحرقها وأسر من فيها» ثم أسرع بعد ذلك بتعقب بقية السفن الصليبية عند (عيذاب)[14]، فشواطىء الحجاز. وقد أخذ الصليبيين على غرة، فترك بعضهم السفن ولاذوا بالجبال ثم أسرهم (حسام الدين) جميعاً، وكان موسم الحج قد أزف فأرسل أسيرين إلى (منى) حيث نحرا «كما تنحر البدن»[15]، في حين عاد هو ومن معه وبقية الأسرى إلى مصر وقتلهم صلاح الدين جميعاً وأقسم على قتل «ارناط» في مناسبته.

٦ ـ **حملة الأطفال**: فقد سرت العدوى الصليبية سنة ٦٠٩ هـ ـ ١٢١٢ م إلى إثارة الرأي المسيحي العالمي حيث ظهر طفل (١٢) سنة في وسط مجلس عقده (فيليب أوغسطس) الفرنسي قائلاً: إن المسيح سلمه رسالة أثناء قيامه برعي أغنامه، وأنه أمر أن يقوم الأطفال وحدهم بحملة صليبية.

وعلى الرغم من أن (فيليب) لم يعبأ به فإنه نجح في جمع (٥٠) ألف طفل، حملتهم سبع سفن، ولكن لم يعلم بمصيرهم، ويظن أنه مات ثلثهم، والباقي قذفت بهم الأمواج على شواطىء افريقية حيث بيعوا في أسواق الرقيق، وحمل بعضهم إلى الاسكندرية وبغداد[16].

إذن فإن الدافع الديني هو أبرز الدوافع الذي استطاع أن يسخر الأسباب الإقتصادية والسياسية والإجتماعية لمصلحته بينما نجد الإستعمار الغربي استطاع أيضاً أن يخضع الدافع الكنسي من أجل استعمار الشرق العربي الاسلامي.

من هنا فإن ما يسمى بالمسألة الشرقية بدأت من الحروب الصليبية وما

---

(١٤) ميناء مصري مقابل جده.

(١٥) الحركة الصليبية السابق ٢/٧٨٤ ـ ٧٩١.

(١٦) المرجع السابق، ٢/٩٥٥.

تزال آثارها إلى الآن حروباً استعمارياً عسكرية تارة وفكرية تارة أخرى، إنها تلبس أردية فاضحة في بعض الأحيان ومستورة في أحيان أخرى.

وإذاً فلا غرابة، أن تتصف حملاتهم بالوحشية والبربرية والقتل الجماعي والتدمير للمدن الآهلة بالسكان، فقد ذكر ابن الأثير[١٧] ان الفرنج قتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على (٧٠) ألفاً من المسلمين المصلين، ومنهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة...

ثالثاً: فشل الحملات الصليبية عسكرياً

فقد كان الصليبيون يتوقعون نصراً فكرياً وظفراً عسكرياً في اجتياحهم العسكري الطويل. ومع أنهم استقروا أكثر من قرن فإن عوامل الضعف بدأت تدب بينهم ولم تنفعهم كثيراً جيوشهم الجرارة التي أخذت المسلمين على حين غرة.

يضاف إلى هذا أن المقاومات كانت تزداد حجماً وعنفاً من كل حصن وقرية ومدينة اسلامية، كما أن العلماء مارسوا مسئولياتهم الدينية والجهادية فراحوا ينصحون الحكام الضعفاء ويحمسون عامة الناس ويخطبون ويكتبون عن فضائل الجهاد في سبيل الله.

ونبغ نماذج متميزة من القيادة الحاكمة تمتعت بصفات عسكرية وفهم عال للأخطار الجاثمة حولها وفي عقر دارها وأخذت بأيدي المسلمين إلى التحرير.

أ ـ عوامل مساعدة في الفشل العسكري:

تضافر عدد من العوامل ساهمت في اضعاف الصليبيين وتقوية المسلمين في

---

(١٧) الكامل ٨/١٨٩ في حوادث سنة ٤٩٢.

دحر اعدائهم الوافدين. ومنها:

١ ـ **الاضطراب المستمر في الحياة المدنية والعسكرية**: فقد قاوم المسلمون أعداءهم في جميع الأوقات والحالات حتى في فترة الاستقرار الصليبي. وكانت هذه الاضطرابات تعبر بشكل عملي عن رفض الدخلاء وتزعجهم وبخاصة حين كشفوا عن نوايا عدوانهم الاستعمارية. ولم يكن الصليبيون ينعمون بثمرة ظفرهم الا حين ينقسم المسلمون على بعضهم ويختلفون فيما بينهم أو يصل ببعضهم الضعف المزري إلى خيانة دينه وبلاده فيضع يده في أيدي المستعمرين الطغاة ضد اخوانه وبني دينه.

٢ ـ **الشعور العدائي العنيف للإنسان الغربي** الذي ذاقت البلاد الاسلامية منه أشد القسوة وأشرس الهجمات وأقبح الصفات فلم تكن للصليبيين فضيلة نبيلة سوى الشجاعة كما وصفهم أسامة بن منقذ، ولم يكونوا يحوزون أية صفة حضارية تمكنهم من البقاء في بلاد غير بلادهم بل كانوا على العكس تماماً أصحاب غدر ونقض للعهود، خالين من الفضيلة العلمية والأدبية، متمسكين بالعنف والبغض وحب القهر والضيق الفكري والكراهية.

ومثل هذه الصفات كانت تقوي شعور المسلمين بعدائهم وكراهيتهم، وإن حاول بعضهم أن يتظاهر بحياة تشبه حياة أغنياء المسلمين فأقاموا لأنفسهم بيوتاً كالبيوت العربية وتسموا بأسمائها وسلكوا عاداتها، وأحياناً تزوجوا وأقاموا أسرهم منها.

٣ ـ **القادة المجاهدون**: فقد أحس كثير من أمراء المسلمين بمسؤولياتهم الدينية وواجباتهم الاسلامية فكانوا يقودون شعوبهم إلى ميادين القتال بأنفسهم ويحمسون جندهم للإستبسال ضد أعدائهم ويذكرونهم بمعاني الجهاد العظيمة.

وهكذا التحمت القيادة المجاهدة مع أفراد جندها ثم وحدت صفها مع الفصائل المجاهدة الأخرى ضمن اطار المسؤولية الجماعية المشتركة.

١ ـ تحرير المدن الاسلامية الكبرى:

لقد تساقطت المدن الاسلامية بيد الأمراء والقادة المسلمين بداية من الأتابكة (السلجوقيين)، ونهاية بالمماليك (الشراكسة والأتراك). وبدأت العمليات التحريرية من الشمال الشرقي لبلاد الشام وشملت فيها بعد المدن الساحلية والداخلية، وتوّجت بتحرير القدس، ثم انتهت باسترداد عكا وحصونها المنيعة.

أ ـ **الرها (أورفا) بين نهري دجلة والفرات**، حيث كانت تجمع مدارس الفلسفة والعلوم إلى اللاهوت، وصلة الوصل بين الساحل الشامي والمدن العراقية والفارسية في الداخل، ثم هي المنطقة الفاصلة بين الامبراطورية البيزنطية شمالاً وبين بلاد الشام جنوباً.

وكان الأمير (جوسلين) قد استأثر بها وحكمها، فبدأ عماد الدين زنكي بمهاجمتها بعد حصار دام أربعة أسابيع ودخلها سنة ٥٣٩ هـ ـ ١١٤٤ م وقد عرف عن (زنكي) قوله (إنه لا يجوز في السياسة تخريب مثل هذه البلد).

قام أبنه نور الدين بتحرير القرى والمنطقة حولها فيما بعد.

ب ـ **إنطاكية وطرابلس**: وبطلها الشهيد نور الدين بن عماد الدين السابق، فقد قدم إلى انطاكية وانتزعها من أميرها الصليبي (بوهمند) الثالث سنة ٥٥١ هـ ـ ١١٦٤ م، ثم اتجه إلى طرابلس وأسر صاحبها (ريموند) الثالث، فأصبح لديه اميران أسيران، ولكنه عرف مقامهما فأطلق سراحهما. وحين عاد الصليبيون إلى انطاكية نهض إلى تحريرها (بيبرس) سنة ٦٦٦ هـ ـ ١٢٦٨ م. ولا يخفى أهمية هاتين المدينتين وبخاصة (أنطاكية) من الناحية الدينية والعسكرية، فقد دخل الأشرف (خليل

بن قلاوون) مرة أخرى على طرابلس وطرد الصليبيين منها سنة ٦٨٩ هـ - ١٢٨٩ م.

ج - **القدس**: وكانت عاصمة المملكة الصليبية لفترة زادت عن قرن يتعاقب عليها ملوك الفرنج، عمل صلاح الدين الأيوبي على تحريرها بعد توحيد جيشي وشعبي سوريا ومصر، وذلك بعد موقعة حطين الكبرى سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م. ويعدّ استرداده للمسلمين في ٢٠ أيلول سبتمبر ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م أي بعد أربعة أشهر من موقعة حطين السابقة أعظم عملية تحررية مقدسة في العصر الحديث، ثم استطاع الصالح أيوب الاتصال بـ (الخوارزمية) الذين بلغ تعدادهم عشرة آلاف مقاتل، وأغاروا على القدس الذي كان أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين، وليس فيها ملك أو زعيم صليبي... وهكذا اقتحموا القدس في ١١ تموز/يوليه سنة ١٢٤٤، واستولوا عليها بسهولة، وبذلك عادت نهائياً إلى المسلمين.

د - **عكا**: المعروفة بمناعة حصونها وأسوارها كانت آخر المدن المحررة من الصليبيين على يد الأشرف الخليل بن قلاوون، وقد عرفوا أنها آخر معاقلهم، فحشدوا لها جموعهم براً وبحراً بالإضافة إلى الوافدين الجدد حتى اجتمع ما بين ٣٠ - ٤٠ ألفاً من المقاتلين، وعلى الرغم من استبسالهم في الدفاع عنها والتجائهم إلى حصونها فإنهم اضطروا إلى القاء السلاح بعد أن اشتد حصارهم، وأخلوها في مايس (مايو) سنة ٦٨١ هـ - ١٢٩١ م، وبذلك تكاملت الفتوحات واسترد المسلمون بلادهم، ورجع الصليبيون إلى أوطانهم فاشلين يجرون أذيال الخيبة والخسران.

رابعاً: بدايات الغزو الفكري عقب الحروب الصليبية

محاولات التنصر الأولى:

فقد أظهر (البابا نيقولا الرابع) ٦٨٧/٦٩٢هـ - ١٢٨٨/١٢٩٢م استياءه البالغ لسقوط طرابلس ثم عكا في قبضة المسلمين ثم سعى لإثارة الغرب الأوروبي في حملة صليبية إلى الشرق ولكنها باءت بالفشل ومات كسيف البال[٢٦].

١ - عدم جدوى العمل العسكري:

ومن الواضح أن أبرز نتائج الحركة الصليبية هو قناعة الكنيسة الغربية بعدم جدوى الحملات المسلحة لنشر المسيحية بالقوة، فاتجهت نحو البعثات التبشيرية لنشر مبادىء المسيحية بين المسلمين وتنفيذ سياستها عن طريق

(١٨) تاريخ العرب مطول: فيليب حتي وزملاؤه ٧٥٣/٣.
(١٩) انظر مثلاً أحداث انتقال السلطة من الأيوبيين إلى المماليك ثم أحداث بيبرس مع السلطان قطز، وقلاوون مع الأسرة الحاكمة.
(٢٠) انظر تفصيله في مجلة الفيصل العدد ٧٠ للمؤلف.
(٢١) ذيل تاريخ دمشق لإبن القلانسي ص ٣٣٩.
(٢٢) ذيل الروضتين لأبي شامة ص ١٧٢ وانظر الحركة الصليبية، المرجع السابق ١٠٤٦/٢.
(٢٣) عقد الجهان: العيني حوادث سنة ٦٤٧.
(٢٤) الحركة الصليبية السابق ١٠٦٩/٢ عن: حملة لويس التاسع على مصر: محمد مصطفى زيادة ص ١٥٦.
(٢٥) المقريزي في: السلوك ٣٥١/١.
(٢٦) الحركة الصليبية ١١٩٢/٢ وما بعد.

الاقناع، وذلك بعد أن رأت عبث الجهود والتضحيات التي بذلتها بالأموال والأرواح دون أن تحصل على نتيجة واضحة.

وحين وقع لويس التاسع في الأسر أثناء الحروب الصليبية الأولى وسجن في المنصورة أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، جعل يفكر في سجنه، فلما فك أسره وعاد إلى قومه قال: ان التغلب على المسلمين بالسلاح وحده غير ممكن، وإن على أوروبا إذا أرادت التغلب على المسلمين أن تحاربهم من داخل نفوسهم، وأن تقتلع العقيدة الاسلامية من قلوبهم.

وبدأت بوصول القديس (فرانسيس) إلى مصر سنة ٦١٦ هـ - ١٢١٩ م، وقدم مواعظه الدينية في حضرة السلطان الكامل، ثم استمر أتباع ذلك القديس فضلاً عن اتباع القديس (دومينيك) يواصلون جهودهم في النصف الأول من القرن الثالث عشر.

ومن هنا فإنه لا بد مع هذه القناعة الإلزامية من أعمال عسكرية على مستوى يفوق الحملات الصليبية وذلك على المدى البعيد، فاتخذت الحركة التبشيرية اتجاهاً جديداً عندما فكر (لويس التاسع) السابق ملك فرنسا في نشر المسيحية بين المغول جميعاً، وبذلك يقع المسلمون في الشرق الأدنى بين شقي الرحى، ولا يجدون مناصاً من اعتناق المسيحية، وأرسل المبشر (وليم روبركوي) إلى خان المغول لإقناعه وقومه بالدخول في المسيحية، كما أشار (لويس التاسع) على البابا (أنوسنت الرابع) بانشاء جمعية التبشير الأولى سنة ٦٥١ هـ - ١٢٥٣ م وهي الجمعية التي ضمت عدداً كبيراً من المبشرين الفرنسيسكان والدومينيكان[٢٧].

٢ - التخطيط الفكري التنصيري:

ثم استمرت الدعوة إلى غزو العالم الاسلامي فكرياً، وذلك بأسلوب

---

(٢٧) المرجع السابق، ١٢٨٧.

الخطابة الذي كان يقوم به بطرس الناسك وغيره لتحريك عواطف الناس، وإنما كان بأسلوب الكتابة برسائل وكتب، يرفعها الكهان إلى البابويات والملوك والأمراء، شارحين فيها مشاريعهم الصليبية. ويلاحظ هنا أن آمالهم في استرجاع الأماكن المقدسة عسكرياً كانت مترافقة مع دعواتهم الصليبية العسكرية

ففي سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩١ م تقدم الراهب الفرانسسكاني (فدنزو) بتقرير إلى البابا (نيقولا الرابع) شرح فيه تاريخ الأرض المقدسة، ونوع الجيش الذي يلزم لاسترجاعها، والطريق المفضل الذي يسلكه ذلك الجيش.

وفي العام التالي أي سنة ٦٩٢ هـ - ١٢٩٢ م، تقدم داعٍ آخر من نابولي هو (ثاديوس) بتقرير عن سقوط عكا، وكان تقريره عنيفاً أراد أن يستثير به الغرب لإرسال حملة صليبية جديدة، واختتم التقرير بنداء إلى البابا والملوك ليقوموا بعمل فعال لاستخلاص الأراضي المقدسة من المسلمين.

وفي الوقت ذاته كان نشاط المستشرق والراهب (ريموند لل) التخطيطي (ت ٧١٥ هـ - ١٣١٥ م) ذا أبعاد متعددة، ومنها: أنه في عام٦٩٤هـ - ١٢٩٤م ظفر بمقابلة من البابا (سلستين) الخامس، وقدم له كتابين فيهما خطة للتبشير بين المسلمين في الأكثر، وكانت خطته ذات شقين، أولهما: أن تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتبشير، وثانيهما: أن ينصر المسلمون بالقوة إذا لم تنجح فيهم الجهود السلمية[٢٨].

ويلاحظ هنا استغلال المعاهد العلمية للتنصير وتغيير الأفكار إلى جانب الوسائل العسكرية والعملية الأخرى.

٣ - اعداد الدعاة، ومنه الإعداد للعربية:

وأهم دعاة الحرب والغزو الفكري معاً (ريموند لل) (٧١٥/٦٣٠ هـ -

(٢٨) التبشير والاستعمار ص ٧٧.

١٢٣٢/١٣١٥ م) الاسباني كما سبق. المولود في ميورقة شمـال افريقيا، وقد امتاز بمعرفتـه اللغة العـربية، ودرايتـه بطبيعـة البلاد الاسـلامية بعـد أن قام برحلات متعددة فيها، فوضع مشروعـاً سنة ٧٠٥ هـ ـ ١٣٠٥ م، نـادى فيه بـالعمل عـلى كسب المسلمين وطـوائف المسيحيـين الشرقيـين والهـراطقـة إلى معسكر الكنيسة الغربية عن طريق التبشير، مع التمسك بإرسال حملة صليبية قـوية إلى الشرق، واختـار البدء بـالحملة من اسبانيـا حيث يقوم الصليبيـون بطرد المسلمين منها، ثم ينتقلون إلى شمالي افريقيا، ويزحفون بمحاذاة الساحل إلى تـونس ومصر، في الـوقت الـذي يتخـذ الأسـطول الصليبي (مـالـطة) و (رودوس) قـاعدتـين لمساعـدة الحملة البريـة في محاربـة المسلمين، ولم يفت (ريموند لل) أن يحبذ فكرة الاستيلاء على القسطنطينية.

وتظهر هنا شخصيته الخطيرة في مجال التبشير، فأقنع ملك (ميورقة) بانشاء الثـالوث المقـدس سنة ٦٧٥ هـ ـ ١٢٧٦ م، وهنـاك أخذ يعـد مجمـوعـة من المبشرين للقيـام بمهمتهم، وأهم وسائـل هذا الإعـداد كانت تعليمهم اللغـة العربية.

وبعد أن قضى (ريموند) عشر سنوات في إعداد أعوانه، أوفدهم إلى شـمال أفـريقية، فضـلاً عن بلاد المغـول والأرمن للتبشير بـالمسيحية الكـاثـوليكيـة. وبفضل جهوده قرر مجمع (فينا) سنة ٧١١ هـ ـ ١٣١١م إنشـاء ستة معـاهد لتدريس اللغات الشرقية في أوروبا.

ومثـل هـذا النشـاط وإن بـدا فـرديـاً ولكنـه أصبـح فيـها بعـد جـزءاً من (التخطيط) التنصيري الـذي يبدأ أولاً بـإعداد المنصرين وفق منـاهج خـاصة (مبنيـة على تفهم روح الشرق، وتصـويره من التـأخر والسـوء مـا تحمـل طـالب التبشير على أن يندفع في مهمته اندفاعاً أعمى، وأوجدت مدارس لهذه المهمة منـذ زمن بعيد في روميـة وباريس وطليـطلة، أضافت إلى منـاهجها تـدريبـاً عسكريّاً ـ للتبشير بالقوة.

ومنذ القرن الرابع عشر كان الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان يعملون جاهدين في مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام. . . ثم برزت أواخر القرن السابع عشر فرق أخرى منها: اللعازريون والكبوشيون والاغسطينيون[29]. . . يضاف إلى الرهبان السابقين أفراد تعلموا في المعاهد الرهبانية كانوا يقومون بأعمال تبشيرية مختلفة إن لم يسلكوا مدارجها.

٤ ـ الحكام يشاركون في الإعداد:

وكذلك فإن ملك فرنسا (فيليب الرابع) ٦٨٤/٧١٤ هـ ـ ١٢٨٥/١٣١٤ م) قد اقتنع بحرب صليبية بتحميس البابا (يوحنا الثاني والعشرين) وأصدر مرسومين: الأول سنة ٧٣١ هـ ـ ١٣٣٠ م، يبيح للملك فرنسا جمع ضريبة العشور لمدة عامين بقصد الاستعداد للحرب، والثاني ٧٣٢ هـ ـ ١٣٣١ م ويبيح للملك بيع صكوك الغفران للغرض نفسه[30]، وتقدم له أحد الدعاة (بركارد) بمشروع هام، وكان عاش قرابة أربع وعشرين سنة في الشرق الأدنى قام فيها بنشر المذهب الكاثوليكي بين المسيحيين الشرقيين وبخاصة الأرمن. وشرح (بركارد) في مشروعه أهمية نشر المذهب الكاثوليكي، وإنقاذ المسيحيين الشرقيين من الاضطهاد، ثم استرداد الأماكن المقدسة، وبيّن ضرورة قيام حالة من السلام بين الأمم الأوروبية كشرط أساسي لنجاح أية حملة صليبية في الشرق[31].

وهذه قاعدة راسخة في الاتجاه السياسي بدافع التوسع الاستعماري يضع ستار التنصير ورجاله في خدمة مطامعه. ومن الملاحظ تبادل المصالح بينهما في دعم كل منهما الآخر، حتى إن التنصير أصبح مرتبطاً بالاستعمار ارتباطاً مصيرياً في أحداثه ونشاطاته في جميع العصور.

---

(٢٩) مقتبس من السابق: ٤٧، ٤٨.

(٣٠) انظر في: صكوك الغفران: الحركة الصليبية ٢/١٢٧٧.

(٣١) المرجع السابق، ١٢٧٨.

وقد بدا هذا واضحاً في مقدمات الاستعمار الحديث وأثنائه. فكان التبشير المتعثر في خطاه يستعين بالدول المستعمرة في أماكن متعددة: كالبحرين واليمن (وبعد أن استولى الانكليز على عدن اتخذ المبشرون عدن مركزاً يرسلون منه نشراتهم التبشيرية إلى قلب بلاد العرب، أو يخالطون القوافل ليبشروا في أهلها، وكذلك فعل المبشرون في جزر الهند الشرقية، في جاوة وسومطرة وسواهما)[٣٢].

والألمان مفتخرون وشاكرون لأن المجتمع ممثلاً في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفهم الإمكانيات اللازمة لاجراء بحوث الاستشراق. بل ودعا كل عام أفراد من الحاصلين على شهادة اتمام الدراسة الثانوية يدفعهم اهتمامهم، إلى الإتجاه لدراسة العلوم العربية أو الإسلامية[٣٣].

٥ ـ الرحلات الاستشكافية:

حيث طوقت أقطاراً إسلامية نائية وتعمقت في جغرافية بلاد اسلامية قريبة، تعلن أو تخفى اغراضها الصليبية الاستعمارية القديمة والحديثة:

أ ـ الرحلات الاستكشافية العالمية:

ففي عام ٩٠٣ هـ ـ ١٤٩٧م قام فاسكو دي غاما البرتغالي برحلته الشهيرة للوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح. واستعان بالعالم المسلم (ابن ماجد)، وبالخرائط الاسلامية حيث دار فاسكو دي غاما حول افريقيا واتجه إلى الشرق حتى وصل إلى جزر الهند الشرقية، وهناك صرح بصليبيته التي تنفي عن رحلته صفة (العلمية الجغرافية) فقال: الآن طوقنا عنق الاسلام، ولم يبق الا جذب الحبل ليختنق فيموت[٣٤].

---

(٣٢) التبشير والاستعمار ص ١٥٠.
(٣٣) بتصرف بسيط من: الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الالمانية، ص ١٢، بارث.
(٣٤) مذاهب فكرية معاصرة: محمد قطب ٥٦٨.

ونتيجة لذلك استولى البرتغاليون على مسقط وهرمز والبحرين ١٥١٥م، ووصل الاسبان إلى الفيليبين ١٥٦٥م وسموا المسلمين بالموروس اللقب الذي أطلقه الأسبان على مسلمي شمال أفريقيا وإسبانيا كما تقدمت الاشارة.

وفي تقدير بعض الاختصاصيين «ان وصول الأسبان ومن بعدهم الهولنديين والانكليز كان بداية النفوذ الامبريالي للمنطقة الماليزية... وجاءت مع هذا النفوذ، الأفكار والعقائد المسيحية، وكان نضال مسلمي الفيليبين جزءاً من نضال الشعوب المسلمة في جميع أطراف شرقي آسيا ضد الاستعمار الغربي... (حتى أضحى غالبية) المسيحيين الفيليبيين يعتقدون أن المسلمين لن يكونوا مواطنين صالحين ما لم يصبحوا مسيحيين[٣٥].

ب ـ الرحلات الاستكشافية في العالم العربي والإسلامي:

إن الإغراءات التي حصل عليها المكتشفون وأقوامهم الاستعماريون والمكاسب المادية والتنصيرية، دفعت خبراء الآثار والمغامرين والرحالة إلى ارتياد افريقيا وآسيا للحصول على المعلومات الجيولوجية وعمل الخرائط الطوبوغرافية.

وهي وإن بدت بثوب علمي بحثي فإن ارتباطها بوزارات المستعمرات والحربية يؤكد على غرضها السياسي الاستعماري، فقد تلبس المبشرون بجميع المظاهر، حتى في ثوب المستكشفين الذين ظهروا أمام العالم أعلاماً، وكان دافيد لفينغستون (١٨١٣ ـ ١٨٧٣) رحالة بريطانياً، اخترق أواسط افريقيا من مرفأ سان بول دي لاوندا في أنغولا البرتغالية شرقاً إلى كيليمان عند مصب نهر زامبيسي في مضيق الموزمبيك تجاه مدغشقر، على أن ليفنغستون كان مبشراً قبل أن يكون رحالة، ولم تكن رحلته المشهورة في تاريخ الاستكشاف الجغرافية إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية.

قال رولاند أوليفر في كتابه: العامل التبشيري في شرق افريقيا:

---

(٣٥) منتقاة من: المسلمون في الفلبين: قيصر أديب مخول، تعريب: نبيل صالح ص ١٧، ٤٦.

. . . ولقد أعد (ليفنغستون) نفسه منذ سنواته الأولى - حينما كان يعمل في جمعية التبشير اللندنية. . . وبما أنه كان أولاً وقبل كل شيء مبشراً مسيحياً فلقد اختار، كعضو في هذه الحركة، أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه إلى داخل البلاد[٣٦]. وكان هذا أسلوباً عاماً ومتفرعاً عن الاستعمار الانكليزي، فقد (أرسلت بريطانية عشرات الرحالة والمؤلفين والموظفين لدراسة أحوال سورية كطريق رئيسية إلى الهند. . .)[٣٧].

أما رحلات (بالمر) و (فيلبي)[٣٨] فكانتا في مقدمة المستكشفات الخطرة في العصر الحديث حيث زودوتا أجهزة الحربية بمعلومات عن البلاد العربية التي كان كل منهما يعمل فيها.

٦ ـ الرأي العام الغربي المعادي:

والصليبية ومن ورائها الصهيونية كانت روحاً عامة في نفوس الغربيين بسبب المناهج المدرسية التي تمتلىء بالأحقاد الغربية، ثم بالاعلام المضلل القائم على الدعاية المزرية المشوهة.

أ ـ العداء العام:

إن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن، ثم استحالت عادة، وكانت تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة مسلم، ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوروبي، رجلاً كان أو امرأة، وأغرب من هذا أنها ظلت حية بعد جميع أحوال التبدل الثقافي، ثم جاء عهد الاصلاح، حينما انقسمت أوروبا شيعاً، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها في وجه كل شيعة أخرى، ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها كلها، بعدئذ

---

(٣٦) التبشر والاستعمار ص ٥١.
(٣٧) المرجع السابق، ص ١٥٤.
(٣٨) تفصيله في: مستشرقون سياسيون عند ترجمة: فيلبي، للمؤلف.

جاء زمن الشعور الديني يخبو، ولكن العداء للإسلام استمر. . . إن روح الصليبية ـ في شكل مصغر على كل حال ـ ما زال يتسكع فوق أوروبا، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الاسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة من ذلك الشبح المستميت في القتال[٣٩].

ب ـ تأويل التاريخ الأوروبي لصالح الصليبية

وربما كان تخوف الأوروبيين من انتشار الاسلام عسكرياً وعقدياً بعد فتح القسطنطينية ٨٣٩ هـ ـ ١٤٣٥ م واقتطاع أجمل الأراضي الرومانية من أبلغ الآثار العميقة في نفوسهم للحقد على الإسلام والمسلمين.

لقد كان الهجوم مباشراً (على أوروبة) في كلا الميدانين الحربي والعقدي، وكان قوياً جداً. . . وكان التوسع (الإسلامي) الأول إلى حد كبير على حساب الغرب، فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية لتتسلمها منها القوة الجديدة، وكانت في خطر من ضياع الامبراطورية بكاملها. . . وفي موجة التوسع الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل ١٤٥٣م، وفي قلب أوروبا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا ١٥٢٩م. . . وكان الهجوم الإسلامي موجهاً إلى عالم النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع. . . وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية، التي كانت بالنسبة لأوروبا العقيدة السامية التي أخذت في بطء تبني حولها حضارتها. . . والإسلام هو القوة الايجابية الوحيدة التي انتزعت من بين المسيحيين أناساً دخلوا في الدين الجديد. . . بعشرات الملايين، وهو القوة الوحيدة التي أعلنت أن العقيدة المسيحية ليست مزيفة فحسب، بل إنها تدعو إلى التقزز والنفور.

وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون ـ حتى أولئك الذين لا يدركون إطلاقاً أنهم اشتبكوا في مثل هذه الأمور ـ قد تغلبوا على آثار ذلك الصراع

---

(٣٩) الاسلام على مفترق الطرق: محمد أسد، ترجمة عمر فروخ ص ٥٧.

الـرئيسي المتطاول الأمـد . . . أو على آثـار الحروب الصليبيـة التي استغـرقت قرنين من الحرب العقدية العدوانية المريرة[٤٠].

ج ـ سخافات حاقدة:

وأشاعوا سخافات عن رحلاتهم في الشرق منها: أن للشرقيين ثمانية أنامـل ورأسين، وهم مراؤون منقلبون انتهازيون[٤١] . . .

ومن أشنع السخافات في صحفهم دعوى: أن البربر هم أصحاب المدنيـة في شـمالي أفريقيـا والأندلس، ومـا العـرب الفـاتحـون الا شراذم من السلبـة المشردين[٤٢] . . .

ونقـل شكيب أرسـلان بعض تفـاهـاتهم ومنـه: أن قـبر محمـد سـاكن في الفضاء، وأن الحجاج يذهبون إلى مكة لزيارة قبر محمـد. ومثلهم السائـر عن الرسول هو: قال محمد للجبل تقدم، فلما لم يتقدم تقدم إليه محمد.

من طلائع المستشرقين[٤٣]:

وهم المستشرقون المتقدمون الذين تناولوا الدراسات الاستشراقيـة وعلومها عموماً.

وذكر العقيقي تسعة وعشرين منهم كان معظمهم من الرهبانية البندكتيـة ولبعضهم آثار على التقدم الحضاري الأوروبي بما أخذوه من العـرب وترجمـوه ثم نقلوه إلى بلادهم.

---

(٤٠) مقتطفات من: مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٧٢، محمد قطب، عن: الاسلام في التاريخ الحـديث: المستشرق الكندي المعـاصر: كانتـول سميث من النص الانكليزي ص ١٠٩ - ١١٠، وانظر الفكرة نفسها في: التبشير والاستعمار ص ٣٦ عند (بكر، وغاردنر، ولورنس براون).

(٤١) انظر فقرة: رحلاتهم السياسية في: مستشرقون سياسيون للمؤلف.

(٤٢) من مقال محمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٣٤٧/٢٣ عن جريدة (الـطان) الفرنسيـة، وذكرهـا كتاب: النقـد التحليلي لكتـاب الأدب الجاهـلي (مقـدمـة): الغمراوي.

(٤٣) أخذت تراجمهم من: المستشرقون د. نجيب العقيقي.

١ ـ إدلر أوف باث (١٠٧٠ ـ ١١٣٥) ولد في باث وانخرط في الرهبانية البندكتية وتعلم في تور والأندلس وصقلية، وجمع معارف في علوم الطبيعة والفلك والرياضيات، وتضلع من ثقافة العرب وقال في كتابه المسائل الطبيعية ـ وهو محاورة بينه وبين ابن أخيه خريج جامعة الفرنجة ـ : إنني وقائدي هو العقل، قد تعلمت من أساتذتي العرب غير الذي تعلمته أنت، فبهرتك مظاهر السلطة بحيث وضعت في عنقك لجاماً تقاد به قياد الإنسان الحيوانات الضارية، ولا تدري لماذا ولا إلى أين؟... فقد منح الانسان العقل لكي يفصل به بين الحق وبين الباطل... فعلينا بالعقل أولاً فإذا اهتدينا إليه ـ لا قبل ذلك ـ بحثنا في السلطة فإن سايرت العقل قبلناها، وإلا فلا... من آثاره: ترجمات لاتينية وفيرة في الفلك والرياضيات أشهرها: زيج الخوارزمي بتنقيح المجريطي (باريس ١١٢٦)، وترجم بمعاونة يوحنا الاشبيلي أربعة كتب لأبي معشر البلخي (١١٣٣)، والعلوم عند العرب (بعد عام ١٤٧٢) وقد ساعد بنفوذه على نشر تلك العلوم وازدهارها في أوروبا جمعاء.

٢ ـ بطرس المكرم (١٠٩٤ ـ ١١٥٦) فرنسي من البندكتية، انطلقت من ديره حركة اصلاح عمت النصرانية في أوروبا، وجعل منه رهبان الاسبان، بعد أن آووا إليه في القرن الثاني عشر مركزاً خطيراً لنشر الثقافة العربية، وقصد الأندلس فيمن قصدها مستزيداً من علومها، ولما رجع إلى ديره صنف الكتب في الرد على علماء الجدل المسلمين وشجب اليهود.

٣ ـ روجر ليكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) انكليزي نال الدكتوراه في اللاهوت، ودرس الطب من الرهبانية الفرنسيسكانية ثم فصل من التدريس لتعرضه للرهبان وسجن، وبعد خروجه كان يدعو إلى تشجيع اللغات الشرقية في جامعات أوروبا لأغراض علمية، واخترع المجهر ومادة تشتعل في الماء، ونوعاً من البارود، وتنبأ بالطيران، ووضع قاعدة لصنع المتفجرات فلقب بدكتور المعجزات، واعتمد في فلسفته على ابن سينا وغيره. ومن آثاره: كتب

ورسائل في العلوم منها: مرآة الكيمياء ورسائل في العدسات المحرقة، وكتب فلسفية لاهوتية: منها: موجز في الدراسات الفلسفية (١٢٧١)، وموجز الدراسات اللاهوتية (١٢٩٠).

وإليه ينسب (المنهج التجريبي) الذي هو أعظم أساس في النهضة الأوروبية، وهو مع المنصفين يقرون أنه عربي الأصل.

٤ ـ ومن اليهود المتنصرين يوحنا بن داود الاسباني (منتصف القرن الثاني عشر) عين على اسقفية طليطلة وترجم العديد من المؤلفات منها: فلسفة ابن رشد (١٢٣٠) وكتاب السياسة لأرسطو (١١٣٥) والجبر للخوارزمي، وصنف كتاب: الخوارزمي في الحساب العملي (١٨٥٦).

ومن اليهود أيضاً يوحنا الاشبيلي (منتصف القرن الثاني عشر) وعني بعلم التنجيم، فترجم بمعاونة (باث) السابق إلى اللاتينية أربعة كتب لأبي معشر البلخي (١١٣٣)، وترجم وحده: رسالة في الاسطرلاب للمجريطي، وكتاباً في آلات الساعات: الثابت بن قرة، وإحصاء العلوم للفارابي.

التنصير

أولاً: التنصير مفهوماً واصطلاحاً:

١ً ـ مفهومه:

اتجاه كنسي تحويلي في الدعوة والعمل منظم في داخل البلاد وخارجها لصرف الناس إلى النصرانية أو إلى فرقة فيها، وبخاصة المسلمين الذين قد يقبل منهم سلخهم من اسلامهم فقط، ثم الابقاء على النصارى الشرقيين محافظين على دينهم فلا يتأثرون بالإسلام، ينشأ عنه تحولات فكرية وعقدية وسلوكية. وقد نشط بعد فشل الحملات الصليبية عسكرياً بخطط مدروسة بعيدة عن الهياج الجماهيري المؤقت.

١ ـ وهو لهذا يستوعب الجوانب التالية:

أ ـ فهو يجمع بين القدم والحداثة: إذ المعروف أن اليهودية ليست دين دعوة ونشر بين الناس، والديانات السماوية الأخرى انقرضت بانقراض أهلها ودياناتهم ومؤسساتهم. ثم أنه بتجاوزه بيت لحم وفلسطين والمنطقة العربية وتأييد رجال الحكم لانتشاره في أقدم العصور جعله حركة دينية حديثة ومتجددة.

ب ـ وهو عالمي النشاط، دولي الفعالية، ساهمت الجمعيات والحكومات

العالمية عموماً في العمل من أجله بغض النظر عن ضخامة الدولة أو ضآلتها حيث يشترك في حمله دول شرقية كاثيوبيا والسودان الجنوبي، وغربية كفرنسا وايطاليا وألمانيا، على مستويات رسمية وشعبية.

ج - وهو شامل جميع فرقه المتباينة والمتعارضة أحياناً، فقد بدأ بالكاثوليكية ثم البروتستانتية والأرثوذكسية، وتفرع كل منها إلى طوائف دينية كثيرة، فكان من الأولى: اليسوعية والروم الكاثوليك والموارنة والسريان. ومن الثانية: الانجيلية، والمشيخية، والانكليكانية، والمعمدانية، والسبتية. ومن الثالثة: بطريركية انطاكية، وبطريركية الاسكندرية... ثم هو شامل للتحويل التنصيري والنصراني بدعائم مالية وفكرية وعملية.

د - وهو عام بين الرهبان الوعاظ والمستشرقين الباحثين والأطباء والمهندسين العمليين والحكام المسؤولين، بدعمهم وبدعم الجمعيات الكنسية المختلفة والأغنياء والفقراء والرجال والنساء والأطفال في كهنوت ظاهر وخفي، وفي منشآت تنصيرية مختلفة.

هـ - وهو متآزر مع القوى الدينية والمذهبية العالمية، يتعاون مع الشيوعية والوطنية والعلمانية والاتجاهات والمذاهب الفكرية المنحرفة والهدامة، متعاون مع اليهودية العالمية في مواجهاته الاسلامية هدفه الأكبر، ومواجهاته الوثنية نشاطه الأسهل.

و - وهو أخيراً وسيلة وغاية معاً، فهو وسيلة في أيدي الاستعماريين وفكرهم لتثبيت نفوذه ووسيلة لنشر المسيحية عند فئة (تقية) من دعاتهم، ووسيلة لطرح الأحقاد المتراكمة في حروب صليبية وكلامية، ثم هو غاية كبرى للمستشرقين والمنصرين والاستعماريين، وهدف التمدن الغربي في وجهيه المعلن والمستور في التغريب الفكري والديني.

ز - ثم إنه (أضخم) وسيلة وغاية بامكاناته المادية والبشرية، وأعماله

الداخلية والخارجية، وأجهزته القديمة والمتطورة ومنشآته التاريخية والحديثة. فلم يعرف لحركة دينية مثل مؤتمراته الكنسية والاستشراقية، ولا مثل اجتياحاته العسكرية والصليبية.

٢ ـ أبرز سماته الخلقية:

وبالإضافة إلى ما سبق يمكن أن نبرز ثلاثة إطارات أخلاقية كبيرة:

أ ـ الاستغلال: فقد استغل المال والسياسة والعلم والدين كما سبق أبشع استغلال، ولذا فهو الجاني على (الحقيقة المسيحية) للتضليل التنصيري الصليبي. فالمسيحية تزهد بالدنيا وتقيم المحبة والتسامح ولكن التنصير يقيم وجوده على العداء والقتال والحرص على الأموال، وزرع الضغائن والأحقاد بين الأفراد والجماعات.

ويستغل (الحقيقة الاسلامية) بتشويه صفائها، وتزييف أصولها، وتحقير قيمها، وبترها من مصدريتها الأصيلة، ويقيم حواجز الريب والتشكيك بين الاسلام وأهله.

ويستغل الأعمال الاجتماعية والانسانية والفكرية والأدبية والفنية والاعلامية والسياسية في مستويين: الأشخاص والإتجاهات.

ويستغل الحاجات والضرورات المعاشية، ويمارس ضغوطاً مادية ومعنوية في البلاد المعدمة والغنية وبين القبائل والجماعات المتخلفة والشعوب والحكومات المتطورة.

كما استغل سياسة الانتداب والاستعمار ثم احتمى بهما وراح يفتعل المشاكل الدينية والوطنية لإحداث الفوضى بين المسلمين، بعد أن ساعد على تجزئة وحدتهم وفصلهم إلى كيانات (طائفية) لها صلاتها وعلاقاتها بالدول المستعمرة، بالإضافة إلى (استغلالاته) الدينية والعلمية والأدبية والفنية السابقة.

ب ـ **العنف**: فهو يتظاهر بأخلاقيات الإنجيل المتسامحة في الوعظ والتوجيه، ويمارس العنف في إقامة الحكم وتثبيت المذهب. فكانت حروب الإصلاح الديني أعنف الحروب الطائفية، وكانت الكثلكة الأندلسية الإسلامية أشرس العمليات العسكرية الحاقدة حتى غيرت خارطة العالم الاسلامي. وكانت الحملات الصليبية على مدى قرنين أبعدها عن الروح المسيحية وأدناها إلى الوحشية والبربرية، وأخيراً في الاجتياح الاستعماري الحديث وتثبيت الدولة التنصيرية اللذين يسمع العالم بقسوته وشدته على الإسلام والمسلمين.

وقد تمثل العنف بالصراعات الحربية المدمرة واستمر في صور من محاكم التفتيش، ثم توضح في علاقاته مع الدول المستعمرة الباغية.

ج ـ **الفضائح**: فسجلاتهم زاخرة بأحداثه الجنسية والشذوذ الجنسي حتى سرت عدوى (الإيدز) إلى رجاله ونسائه. وأخبارهم منتشرة في السطو على الأموال تحت اسم (صكوك الغفران)، و (الوقف) و (الوصايا) و (العشور) و (الهبات)... وفضائح سلوكية في الشره والبخل والغمس في الفسوق والاختلاس وفضائح (أكليروسية بابوية) لا ينال كرسيها الإ بالرشا أو القتل أو اختيار النساء، مثل ما عملت (مريوزا) في تنصيب عشيقها (سرجيوس) الثالث (٩٠٤ ـ ٩١١) لكرسي البابوية، والبابا (يوحنا) العاشر المتهم بأنه عشيق (ثيودورا) (٩١٤ ـ ٩٢٨).

وفضائح في خداع الناس والتمويه عليهم من أجل (تكريزهم) بالإنجيل قبل التطبيب، و (تركيعهم) أمام صور المسيح و (الدجل) على المرضى المعذبين حيث يعطون أحياناً وصايا بدلاً من الطعام والدواء، ثم (استخدام) نفوذ النساء طبيبات أو منصرات في صفوف الرجال والنساء معاً.

٣ ـ في طبيعة التنصير التحويلية:

أ ـ فالتنصير عملية (تحويلية) (مؤقتة) من موقف إلى آخر، وقلما يستمر

المنصِّر في موقفه أو حاله الجديد وإنما ينقلب إلى دينه الأول وبخاصة إذا كان مسلماً اضطر إلى التحول إلى النصرانية بدوافع مغرية أو ضرورات مادية أو حاجات معاشية وصحية وتعليمية. و (التغيير) سلسلة من العمليات المستمرة لتكوين شخصية مغايرة ومختلفة عن الأولى.

ب ـ وهو تبدل (جزئي) عاجز عن استيعاب النفس البشرية، و (التغيير) حالة شاملة تتناول الشخصية في الداخل والخارج، في التصور والسلوك والالتزام.

ج ـ وهو إحداث (قسري) غالباً بسبب ما يعانيه المتنصّر من ضغوط اقتصادية وبيئية، أما التغيير فهي عمليات تكوينية عقلية وعاطفية تستمر في صياغة الانسان وفق المتغيرات.

د ـ وهو تشكيل (ظاهري) و (صوري) وليس تبدلاً (حقيقياً) لأنه قد يقنع بالاشكال الظاهرة والأسماء الجوفاء لتكثير السواد من الاتباع، فهو عملية مفتعلة غالباً، أما التغيير فهو انقلاب فكري وسلوكي ينبع من داخل النفس ويحيط بحياة الانسان ويدفعه إلى الالتزام الحقيقي به ثم دعوة الآخرين اليه.

وإذا استطاع التنصير أن (يغير) العديد من القبائل الوثنية فإنه قاصر على (تحويل) المسلمين أو بعضهم تحويلاً (مؤقتاً) و (جزئياً) و (قسرياً) و (ظاهراً)، ومن النادر أن (يغيرهم) أو (يردهم) إلى النصرانية، حتى إن أولئك (المنصّرين) حديثاً عرضة (للتغيير) الاسلامي الشامل.

٢ ـ مصطلح التنصير:

والباحث يتعجب كيف أصبح مصطلح (التبشير) يطلق على العمل الكنسي، وسمة من سمات الافساد الديني، حتى اشتهر بين العرب وغيرهم وعرف رجاله بـ (المبشرين)، كما أطلق على جماعاته اسم (الارساليات التبشيرية).

ولذا فلا بد من اعادة النظر في مصطلح (التبشير) لنعرف مدى صحته في العربية ومطابقته لطبيعة العمل الكنسي. وإذا صح لغوياً ترجمة (الإنجيل) اليونانية الأصل، إلى (البشرى) فإنه لا يصح تعليل الاسم: الأصل أو الترجمة بقولهم: وسميت بالإنجيل لأنها أتت للأنام ببشرى الخلاص على يد المسيح الفادي، لأن هذا التصور خاص بالمسيحية ومرفوض من الإسلام.

ولا مانع أن تحمل (الانجيل) صفة (البشرى) إبان عهد المسيح وبعده حين قدمها الرهبان والقديسون إلى الأمم الوثنية قبل الاسلام، أما ان يوصف حَمَلته بالمبشرين بعد الإسلام ليردوا المسلمين إلى النصرانية اعتماداً على الأصل اليوناني وترجمته فلا يقبل لغة ولا اصطلاحاً.

فالبشير يكون في الخير أكثر من الشر، ومثله: البشرى، والبشارة، إذا أطلقت اختصت بالخير، كما تقول اللغة، فأين الخير في دعوة الرهبان إلى الكاثوليكية أو غيرها؟ وهل هناك أشد على الإسلام والمسلمين من الشر الذي يحمله المبشرون في تحويل المسلمين عن دينهم؟

إن التبشير صفة ألصق بالاسلام ودعاته، فقد كان ﷺ سيد الدعاة وصفه الله تعالى بقوله: **﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾** (الأحزاب: ٤٥)، وهو ﷺ الذي حثّ على دعوة الناس، وتأليف قلوبهم ونهى صحابته في دعوتهم من تنفيرهم، فقال ﷺ (**يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**).

وما أكثر ما وردت البشرى والبشارة والمبشرين ومشتقاتها في آيات القرآن الكريم والسنّة النبوية. وإن وصف العمل الكنسي بالتبشير، وعماله بالمبشرين يعتبر عدواناً على مصطلحات عربية واسلامية، وهؤلاء الكنسيون اختاروا المصطلح التبشيري لأنه يحقق في نظرهم الأمور التالية:

١ - إن الرهبان على حد زعمهم إنما يقومون بوظيفة الأنبياء السامية والتي صرح القرآن بوصفها فقال **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون**

للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (النساء: ١٦٥). وعندما يسمع بسطاء الناس وعامتهم وصف هؤلاء الرهبان: بصبغة الانبياء نفسها فيمكن أن يخدعوا بكلامهم ومواعظهم ودعواتهم.

٢ - إن الرهبان يمكن أن يتجاوزوا وظيفة الأنبياء بالتبشير والإنذار، إلاّ أن عملهم أفضل من عمل الأنبياء لأن عملهم خاص بالتبشير والتيسير المقامين على المحبة والمساواة من غير أن تشوبه شائبة التخويف والترهيب والانذار،ولا شك إن هذا: تجاوز على الدعوة والنبوة وتطاول على وظيفة النبوة في شطريها.

٣ - إيهام المسلمين البسطاء أن الرهبان لا يتجاوزون صفة الرسول التبشيرية فكأنهم يقنعونهم بأن صفتهم من صفة نبيهم كما سبق التصريح بها في الآية.

إذن فالتبشير كمصطلح لا ينبغي أن يختص به الرهبان لأنه في نظر المسلمين (إنذار وليس بتبشير). والعمل الذي يقوم به الرهبان مآله الابتعاد عن الاسلام والدخول بعد ذلك في النصرانية، واللفظ الذي يمكن أن يطلق عليهم وعلى أعمالهم هو:

- الأعمال الراهبية - إرسالات الرهبنة - الرهبانية، وهذه - الرهبنة - الراهبية - الرهبانية لها أصل في القرآن الكريم فقد قال تعالى في ذمهم:

﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله﴾ (الحديد: ٢٧).

فالصفة الراهبية أو الرهبنة صحيحة لغة ومطابقة لعملهم اصطلاحاً.

وتتفق المعاجم العربية على معناها: الخوف والانقطاع للعبادة، وأن الرهبان كانوا يقومون بمظاهرها من الاختصاء، واعتناق السلاسل ولبس المسوح وترك اللحم ومواصلة الصوم.

و (الرهبة) أو (الرهبانية) هي الحياة التي يمارسها بعض المسيحيين رجالاً ونساءً بموجب نذورهم، ويعيش أهلها عادة في دير خاص[1].

وكذلك فإن التفسير اللغوي والاصطلاحي يجيز مصطلح (التنصير) تعبيراً عن تحويل الإنسان إلى النصرانية فيقال: نصّره: جعله نصرانياً، فتنصر: صار نصرانياً.

وإذا كان (التنصير) جعل الانسان نصرانياً فإنها لا تحمل التنصير (المذهبي) الذي يدعو له (المنصرون) عادة بينما نجد مصطلح (الرهبنة) يحمل معنى الحياة الخاصة عند الكاثوليك والأرثوذكس، فهي أدق تعبيراً وأخص اصطلاحاً.

ومهما يكن من أمر فإن (التنصير) و (مشتقاته) من الألفاظ الصحيحة أصلاً واستعمالاً وهي أولى من (التبشير) و (مشتقاته).

ثانياً: بدايات التنصير في العالم الإسلامي:

سبق الكلام على بدايات الغزو الفكري مجملاً في التنصير والاستشراق وشيء من الاستعمار بعد الحملات الصليبية، ولا بد من التفصيل في كل منها:

١ ـ العلاقات الاسلامية النصرانية عبر التاريخ:

شهدت العلاقات الاسلامية النصرانية نشاطاً واسعاً في الدعوة الإسلامية إبان عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، والعهود المتتابعة.

وكانت هذه العلاقات تحمل طابعين مميزين: الدعوة إلى الاسلام، والعلاقات الخارجية السياسية المبدئية. وكلاهما متلازمان لا ينفكان عن بعضهما. وما دامت الصفة الأولى هي الدعوة فإنه لا فرق بين أن تتم في

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة.

عاصمة الدولة الاسلامية المدينة، أو تتم خارجها وأحياناً خارج الجزيرة العربية.

أ - **وفد نصارى نجران**[٢]: وقدم في السنة التاسعة، وهو مؤلف من رجال أعمال وأساقفة نصارى ومستشارين، فرئيسهم (الأيهم) الملقب بالسيد، وصاحب مشورتهم (عبدالمسيح) الملقب بالعاقب، وأسقفهم (أبو الحارث) بن علقمة صاحب مدارسهم، فدعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فاقتنعوا ثم دعاهم إلى المباهلة فامتنعوا أيضاً وكتب لهم كتاباً مطولاً نص فيه على الجزية، وصالحهم فيه، وبعث اليهم أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وكان من نتائجها أن أسلم السيد والعاقب، ونزل قوله **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾** (آل عمران: ٥٩) قال الرازي في تفسيره: أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران.

ب - **كتب الرسول إلى ملوك العالم ورؤسائه النصارى**: منها إلى قيصر ملك الروم والنجاشي ملك الحبشة، وعظيم الأقباط في مصر وهي مشهورة في السيرة النبوية.

إنها عشرة كتب إلى الشام وقيصر الروم يحمّل فيها الرسول ملك الروم المسؤولية العامة عن إسلام قومه وبخاصة الفلاحين أو الآريسيين منهم... وبالرغم من أن هرقل أجابه بقوله: وإني أشهد أنك رسول الله نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم... فإن رسول الله قال حين قرأ كتابه الثاني قال: كذب عدو الله ليس بمسلم ولكنه على النصرانية...

وكان الأعجب من ذلك الغزو الفكري الإسلامي في عقر الأسقفيات النصرانية المنتشرة في الامبراطورية الرومانية، ومن أهمها على الاطلاق أسقفية

---

(٢) انظر: البخاري في الصحيح، المغازي (٤٣٨٠ - ٤٣٨١)، ومسلم في الصحيح أيضاً في: فضائل الصحابة.

(القسطنطينية) التي كانت محافلها تشريعاً كنسياً للنصارى عموماً وللكنيسة الشرقية خصوصاً، والكتاب يقول: إلى ضغاطر الاسقف سلام على من آمن، أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية، وإني أؤمن بالله، وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط، وما آوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، والسلام على من اتبع الهدى[3]...

إن حكومة الرسول ﷺ كانت نشطة في المواجهات الفكرية مع نصارى العالم العربي خاصة وحكوماتهم حتى بلغ من أثر نشاطاتها اسلام العديد من الملوك النصارى كالنجاشي واعتراف الآخرين بنبوته وحكمه مثل قيصر الروم وحاكم مصر.

وهذا يدل على أن كفة الغزو كانت في أيدي المسلمين، ففتحوا القلوب بالإسلام وعمروها بالعقيدة الصحيحة وأبطلوا المظالم والعبوديات الباطلة، وكان فتح عظيم للإسلام سار على أثره الخلفاء الراشدون والأمويون والعباسيون إلى أن توقفت في حالات الضعف والتجزئة. فما أعظم الفارق في العالم الاسلامي بين أن يكون غازياً أو مغزواً، في الآثار الحضارية، والمهام الدولية، والمستوى العالمي.

٢ ـ في بدايات الغزو التنصيري:

فقد تحولت الكفة لمصلحة الغربيين الذين استغلوا ضعف المسلمين وتوزعهم وانغماس الكثير منهم في الشهوات والعزوف عن الجهاد بالدعوة وبالقتال، فبدأوا غزواً صليبياً عسكرياً حاقداً في الأندلس وصقلية وأتموه في الحملات الصليبية. وربما كان أول من دعا إلى الحروب الصليبية قبل الحملات المعروفة (البابا سلفستر الثاني) كما يقول صاحب الحاضر الاسلامي

---

(٣) الوثيقة ٢٩ من: مجموعة الوثائق السياسية. د. محمد حميدالله ضمن مقال في: التضامن الاسلامي السنة ٣٨، الجزء١٠، يناير/كانون الثاني ١٩٨٤ ربيع الثاني ١٤٠٤ للمؤلف.

٤٦٨ هـ - ١٠٧٥ م ولكنه لم يوفق في استنهاض همم النصارى في غزو المسلمين، ثم تبعه البابا (غريغورس) ٤٦٨ هـ - ١٠٧٥ م في دعوته الصليبية، ولكن الحملات تأخرت عن ذلك حوالى عشرين سنة.

ثم نشط التنصير بعدها، بسبب ردة الفشل العسكري الصليبي فيها، وتنافس الرهبان والأساقفة في وضع المقترحات والخطط لاستعادة الأماكن المقدسة بطريق الغزو العسكري والفكري معاً.

مثل ما فعل الرهبان (فدنزو) و (ثاديوس) واعظمهم (ريموند لل) المتقدمون باشراف من البابوات وملوك فرنسا خاصة.

ثالثاً: ضخامة الانتاج والميزانية التنصيريين

أ ـ ضخامة الانتاج التنصيري:

ان الجهود التنصيرية قد اتخذت مستوى عالمياً وان كانت فرنسا قد تزعمته أول الأمر بالكاثوليكية، وانكلترا بالبروتستانتية أكثر من غيرهما. وعلى الرغم من صراع المذاهب الكنسية فكراً وعملاً وأسلوباً في بدء الدعوة إلى (المذهبية) فإن الاتفاق جرى فيما بينها على ترك كل مذهب يتخذ لنفسه طريقاً مستقلاً من غير اعتراض ولا صراع ولا محاولة افساد وتهديم فيما بعد.

وإن حصيلة العمل التنصيري المختلف والمتشعب قد جمع وصنف ليزود الدعاة برصيد تجريبي وفكري ودعوي إلى جانب البعد التاريخي الذي يفيدون منه في مستقبل دعوتهم. ومع ضخامة الانتاج التنصيري فإنه (لا سبيل إلى إحصاء ما كتبه المبشرون وأنصار المبشرين عن الشرق ولا عن العرب والاسلام فإن (شترايت ودنفر) قد أصدر بين عام ١٩١٦ وعام ١٩٣١ سبعة مجلدات، ذكر فيها أسماء المصادر والمراجع التي تدور حول المبشرين وجهودهم وتسهيل أعمالهم، ثم إن أكثر هذه الكتب مفصلة تفصيلاً كبيراً، فإن الرسائل التي كتبها المبشرون من سورية والشرق الأدنى فقط إلى زملائهم بين

عام ١٨٣٠ ـ ١٨٤٢ طبعت في ثلاثة عشر مجلداً من أصل ثمانية وثلاثين مجلداً.

ولما اجتمع مؤتمر التبشير العالمي في «ادنبرة» في «اسكتلندا» عام ١٩١٠ أصدر تقريراً عن النواحي المختلفة التي يجب أن يهتم لها المبشرون، ثم طبعه في عشرة مجلدات.

أما (مؤتمر التبشير الدولي) الذي اجتمع في القدس عام ١٩٢٨ مدة أسبوعين فقط «من ٢٣ آذار إلى ٨ نيسان» فقد وضع تقريراً في ثمانية مجلدات.

وهناك عشرات من أمثال هذه الكتب والتقارير قد ظهرت كلها في مجلدات عديدة ضخمة. وسبق في عام ١٨٦٩ ان كانت أعمال مدارس التبشير الافرنسية في الشرق تقتضي أربعة مجلدات،تقع في نحو (١٥٥٠) صفحة، كما أن مدارس التبشير الانكليزية في جبل لبنان كانت قد أصدرت تقريرا عن أعمالها بين ١٨٥٦ و ١٨٦٨ يقع في مجلد كامل.

أما المجلات التبشيرية التي صدرت في بلدان مختلفة، وبلغات مختلفة فهي أكثر من أن يحصيها العد.

أضف إلى ذلك أن ثمة جرائد ومجلات سياسية أو أدبية أو علمية في العالم كله لا تظهر عليها صبغة التبشير، ولكنها في الحقيقة وسائل قوية من وسائل التبشير[٦]. وعلى هذا فإن معاجم وموسوعات وموضوعات تنصيرية تابعت أعمال المنصرين في كل مكان وزمان ورصدتها لتحقيق أغراض دعوية وينطلق المنصرون من رصيد فكري وتجارب متنوعة ولا ينطلقون من فراغ أو

---

(٤) راجع: الحركة الصليبية د. سعيد عاشور ٢/١٢٨٧ وانظر مصادره في الحاشية.

(٥) انظر: الغارة على العالم الاسلامي: شاتيليه. ص ٢٩ وما بعد.

(٦) التبشير والاستعمار ص ٢١، ٢٢ وانظر المصادر في الحاشية.

شبه فراغ، وذلك ليتابعوا (مسيرة) التنصير بأسلوب يجمع الحماسة الدينية والرصيد الفكري التجريبي التاريخي.

ومن ناحية ثانية فإن هذه الجهود الفكرية وجدت سبلها في النشاط التنصيري في إصدارات ووكالات أخرى. فقد بلغ عدد نسخ الإنجيل الموزعة في عام ١٩٨٧ حوالى (٤٤,٣٦٠,٠٠٠) نسخة بزيادة مقدارها (مليون و٣٠٠) ألف نسخة عن العام الماضي، أما نسخ العهد الجديد الموزعة هذا العام (٦٥,٣٨٥,٦٠٠) نسخة، بينما بلغت (٦٤) مليوناً في العام الماضي.

ويتبع هذا أن هناك (٣٦٠٠) وكالة تبشيرية تبعث بالمبشرين إلى الخارج، أي بزيادة (١٠٠) وكالة عن العام المنصرم، كما أن هناك (٢٥٠,٢٠٠) مبشر في الخارج بزيادة مقدارها (٢٠٠) مبشر عن السنة الفائتة، وهناك (١٦٠٠) محطة خلال العام، إلا أن عدد المجلات قد نقص من (٢١,٠٠٠) مجلة في العام الماضي إلى (٢٠,٧٠٠) فقط هذا العام[٧].

٢ ـ في ميزانيات التنصير:

إن المؤسسات التنصيرية التي تقوم على تنشيط العمل التنصيري في إبراز فعاليات متنوعة، من المتطوعين فيها، والموظفين في أعمالها، والإرساليات التي يعيش بعضها في أسوأ الأحوال المعاشية، يكمن وراءها سخاء في الجهد البشري، وسخاء في العطاء المالي. والكتل البشرية الضخمة التي تباشر الأعمال التنصيرية المتعددة داخل البلاد وخارجها تدفع إلى أسلوب التصاعد في الواردات والنفقات المالية، بغض النظر عن المتبرعين والمتحمسين. وأن المساهمات المالية يمكن أن تبدأ من مبالغ (زهيدة) (رأسية) لا تتجاوز عشرة

---

(٧) عن صحيفة أخبار العالم الاسلامي (رابطة العالم الاسلامي) العدد ٩٨٠ نقلاً عن تقرير أعده: ديفيد بيرت محرر الموسوعة المسيحية العالمية الصادرة عن جامعة اكسفورد للعام ١٩٨٧.

دولارات للفرد الواحد سنوياً، وتقبل الإشتراكات (المتوسطة) والهبات المتنوعة، إلى أن تصل إلى أرقام (هائلة) في البذل عن طريق التجار، وأحياناً عن طريق المؤسسات الرسمية.

ومهما يكن من أمر فإن تعميم المساهمات بين الأوساط العامة يمكن أن تخدم طابع العمل الديني الذي يقنع المتبرعين بالعمل التنصيري، كما يقنع القائمين عليه والمسؤولين عنه، بوجود رصيد شعبي كبير يمكنه أن يعضد مثل هذه الدوافع والمجالات الكنسية.

وإذا تجاوزت التبرعات الإقليم الواحد إلى أقاليم عديدة عن طريق المؤسسات المنظمة لها فإن العمل يكتسي ثوب (العالمية) من حيث الدعاية إلى جانب ما يحققه من أموال طائلة تخدم الإرساليات والعمل الانتاجي الفكري.

فقد اعتمد مجلس الكنائس العالمي مبلغ (١٠٠٠) مليون دولار للانطلاق بالتنصير في مئة دولة عام ١٣٩٩ هـ/١٩٥٨ م[٨].

وفي انكلترا: إن ارساليات التبشير فيها، وفي ارلندة تنفق في السنة ٢,١٠٠,٠٠٠ جنيه[٩]، بينما بلغت ايراداتها سنة ١٩١٠ م عشرة ملايين فرنكاً، وهذا غير المبالغ التي ترد عليها، وتصرفها في سبيل التبشير من غير تدوين في سجلات صندوق الجمعية المساة جمعية التبشير الكنسية الانكليزية[١٠].

وقد وزعت ميزانيتها كما يأتي:

٢١,٥٢١ جنيهاً لإفريقية الشرقية و ٢٣,٠٤٨ جنيهاً لإفريقية الغربية،

---

(٨) الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا ٨/٢٣: سيد عبد المجيد بكر عن: الدعوة المصرية العدد ٦٩٩.

(٩) الغارة على العالم الاسلامي ص ١١٠.

(١٠) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

و٦,٢٣٤ للتبشير في القطر المصري، و٨٢,٢٤٧ جنيهاً للبلاد العربية والعثمانية والفارسية و١٢٢,٨٤٦ جنيهاً للهند، و٥١,٦١١ للصين[١١].

ب ـ في أمريكا: حيث اشترك (٥٦٨) لجنة فيها (٧٣) ألف مواطن يدفعون إلى الجمعية مبلغ ١,٦٠٠,٠٠٠ فرنك، ويهتم ذوو الشأن في هذه الجمعية (التبشيرية الامريكية) بايجاد (مليوني) دولار ترصد إيراداتها لسد نفقات مدارس التعليم، ومدارس التبشير. وانبرى (ألفرد ميرلنغ) الصيرفي والمثري الشهير في (نيويورك) قائلاً: «... سندرّ عليكم أموالنا بمزيد الدقة... هل لكم أن تقفوا حياتكم على خدمة يسوع المسيح؟ نحن نريد جمعية تبشيرية لا يعطلها عن أعمالها غير الموت... ثم اجتمع المولون والأغنياء لأول مرة ١٩٠٦ م، وقرروا رسم خطة لتنصير (العالم قاطبة) في مدة (٢٥) سنة، ثم سلكوا في رصد ميزانيتهم عن طريق التبرع الفردي حتى وإن دفع الواحد مبلغ (٢٠٠) ريال في السنة تؤخذ من مليون من الأغنياء، ودفع عشرة ملايين من المسيحيين كل فرد منهم (١٠) ريالات فقط، وهو مبلغ كاف لسد نفقات جمعيات التبشير، ثم درسوا الطريقة لتنصير مئة مليون من غير المسيحيين، فوجدوا أن المبشرين يكفيهم (٢٤) مليون ريال يمكن الحصول عليه اذا دفع كل شخص مبلغاً لا يتجاوز (٢٠) ريالاً[١٢]....

ج ـ وفي روسيا: حيث ادعت المبشرة (جنّي فون ماير) في تقريرها أن التبشير الارثوذكسي كلف انشاء جمعية له سنة ١٨٧٠ ما يربو على خمسة ملايين ريالاً إلى جانب المبالغ الكبيرة في أعمال الجمعيات المنتشرة في أنحاء البلاد.

د ـ وهناك جمعيات التبشير الاسترالية والافريقية والآسيوية والهندية التي

---

(١١) المرجع السابق.
(١٢) المرجع السابق، ص ٢٣١ ـ ٢٣٨.

تنفق ٣٠٠,٠٠٠ جنيه وما تنفقه جمعيات التبشير البروتستانتية في باقي القارة الأوروبية يبلغ ٧٠٠,٠٠٠ جنيها.

هـ - وفي إندونيسيا: أوردت احصائية أصدرها مجلس إدارة المركزية للجمعية المحمدية فيها عن صرف أموال طائلة أنفقها التبشير، ونشرت المجلة التبشيرية (ارساليات التنصير البروتستانتي) أنه تم اعتماد مبلغ (٧٠) مليون دولار للعام ١٩٨٧م[١٣].

و - وفي مؤتمر كلورادو (١٩٧٨) رصد المنصرون (ألف مليون) دولار، وأنشأوا معهداً لاعداد المنصرين المتخصصين من بين المسلمين، وأطلقوا عليه (معهد زويمر)[١٥]. . .

ز - إن أصغر دولة في العالم - **الفاتيكان** - تعتبر ميزانيتها (الثالثة) من حيث الغنى، بعد أمريكا وروسيا رغم أن مساحتها (٤٤) هكتاراً وينتمي إليها (ألف) شخص فقط.

رابعاً: أغراض التنصير:

لا يصعب على الباحث حتى ولا على المتعلم العادي الكشف عن أغراض التنصير وأخطارها، تلك الأغراض التي تعلن في ظاهرها التمسح بالمسيحية والدعوة إليها، ولكنها في حقيقتها تروج أهداف الاستعمار لتبقي على مكاسبه ونفوذه في الأرض المستعمرة.

ولا بد من أن نقدم ملاحظتين جديرتين بالتنبيه:

الأولى: إن تآزر الاستشراق والتنصير والاستعمار يقتضي في معظم الأحيان (وحدة) في الغرض وإن تعددت صور الوسائل إليه. ولذا فإن ما قدمناه من

---

(١٣) المرجع السابق ص ١٨٨.

(١٤) صحيفة العالم الاسلامي محرم ١٤٠٧.

(١٥) صحيفة المدينة العدد ٦١٧٢.

أغراض الاستشراق خاصة والغزو عامة يمكن لبعضها على الأقل أن يستفاد منه هنا في أغراض التنصير.

الثانية: إن حصيلة المؤتمرات الكنسية تتفق في كثير من وصاياها وانتاجها مع المؤتمرات الاستشراقية واصداراتها من حيث أن بعض الشخصيات المنصرة تحمل أكثر من صفة واحدة. يضاف إليه أن المخططات الاستعمارية وأهدافها تستعين بأعمال التنصير والاستشراق، مما يدل على أن هذه الأعمال جميعها تصب في أغراض واحدة أو متقاربة.

ومع هذا يمكن إبراز الأغراض التالية(١٦):

١ ـ تفتيت وحدة المسلمين وتوهين قواهم:

وتقدم، ونزيد هنا أن ذلك عن طريق ايجاد التفرقة بينهم في توجيههم واتجاهاتهم وذلك لدرء خطر وحدتهم على استعمار الشعوب الأوروبية وعلى استقلالها واستنزافها ثروات المسلمين. يقول لورانس براون:

«إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضاً، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير». وفي موقف آخر يقول:

«الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قوته على التوسع والاخضاع، وفي حيويته، انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي». ويفصح القس (كالهون سيمون) عن رغبة التبشير القوية في تفريق المسلمين التي عبر عنها (براون) سابقاً بقوله: «إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية، ولذلك كان التبشير عاملاً مهماً في كسر شوكة هذه الحركات، ذلك لأن التبشير يعمل على اظهار

---

(١٦) نقتبس بعض الأغراض من مجلة: منار الاسلام العدد ٨ السنة الخامسة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م مع زيادات.

الأوروبيين في نور جديد جذاب وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها. . . ».

وتقول مجلة العالم الاسلامي الانكليزية «إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي، ولهذا الخوف أسباب: منها أن الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عددياً بل دائماً في ازدياد واتساع، ثم أن الاسلام ليس ديناً فحسب، بل ان من أركانه الجهاد، ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً. . . ».

٢ ـ التنفيس عن الصليبية وعن الانهزامات التي مني بها الصليبيون:

فمنذ أن هزم الصليبيون بعد قرنين من الزمان أنفقوهما في محاولة الاستيلاء على القدس وغيرها وانتزاعها من أيدي المسلمين (الهمجين). يقول اليسوعيون: ألم نكن نحن ورثة الصليبيين؟ أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدن المسيحي، ولنعيد في ظلّ العلم الفرنسي، وباسم الكنيسة مملكة المسيح؟ وتقدم معنا بعض المواقف الصليبية لقائدين كبيرين: الجنرال (اللنبي) الانكليزي حين دخوله القدس، والجنرال (غورو) الفرنسي حين دخوله دمشق.

٣ ـ العداء المصطنع بين المسيحية والإسلام:

فالإسلام أصلاً لا يعادي النصرانية (الصحيحة) التي أوحى الله بتعاليمها الى نبيه عيسى عليه السلام، بل يفرض على المسلمين الإيمان به وبرسالته، وبأنه ـ أي الإسلام ـ نسخ الشرائع السابقة كلها بما فيها النصرانية ولكن المبشرين يصطنعون صراعاً بين الدينين، ويتكلفون أن يقيموا عداء بين المسلمين والمسيحيين، فالمستشرق الألماني (بيكر) يرى أن «هناك عداء من النصرانية للاسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سداً منيعاً في وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها. . . ». فالقضية الحقيقية هي تعارض مصالح المبشرين التوسعية

وتخوفهم على مصالحهم الكنسية وتغلغل النفوذ الاستعماري قبل أي اعتبار آخر.

٤ ـ تشويه المعالم الإسلامية والقضايا الكبرى في الإسلام:

وتقدم، ونزيد هنا، ومن هذه القضايا: الجهاد في سبيل الله، والمرأة في المفهوم الإسلامي، وفقدان التطلعات الروحية وطغيان المادية، والجهل بالنصرانية والحقيقة المسيحية، ومفتريات حول شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام والتاريخ الاسلامي، ووصف المسلمين بالهمجية والوثنية وأخذهم الثقافات القديمة ولكن بحروف عربية... إلى جانب النزعات الشعوبية التي يهدفون من ورائها بعث الفرعونية في مصر والفينيقية والآرامية في فلسطين ولبنان وسورية، والأشورية في العراق، والبربرية في المغرب العربي...

٥ ـ حرص المنصرين على التنصير كوسيلة أو غرض:

فقد حرص الرهبان على رِدة المسلمين عن دينهم وإدخالهم في النصرانية، وهناك فئتان من المنصرين:

أ ـ الأولى: ويغلب عليها التدين كما يغلب عليها التقوى والإيمان بالنصرانية. وهذا النوع كانوا يقصدون فعلاً اخراج المسلمين من دينهم وإدخالهم في النصرانية، وذلك بدافع من تدينهم ورغبتهم تنصير المسلمين.

ب ـ الثانية: وهي أقل تمسكاً بنصرانيتها وأقل تديناً فيها، وهؤلاء لا يريدون إخراج المسلمين من دينهم إلى النصرانية وإنما يحرصون كل الحرص على إخراجهم من الإسلام فقط وإبقاءهم ضائعين من غير دين، لأن تنصير المسلم في نظرهم تكريم له واحتفاء به، وهو أمر غير مقصود.

ومتى افتقد الإنسان دينه افتقد أعزّ وأكرم شيء في إنسانيته، ومن ثم تتلاشى الروابط الدينية فيما بين المسلمين فيضعفون ويسهل استعمارهم.

وهذا النوع من المنصرين أخطر من الأول حيث إن رئيس مبشريهم وهو

(زويمر) الأمريكي كان قد عقد مؤتمراً تنصيرياً وبعد أن أثنى على الدعاة المنصرين قال لهم: (إنكم تخطئون حينما تقصدون من عملكم إدخال المسلمين في النصرانية لأن ادخالهم فيها تكريم لهم، واحترام لأشخاصهم، وهذا ما لا نريده ان يتحقق للمسلمين). والمنصر لا يحب المسلم لذاته (فمن الصعب أن تحب مسلماً لأن المسلم ليس محبباً إلى النفس...)[17]. ويعتبر هذا الموقف من أخبث المواقف وأشدها عدواناً على المسلمين.

٦ ـ الاستعمار:

وهو غرض يبدو غريبا اذا قورن بما قبله (الحرص على التنصير)، ومع ذلك فإن الوقائع المتكررة والأحداث الداخلية والخارجية تؤكد على أن (الاستعمار) من أهم الأغراض إن لم يكن أهمها. حتى إن معاهد العلم والمؤسسات الطبية والاجتماعية وسائل استعمارية يقوم المنصرون عليها وعلى النشاط في أعمالها لأنها في الغالب (تدعم مالياً وتوظيفياً) من الحكومات المستعمرة.

وأحياناً يقبل المنصرون أن يكونوا (موظفين) في هذه المؤسسات أو في أخرى لتخدم وسائل الاستعمار وأغراضه.

ثم إن الميدان الاستشراقي والتنصيري مجالان واسعان لخدمة المستعمرين في الأشخاص والأعمال والمبادىء وهذا إن صح عند الاستعمار للوصول إلى أغراضه فكيف يصح عند الرهبان والمستشرقين؟

وإذا استطاع الاستعمار أن يعمي على الحقائق الدينية والفضائل المذهبية بأنها أعظم أغراضه التوسعية والنفوذية في البلاد الاسلامية فكيف يغض التنصير بصره عن الآلام والتدمير والقتل والخراب الذي يمارسه الاستعمار مع الشعوب الضعيفة؟

إن ما يبدو من (التعمية) و (التغافل) عما يجري، هي مصالح أو صفات

(١٧) المبشر رايد في كتاب التبشير والاستعمار ص ٤٧.

في المصالح المشتركة بين التنصير والاستعمار. ولذا فإنها ممتدة في قلب الأحداث الاستعمارية وما قبلها وما بعدها.

أ ـ قبل الاستعمار:

ودوره هنا (تمهيدي) ومقدمة للغزو العسكري: فالتخطيط الاستعماري يقتضي القيام بأعمال تقنع (الرأي العام) في قبول الإنسان الغربي بأية حجة وهمية.

أ ـ فالتنصير بدأ بدفع (وعاظه) المتعددين منذ القرن العاشر الميلادي ليمهد للعمل الاستعماري ويسهل عليه اجتياح البلاد الاسلامية الذي حدث فعلاً في أواخر القرن التاسع عشر.

ذلك لأن الوطنيين لا يقبلون عادة الدخيل الغازي يقتحم أرضهم ويستولي على ممتلكاتهم، فإذا استطاع عن طريق (عملائه) اقناعهم بفضائل الغربيين، وبإرساء مدنيتهم فيما بينهم، وبإزالة التخلف والبؤس عنهم، وبالعمل على تقدم البلاد وتطور الإنسان فإن الغزاة يمكنهم أن يقتحموا البلاد بأقل جهود ودماء.

حتى إنه قد يرى جماعات من الوطنيين يستقبلونه، ويعلنون رضاهم به، فتدخل الجيوش المدججة بالسلاح وتعبر الحدود في الجو والبر والبحر من غير مقاومة تذكر.

ب ـ وقد تحقق لهم ما أرادوه بتتالي (الإرساليات) بدءاً من القرن الثالث عشر مع تثبيت (العلاقات التجارية)، ورعى ملك فرنسا شؤون التبشير بنفسه، واهتم ببناء الكنائس، وبدأت فرنسا تستقبل رجال الدين اللبنانيين وتعلمهم في مدارسها الدينية على حسابها، (بينما) واصلت رعايتها للارساليات في الشرق بالرغم من اضطهادها لها في فرنسا... وكانت بريطانيا قد سبقت (الدول) إلى إرسال

دعاتها إلى لبنان لتحريض الشعب ضد ابراهيم (باشا) والأمير بشير، كما أعادت أمريكا مبشرين إلى بيروت بعد ضربها عام ١٨٤١ وحملتهم على ظهر سفينة خاصة إليها.

ج - وأرسلت بريطانيا عشرات الرحالة والمؤلفين والموظفين لدراسة أحوال سورية كطريق رئيسية إلى الهند، وكذلك انتشر عمال فرنسا في (لبنان) وتجولوا بين القرى المارونية، طالبين إلى السكان رفع الأعلام الفرنسية[١٨]. . .

و - كتب هؤلاء عن الشرق كتابات فيها الغرائب والأعاجيب والأساطير وأحياناً الأخبار المفزعة المخوفة، مثل: رحلة (شاباي) التي تكثر فيها الضلالات ليس أقلها قوله: ان للشرقيين ثمانية أنامل ورأسين[١٩]، وكتاب آسيا المرعبة: وصف مؤلفاه: بيار ورينيه غوسيه بلاد الشرق بتهكم واستهزاء.

د - **القناصل المبشرون**: فقد حاول (سكين) قنصل إنكلترا في حلب أن يسعى عام ١٨٦٠ إلى تحضير البدو في بادية الشام ليتوصل من هذه السبيل إلى اجتذاب أبنائهم إلى النصرانية، وفي عام ١٨٨٨ أغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الاميركيين لأن هذه المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة من الحكومة، ولكن المستر (بسنفر) قنصل اميركا في بيروت، والمستر (اسكار شتراوس) تدخلا في الأمر حتى سمح الوالي علي رضا باشا بأن تعود تلك المدارس إلى فتح أبوابها[٢٠].

ب - أثناء الاستعمار:

إن الغزاة يعتمدون في (تثبيت أقدام التنصير) وفي تكريس نفوذهم

---

(١٨) المرجع السابق، ص ١٥٤.

(١٩) المستشرقون: د. العقيقي ١/٢٠٤.

(٢٠) التبشير والاستعمار ص ١١٩ و (ستراوس) وزير امريكا المفوض في تركيا وهو يهودي.

على صنفين من الناس: فهم يعتمدون على (الإرساليات) التنصيرية التي هي في الغالب جزء من الغزاة المستعمرين، يستفيدون من نفوذهم وسعة انتشارهم، كما يعتمدون على الخائنين ومن باعوا دينهم وضمائرهم وأصبح ولاؤهم للأجنبي الغازي.

ويتركز العمل التنصيري في خدمته للاستعمار في:

أ - فهو يمثل همزة الوصل بين المواطنين والمستعمرين وعلى الأقل بين المواطنين المسيحيين والأجانب.

ب - توظيف أكبر عدد ممكن من أعوان المنصرين في الحكومة الاستعمارية، وهؤلاء يكونون صلة الوصل أيضاً مع الأجانب.

ج - توسع أعمال ومؤسسات التنصير وزيادة نفوذه وحمايته التي يمكن استغلالها لتثبيت مركز الاستعمار ودعم موقفه.

فقد أدركت الدول الأوروبية أن المبشرين آلة فعالة لتأييد النفوذ الأجنبي في الامبراطورية العثمانية فأخذت تلك الدول تتبارى في استخدام المبشرين... وكانت الدول تضغط على الدولة العثمانية بين الحين والآخر من أجل مبشريها، فتلين الدولة العثمانية أمام هؤلاء المبشرين في حالات ضعف ولاتها، وتصمد في حالات قوتهم.

ج - بعد الاستعمار:

ودوره هنا هو الإبقاء على النفوذ التنصيري في شكله الاستعماري والفكري. فمن المعروف أنه بعد جلاء الاستعمار فإن النشاط التنصيري لا يجلو بجلائه وإنما تبقى مؤسساته ماثلة للعيان، فعالة في نشاطها، وإذا خرج الجيش الاستعماري من البلاد المغلوبة فإنه يبقي وراءه جيشاً آخر من المنصرين.

ويتركز دور التنصير هنا في:

أ - تأمين استمرارية المصالح الاستعمارية، وذلك بتسهيل عقد المعاهدات

الثقافية والتجارية والسياسية أحياناً.

ب - الإبقاء على العلاقات الدولية بين المستعمِر والمستعمَر وإحكام الصلة بينهما من غير حاجة إلى سفك الدماء وتوفير الأموال في بعث الجيوش العسكرية الجرارة.

ج - تطبيع العلاقات بين الأجيال الناشئة وبين مؤسسات الاستعمار حتى يؤدي بهم إلى (التغريب).

د - تخريج قادة سياسيين وفكريين من معاهد الاستعمار ووفق مناهجه حتى يستطيع توجيههم وفق مصالحه وليس وفق مصالح القادة الوطنية.

لذلك فلا يخلو بلد عربي واسلامي تقريبا من بروز مؤسسات استعمارية يقبل معظم الناس عليها وبخاصة أبناء الطبقات العليا في المجتمع لأي سبب من الأسباب. وقد تستمر أسماؤها وألقابها الأجنبية عليها، مع دعمها بأجهزة إدارية وفنية متقدمة. إن مثل هذه المؤسسات تلقى حماية ورعاية أجنبية بصورة مباشرة غالباً، وهي إذ تعد فكر الأجنبي وثقافته فإنها تعمل على تجزئة البلد الواحد إلى جماعات وكيانات واتجاهات، ثم لا تصلها بالبلاد أية رابطة شريفة مقدسة.

ولذلك فقد عمدت الحكومات إلى (تأميمها) وإلحاقها بمؤسسات الدولة ضمن مناهجها وتوجهاتها.

خامساً: أساليب التنصير:

تنوعت وسائل التنصير عبر الاجيال والقرون واختلفت فيما بينها كما سبق الكلام. فقد كانت الخطب الثورية النارية الوسيلة الأولى للدعوة الى التنصير ثم اتجه إلى كتابة الرسائل وانشاء المخططات القريبة والبعيدة واتخذوا نوعين من هذه الأساليب.

١) الأسلوب المباشر:

وهو أسلوب تعليمي يقوم على الوعظ والدعوة إلى (قيم) الكنيسة المسيحية

أو المذهبية وهذه الوسيلة تعد من أقدم الوسائل في التنصير فقد كان الراهب أو الراهبة بعد أن يتقنا اللغة العربية ينتشران في الأماكن المخصصة لهما وحدهما أو ضمن ارساليه فيقدم الرهبان على القرية أو المدينة ويقومون بالوعظ في كنيسة مبنية سابقاً وحين يستعين الرهبان بمسيحيين موجودين في ذلك المكان يجمع هؤلاء المسيحيون أهلهم واصدقاءهم ومعهم بعض المسلمين. ولا شك أنه في أثناء الوعظ المباشر تحدث مناقشات واعتراضات ولكن الرهبان قد تدربوا على مثل هذه الاعتراضات والمناقشات، وهذا الأسلوب غير مرغوب فيه قطعاً لدى المسلمين عموماً، فإن أي راهب يفاجئهم بالدعوة إلى المسيحية فإن المسلمين يرفضون هذه الأقوال والأشكال معاً. لذلك وجد الرهبان مشقة ومتاعب جمة في إيصال هذه المواعظ الدينية في المسلمين لأن هؤلاء المسلمين يستحيل عليهم ترك دينهم غالباً، فلا بد من الاعتماد على الوسيلة الثانية.

٢) الأسلوب غير المباشر:

وتتلخص في أن في الإرساليات قبل أن تقدم إلى البلاد المخصصة لهم لا بد أن يدرسوا أحوال المسلمين دراسة وافية وشاملة ويستغلوا نواحي الضعف والتخلف والمرض والبعد عن الإسلام استغلالاً يطمئنهم على نجاح وسائلهم فإذا بهذه الارساليات تقوم بين يديها جماعات المهندسين الخبراء والأطباء والممرضين والممرضات فيشرعون بتأسيس مستشفيات ومؤسسات خيرية ونواد للشباب والشابات إلى جانب ما يقومون به من تأسيس المدارس والمعاهد على مستوى راقٍ من حيث البناء والتجهيزات والأثاث، ومن خلال هذه المؤسسات الطبية والعلمية والاجتماعية والرياضية التي في ظاهرها المعالجات الطبية والاقتصادية كانوا يبشرون بالنصرانية.

ففي (دمشق) مثلاً أقام المنصرون مستشفيات فرنسية وايطالية وأمريكية كما أقاموا في مدن أخرى مستشفيات، وهذه المؤسسات كانت تجذب إليها ضعاف الناس وأقوياءهم على السواء. أما الضعاف بالمرض والفقر فكانت تفتح لهم

أبواب المستشفيات والأندية فتعالجهم وتقدّم اليهم الدواء بالمجان وتجرى لهم العمليات الجراحية من غير مقابل على يد أطباء وجراحين عالميين. وهذه المستشفيات مستفشيات خاصة وليست رسمية فمدير المستشفى أو النادي يختار من المبشرين الذين وضعوا في أذهانهم (قضية) تحقيق الغرض التنصيري وأحياناً يشترط مدير المستشفى أو النادي على المريض الدخول في النصرانية أو يقوم بأعمال تنصيرية بالإضافة إلى أن الموظفين والموظفات من العرب المسلمين في أغلب الأحيان تستغل الأعمال الوظيفية في محاولة لإدخالهم في النصرانية.

أما بالنسبة للأقوياء والاغنياء فلا شك ان إنشاء المدارس والمعاهد الراقية التي تعنى عناية خاصة باللغات الأجنبية وبالعلوم الكونية قد جذبت إليها أبناء التجار والصفوة من أبناء المسلمين حتى إذا تعلموا العلوم الأجنبية وأتقنوا لغتها ونالوا الشهادات منها فإن المنصرين يتابعون مسيرتهم العلمية في البلاد الخارجية ثم يرجعون إلى أوطانهم وقد تسلموا أعظم المراكز العلمية والسياسية والفكرية ويتبوأوا مقاعدهم في أعلى المستويات الاجتماعية والوظيفية القيادية.

ولذلك فإن التنصير عن طريق هذه المؤسسات استطاع أن ينال بعض الفوائد والمكاسب حين عجزت عن مثلها الوسيلة الأولى المباشرة ولا ريب أن العمل التنصيري يضر بالبلاد الاسلامية من حيث (السياسة) و (التعليم) وغيرها لأنها مؤسسات أجنبية تدار وتساس من قبل أشخاص أجانب خطرين على الدولة، وهؤلاء يستعينون بأعوانهم الوطنيين.

إن ضياع استقلال البلاد وحريتها إنما يتمثل في وجود مثل هذه المؤسسات أو بقاياها تستغل هذه البلاد فكرياً كما استغلتها عسكرياً. فإن (تغريب) الأفكار، و (فرنجة) المبادىء، و (ردة) الإسلام من أكبر رزاياه ومصائبه.

سادساً: مجالات التنصير:

وهي وإن كان بعضها تقليدياً وقديماً مثل: تأليف الكتب وإصدار النشرات وتأسيس المدارس والمعاهد في المجالات العلمية والثقافية فإن استخدام أرقى الوسائل التقنية والأجهزة المتقدمة والبرامج الحديثة خدمت أعمال التنصير وأغراضه، وأوصلت تعاليمه إلى أماكن نائية في العالم، حتى إن جميع المجالات كانت مهيأة للنشاط التنصيري حيث وظف لأعماله كل المبتكرات العقلية في عالم الثقافة والاقتصاد والإعلام، ومن هذه المجالات[21]:

١ ـ مجال الفكر والعقيدة:

فقد شهدت الآونة الأخيرة تطوراً جديداً في الأسلوب في هذا المجال وذلك عن طريق التأثير بشكل قوي في فكر وعقيدة البشر لجذبهم إلى النصرانية وذلك عن طريق ابراز العقيدة النصرانية، في ثوب شيق جذاب يواكب الحضارة العصرية ويشبع طموحات البشرية وفي الوقت نفسه يظهرون الإسلام بمظهر مشوه سيء ويلقون عليه تبعات تخلف المجتمعات المسلمة في العصر الحاضر بما فيه من جمود أدى إلى هذه الحال التي يقاسي منها المسلمون في هذه الأيام. . . واستطاع هؤلاء المنصرون التأثير الإيجابي في عقيدة وفكر المسلمين بما يوافق ما يسعون إليه وتهجموا على شخصية الرسول الكريم والصحابة الأجلاء رضوان الله تعالى عليهم والتابعين. . . واستطاع قادة هذه الفتن بما ألفوه وأتقنوا تأليفه من التسلل إلى الكتب المدرسية والجامعية والثقافية لتحقيق هذا الهدف الخبيث. . .

وتبنت هذه الأدوار الرذيلة منظمات وهيئات تنصيرية اهتمت بطبع ونشر مؤلفات ونشرات تتهجم على الاسلام وتحرف آيات القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة بما يوافق هواهم وتعاليمهم النصرانية. . . ومن

---

(٢١) مقتبس من مجلة: رسالة المسجد عن رابطة العالم الاسلامي العدد ٧ السنة ٦، ١٤٠٣ - ١٩٨٣.

أمثلة هذه المنظمات والهيئات: منظمة مركز الشبيبة ومركزها الرئيسي في مدينة شتوتغارت بالمانيا الغربية، والعجيب أن لهذه المنظمة فروعاً في مناطق أخرى مثل بال بسويسرا، ومن أمثلة هذه المؤلفات الخطيرة التي نشرت وترجم بعضها إلى مختلف لغات العالم الحية:

١ - ميزان الحق (ثلاثة اجزاء).
٢ - تنوير الإفهام في مصادر الإسلام.
٣ - الباكورة الشهية في الروايات الدينية.
٤ - دعوة الحق.
٥ - أصول الإيمان.
٦ - الصليب في الإنجيل والقرآن.
٧ - دين المسيح لم ينسخ.
٨ - شخصية المسيح في الإنجيل والقرآن.
٩ - هل الله ظهر في الجسد.
١٠ - الغفران في المسيحية.
١١ - الله واحد في الثالوث المقدس.
١٢ - الله والمسيح.

إلى غير ذلك من المؤلفات التنصيرية التي تقوم بها هذه المؤسسات وغيرها... كما يوجد أيضاً مثل هذا النشاط على مستوى الأفراد، ومن أمثلة ذلك «الأب يوسف دره الحداد» وهو قسيس متعصب من بيروت ألف عدداً من الكتب الحاقدة والمشحونة بالتهجم والتحريف للآيات القرآنية في سبيل تصحيح عقيدة النصرانية المحرفة، ومن أمثلة هذه السموم التي ألفها هذا القس المحموم:

أ - سلسلة الحوار الإسلامي المسيحي وصدر منها:
١ - مدخل إلى الحوار الاسلامي المسيحي.
٢ - القرآن دعوة نصرانية.

٣ ـ القرآن والمسيحية.
٤ ـ أسرار القرآن.
٥ ـ المسيح ومحمد في عرف القرآن.
٦ ـ ما بين الإنجيل والقرآن.

ب ـ سلسلة دروس قرآنية وصدر منها:

١ ـ القرآن والكتاب ثلاثة أقسام:
بيئة القرآن الكتابية، أطوار الدعوة القرآنية، العقيدة والشريعة الصوفية في القرآن.

٢ ـ نظم القرآن والكتاب وهو قسمان: إعجاز القرآن، معجزة إعجاز القرآن.

ونجد مجموعة أخرى من المتعصبين الحاقدين على الإسلام في استراليا تلجأ إلى توزيع المقالات والمنشورات يتهجمون فيها على شخص الرسول الكريم ﷺ وعلى تعاليم الإسلام، واستطاع جون لافن أن يصدر كتاباً في لندن بعنوان «خنجر الإسلام» كما أجرى حواراً في محطة الاذاعة الاسترالية المحلية يهاجم فيها الاسلام والمسلمين.

وتطوع بعض المرتدين عن الاسلام لتأليف كتب تهاجم الإسلام من أمثال الراهب يوحنا محمد عبدالجليل وهو مغربي الأصل ودرس بجامع القرويين إلى سن العشرين ثم ذهب إلى باريس وتنصر هناك وأصبح قسيساً عام ١٩٤٥ م وقد ألف كتاباً بعنوان نحن والإسلام تولته دار النشر الفرنسية (سرف) عام ١٩٨١ م وذلك بهدف تحقيق المزيد من التشكيك بين أوساط المسلمين... كما قام المدعو ك. ل. علوي من كيرالا بالهند بتأليف كتابين هما: «هل لله ابن» و «منتهى البحث» وقام المدعو رفاعي برهان الدين من أندونيسيا وهو مرتد عن الإسلام أيضاً بتأليف كتاب «عيسى والقرآن» وكتاب «دليل تبليغ الإنجيل للمسلمين».

وقامت جماعة أخرى تدعى «جماعة عيسى» واتخذت من مينا بوليس بولاية منسوتا بالولايات المتحدة الامريكية حيث ألفت كتاب: «عيسى في القرآن والإنجيل».

هذا وقد حاول البعض تحريف آيات القرآن الكريم والتغيير في ترتيب الآيات كصورة من صور العبث بالقرآن الكريم كما فعلت احدى دور النشر الامريكية.

وقد قاموا بتوزيع هذه المؤلفات والمنشورات والكتب المشحونة بالتحريف والتزييف والاجتراء على تعاليم الإسلام والتي تمجد تعاليم المسيحية المحرفة على المسلمين والمتعلمين منهم بصفة خاصة وكذلك في أوساط طلاب العلم الذين ابتعثوا من قبل بلادهم إلى بلدان أوروبا وأمريكا طلباً للعلم وذلك بلغاتهم أو التي يفهمونها تيسيراً عليهم وتسويقاً لهم.

٢ ـ مجال الثقافة والتعليم:

اتخذ المنصرون خطوات شتى في هذا الحقل منها التركيز على إنشاء رياض للأطفال ومدارس لمختلف التخصصات ابتدائية وإعدادية وثانوية وحتى جامعات، وكل هذه المؤسسات قد زودت بالكفاءات العالية والأجهزة الحديثة لتجذب اليها ضحاياها.

كما دأب المنصرون على إقامة النوادي والمراكز الثقافية تحت ستار خادع لكن باطنه تذويب المبادىء والقيم الاسلامية... وكذلك تخصيص المنح الدراسية لأبناء المسلمين النابغين في مدارس تابعة لهم أو جامعات يسيطرون عليها داخل أو خارج البلدان الاسلامية حتى يتربى جيل على أيديهم يتولى المناصب القيادية والهامة في الدولة حتى يفسحوا المجال للمنصرين ليلجوا إلى تحقيق هدفهم من أوسع الأبواب.

٣ ـ المجال الاجتماعي:

وذلك عن طريق إقامة جمعيات اجتماعية ونواد تهتم بهذا النشاط ونواد

رياضية وفنية ومخيمات للشباب وتنظيم الرحلات وتشجيع المراسلات وإقامة الحفلات وذلك لجذب الأجيال إلى هذه الصفوف المشبوهة لسلخهم عن تعاليم دينهم الحنيف. . . بل وصل الأمر إلى استخدام الفتيات لاغواء الشباب المسلم وبث هذه السموم التنصيرية بعد أن يقعوا في شراك هذه الغواية، وقد تزعم أمثال هذه الحركات التي تدعو إلى الجنس عن طريق الفتيات والرسومات الخليعة والأشرطة «الاب ديفيد» الذي عرف بين هذه الأوساط بـ «رسول الحب الجديد». ولم يقتصر هذا النشاط في تلك الاتجاهات بل تعداها إلى السجون وأوساط المعتقلين السياسيين بحجة رعايتهم ولكن في الحقيقة يهدفون إلى رعاية انحرافات عقائدهم السياسية والعقائدية وزرع الحقد في نفوسهم على المجتمع المسلم فيباشروا هذا الحقد والفساد بعد خروجهم من هذه المعتقلات.

وضمن هذا المخطط الرهيب في المجال الاجتماعي عمل المنصرون بأساليب علمية مدروسة ومتقنة في البلدان الاسلامية لتحديد النسل لإيقاف المد السكاني الإسلامي بتقديم نصائح خادعة ومسوغات براقة ينخدع بها كثير من أبناء امتنا الاسلامية.

٤ ـ المجال الانساني الخيري

حيث استغلت حركات التنصير فرصة وقوع بعض أبناء بني البشر في ظروف قاسية كالتشرد بسبب الحروب الشرسة التي تشعلها الأحقاد البشرية والأطماع وتطلعات المستعمرين والتي يروح ضحيتها الكثيرون من القتلى والجرحى واللاجئين الذين يحتاجون إلى العون أو أولئك المتضررين بسبب القحط أو الفيضانات أو الزلازل أو ما شابه ذلك، لذا استغلت حركات التنصير هذه الظروف لبث سمومها التنصيرية عن طريق انشاء المستشفيات والمستوصفات والكليات والمدارس ودور الأيتام والعجزة والتأهيل المهني، إلى غير ذلك من التغلغل بين أوساط المتضررين الذين هم في أمس الحاجة لهذه

المعونات. كل ذلك يحدث في شتى أنحاء العالم أينما وجدت هذه الكوارث رغم العديد من القرارات الصادرة عن المؤتمرات للكف عن مثل هذه التصرفات اللاإنسانية التي تستغل لحظات الضعف البشري والحاجة الملحة لبث هذه السموم الخطيرة. . . وغير خاف علينا ما يحدث في معسكرات اللاجئين والمتضررين من الكوارث في كل مكان في عالمنا الاسلامي.

٥ ـ مجال الاعلام:

حيث استطاع اليهود والصليبيون السيطرة على وسائل الاعلام في العالم وسخروها لخدمة أهدافهم ولم يستطع الاعلام الاسلامي أن يفعل شيئاً أو حتى يثبت له كياناً أو وجوداً أو تأثيراً ولو في مجال الدفاع والمواجهة. . لذا استطاع الاعلام الذي يسيره «اللوبي الصهيوني» أن يحجب الاهتمام بالقضايا التي تهم عالمنا الإسلامي حتى تموت في ضمير المسلمين وفي الوقت نفسه يركز على قضايا جانبية أو ظواهر فيها الخطر المحدق بمجتمعاتنا الاسلامية يمهد لها ويعمل على نشرها وبث الزخارف المضللة حولها كالأفكار والمذاهب الهدامة والإباحية إلى غير ذلك. . .

وقد سخروا لهذا أحدث أنواع الأساليب والوسائل الاعلامية من مجلات ونشرات وجرائد ونشرات متخصصة حتى للأطفال والنساء بصورة جذابة وبمختلف اللغات ينفقون عليها حتى تظهر بصورة مغرية جذابة منها ما يوزع مجاناً ومنه ما يوزع بثمن ضئيل. . . كما أن هناك معاهد متخصصة في هذا المجال في أمريكا وغيرها. . . وقد سخرت مطابع دور نشر لهذه الأغراض علاوة على طباعة ونشر وتوزيع الإنجيل وترجمته إلى لغات عديدة. . . هذا في مجال الكلمة المكتوبة، أما في مجال الكلمة المسموعة فقد بلغت شأواً بعيداً في هذا المضمار حيث أنشئت برامج اذاعية تنصيرية بل أنشئت محطات خاصة للتنصير في مناطق عديدة منها:

١ - إذاعة ساعة الإصلاح بالخرطوم بالسودان.
٢ - إذاعة نور على نور في مرسيليا.

٣ - صوت كلمة الحياة في مالاكا بأسبانيا.
٤ - نداء الرجاء في شتوتغارت بألمانيا الغربية.
٥ - اذاعة المحبة والوفاء بيروت.
٦ - اذاعة مونت كارلو بمونت كارلو.
٧ - المدرسة الاذاعية الإنجيلية مرسيليا.
٨ - المركز المعمداني بيروت.
٩ - دار الهداية سويسرا.
١٠ - الإذاعة التنصيرية ليبيريا.
١١ - الإذاعة التنصيرية سيشيل.

هذا وقد عقدت المؤتمرات واللقاءات في هذا المضمار حيث عقد في هوس بنيجيريا اجتماع ضم حوالى أربعين من زعماء الكنائس الأفريقية اللوثرية ومدراء المحطات الاذاعية ورجال الإعلام لبحث تضافر الجهود وتطوير أسلوب الإذاعات التنصيرية في غرب أفريقيا... كما عقد اجتماع آخر في تنزانيا في مارس ١٩٨١ م خاص بشرق أفريقيا...

وفي اكتوبر عام ١٩٨٠ عقد مؤتمر كبير في سوازيلند ضم مجموعة من العاملين في مجال البث الاذاعي يمثلون ١٢ دولة من أفريقيا حضر معهم مجموعة من المراقبين في أوروبا.

ومن المعروف أن للطائفة المعمدانية فقط حوالى ١١١ محطة إذاعية تنصيرية منتشرة في ثمانية وثلاثين بلداً.

كما تم تخصيص عشرين مليون دولار ابتداء من عام ١٩٨٠ م لتقوية إذاعة آسيا التنصيرية لمنطقة جنوب شرق آسيا خاصة وقارة آسيا عامة وهذه الإذاعة متمركزة في الفلبين وتبث براجمها بـ ٢٨ لغة آسيوية.. هذا علاوة على محاولة تجنيد رجال التنصير في المؤسسات الإعلامية في الدول الإسلامية ليضمنوا السيطرة بشكل أو بآخر على هذه الأجهزة... بل تعدى الأمر إلى

إنتاج برامج خاصة بالتنصير بأساليب خادعة لتفوت على رجال المراقبة في المؤسسات الإعلامية المسموعة والمرئية . . .

٦ ـ مجال السياسة والاقتصاد:

استطاع المستعمر الصليبي أن يضع بصماته الاجرامية في كل مكان وموقع يشمل جوانب الحياة في الدول التي وقعت تحت طائلته . . . واستطاع بكل الأساليب أن يجهز طابوراً معداً إعداداً متقناً وقد تسلل في المناصب السياسية في هذه البلدان التي هي ميدان رحيب لسياسة الاستعمار الصليبية . وعن طريق هذا الطابور المجهز استطاع أن يبث سمومه ، ويحقق أهدافه . . . ومن نتائج هذه التغلغلات استطاع التنصيريون أن يعبثوا بكل مقومات البلدان الاسلامية أو التي بها مسلمون وغيروا وبدلوا في التشريعات والنظم السياسية في تلك البلدان الاسلامية بما يوافق هواهم ويحقق أغراضهم ويباعد بين هذه الجماهير وكل مقوم من مقومات تراثهم العقائدي . . . فتبدلت القوانين والتشريعات لتحل محلها ما فرضته من قوانين فرنسية أو انجليزية أو ايطالية أو غير ذلك من قوانين وضعية عبثت بها ورضيتها فلول المنصرين . . . وكان من وراء هذه الحركات التنصيرية التي دأبت على هذه الأعمال الصهيونية العالمية التي استطاعت أن تسخر المنصرين وتنسق معهم لتمتد سيطرتها في مجال الاعلام والسياسة فتغلغلت الصهيونية العالمية داخل الكنيسة وفي أوساط رجال الدين المسيحي واستخدموا أكثر من ثلاثة آلاف قسيس بروتستانتي يدفع الصهاينة لهم رواتبهم الشهرية في مقابل استخدامهم لمصلحة أهدافها القبيحة ضد الاسلام . . . ولقد أصبح الصراع مكشوفاً الآن بين الصليبية العالمية وفلول التنصير يؤازرها الصهاينة ، وبين المسلمين في مجال السياسة وقد ظهر هذا واضحاً في غير موقع من عالمنا الاسلامي والعربي مثل لبنان وجنوب الفلبين وقبرص ونيجيريا وأرتريا وغيرها . . . وما زال هذا الصراع السياسي يمتد ويشتعل أواره بصورة علنية مكشوفة تارة وبصورة سرية خافية تارة أخرى .

أما نشاط هذه الحركات التنصيرية في المجال الاقتصادي فهو خاضع للصهيونية العالمية التي تحرك سياسة الاقتصاد في العالم دون منازع بشتى الصور حتى إن معظم الارصدة المالية العربية والاسلامية في العالم تخضع تحت سيطرة القوى الاقتصادية الصهيونية المنتشرة في العالم. . . وقد أخذت الصليبية والحركات التنصيرية في الآونة الأخيرة تركز اهتمامها نحو الاقتصاد في محاولة جريئة لاحكام قبضتها أيضاً على اقتصاديات البلدان النامية ـ ومعظمها بلدان اسلامية وعربية ـ تحت ستار المشاركة في حركة التنمية والتخطيط والتطوير الاقتصادي في البلاد وذلك عن طريق انشاء البنوك العالمية عبر البحار والصناعات الخفيفة والثقيلة لانتاج الآليات والادوية والاغذية والأدوات الطبية وكذلك شركات المقاولات والتجارة إلى غير ذلك من الوسائل التي بها تستطيع التأثير والتغلغل في اقتصاديات البلدان الاسلامية حتى يتيسر لها السيطرة الكاملة ونشر مبادئها التنصيرية بين أوساط المسلمين.

والمعروف أن هذه المؤسسات والمشروعات استطاعت حركات التنصير عن طريقها تأمين موارد مالية ثابتة تساهم وتساعد في اتساع أنشطتها التنصيرية في العالم وقد سخرت لذلك مصادر التمويل الثابتة لانشائها عن طريق التبرعات من مختلف الأفراد والحكومات والمؤسسات في الدول الغربية وذلك باقامة حملات تبرّع يقوم بها بعض القساوسة من حين لآخر، ومن أمثلة هذه الحملات ما قام به «بيلي جراهام» زعيم البروتستانتيين في أمريكا بهدف جمع بليوني دولار أمريكي لتمويل مشروعاته التنصيرية في كل من أفريقيا وآسيا.

ولدى الفاتيكان ميزانية ضخمة ومصادر تمويل ثابتة قدّرها بعض الاقتصاديين بأنها تجعل من الفاتيكان ثالث دولة غنية في العالم.

٧ ـ مراكز البحوث ومعاهده:

ولم يكتف المنصرون بهذا بل عمدوا إلى انشاء هيئات ومراكز للبحوث

والتخطيط التي تعمل بواسطة مجموعات مختارة من الباحثين المؤهلين علمياً وعملياً وهم على قدر كبير من الخبرة والذكاء وذلك لوضع خطط ودراسات على المدى الطويل لخدمة هذه الأهداف التنصيرية الكبرى. . . ومن أكبر هذه المراكز العامة ستة عشر مركزاً منها اثنان في افريقيا وستة في آسيا وبقيتها في أوروبا وأمريكا. . . ومن هذه المراكز:

أ ـ مركز البحوث التابع للفاتيكان.

ب ـ مركز البحوث التابع لمجلس الكنائس العالمي بجنيف وما يتبع من مراكز للبحوث تابعة لمجالس الكنائس الوطنية في معظم بلدان العالم. . .

جـ ـ مراكز البحوث والدراسات في أمريكا وهي كثيرة حيث تعمل هذه المراكز بشكل تنظيمي عن طريق رصد العمل الاسلامي ومحاولة التحرك ضده. . . ويتم هذا الرصد من خلال ثلاثة أطراف في أمريكا:

الطرف الأول: يتمثل في معاهد ومراكز متخصصة في العالم الاسلامي وما يجري فيه من نشاطات اسلامية فيوجد أكثر من ٢٨ مركزاً موزعة كالتالي:

١ ـ معهد الشرق الأوسط في جامعة كولمبيا.
٢ ـ معهد دراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون.
٣ ـ معهد دراسات الشرق الأوسط في جامعة جون هوبكنز.
٤ ـ مركز جوستان فون جرونبوم لدراسات الشرق الأدنى في لوس أنجلوس بكاليفورنيا. . .
٥ ـ مركز الدراسات الامريكية عن مصر في برنستون بولاية نيوجرسي.
٦ ـ معهد الدراسات الاسلامية جامعة ميجل.
٧ ـ مركز دراسات الشرق الأوسط جامعة هارفارد.

٨ ـ مركز دراسات الشرق الأوسط جامعة بورتلاند.
٩ ـ مركز دراسات الشرق الأوسط شيكاغو.
١٠ ـ المعهد الشرقي بشيكاغو.
١١ ـ مركز دراسات الشرق الأوسط وشمال افريقيا ميتشيجان.
١٢ ـ مركز دراسات الشرق الأوسط تكساس.
١٣ ـ مركز دراسات الشرق الأوسط جامعة يوتا.
١٤ ـ برنامج الدراسات اليهودية والشرق الأدنى.
١٥ ـ معهد المسيحية والعالم القديم جامعة كلارمونت.
١٦ ـ معهد متخصص ومركزه باكستان تابع لجامعة سيراكيوز.
١٧ ـ معهد متخصص ومركزه باكستان تابع لجامعة بنسلفانيا.
١٨ ـ معهد متخصص بأندونيسيا تابع لجامعة كورنيل بنيويورك.
١٩ ـ معهد متخصص بتركيا تابع لفيلادلفيا، جامعة بنسلفانيا.
٢٠ ـ أربعة عشر معهداً مختصاً بآسيا عامة. وخمسة معاهد مختصة بأفـريقيا. وثلاثة معاهد مختصة بغرب افريقيا ومعهد بشرق أفريقيا.
٢١ ـ معهد متخصص بمسلمي الاتحاد السوفياتي.

الطرف الثاني: معـاهد تـابعة لجمعيـات لها مـراكز لـدراسة النشـاطـات الاسلامية في البلاد الاسلامية مثل جمعية الرابطة اليهودية في نيويـورك وجمعية بناي بيرت وغيرها.

الطرف الثالث: فهي عبارة عن دور النشر والصحافة والإعلام التي تقـوم بدراسات وأبحاث ومقالات وكتب تركز على التحذيـر من اليقظة الاسـلامية في الوطن الاسلامي والعربي وكذلـك محاولـة زعزعـة العقائـد وفقد الثقـة في الدين الاسلامي إلى غير ذلك من البحوث.

٨ ـ المؤتمرات التنصيرية العالمية:

ولتحقيق هذه المخططات التنصيرية عقـد العديد من المؤتمرات التنصيرية

لـدراسة ووضـع خطط لهـذا النشاط ومحـاولة مـواجهة العقبـات التي تعترض مسيرة التنصير العالية، ومن هذه المؤتمرات التنصيرية:

١ ـ مؤتمر القاهرة التنصيري ١٩٠٦ م.
٢ ـ مؤتمر ادنبرة عام ١٩١٠ م.
٣ ـ مؤتمر أوسليم عام ١٩٢٨ م.
٤ ـ مؤتمر مدارس بالهند عام ١٩٢٨ م.
٥ ـ مؤتمرات مجلس الكنائس العالمي ١٩٢٥، ١٩٢٧، ١٩٢٨ م.

هذا عدا المؤتمرات العديدة التي عقدت في هذا الزمـان كما عقـدت مؤخراً مثل:

١ ـ مؤتمر لوزان ١٩٧٤ م.
٢ ـ مؤتمر كولورادو عام ١٩٧٨ وهو من أخطر المؤتمرات التنصيرية.
٣ ـ مؤتمر مجلس الكنائس ١٩٨٠ م.
٤ ـ المؤتمر الكاثوليكي للاعلام في الفاتيكان عام ١٩٨١ م.
٥ ـ مؤتمرات في كل من أندونيسيـا ومـاليزيـا والفلبين وكينيـا وسوازيلنـد والمؤتمر السادس لمجلس الكنائس العالمي كاليفورنيـا ومؤتمر ملبـورن في استراليا ومؤتمر تايلاند في عام ١٩٨٠ م.
٦ ـ كما عقدت مؤتمرات تنصيرية خاصة بدراسة اليقظة الاسلامية مثل مؤتمر العـالم الاسـلامي من مـراكش إلى أنـدونيسيـا عقـد في واشنـطن عـام ١٩٨٠.
٧ ـ مؤتمـر الشرق الأوسط والغرب في نهايـة القرن العشرين باشراف مركـز الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة ميـامي... ومؤتمز تحـدي الشرق الأوسط باشراف معهد بحوث الشرق الأوسط في جامعة بنسلفانيـا عام ١٩٨٠ م.
٨ ـ مؤتمـر الاسلام والسيـاسة بـإشراف مجموعـة الدراسـات الاسلاميـة في

الأكاديمية الامريكية للأديان جامعة سيراكيوز عام ١٩٨٠ . . . ومؤتمر العالم العربي (بلاد المتناقضات) في مركز دراسات الشرق الأوسط جامعة شيكاغو عام ١٩٨١ . . .

٩ ـ مؤتمر الشرق الأوسط (عودة إلى الأصول) بإشراف مركز الدراسات الشرق الأوسطي جامعة برنستون عام ١٩٨٢ .

١٠ ـ مؤتمر الشرق الأوسط والولايات المتحدة وهي ندوة دولية عقدت بإشراف مركز شيلوه لدراسات الشرق الأوسط وأفريقيا ومركز الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب عام ١٩٧٨ م .

١١ ـ مؤتمر الاسلام في الشرق الأوسط اليوم حول الأبعاد الدينية والاجتماعية والسياسية وقد عقد هذا المؤتمر بإشراف المؤتمر اليهودي الامريكي وجمعية بث الـ (بيسرا) عام ١٩٨٢ م في ولاية ماريلاند الامريكية .

١٢ ـ ندوة العالم الاسلامي والولايات المتحدة (علاقات متغيرة) استمرت لمدة تسعة أيام في رحاب كلية مالكيستر عام ١٩٨٢ م .

١٣ ـ مؤتمر العنف: (هل الدين سببه أم علاجه) في الشرق الأوسط والولايات المتحدة الامريكية وأيرلندا الشمالية: ندوة في معهد السلام الكنفدرالي ومعهد السلوك والشؤون الانسانية في جامعة كولومبيا برئاسة سايروس فانس وزير خارجية أمريكا الأسبق .

١٤ ـ مؤتمر الاسلام والعالم العربي في كلية اندرسون ومجلس سنسناتي عام ١٩٨٢ م .

١٥ ـ مؤتمر العالم الاسلامي ماضيه وحاضره ومستقبله . . . في كلية سانت ماري في ماريلاند .

١٦ - مؤتمر يقظة الاسلام ندوة باشراف مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة نيويورك وجامعة برنستون عام ١٩٨١ م.

١٧ - مؤتمر النموذج المتغير للعلاقات الامريكية بالشرق الأوسط عقد في معهد الشرق الأوسط بنيويورك عام ١٩٨١ م.

هذا عدا مؤتمرات عقدتها الهيئات التنصيرية المختصة بالعالم الاسلامي في أمريكا.

وبالاضافة إلى كل هذه المؤتمرات فقد قام بابا الفاتيكان برحلات مشهورة ومتعددة في أفريقيا وأمريكا وأوروبا بهدف توحيد صفوف النصارى بكافة مذاهبهم وهي محاولة جادة لتنسيق العمل التنصيري وتنظيمه وتكثيفه... ورفع معنويات الأقليات النصرانية في العالم الاسلامي وتوثيق الصلة بالنصارى المسؤولين في تلك البلدان.

ومن أسباب نجاح حركات التنصير في العالم بعد تكوين المصادر التمويلية الثابتة وإنشاء الهيئات المتخصصة ومراكز البحوث والتخطيط: إنشاء هيئات تدريب على مختلف المراحل والمستويات العلمية لتخريج العاملين في مجال التنصير بعد تزويدهم بالقدرات والكفاءات النابغة لاعداد وتكوين هذه الأجيال والذين سيصبحون خبراء متخصصين في مجال عملهم في حقل التنصير.

كل هذا يحدث والجهود الاسلامية مبعثرة لا تتوحد أهدافها في مواجهة هذه الحركات التنصيرية الشرسة والتي خطط لها بأحدث الوسائل والأساليب العلمية التي توصّل إليها المنصرون في القرن العشرين... وإذا كانت قد ظهرت هناك محاولات لمواجهة هذه الحملات فإنما هي محاولات فردية ومجهودات ضائعة في وسط هذا الخضم العاتي من حملات التنصير في البلدان الاسلامية...

سابعا: في تاريخ الإرساليات:

الإرساليات: اسم يطلق على منظمات دينية، تستهدف تعليم الدين المسيحي ونشره في دولة ما أو في خارجها.

وكما أن نشاط الإرساليات كان كبيراً في اسكتلندا وايرلندا ووسط أوروبا وغيرها فإن نشاطها كان أكبر في المشرق العربي الاسلامي خاصة والشرق عامة.

(وفي القرن التاسع عشر ازداد نشاط الإرساليات في أفريقيا وآسيا حيث تبرز أسماء: لفنجسون، والبرت شفايتزر، ولا يزال ذلك النشاط مستمراً حتى اليوم).

والموسوعة التي نقلنا الكلام عنها سابقاً لم تعطنا المعلومات الدقيقة ولا غير الدقيقة عن تاريخها وأنواعها ونشاطاتها وبخاصة في العالم العربي الإسلامي.

ولكن يبدو أن إقبال الرهبان على تعلم الثقافة الإسلامية واللغة العربية إيذاناً بإرسالهم إلى الشرق، قد سبقت إليه كل من اسبانيا وفرنسا وايطاليا، وهذا يعني تقدم المذهب الكاثوليكي في إرسالياته على غيره وفي طليعة المثقفين من أهل مالقه وغيرها رجال الدين الذين اختلفوا إلى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم، ثم قبعوا في أديارهم ينقحون ذلك التراث، ويترجمونه، ويفسرونه، ويصنفون فيه، ويذيعونه بين الرهبان وطلاب العلم، فينتشر انتشاراً سريعاً بفضل مدارسهم في أديار: ريبول، حيث تعلم الأب: جربر الذي ترجم إلى اللاتينية من مخطوطات مكتبتها المصنفات الرياضية والفلكية، كالزيج المنصوري، و (سان كوجان) و (سان ميليان) و (ثيلانوبا)، وسائر مدارس المستعربين في قرطبة. ومنذ القرن العاشر حملت الكاتدرائيات[٢٣] العبء الأكبر عن الأديار، فذاعت شهرة مدارس: أوبيدو،

---

(٢٢) الموسوعة العربية الميسرة في مادة: ارساليات.

(٢٣) كنائس يرعاها أساقفة اعلى وظائف الكنيسة.

وليون، وبيك، وبرشلونة.

وقامت مثيلات لها في باريس، وشارتر، وأورليان، وتور، وريمس... وفي كبرى مدن ايطاليا وانجلترا وبلجيكا وغيرها. ورجال الدين هؤلاء عملوا على ترجمة التراث الإسلامي العلمي والشرعي، وصنفوا مؤلفات جدلية، وكان إنتاجهم زاداً تنصيرياً حملته الإرساليات المختلفة كما تشبع به فئة كبيرة من المستشرقين.

ثم أنشأ الرهبان الفرنسيسكانيون[٢٤] دير عكا (٦١٨ هـ/١٢٢١ م)، وعلّم العربية فيه الأب: روبرك، ومدرسة ميرامار (٦٧٢ هـ/١٢٧٦ م) فأشرف عليها رايموندو لوليو خلال عشر سنوات، وتعلم فيها العربية أحد عشر راهباً.

١ - وقرر مجمع طليطلة (٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م) الإنفاق على ثمانية من الرهبان الدومينيكيين... وألف (بدرو ألفونسوا) (٤٥٤ - ٥٠٤ هـ/١٠٦٢ - ١١١٠ م) كتاباً بالعربية، عنوانه: تعليم رجال الدين، ثم ترجمه إلى اللاتينية، ومنها نقل إلى لغات كثيرة[٢٥].

وظهرت أول مطبعة عربية في أوروبا في (فانو) (إيطاليا) برعاية البابا على الأرجح، ولا يزال لدينا من اصدارها كتاب صلاة يرجع عهد طبعه إلى ٩٣٠ هـ/١٥١٤ م، وربما كان (ريموند لل) (ت ٧١٤ هـ/١٣١٤ م) من أوائل الرجال الذين اقتنعوا من فشل الصليبيين بأن الطرق الحربية، لا تجدي فتيلاً في نشر الدين المسيحي كما ذكر (ادوين بلس) في كتابه (ملخص تاريخ التبشير) وكان (لل) هذا من أهل كاتلونيا (في اسبانيا)، وهو أول أوروبي سعى إلى تشجيع الدراسات الشرقية واتخاذها واسطة لتجريد حملة صليبية سلمية يحل

---

(٢٤) جمعية رهبانية أسسها القديس فرنسيس الاسيزي (١٢١٠) وهي فرع من الكاثوليكية.
(٢٥) المستشرقون: د. العقيقي ١/٩٥.

الإقناع فيها محل الإرغام[٢٦].

والراجح أنه هو الذي أثر على مجلس (فينا) حين قرر هذا في عام ٧١١ هـ/١٣١١ م أن ينتدب أساتذة لتدريس اللغة العربية والترية في جامعات باريس ولوفين (بلجيكا)، وسلامنكا (اسبانيا).

٢ - وقصدت المغرب من الفاتيكان ارسالية فرنسيسكانية حيث قتل خمسة منهم (١٢٢٠) وانطلق الدومينيكيون[٢٧] (٦٥٠ هـ/١٢٥٢ م) إلى بلغاريا ورومانيا والشرق[٢٨].

٣ - واذا قصرت إرساليات الفاتيكان على الكاثوليك وحدهم فإن الإرسالية البروتستانتية قد زاد نشاطها في الشرق العربي، واستعانت بالمدارس لنشر مذهبها.

٤ - ودخل (المبشرون) الكاثوليك ربوع افريقية منذ القرن الخامس عشر، أي في أثناء الاكتشافات البرتغالية وبعد ذلك بكثير أخذت ترد إرساليات (التبشير) البروتستانتية: انكليزية وألمانية، وكذلك إرساليات (التبشير) الفرنسية.

٥ - وألفت في مصر إرسالية عهد إليها نشر الإنجيل في افريقية الشرقية، وقررت إرسال مبشرين إلى الحبشة، ولكنها فشلت على أثر المنافسة بين اليسوعيين والبروتستان[٢٩].

وأسس في عهد اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) كلية امريكية في اسيوط سنة ١٢٨٢ هـ/ ١٨٦٥م وقد بدأت كلية البنات الأمريكية عملها في القاهرة كمدرسة ابتدائية منذ ١٢٧٨ هـ/١٨٦١ م، وكانت الإرسالية

---

(٢٦) المرجع السابق، وانظر: الغارة على العالم الاسلامي ص ٢٩.
(٢٧) معناها: الاخوة الوعاظ أسسها القديس دومينكوس لدحض البدع (١٢٠٦).
(٢٨) المستشرقون، المرجع السابق.
(٢٩) الغارة على العالم الاسلامي ص ٣٧.

المشيخية المتحدة الامريكية قد شرعت في عملها قبل ذاك بسبع سنوات.

٦ - وعاد اليسوعيون إلى سوريا ولبنان، وثبتت الإرساليات البروتستانتية. الإنكليزية الامريكية، أقدامها في لبنان، وتأسست في سنة ١٢٥٤ هـ/١٨٣٨ م الكنيسة الانجيلية الوطنية السورية.

وقد انتقلت قبل ذلك بثلاث سنوات مطبعة الارسالية الأمريكية من مالطة إلى بيروت، وتأسست سنة ١٢٧٠ هـ/١٨٥٣ م المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين... وظهرت ترجمات عربية عصرية للكتاب المقدس عن هاتين المؤسستين.

وفي ذروة المؤسسات التربوية الأمريكية: قيام الكلية السورية الإنجيلية سنة ١٢٨٣ هـ/١٨٦٦ م وهي اليوم الجامعة الامريكية، بنشاط الارساليات البروتستانتية.

وأما اليسوعيون فقد بلغ نشاطهم التربوي ذروته بإنشاء جامعة القديس يوسف في بيروت ١٢٩١ هـ/١٨٧٤ م بدعم من فرنسا.

٧ - وبدأت الإرسالية اللعازارية عملها في دمشق منذ عام ١١٦٩ هـ/١٧٥٥ م ثم أخذت بعد ذلك بنحو عشرين سنة في تأسيس مدرسة للصبيان هي أقدم مدرسة عصرية في دمشق.

٨ - وكان العراق قد سمح للإرساليات الكاثوليكية أن تعمل في بغداد والبصرة منذ القرن السابع عشر، ولكنها لم تترك أثراً في المجتمع الإسلامي.

والإرساليات التي قامت بنشر الرهبنة في العالم الاسلامي بطريق مباشر أو بطريق المؤسسات الفكرية والتربوية لم تكن في نظر بعضهم سوى التقاء حضارة الشرق والغرب (وإن اختلفتا في بعض النواحي الهامة الخاصة فلا

تزالان تعتبران فـرعين من مجـرى رئيس واحد، وكـذلك فعلت بعض البـلاد العربية الأخـرى، فحضارة أوروبـا وحضارة الشرق الأدنى تشـتركان في إرث واحد مشترك من التقاليد اليهودية المسيحية واليونانية الرومانية) . وهي وجهة نظر صحيحة في منطلقات التنصير والرهبنة، وطغيان القيم الكنسية في عقول المسلمين وفي مناهج التربية والتعليم.

ثم هي صحيحـة من حيث إنها كـانت هجـمات فكـريـة وافـدة مهـدت للإستعمار الأوروبي لتحقيق مصالحه المادية والدينية. ولكنهـا من وجهة النـظر الإسلامية عدوان صليبي على أوطان المسلمين وفكرهم، واستلاب لأصالتهم اللغوية وبتر لتاريخهم الإسلامي العريق. وتشويه طائفي فكري لقيم الإسلام والمسلمين.

إن الإرسـاليات التي حملت عـلى عاتقهـا رسالـة التعليم وإنسانيـة الـطب وحرية الجمعيات الفكريـة والفنية والرياضيـة، استطاعت أن تخدع بسطاء الناس وعامتهم فحولت بعضهم إلى النصرانية وكانوا كسباً لها.

وهي التي عانت شظف العيش وقسوة الطبيعة وجفوة الناس أحياناً فنالت بعض الغنيمية في طرح رسالتها الإستعمارية أو التي استغلها الإستعمار.

ولكن عمـل الإرساليـات آتى بعض ثماره في (تنصـير) أو (تغـريب) بعض القـادة المسلمين في الأدب والعلم والاجتـماع والسياسـة. وبذلـك استطاعت بدعمهم أن تبقي رواسبها وتمد من نفوذها إلى حين. ومـع خداعهـاوغنائمها ونشاطاتها، يمكن أن نلخص آثارها فيما يلي:

١ ـ تحريك العمل التنصيري من بـلاده إلى عالم خـارجي أرحب، يمكن أن يصبح بيئة صالحة له.
٢ ـ تشكيـل فكـر تنصـيري في إطـاره الغـربي المـدني يصـطرع مـع الفكـر الاسلامي الذي لا بد من أن يعيقه عن مده الطبيعي.
٣ ـ حماية المصالح الأجنبية الثقافية والإقتصادية والإستراتيجية.

٤ ـ تصديع المواطنين إلى طوائف متعادية غالباً بسبب التطرف الطائفي الصليبي، وممالأة الإستعمار.

٥ ـ ازدواجية المنشآت والمؤسسات الفكرية والطبية والإجتماعية وبخاصة المجال التربوي الطائفي والعام.

ثامناً ـ صور من نشاطات التنصير الخادعة:

سبق الكلام عن صور من (أساليب التنصير المطورة) التي يحمل بعضها عدم المواجهات الصريحة بالدعوة إلى التنصير.

وإذا كانت أساليب التنصير غير المباشرة آتت جدواها قبل أن تكشف عن حقيقتها فإن صوراً (مطورة) للخداع التنصيري يحملها أصحابه بصورة متجددة ودائمة.

وهذه الصور تنطلق من (مخططات) (عالمية) يتطوع لها رجال ونساء قد لا تكون لهم وظيفة (كهنوتية) من أجل التمويه على البسطاء من الناس وبخاصة المسلمين بقبول الصليبية.

ويمكن القول إن صور النشاطات تعبر عن (ثلاثية) في وجهة العمل التنصيري العام: فهي (تطورية) لا تقف عند اسلوب أو صورة واحدة فإن جمود التحرك التنصيري يسيء إليه، وهي (دائبة) النشاط والحركة فلا يفتر الشباب والفتيات الذين جندوا أنفسهم لخدمته من اعتباره عملاً أو جزءاً هاماً من حياتهم.

وهي أخيراً (قضيتهم) التي يصرفون من أجلها زهرة حياتهم وفورة شبيبتهم، وحكمة عقولهم وتجاربهم، وتقنية معرفتهم وعلومهم، ثم إنها لا تعبر عن (تاريخ) انقضى عهده ومضى وإنما تظهر اهتمامات المنصرين (المعاصرة) في أوسع المجالات.

وسأوجز صوراً من هذه النشاطات:

١ ـ التقارب المعرفي الاسلامي التنصيري:

فقد عرف سابقاً أن المنصرين ينبغي عليهم أن يستدرجوا الآخرين وبخاصة المسلمين في التظاهر بتصور مشترك بين المسيحية والإسلام في (عيسى بن مريم) وأنه ليس (ابن الله)، ويبحثون عن مسائل إسلامية أخرى لا تتعارض مع مسائل المسيحية... ففي مؤتمر كلورادو (١٩٧٨) مثلاً قالوا: لا بد من أن نغير من طريقة ترجمة الإنجيل حتى ندخل (العبارات الاسلامية) في الترجمة، فلا يشعر المسلم أنه غريب عنه[٣١].

ومعروف ما فعله (لافيجري) في الجزائر العربية بالنسبة إلى (رواد الصحراء) و (بيوت العبادة)، و (لباس المنصرين).

٢ ـ الكتب والرسائل والنشرات السرية:

وهي وإن كان بعضها معروفاً في قدمه فإن ممارسة بعض العرب له يدل على نجاح الغربيين المنصرين.

فقد وجدت إصدارات سرية (لا تحمل اسم مؤلفها) توزع على الناس، ومنها: كتاب سري للهجوم على الإسلام. فقد جرى توزيع كتاب: قس ونبي، سراً في بيروت، ومؤلفه طبقاً لما هو موجود على غلافه باسم مستعار هو: أبو موسى الحريري.

والكتاب الذي يضم خمسة فصول يكرر فيه مقولة تافهة، حيث يربط بين الإسلام والنصرانية، وبين القرآن الكريم والإنجيل ليقنع البسطاء ببشرية القرآن، وأنه لا وجود للوحي الإلهي، وأن الرسول تلميذ ورقة بن نوفل[٣٢].

أما في الغرب فإنهم يعلنون عن أسمائهم، ومن ذلك: ما نشره حديثاً صحفي برازيلي: باولو فرانسيس، في (فوليادي سان) عن البعث والآخرة

---

(٣٠) تاريخ العرب مطول: حتي وزملاؤه ٣/٨٨١.

(٣١) صحيفة المدنية العدد ٦١٧٢.

(٣٢) صحيفة المسلمون السعودية العدد ٥٤ سنة ١٩٨٦.

والجنة بأسلوب ساخر مستهتر. . . وأمثاله كثير في أوروبا وأمريكا، وتقدم معنا الكثير منها.

٣ ـ وفي الثقافة:

أيضاً صرح زعماء التنصير أن الهدف الأعظم من تعليم اللغات الأجنبية تسهيل التنصير. يقول شاتيليه في مقدمة كتابه: ولا شك أن إرساليات التبشير من بروتستانتية، وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها، ولا يتم ذلك إلّا ببث الأفكار التي تتسرب مع (اللغات الأوروبية)، فبنشرها اللغات الإنكليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوروبا وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلّا بعزلتها وانفرادها[٣٣].

ويقول المبشر تكلي[٣٤]: . . . إن كثيرين قد زعزع اعتقادهم حين تعلموا اللغة الانكليزية، إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الإعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً.

٤ ـ في المجال الشعبي:

ابتكرت وسائل التنصير أعمالاً ماكرة تخدع بها العامة من الناس مستغلة أحياناً الضرورات المعاشية نتيجة التضرر بالجفاف والبؤس والجوع. فقد قام بعضهم بتصنيع نوع من الخبز لأطفال المسلمين الموجودين في مراكز اللاجئين في إفريقيا، وسعوا إلى وضع مادة (حلوى) في بعضه، وأخرى طعمها لا يطاق، وكتبوا على الأولى اسم عيسى (عليه السلام) وعلى الثاني اسم محمد ﷺ، فبادر الأطفال إلى تناول الخبز الأول، ورفضوا الثاني. . .[٣٥]. وتصنيع

---

(٣٣) مقدمة الغارة على العالم الاسلامي.

(٣٤) التبشير والاستعمار ص ٨٨.

(٣٥) صحيفة اخبار العالم الاسلامي العدد ١٠٠١ ربيع الثاني ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

بعض المصانع أقمشة كتب عليها اسم (الله) حتى على الأحذية أحياناً مثل ما فعلته البرازيل من عرض حذاء نسائي كتب على جلده معكوساً (الله أكبر)[٣٦].

في الأقليات الإسلامية:

فقد أعدت بعثات التنصير في إفريقيا وسائل قديمة وحديثة: منها: إعداد الأفارقة للقيام بمهمة التنصير فيها، والترخيص في بعض المسائل المسيحية مثل تعدد الزوجات، والطلاق. . .

وفي (لاغوس) نيجيريا دعا المجلس الإنكليكاني المسيحيين إلى مواجهة (التركيبة) الإجتماعية المحيطة بهم، وتقدم المجلس بمقترحات مثل: دراسة المساعدات الخارجية في الدول التي يعيش فيها اعضاء المجلس وهم (٦٠) عضواً من (٤٦) بلداً ليروا فيها إذا كانت منسجمة مع إعلان حقوق الإنسان بما فيها القسم المتعلق بحرية العقيدة والدين[٣٧]. . .

وفي الجماعة الهندية جنوب أفريقيا في منطقة (دربان) لديهم (٣٠) مسجداً والعديد من المؤسسات الإجتماعية والدينية، اقترح المبشرون أن تشكل فرقة تبشيرية خاصة للعمل بين المسلمين وأن يكون الفريق مؤلفاً من ثلاثة أزواج، ويفضل أن يكون أحد الأفراد من المسلمين المتنصرين[٣٨]. . .

وفي أوروبا: شهد (٢٠٠) مبشر من جميع أنحاء العالم في النروج مؤتمراً خطيراً، كلف (٥٠) منهم بالعمل على تنصير مسلمي النروج مع توفير كل الإمكانات أمامهم لتحقيق هدفهم، وأعلن المبشر الانكليزي (تورا ولبرج)، أنه تم بالفعل تنصير عشرة مسلمين في النروج. . .[٣٩].

---

(٣٦) المرجع السابق، العدد ١٠١٧.
(٣٧) مجلة رابطة العالم الاسلامي العدد ٨ السنة ٢٣ شعبان ١٤٠٥ - ١٩٨٥.
(٣٨) المرجع السابق.
(٣٩) صحيفة المسلمون السعودية ربيع الثاني ١٤٠٤.

وفي لندن: وربما في مدن أخرى تتركز في الشوارع نسبة كبيرة من المصطافين أو المقيمين العرب ومعهم شباب انكليز ملتحون أحياناً وشابات انكليزيات في ثياب محتشمة يترصدون كل عربي أو عربية يبادرونهم التحية الإسلامية وباللغة العربية، ثم يلحقونها بمنشورات بالعربية تدعو إلى لقاءات لمناقشة أمور الحياة والدين، وأحياناً يقدمون كتيبات للبيع، توحي بأنها تتعلق بالدين بشكل عام، وبتصفح الكتيبات يظهر الهدف التبشيري للإنسان العربي وحده. . . وأحياناً يصطحبون معهم شباباً يدعون أنهم من بلدان عربية مسلمة وقد وجدوا الخلاص أخيراً. . .

وفي السويد عمدت الحكومة إلى أخذ أطفال المسلمين من أسرهم تحت اسم (الرعاية الاجتماعية) حيث إنها وجدت نمط التربية والحياة في هذه الأسر لا يضمن للأطفال حياة كريمة ومستقبلاً حسناً. ولكن ثبت أنها تروضهم على النصرانية وتنشئهم عليها.

٦ ـ في وسائل الإعلام:

إن وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة استخدمت وبشكل كبير لخدمة العمل التنصيري ونلاحظ هذا بوضوح في العروض الشائعة والبرامج الجذابة في إذاعيات ومرئيات أكثر الوسائل الغربية. . . ومنها: ازدياد مستمعي الإذاعة بسبب برنامج (كلمة معك) إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه، وهذا ما جعل مكتب شباب المسيح أن يوظف عدداً إضافياً من العاملين لتلقي البريد من المستمعين.

ومثله: برنامج إذاعي (عبر العالم) كان يتلقى منذ سبع سنوات مئة رسالة يومياً، ثم ارتفع عدد الرسائل الآن حتى أصبح بمعدل (٣٠٠) رسالة يومياً. كما ترسل كتب وأشرطة تسجيل لمن يطلبون زيادة في المعلومات. والإذاعة موجهة إلى الشباب العربي في الشرق الأوسط.

ووافق المجمع المقدس العام في كنيسة إنكلترا على صرف (٧٥) ألف

جنيه، خلال الأعوام الثلاثة المقبلة لفهرسة مواد (الفيديو) المتوفرة، ولتوجيه (الأبرشيات) لتختار المناسب من إنتاج أجهزة الفيديو، وصرح المطران في إحدى المناقشات: إنه من العسير على أهل الكتاب، أن يفهموا كيف أن الفيديو أصبح وسيلة الإتصالات الوحيدة... ويقول رئيس كلية برادفورد: نحن لا نزال نعتمد على المنبر والنشرات، ولكن لم يعد هنالك من يستمع إلينا أو يقرأ نشراتنا[٤٠]...

وواضح أن مثل هذه الصورة جمعت بين التقنية الحديثة في برمجة العمل التنصيري إلى جانب ما يوهمه (الفيديو) كملهاة تشد إليها الجماهير.

٧ ـ صور طلابية وشبابية متكررة في التثقيف والاجتماع:

فقد عرف من سياسة المبشرين إقامة الاجتماعات التي تلقى فيها الخطب والمجادلات... ويرى المبشرون أن يتظاهروا بدرس مشاكل الشباب المختلفة، وبذلك ينفذون إلى نفوسهم من أهون الطرق لاجتذابهم إلى أديانهم ومذاهبهم...[٤١].

وفي الزواج من الأجنبيات، نجد أن أشخاصاً كثيرين لهم قيمة اجتماعية، أو سياسية أو قيمة ذاتية على الأقل وضع في طريقهم فتيات تزوجوهن ثم وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الإنسلاخ من بيئتهم فخسرتهم بيئتهم وفقدت بفقدهم عاملاً قوياً في إنهاضها وإصلاحها... وربما روجت جهات أوروبية زواج الطلاب المسلمين من الغربيات لأغراض سياسية واجتماعية ودينية.

وفي الأندية الإجتماعية نشاطات مختلفة الأنواع والألوان، من حفلات ومحاضرات وليالي أنس وسمر ومطاعم ومنامات، ويهم هذه النوادي أن تجتذب إليها الشباب ليستمعوا إلى صوت المبشر الانكليزي، أو الأمريكي أو

---

(٤٠) مجلة رابطة العالم الاسلامي السابقة.

(٤١) التبشير والاستعمار، ص ٧٥، ٧٦.

الفرنسي أو الهولندي. . .»[٤٢]. وفي الكشفية والمخيمات تحدث مؤتمر المبشرين المنعقد في القدس: نحب أن نؤكد الأهمية البالغة للعمل بين الصغار وللصغار قبل أن تتشكل عقليتهم وأخلاقهم تشكلاً إسلامياً. . ومنها: الكشفية للفتيان والفتيات، منظمات الشباب، والمخيمات والمؤتمرات للطلاب، والأندية والرياضة وما يتصل بذلك، بيوت الطلبة. . .

وعقد مؤتمران قبل عام ١٩٣٨ لمنظمات الشباب المختلفة، ومنها: الكشافة والمرشدات (للفتيان والفتيات)، كان البرنامج فيهما يدور خاصة حول هذه الموضوعات: التوراة، كلمة الله، الكنيسة، جسد المسيح. . .

وفي الإبتعاث العلمي: حيث يغتنم المبشرون دراسة الطلاب الشرقيين في الخارج فيحاولون أن يجعلوا منهم نصارى بالفعل أو ممالئين للنصرانية. . . وقد يتم لهم ذلك عن طريق الزواج كما سبق الكلام أو استدراجهم إلى المشاركة في أعمال كنسية اجتماعية. . .

وتطيب هذه الفكرة للمستشرق المبشر والمستشار الشرقي في وزارة المستعمرات الفرنسية: لويس ماسينون، فيدبج المقالات الطوال ويقول لقومه: إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن (يلونوا) بالمدنية المسيحية[٤٣].

تاسعاً ـ الاستشراق التنصيري:

إذا قنع التنصير بمهامه الكنسية فإن المستشرقين فيه حملوا على عاتقهم أن يجمعوا مسؤوليات التنصير والبحث معاً، وراحوا يضفون على أعمالهم الكنسية صفة العلمية، كما أضفوا على بحوثهم سمات تنصيرية، لا ينفكون عنها.

---

(٤٢) المرجع السابق، ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(٤٣) المرجع السابق، ص ٨٨، ٨٩.

١ ـ أعمال المستشرقين المنصرين:

إن وظائفهم الكنسية لا تمنعهم من القيام بأعمال فكرية، وأحياناً كانت تساعدهم هذه الوظائف لإنجاز كثير من الدراسات، وقد سهل عليهم أعمالهم الفكرية أمران:

الأول: البيئة الكنسية وما تتزود به من مراجع دينية في المسيحية واليهودية، ثم ما توصي به تعليماتها من الرهبنة والإنقطاع عن الحياة والتفرغ لها وللأعمال البحثية الدينية، فيما عدا المؤتمرات الكنسية ذات الصبغة الإستشراقية.

الثاني: مكتبات الكنيسة الزاخرة بالمخطوطات والمؤلفات الإسلامية واللغوية والعلمية التي عثروا عليها أو ترجموا بعضها، يضاف إليها مراجع في اللغات السامية والآرية ومراجع عامة في الفلسفة والآداب والعلوم. مثلاً تحتوي مكتبة الكنائس التابعة للفرنسيسكان على (٦٣,٠٠٠) مصنف، ومكتبة اليسوعيين على (٣٠,٠٠٠) مصنف، و (٢٠٥٨) مخطوطاً شرقياً..

١ ـ الأعمال الاسلامية[٤٤]:

وهي قدر مشترك بين (الفرق) و (الشخصيات) المختلفة ولكنها أحياناً (صميمية) ومباشرة وأحياناً (وسائل) و (مقدمات) لها.

ويبدو أنهم اعتمدوا على النسخ المحققة عربياً أو غربياً فلا نجد عندهم نشاطاً في التحقيق والنشر سوى ما قام به الأب (مكارثي) (ولد ١٩١٣) اليسوعي الأمريكي حيث حقق: اللمع للأشعري (المطبعة الكاثوليكية ١٩٤٥)، والتمهيد: للباقلاني (المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٧)، والبيان: للباقلاني (أول طبعة ـ المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٨). وأما الدراسات

---

(٤٤) الإصدارات والتراجم أخذت من: المستشرقون د. العقيقي فصل: المستشرقون الرهبان ٣/١٠٤٠٤ وفصل: طلائع المستشرقين له ١٣٠٨/٣، والاعلام: للزركلي.

المباشرة فنجدها ـ على قلتها ـ عند (رونكاليا الايطالي أشهر الآباء الفرنسيسكان)، (ولد عام ١٩٣٢)، فقد عمل: النصرانية والإسلام (اتجاهات جديدة) (القدس ١٩١٥) و: التعاون بين النصرانية والاسلام (١٩٥٥)، و: الشرق والغرب والتعاون بينهما (سويسرا ١٩٥٤) و: اليهودية والنصرانية والإسلام (١٩٥٧) ويقال بأنه سمي استاذاً في مدرسة الألسن بالقاهرة ثم ترك الرهبانية إلى العلمانية وأقام في بيروت.

ونجد بعضها متفرقاً عند جاك جوميه (ولد ١٩١٤) الدومينيكي في: الإتجاه الحديث لتفسير القرآن بمصر (باريس ١٩٥٤) و (لامانس) (١٨٦٢ - ١٩٣٧) اليسوعي البلجيكي الفرنسي في مقالاته عن الإسلام والإسلاميات: (٨٠) مقالاً في دائرة المعارف الإسلامية (ليدن ١٩١٣ ـ ١٩٣٤)، و: قرآن وحديث (مباحث العلوم الدينية) (١/١٩١٠) وغيرها.

ويحلل (طيباوي) أعمالاً إسلامية اخرى لعدد من المستشرقين الإنكليز فيقول:

- لقد صحب الإستعمار السياسي أو اتبعه تعزيز ثقافي أكثر دهاء.
- ومنذ البداية كان هناك تجاوب متبادل إن لم يكن هناك تماثل في المقصد بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الانجيلي، ويصدق هذا بصفة خاصة على المتجهين للدراسات العربية بجامعتي انكلترا اللتين أدخلت فيهما دراسة العربية لتكون عوناً للدراسات الإلهية والإنجيلية عن طريق باحثين هم انفسهم ينتظمون في سلك هيئات دينية Holyorders، وهكذا عمل معهد مكبريد Mcbride في اكسفورد ومعهد لي Lee في كمبردج لصالح جمعية الكنيسة Gpurch missinoy Sociéty التبشيرية في ترجمة بروتستنية للإنجيل والمزامير إلى العربية.
- عاون (لين) كثيراً في وضع معجمه شيخ أزهري هو ابراهيم الدسوقي الذي كان مصححاً في مطبعة بولاق.

- وتعلم (صموئيل لي) في كلية Queen's College بمنحة دراسية من جمعية الكنيسة التبشيرية.
- ولا تعوزنا الشواهد على قصور التمييز حتى بالنسبة لنشر ترجمة لبعض النصوص حيث كان الموضوع يستسلم لأهواء الآراء الثابتة المقررة عن الاسلام مما لا يزال قائماً في عقول الباحثين الغربيين.
- إن بعض المستشرقين الناطقين بالإنجليزية (الانكليز ومستشرقي أمريكا الشمالية) قد عرض لدراسة الإسلام خلال دراسة للكتاب المقدس أو اللاهوت، بل الواقع أن من هؤلاء من ينتظم في هيئات دينية Holyorders، والبعض الآخر من هؤلاء المستشرقين وجد نفسه في نطاق هذه الدراسة مصادفة نتيجة للإقامة، أو خدمة للتبشير أو الخدمة العسكرية في بلد إسلامي، ولكن هناك من اختار دراسة الإسلام قصداً كوجهة له في حياته العلمية.
- فعمل مستشرق قسيس انجليكاني على عقد عدة مقارنات (هو جيوم في كتابه: الإسلام، نشر ١٦٥٤) يظهر أن الإسلام كان في صدق صورة غير محكمة أو مشوهة للمسيحية (ص ١٦٢ - ١٦٦).
- وهناك دارس آخر للإسلام (سميث، في كتابه: الإسلام في التاريخ الحديث) - (نشر ١٩٥٧) يستحق الذكر بوجه خاص بسبب تقديمه لمزيد من الجدل السطحي الذي يعرض للتشابه بين المسيحية والإسلام، وهو يكتب «أن من أسباب تباعد المسلمين والمسيحيين عن بعضهم البعض أن كلا الفريقين قد أساء فهم عقيدة الآخر بمحاولته أن يضعها خلال طراز الإعتقاد الذي يؤمن به».

وشأن كثير من التعميمات لا يبدو مثل هذا النص منصفاً كما يحاول أن

(٤٥) مقاله: المستشرقون الناطقون بالانكليزية، ملحق بكتاب الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار: د. محمد البهي، بتصرف طفيف جداً في بعض الألفاظ والجمل.

يكون، فإن المسيحيين وحدهم هم الذين ظلوا طوال القرون، يحاولون فهم الإسلام أو إساءة فهمه من خلال اصطلاحات المسيحية، أما النظرة الأساسية للمسلم فقد ظلت على حالها لم تتغير على الدوام لأنها جزء من الوحي الإلهي في القرآن.

● وهذا مبشر قديم يحاضر في الشريعة الاسلامية بجامعة لندن (اندرسن في: تاريخ الأديان ـ لندن ١٩٥٠)، يعمل على تضمين مقالة واحدة كل اعتراضات العصور الوسطى على محمد ﷺ وعلى الإسلام، وعلى نهج أقل من نهج زميله الذي أشرنا إليه تبصراً ودهاءً... ومن المدهش أن يعلن المؤلف في مقدمته أنه يقدم معلومات صحيحة لمعالجة الدراسة موضوعياً، حتى يكون «منصفاً» «مدققاً» ويتوقى «المقارنة عن طريق المقابلة مع المسيحية» ولكن بعد هذه الإعلانات كلها عن الموضوعية يكتب: لا يمكن أن يكون هناك شك على أية صورة أن محمداً قد تمثل أفكاراً من التلمود وبعض المصادر المحرفة. أما بالنسبة للمسيحية فإن هناك احتمالاً طاغياً بأن محمداً قد استمد اتجاهه منها.

٢ ـ الأعمال التاريخية والجغرافية:

ويبرز اسم (لامانس) الآنف الذكر في مجموعة من دراساته التأثرية الصارخة، ومنها: الحكام الثلاثة أبو بكر وعمرو أبو عبيدة، و: سنّ محمد، و: تاريخ السيرة، و: المساجد والمشاعر في العصر الجاهلي...
ومع كثرة انتاجه الدراسي لم يعرف له تحقيق تاريخي ولا غيره.

و (زيمونين) (١٨٤٨ ـ ١٩٢٨) اليسوعي أيضاً، والسويسري الجغرافي الذي عمل: أجواء فلسطين وسوريا (نشرة الجمعية الجغرافية ١٨٩٩) و: جولوجية لبنان في جزءين برسم وخريطة (باريس ١٩٢٦).

وربما كان المستشرقون الرهبان (الفرنسيسكان) أكثر الفرق الأخرى ميلاً للتخصص في الدراسات التاريخية والجغرافية، وأذكر منهم (سالير) (ولد

١٨٩٥) الأمريكي الذي عمل: ذكريات موسى فوق جبل مؤاب، في (٣) أجزاء، و (جولوبوفيتش) وتقدم.

ويتبع ما سبق الدراسات (الاجتماعية) التي لها في الغالب صلة بالدراسات التاريخية والجغرافية، ومنهم: (هنري شارل) (ولد ١٩٠٠) اليسوعي الفرنسي، وعمل: نصرانية عرب بادية الجنوب حوالى الهجرة (باريس ١٩٣٦)، وعن البحر الأحمر: الحجاز واليمن (١٩٣٧)، وبعض صناعات نسوية لدى بدو حمص وحماة (نشرة المعهد الفرنسي بدمشق ٦، ٧، ١٩٣٧ - ١٩٣٨) والقبائل الجبلية في وسط الفرات (المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٣٩).

وقد ينحو بعضهم إلى دراسة الخرافات والبدع مثل (جوسين) (ولد ١٨٧١) الفرنسي الدومينيكي الذي عمل: مقالات في: الشيخ سعد الدين والجن في نابلس (مجلة الجمعية الفلسطينية الشرقية ١٩٢٣). و: على مزار الست سليمة (١٩٢٥).

وقد ينحو بعضهم الآخر إلى قضايا إسلامية إجتماعية جادة من الأصول التاريخية أو الإسلامية مثل (جاك جومييه) (ولد ١٩١٤) الفرنسي الدومينيكي الذي تقدم وعمل: فندق على طريق الحجيج إلى مكة (جمعية الدراسات التاريخية والجغرافية ١٩٤٩ - ٥٠) و: نصيب القرآن من الحياة اليومية بمصر (السابق ١٥/١٩٥٢)، والإسلام والمسألة الاجتماعية وفقاً لبعض المنشورات الحديثة (كراسات النادي التومادي، القاهرة ٣/١٩٥٢)، و: رمضان في القاهرة (١٩٥٦)، ونشر: حياة أسرة في القاهرة، من ثلاثية نجيب محفوظ (٤/١٩٥٧).

وقد ينحو فريق ثالث إلى ترجمة بعض العادات إلى لغات أو لهجات عدة مثل: (بورجارد) (١٨٠٦ - ١٨٦٦) الفرنسي من الآباء البيض الذي اختص بالعادات الإجتماعية في المغرب العربي، وعمل: مسامرات قرطاجنة، بالفرنسية والعربية والحبشية، في (٣) أجزاء للتفاهم بين المسيحيين والمسلمين (١٨٤٧).

وربما كان المستشرقون الرهبان من (الآباء البيض) أكثر الفرق ميلاً للتخصص في الأحوال الإجتماعية، حتى إنهم أصدروا مجلة (معهد الآداب العربية) في تونس (١٩٣٧)، وهي تعنى بالعادات والحرف واللهجات والتربية والحضارة.

٣ ـ الأعمال العلمية:

فقد كان التراث العلمي الإسلامي غنياً بالمخطوطات المنتشرة في العواصم الإسلامية وفي مكتبات الكاتدرائيات المختلفة، مما دفع المستشرقون الرهبان المتقدمين إلى العكوف عليه أكثر من المواد الأخرى.

أ ـ ويتقدم (طلائع المستشرقين) في ترجمة التراث العلمي في الطب والرياضيات والفيزياء والطبيعيات والفلك... إلى اللاتينية غالباً وأحياناً إلى اللغات المحلية، ومنهم: (أدلر أوف باف) و (روجر بيكون) و (بطرس المحترم) وتقدم تفصيل ترجماتهم وأعمالهم...

ب ـ المستشرقون الرهبان: وقد اختص المتقدمون منهم بالترجمة أيضاً، ومن أقدمهم (جيرار دي كريمونا) (١١١٤ ـ ١١٨٧) إيطالي من البندكتية، قصد طليطلة حيث تضلع بالعربية، وعكف على مصنفاتها، فترجم منها ما لا يقل عن (٨٧) مصنفاً في الفلسفة والطب والرياضيات... فقدت معظم أصولها العربية، وسلمت ترجماتها اللاتينية، فمهدت مع مثيلاتها إلى انتشار العلوم في أوروبا. ومن آثاره: رسائل الكندي في العقل والمعقول (البندقية ١٥٠٧)، والقانون لابن سينا (وقد اعيد طبع ترجمته ١٥ طبعة، وواحدة بالعبرية ١٤٧٣ ـ ١٥٢٧)، والأدوية المركبة: للكندي، ورسالة في حساب الجبر والمقابلة: للخوارزمي، والموجز في الفلك: للفرغاني... ومعه (روبرت أوف تشتسر) الذي عاون على إدخال حساب المثلثات في انكلترا (١١٤٩).

أما الدراسات فلم تكن ذات أهمية علمية لهم وليست بالغزارة التي كانت للترجمة ومنها: أعمال (زيموفين) السابقة في الجغرافية، و: نبات جبل الدروز (١٩٥٣) للفرنسي اليسوعي (موترد) (ولد ١٨٩٢)، وسيأتي مزيد من الشخصيات والأعمال.

٤ ـ الأعمال اللغوية:

فقد كان معظم الرهبنات تعنى بالعربية وآدابها وباللغات الأخرى، حتى تناولت اهتماماتهم:

أ ـ **الدراسات النحوية في الفصحى**: مثل: وزن مفعول بالعربية (المشرق، ١٥) للإيطالي اليسوعي (لويس رونزفال) (١٨١٧ - ١٩١٨)، ودراسات نحوية مقارنة مثل: الأفعال المحدودة ضمناً في اللغات السامية، وهي رسالة دكتوراة، وعن: قياس الفعل في السامية (منوعات جامعة القديس يوسف ٢٧/١٩٤٧ ـ ١٩٤٨)، وهما لليسوعي الأب (فليش) (ولد ١٩٠٤)...

ب ـ في المعاجم اللغوية: وأشهرها معجم بسبع لغات لليسوعي الأب (كايروت) (١٥٨٨ ـ ١٦٥٣) وهي الايطالية والفرنسية واللاتينية والعربية: عامية وفصحى، واليونانية: عامية وفصحى.

ج ـ **اللهجات المحلية**: وأبرزها المعجم السابق، وعن: اللهجة العربية في زحلة للأب فليش (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨)، و: فعول ـ فعولة في اللغة العربية السورية (١٩١٢)، المتقدمين.

٥ ـ الأعمال الجدلية:

وهي أشبه بدراسات دينية تحتوي على ردود لاهوتي على قضايا إسلامية والأصول الدينية وشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام.

وعمل بطرس (المحترم) فرنسي (١٠٩٢ ـ ١١٥٦) كتابين: يرد في الأول

منها على القرآن الذي يقرر تحريف اليهود والنصارى للإنجيل والتـوراة، وفي الثاني: يرد فيه على النبوة المحمدية.

كما عمل ريموند مارتيني الاسباني (١٢٣٠ ـ بعد ١٢٨٤م): خنجر الإيمـان في صـدور المسلمين واليهـود، ألفه بعـد (١٢٧٨)، وقصد منـه أن يضـع في أيدي المبشرين والمستشرقين الدومينيك سلاحاً للدفـاع عن العقائـد المسيحية ضد المسلمين واليهود. ويجادله الفلاسفة المسلمين وخصوصاً الغزالي في أمـور تتعلق بالله والعالم وخلود الـروح. وحاول أن يـدلل من القـرآن والسنة عـلى نبوة مريم عليها السلام...

وعمل كتباً جدلية أخرى ولكنها فقدت. وآخر تهـافته أنـه عارض القـرآن فعمل: سورة معارضة للقرآن.

ويقول ناشر كتاب: موسوعة المستشرقين: آثرنـا عدم نشرهـا لما اشتملت عليه، فضلاً عن سخفها الفاضح...

أما (موير) فكان مستشرقاً ومبشراً وموظفاً إداريـاً (١٨١٩ ـ ١٩٠٥) عمل في الإدارة المدنية لشركة الهند الشرقية ثم اصبح السكرتير الخـارجي لحكومـة الهند (١٨٦٥) ونائب الحكومة للولايات الشمالية الغربيـة الهنديـة (١٨٦٨)، وهـو إلى عمله السياسي شـديد الحـماسة في أعـمال التبشير بـالبعثة التبشـيريـة الهندية مـع (فانـدر) مؤلف كتاب: ميـزان الحق، الذي هـاجم فيه الإسـلام بمنتهى العنف ودافع عن العقائد المسيحية.

عمل (موير): شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحيـة، وترجمـه إلى الأوردية لتساعده على التبشير، كما كتب مقالات في مجلة (كلكتا) عن السـيرة النبـوية بـروح متعصبة خـالية من المـوضـوعيـة، ومن أجـل هـدف تبشـيري خبيث، ثم جمعها في: حياة محمد وتاريـخ الاسلام. في (٤) مجلدات، وكتبـاً أخـرى عن: الخلافـة، والقرآن. وكلهـا تصرح بالعـداء والتحامـل الشديـد

وتسودها نزعة مسيحية تبشيرية شديدة التعصب[46].

وهناك آخرون عرفوا بالاتجاه نفسه فاتخذوا الأسلوب نفسه في العنف والتبشير المتطرف والجدل الكنسي المتحامل. فقد اشتهر (الدومينيك) و (الفرنسيسكان) بتخريج مترجمي وفلاسفة وعلماء جدل، ثم وفدوا إلى الشرق بمعارفهم الغربية والكنسية وطرائقهم الجدلية.

٦ ـ نشاطات فكرية أخرى:

فقد أفاد الرهبان من مؤتمراتهم المذهبية والعامة بتوسيع آفاق نشاطاتهم الفكرية الدائمة. وإذا اقتصر المستشرقون على الأعمال البحثية والدراسات الإسلامية فإن هذا كان جانباً واحداً من أعمال المستشرقين الرهبان، يمكن إضافة جوانب أخرى إليه.

وأياً كانت الجهود التنصيرية الكنسية العامة في الفعاليات المختلفة من إنشاء المؤسسات والمعاهد والجمعيات فإن المستشرقين الرهبان يساهمون في مثلها وفي أكثر منها.

ولذا فإننا بعد أن تعرفنا على شيء من أعمالهم الفكرية، نريد الآن أن نطلع ولو بإيجاز على النشاطات الأخرى.

أ ـ **في إنشاء المدارس**: أنشأ الفرنسيسكان كلية اكليركية في الجيزة بالقاهرة (١٩٣٩) وغيرها، وشيد الآباء الكبوشيون المدارس في صيدا (١٦٢٥)، والقاهرة (١٦٢٦) وحلب وبيروت وبغداد (١٦٢٨) ودمشق (١٦٣٧) كما أنشأ الآباء البيض المدارس في شمالي إفريقيا، ومن أشهرها كلية: بورجاد في تونس (١٨٤١) على اسم منشئها، وأقام الدومينيك معهد الدراسات الشرقية في القاهرة (١٩٤٤).
كما أقام اليسوعيون مدارس عدة في لبنان وفي مقدمتها: جامعة

---

(٤٦) التراجم هنا من: موسوعة المستشرقين: د. عبد الفتاح بدوي.

القديس يوسف في بيروت (١٨٧٥)، والكلية الشرقية (١٩٠٢) بجوارها وألحقت بها تلبية لحاجة المستشرقين إلى الإقامة في الشرق الأوسط ودرسه عن كثب، ومنحت الدكتوراه العالمية (١٩١٤ - ١٩١٨) وتحولت فيما بعد إلى معهد الآداب الشرقية.

وممن رجع إلى جامعة القديس يوسف: سنول هرجرونيه، وجولدزهير، ونللينو، وكايتاني، وماسينون.

ب - **المكتبات والمجلات**: تقدم معنا شيء عن مكتبات الفرنسيسكان واليسوعيين... أما أشهر المجلات فهي: مجلة الكتاب المقدس (١٨٩٢) للآباء الدومينيك، ومجلة الكلية الشرقية التابعة للجامعة اليسوعية، ومجلات للآباء اليسوعيين، وأصدر الآباء البيض: مجلة معهد الآداب العربية في تونس (١٩٣٧).

وجلب المستشرقون لها المطابع الحديثة ومنها: مطبعة للفرنسيسكان في طنجة (١٨٦٣)، ومطبعة للدومينيك في الموصل، والمطبعة العربية الأولى في كلية بورجاد ومطابع لليسوعيين.

ج - **الجمعيات والمراكز**: ساهم الرهبان بنصيب وافر في النشاط الإجتماعي والإستعماري وأصبحوا أعضاء فيهما يزودونهما بمعلوماتهم وأفكارهم.

فقد أنشأ الفرنسيسكان مركز الدراسات الشرقية بالقاهرة (١٩٥٤)، وأصدروا عنها نشرة الدراسات الشرقية، وتخصص (لوبوفيتش) بالآثار البيزنطية والبيزنطية الإسلامية، وانتخب (فليش) عضواً في عدة جمعيات علمية، كما انتخب (موترد) عضواً في الجمعية النباتية بفرنسا.

إلى جانب ما أقاموه من الأديرة والمؤسسة الخيرية كان لها نصيب وافر من نشاطاتهم.

٧ ـ سمات في الأعمال الفكرية :

من المقطوع به أن (السمة العامة) كما تقدم في شكلها ومضمونها وغرضها طرح طعون في الإسلام والمسلمين وما يتصل بهما من العلوم واللغات والتاريخ والحياة الاجتماعية.

وهذه سمة تبرز في الموضوعات أو العناوين للدراسات التي قدموها، تدل على تحيز كنسي تنصيري واستشراقي واضح.

ولا يخفى أن هذه السمة لا تنفك عنها دراسة لغوية وعلمية وإسلامية، فمن الصعب تصور عمل نظيف يكشف عن حقيقة دينية، أو جوانب يتصل بها، لأن مهمة الفكر الإستشراقي تزويد رجال التنصير بدراسات تعطيهم معلومات تفيدهم في غرضهم الكنسي، كما أن من مهمة المنصرين شحن العواطف والأفكار بأبعاد كنسية تدفعهم إلى العمل المتواصل.

ومع هذه السمة العامة فإننا لا ننكر أن هؤلاء المستشرقين كزملائهم أنفقوا جهوداً دائبة وانقطاعاً بحثياً للدراسات الإسلامية خاصة، وقدموا أعمالاً تدل على هذه الجهود الشاقة.

فإن تتبع القضايا العربية والإسلامية التي تناولوها يقتضي منهم جهداً مضاعفاً لأنهم (غرباء) عن القضايا المعالجة في البيئة واللغة والثقافة، وكذلك فإن طبيعة هذه القضايا تستدعي (التفرغ) والإنقطاع والجهد الدائب.

ولكن أعمالهم على الرغم من قلتها عموماً أخطأت أو ضلت في ناحيتين: أولاهما: أسلوب المعالجة في تصيد الشبهات والإفتراءات وذلك بتتبع الأخبار الواهية والموضوعة لتأييد أسلوبهم، والثانية: هدفية الأعمال في تدمير الفكر الإسلامي الأصيل والنيل من قيمه العظيمة وتحقير أهله وأتباعه.

ومن السمات الأخرى:

أ ـ التخصصية:

وهي واضحة في جميع أعمالهم حيث تخصص بعضهم في الشرعيات وآخرون باللغويات أو بالاجتماعيات.

١ ـ ويبدو لي أن التخصصية لم تنبثق عن أساس (معرفي شامل) يمكن أن يمدها بألوان من المعرفة المطلوبة، فالمعرفة العامة أو ما يسمى بالثقافة العامة ضرورية لأي فرع علمي أو عملي تخصصي، حتى يغني كل منهما الآخر بالحقائق الجديدة أو القديمة.

وهؤلاء المستشرقون كانت معرفتهم أو ثقافتهم العامة هي المعرفة الكهنوتية أو الكنسية التي يحاولون أن يوسعوا آفاقها بدراسات نفسية واجتماعية وفلسفية ولغوية... في بعض الأحيان.

والثقافة الكنسية لا تبني أساساً ثقافياً عاماً يمكنه أن يزود التخصصات باتساع في النظرة والمعرفة. فإنهم ـ على الغالب ـ انصرف كل منهم إلى فرع من الثقافة العربية الإسلامية من غير رصيد فكري عام.

٢ ـ ثم إن بعضها تخصصية (تافهة) لا تستحق أن يقضي الإنسان فيها عمره أو جزءاً منه، ولا تستحق أن تصبح عملاً (فكرياً) ينتج ثمرة أو أثراً لجهد إستشراقي، مثل ما قام به (جوسين) الفرنسي الذي عمل: الشيخ سعد الدين والجن، و: على مزار الست سليمة.

وتبقى مثل هذه الأعمال (تافهة) وإن كانت من صنع مستشرق يحاول أن يبين جوانب اجتماعية دينية في بلد أو مجتمع، وبخاصة إذا تبين أنه لم يقم بعمل جاد آخر.

وإذا ثبت أن في تناول هذه الموضوعات غرضاً طاعناً في الإسلام من خلال تصرفات المسلمين المنحرفة فإن الطعن يماثل الموضوع نفسه في تفاهته.

٣ ـ وأخيراً أن كثيراً من التخصصات ذات وجهة استعمارية بالإضافة إلى

أنها غزو فكري تغريبي. وقد لاحظنا هذا في الاختصاصات التاريخية والجغرافية عند كل من (زيموفين) و (شارل) و (سالير)، كما لاحظناه في الإسلاميات عند (أندرسن) و (لامانس).
والوجهة أو الغرض الإستعماري الصليبي يملأ فكرهم ونفوسهم منذ عهد قديم قبل الحملات الصليبية ثم استمر إلى الإجتياح العسكري الحديث. حتى إن وجودهم الكنسي في البلاد الإسلامية قبل الإجتياح الحديث يمهد له تحت ستار تطوير المنطقة أو تمدينها وتحضيرها بالقيم الغربية الأجنبية.

ب ـ قلة الانتاج الفكري:

فإذا وازنا بين أعمال هؤلاء وأعمال المستشرقين الآخرين وجدنا فرقاً كبيرا في حجم الآثار بينهما، فلا نجد مستشرقاً في ضخامة انتاج جولدزهير، أو ماسينون، أو جب، وباسيه، وربما يعود السبب إلى التخصصية الضيقة السابقة التي لم تعتمد على رصيد فكري وثقافي عام.

يضاف إلى هذا أن إنتاجهم لم ينل شهرة وتداولاً مثل ما نالته الدراسات الأخرى في العالمين العربي والغربي مع أن المفروض فيهم إغناء تخصصاتهم بوافر من الإنتاج المتميز الذي لا ينظر إلى ضخامة انتاجه بقدر ما ينظر إلى نوعية مستواه.

ويستثنى من ذلك:

١ ـ لامانس من الرهبان المتأخرين الذي كان غزير الإنتاج في فرع تخصصه التاريخي والإسلامي، وقد أضاع ـ كما يقول عنه زملاؤه ـ سعة اطلاعه بأسلوبه التأثري العنيف.

ويبدو أن تردده على الجامعة اليسوعية، كأستاذ وباحث ومؤلف، ثم لقاءاته بأعلام المستشرقين الذين كانوا يزورون الجامعة حينذاك واستعانته ببعض طلابه المتفوقين في إنجاز إنتاجه ميز أعماله بالضخامة على غير عادة المستشرقين الرهبان.

والعجيب أننا نلمس الروح الصليبية تشيع في دراساته كلها قاطبة وهي ليست نابعة من ذاتيته وثقافته فحسب وإنما هي مستمدة من البيئة التنصيرية التي عاشها في الكنيسة وفي الجامعة معاً.

ومهما كانت أسفاره كثيرة فإنها لم تقدم للثقافة الإسلامية والإنسانية الحقائق الأصيلة، كما لم ينتفع العمل الاستشراقي العام بجهده المتطرف مع أنه كان واحداً من أعلامهم.

٢ ـ جيرار دي كريمونا من المتقدمين، وهو الإيطالي البندكتي الذي بلغت ترجماته العلمية (٨٧) مصنفاً في مختلف العلوم التطبيقية. فهذا المستشرق لم تذكر له دراسات في ترجمته، كما أنه أقرب إلى (طلائع المستشرقين) من الرهبان المستشرقين الذين وإن مارسوا حياتهم في الكنائس والكتدرائيات وتأثروا بها في الأندلس فإنهم لم يصنَّفوا ضمن الرهبان، ولم يعطوا ألقاباً كنسية مثلهم. وإنما ذكرناه هنا لارتباطه بالبندكتية الإيطالية الأندلسية القديمة. يضاف إليه أن (صناعة) الترجمة لم تقتصر على فرد أو أفراد وإنما كانت تقوم بها هيئات أو جماعات مكلفة من الدولة أو من أية جهة أخرى. فلا غرو أن مثل هذه التخصصات العلمية المتعددة تحتاج إلى أكثر من مترجم يجيد عمله العلمي الذي يقوم على المصطلحات العلمية، كما ينبغي أن يتقن ثلاث لغات على الأقل: العربية، واللاتينية، واللغة المحلية أو القومية، فلا يستبعد أن يستعين بأفراد أو هيئة تتقن هذه الصناعة ومن ثم تنسب ترجماتها إليه.

ومن المستشرقين المترجمين (يوحنا الإشبيلي) في القرن الثاني عشر، ومدرسة المترجمين إلى اللاتينية في طليطلة ومن أعضائها: بطرس الطليطلي وآخرين، وعربي باسم محمد فقط.

ج ـ وضوح الغرض الكنسي:

وبالدقة نقول: التصريح بالغرض الكنسي الراهبي الذي نجده أصرح ما

يكون عند لامانس، ورونكاليا في أول استشراقه، وجيوم، وأندرسن.

وإذا ادعى بعضهم الموضوعية مصرحاً بها كما فعل الأخير فإن ما قدمه في مقال واحد من الاعتراضات جميعها على الرسول ورسالته يؤذن باتخاذهم طريقة الاستدراج والإقناع الوهمي، كما يؤذن بتخليهم عن فضيلة البحث العلمي من الالتزام بالصدق والإنصاف.

وحسبنا أن نعلم أن (بيئة) المستشرق الراهب، و(طراز حياته) التي تبدو في زيه ولباسه مثلاً، و(ثقافته اللاهوتية) الملازمة له منذ طفولته غالباً، ثلاثية المظاهر المعبرة عن وضوح غرضه بلسان الحال والمقال معاً.

والغرض هنا وإن غلبت عليه (الكنسيّة) فإنه ذو شعبتين: تنصيري واستشراقي يصبّان بعد في أتون النفوذ الاستعماري في كثير من الأحيان.

د ـ التأليف في اللهجات:

فمن المعروف أن من أقدم الدعاة إلى الأخذ باللهجات المحلية في مصر على يد د. وليم سبيتا، في كتابه: قواعد اللغة العربية العامية في مصر و(**المقطم**) أواخر (١٢٩٩ ـ ١٨٨١م) حين اقترح كتابة العلوم بالعامية المصرية، وأن أقدمها في سوريا كان سنة ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٢م في خبر أوردته بعض صحفها الدمشقية، وأن أقدمها في المغرب العربي على يد المارشال الفرنسي (ليوتي) ١٣٣١هـ ـ ١٩١٢م الذي كان يقول؛ لا بد من فتح مدارس فرنسية بربرية تعلم البربرية والفرنسية...

ولكنا إذا وجدنا هنا مؤلفات أو معاجم سبقت إلى اللهجات بأكثر من قرن ندرك ضلاعة التنصير ودعوتها للعامية والتأليف فيها أحياناً.

فقد ذكّرنا معجم الأب كايروت بسبع لغات ومنها العامية (١٥٨٨ ـ ١٦٥٣). ثم أصدر الرهبان البيض مجلة معهد الآداب العربية (١٩٣٧) في تونس، وهي تعنى فيما تعنى به باللهجات المغربية المحلية، وعمل رونزفال اليسوعي (ت ١٩١٨): فعول ـ فعولة في اللهجة السورية، و: فليس اليسوعي أيضاً عن: اللهجة العربية في زحلة (١٩٤٧).

ومن الجدير بالذكر أن المروجين للعامية كان معظمهم ممن عاش في بلدان عربية: بيروت ودمشق والقاهرة ودعوا إلى الكتابة بها.

وإذاً فإن للعامية دعوة تنصيرية استشراقية تأثرت وأحياناً وجدت ما يؤيدها من التيارات الغربية العامة وأثرت في النفوس المريضة من الأدباء والباحثين العرب والمسلمين.

٢ ـ دلالات منهجية في أعمال المستشرقين:

أ ـ إذا كان التنصير حمل تبعاته الفكرية والإنسانية المغرضة كما سبق، وأن الاستشراق شوه الفكر والدين الثقافة الإنسانية كما سيأتي، فإن اجتماعهما في فئة من الغربيين يحمل التشويه والتحيز معاً مع محاولات التغيير الديني والفكري والسلوكي.

ب ـ ومهما اشتركت وسيلتا الغزو (الاستشراق، والتنصير) في تقارب أغراضهما التغريبية أو وحدتها فإن تلازمهما في البيئة الكنسية الواحدة يحكم وحدة الأغراض إلى جانب ما تضيفه الوسيلة الأولى من الغزو في الوسيلة الثانية. ولا نقصد هنا إبراز التأثر البيئي والثقافي والرصيد المعرفي التي شحنت به الكنيسة عبر القرون وإنما نقصد به (ظهور) شخصيات ذات مسوح كنسي تخصصت بالشرقيات وبالإسلاميات بالإضافة إلى اللاهوت المسيحي، فاستحوذت على التنصير الكنسي والاستشراق المعرفي.

ج ـ كما لا يدور الموضوع حول تأثر أو تأثير فرقة أو مذهب في المسيحية في الفكر الاستشراقي عموماً وفي توجهات ومعارف الكنيسة خصوصاً، وإنما يشمل الفرق جميعها وبخاصة أكثرها تطرفاً وهي الكاثوليكية ويشمل أيضاً المعارف الكنسية والاستشراقية معاً.

د ـ ومن الناحية المرحلية في التحصيل فإنه يرجح أن يسبق التحصيل الكنسي أولاً، ثم يتبعه وأحياناً يرافقه التحصيل الاستشراقي، ولم نسمع أن مستشرقاً علمانياً مثلاً أتم تحصيله الاستشراقي ثم عاد إلى الكنيسة للتعلم، ولكنه قد يعود إليها للتعليم والتزويد.

هـ - ومن الناحية التحصيلية فإنه لا يعسر أن نجد شخصيات استطاعت بتفوق قدراتها أن تجمع المعارف الغزيرة فيهما معاً، ولكن من الصعوبة بمكان أن يستوعب كل مستشرق منصر المعارف التي تؤهله للعمل فيهما، ولكن الإقتصار على المعلومات السطحية فيهما تخلف شخصية تافهة وفارغة، وهي أكثر تطرفاً وعداوة.

و - وفي الجهالة العلمية، فإن أنصاف المتعلمين والباحثين منهم والتأثير المتبادل في الكنيسة والاستشراق يدفع بالحقيقة إلى التزييف أو الضياع، كما يبتر البناء الثقافي الإنساني بمثل تفاهة الآراء وتأثرية الاستنتاج. ويحرم البشرية من حصيلة ثقافية ينبغي أن تبرأ من الحظوظ الشخصية والرواسب البيئية.

ز - وهذه الناحية إن وضعتنا في إطار التشكيك نتيجة الجمع بينهما فإنه يبدو من خلال الأبحاث التي قاموا بها أن التأثير الكنسي أشد وأقوى في العمل الإستشراقي، حتى إن الطابع البحثي لهم عموماً يتسم بالروح التنصيرية سواء كان يتناول الموضوعات أم في طريقة معالجتها.

ح - إن المستشرق المنصر لا يمكن أن يتحرر من بصمات المعارف والبواعث الكهنوتية في دراساته مهما حاول أن يعلن خلافها أو يتظاهر بمنهجيتها.

إن الدلالات المنهجية المتقدمة تنبهنا إلى (تلاحم) المهمات (المتعارضة) مع وحدة أغراضها، وأسلوبها التأثري وأولية القاعدة الكنسية والسطحية العامة، وتزييف الحقائق، والروح الكنسية السائدة على الإنتاج اللغوي والديني والإجتماعي، والخضوع للإتجاه الكهنوتي في الدراسة.

وهي تؤدي بنا إلى حقيقة (منهجية) هي أن الجهود المختلطة أو المتشابكة في أعمالهم لا بد من أن تنتج آثاراً مشوهة ما دامت من منطلقات مشبوهة

واحدة، وربما تفرع عنها دراسات متكررة ومتعارضة.

إن الروح التنصيرية (ظاهرة) في أعمال الرهبان المستشرقين وهي تعكس الأحقاد الصليبية في نفوسهم، وتهدر القيم المسيحية الأصيلة من التسامح واللين والموعظة الحسنة، والسلام في الأرض والمحبة بين الناس. وكأن هذه القيم غريبة عن هؤلاء الذين يفترض فيهم أن يتمثلوها في شخصياتهم وأعمالهم الفكرية. وهي ظاهرة تعمق في نفوسهم العداء الكنسي لتربطها بالمصالح الإستعمارية، ثم لتدفع بهم إلى نشاطات فكرية خالية من أية صفة منهجية موضوعية، طالما أنها غرقت في رواسب اللاهوتية، وقيدت بأغلال الإستشراق المتطرف في إصداراته وأهدافه.

وهذه لم تتخذ لها أنماطاً محددة من العمل التنصيري، أو انتاجاً فكرياً من الجهد الاستشراقي أو إنشاء مؤسسة فكرية واجتماعية، وإنما التحمت جميعها في منظومات المساهمات الغازية في أصعدة متعددة. وإن حجم هذه المساهمات بلغت من الحجم أنها لم تعد مستودعات أو مجمعات للتضليل الفكري والفساد العقدي وإنما أضحت من منطلقات شراستها وعنف أساليبها (بؤراً) للتغريب في جميع صوره وجوانبه.

وإذا تصورنا المستشرق المنصر واعظاً ومعلماً وباحثاً وموجهاً اجتماعياً ضمن المفاهيم التنصيرية فإن الحقائق الفكرية والدينية لا تدعم نشاطاته ولا تؤسس أعماله.

ومع كل هذا فإن الإسلام قادر على مواجهة التحديات على اختلاف صورها وأساليبها قدرته على تخطي الإنحراف والمنحرفين، والضلال والضالين، وإن كانوا في عقر دارهم كما كان يفعل رسول الله ﷺ، فتقدم لهم الحقائق الإسلامية الصافية الناصعة، بالحكمة الإسلامية المعروفة، أو يتفاهم معهم في إطار فكري متحرر من الحقد والعداء والإيذاء، حتى إنه مستعد أن (يبرّ) بهم ما داموا على حسن العهد وأخلاقية التعامل.

عاشراً ـ حصيلة العمل التنصيري:

إذا زادت نشاطات التنصير على خمسة قرون بعد الحملات الصليبية في جهوده الدائبة وإمكاناته العالمية، وخبراته الفكرية والمادية فإن مدى (الآثار) أو (النتائج) التنصرية لم تتلاءم مع الأبعاد والقوى والامكانات فلا تبدو الحصيلة متناسبة مع هذه الجهود.

وهذا لا يدل على الضعف الذاتي للرسالة التي يحملها المنصرون وحسب وإنما يدل على أن توظيف العمل التنصيري في خدمة الإستعمار يعكس التقدم الكنسي إلى تأخر في رسالته ويقلب التوسع في المجالات المختلفة إلى تقهقر في النجاحات التي كانوا يتوقعونها، كما أنه يغلق القلوب والنفوس في مواجهة التيارات الفكرية الأجنبية فلا تتقبلها ولا تقنع بأحقيتها. وهذه الحقيقة الواقعية لا توقف الجهود التنصيرية أو تقطع آمالها في المستقبل وإنما تجعله يبتكر أساليب وصوراً جذابة وخادعة للوصول إلى أغراضه في التوسع العددي مهما قل شأنه وحجمه.

ولذا، فإن الحيطة والحذر لا بد من أن يدفعا بالمسلمين إلى البناء الإسلامي الأصيل مع تحصينهم عقيدة وفكراً من جهود التنصير المتجددة. لا في المواعظ والخطب والأحاديث فحسب وإنما بكل ما يحتاج إليه البناء والتحصين الإسلاميين وهذا ليس مسؤولية قطر عربي أو إسلامي واحد وإنما هي مسؤولية المسلمين جميعاً في تضامنهم وتناصرهم وتكاملهم.

أ ـ مكاسب العمل التنصيري:

إذا كان لدى المؤسسات التنصيرية العزم على مواصلة أعمالها ونشاطاتها واضعة نصب أعينها أنه (قضية) وجودهم وحضارتهم وعبادتهم فإن هذا أعظم (مكسب) فكري وغائي.

وما دام الفكر الاستعماري الحديث يؤمن أن باستطاعته أن ينفذ إلى الدول النامية والمتخلفة عن طريق التنظير لتحقيق (مكاسبه) (الاستراتيجية)، فإن هذا

كفيل أن تستمر الجهود الإستعمارية والتنصيرية في تحقيق أغراضهما معاً.

ولكننا نريد أن نبين مكاسبه في واقع المسلمين مما مر معنا من معلومات عنها.

١ ـ في المسلمين: فلم تكن حصيلة العمل التنصيري على نطاق واسع وحسب توقعاته، ولم ينجح كتيار عالمي في جهوده الجبارة ومؤتمراته الدائمة. فقد سبق أن كشف الكاتب الاسلامي الماليزي (فضل الله ويلموت) ضمن إحصائيات أصدرها مؤخراً أن ٧٧٪ من إجمالي اللاجئين في العالم مسلمون، كما كشف عن المحنة التي يعيشها مسلمو جنوب شرقي آسيا فقال: إن أكثر من مليون في كل من بورما والفليبين وتايلاند أصبحوا من اللاجئين المشردين...

يضاف إلى هذا اللاجئون الأفغان، واللاجئون من أرتيريا وأوجادين والسودان وغيرها بسبب الجفاف وشظف العيش والضغوط المعاشية والعلمية والطبية... وأحياناً الاستعمارية.

وعلى ضوء هذا الحاضر الاسلامي المرير فلا بد من أن يحصل التنصير على مكاسب طالما أنه يقدم له الطعام والدواء والعلم والعمل من مصادر غنية تعيش في نظام رأسمالي وشركات غربية عالمية، تغذيها دولها وحكوماتها ومن ورائها الدعم التنصيري العالمي.

أ ـ تقدم معنا أن ما يزيد عن (٣٠) ألف طفل صومالي احتاجوا للرعاية، ولم يتقدم لهم أحد من أثرياء المسلمين حتى جاء بلجيكي وزوجته ورعوا هؤلاء الأطفال بموجب حكم قضائي، ثم دفعت لهما الحكومة النفقات اللازمة فيما بعد.

ب ـ وهناك (٢٥٠) ألف من أندونيسيا تنصروا منذ عدة أعوام[٤٧]. وأشارت احصائية (إرساليات التنصير البروتستانتي) ـ وهي مجلة

---

(٤٧) صحيفة المدينة العدد ٦١٧٢ تلخيص محاضرة د. يوسف قرضاوي.

تبشيرية ـ إلى أن عدد المسلمين في أندونيسيا تناقص خلال عشر سنوات (١٩٧٠ ـ ١٩٨٠) بنسبة ٤٪ فقط وهو رقم مخيب لآمال مخططي الحملة التبشيرية في أندونيسيا[٤٨].

ج ـ كما تقدم أن هناك حوالى (مليون) مسلم قد ارتدوا عن الإسلام واعتنقوا دين المنصرين وذلك خلال الأعوام الـ (١٥) الماضية في (بنغلادش) وقال محمد عبد السبحان المدير العام للمؤسسة الإسلامية التابعة للدولة: إن الفقر المدقع والأمية وانعدام الرعاية الطبية تمثل بعض أسباب هذا التحول[٤٩].

د ـ ويحتمل أن هناك آلافاً أخرى في آسيا وافريقيا تنصروا بسبب المعاناة المعاشية إلى جانب (أفراد) في المغرب العربي وبلاد الشام والعراق.

ومن الواضح أن هؤلاء لم يدخلوا في التنصير بدافع القناعة أو بعد الموازنة الموضوعية الدينية وإنما استغلهم التنصير وسرعان ما عاد معظمهم إلى دينهم حين انقشعت سحبه المظلمة.

ويحز في نفوسنا أن يتحمل المسلمون القادرون على تخفيف المصائب والبؤس مسؤولية تنصير إخوانهم فلا يهتمون بشؤونهم ولا يسعون إلى تخفيف آلامهم ويتركونهم نهباً للمنصرين، وحينئذ فإن المسؤلية تعم المتنصرين والمقصرين.

وأخوف ما يخشاه الباحثون الإسلاميون (تغريب) الثقافة والقيم الإسلامية و (فرنجة) الحضارة العربية الإسلامية مهما كان عدد المغربين قليلاً، والمتفرنجين ضئيلاً.

ومهما يكن من أمر فإن (الحصيلة) السابقة لا تطمئن على سلامة المد

---

(٤٨) صحيفة أخبار العالم الاسلامي ١١ محرم ١٤٠٧.

(٤٩) مجلة الأمة الكويتية العدد ٥٨ السنة الخامسة ١٩٨٥.

الإسلامي وصيانة المسلمين بقدر ما ينبغي أن تفتح عقولنا وتشحذ هممنا إلى أخطار التنصير ومقاومته في المستقبل.

فإن أية مؤسسة تنصيرية إذا استطاعت أن تجذب إليها طائفة من (المسؤولين) أو (القادة) فإنها تعد ذلك ظفراً (نوعياً) هائلاً يمكن أن يحصل نتيجة له تيار صليبي شديد.

ولا يغفل عن بالنا أن التنصير الذي هو في حد ذاته (غرض)، و(وسيلة) استعمارية فإن من أغراضه (ضياع) المسلم بعد (تفريغه) من إسلامه، وإبقائه بغير دين ولا حضارة أصيلة.

وربما توهم أن أعظم مكاسبه في الحبشة والسودان:

أ - الحبشة (أثيوبيا):

ويشكل المسلمون فيها ٥١٪، والمسيحيون ٤٠٪ والوثنيون ٩٪[٥٠] حيث تزيد على (٣٠) مليوناً. ومن أبرز قضية الإسلام فيها الكفاح المشترك، فكما ظهرت جبهات تحرير (أريتريا) و (الأوجادين) ظهرت جبهة تحرير أخرى في قلب (أثيوبيا) وهي جبهة تحرير (اليتجري) في شمال ووسط الهضبة الحبشية. إن (أثيوبيا) في جانبها الرسمي دولة تنصيرية: بسبب إجبارها المسلمين على التنصير، وبما أقامته من مؤسسات تنصيرية ذات صفة عالمية.

١ - اريتريا: ويقارب نفوسها من المليونين ونصف المليون حسب الإحصائيات الإنكليزية (١٩٥٢) ومصادر الثوار تقدرهم بأربعة ملايين، ونسبة المسلمين فيهم ٨٠٪، واحتلت إيطاليا منها (عصب) و (مصوع) (١٨٨٥) ومكث الإستعمار البريطاني في اريتريا (٥١) عاماً حتى ١٩٤١، ثم نصت المعاهدة بين بريطانيا والحبشة (١٩٤٢) على أن تبقى تحت الحكم البريطاني، وفي سنة ١٩٤٧ تألفت لجنة من دول الحلفاء لبحث مستقبل

---

(٥٠) الأقليات المسلمة في افريقيا: سيد عبد المجيد بكر ص ٥٥ عن: الاسلام والحبشة: فتحي غيث ص ٢٠٦، ٢٣٦.

المستعمرات الإيطاليـة، ولعبت بريـطانيا دوراً هـاماً في التـآمر عـلى استقلال اريـتريا فشجعت المسيحيـين على تكـوين حزب لهم ينـادي بضم أريتريـا إلى الحبشة رغم أنهم أقلية. وعلى الرغم من موافقة الأمم المتحدة ١٩٥٢ على أن تكون أريتريا وحدة ذات استقلال ذاتي في اتحاد فيدرالي مع الحبشة فقد تنكـر (هيـلاسلاسي) للوثيقـة وأعلن (١٩٥٥) ضم اريـتريـا إلى أثيـوبيـا. وصـار يستخـدم أسلوباً متعسفـاً في معاملة المسلمـين، فعين المسيحيـين في المناصب الهـامة، وحـرم المسلمين من معـظمها، وضرب ستـاراً كثيفـاً عليهم، وسـاد الظلم والبطش ومصـادرة الحريـات، فكانت الثـورة الأريترية طريق الشعب للخلاص. وبعد انقلاب ١٩٧٤ الذي أطاح بالأمبراطور ساد طغيان المجلس العسكـري زعيم الانقـلاب، وبقيت الثـورة الأريـتريـة في نضـالها وحققت انتصـارات كبـيرة حتى اضـطر المجلس العسكـري الحـاكم إلى الاستعـانـة بالكوبيين والروس الذين اشتركـوا في صد الثـورة ومنها معـركة تـدخل فيهـا (٤٠) ألف اثيوبي بقيادة ضباط سوفييت...

ومن أشد التحديـات التي واجهتها أريتريـا: الحـروب الصليبية الـطويلة، وتآمر بريطانيـا مع هيـلاسلاسـي عـلى حريتـه، ثم تدخـل القوى العـالمية في الصراع الـدائر... وأصـدر مؤتمر القمـة الخامس الـذي عقد بمكـة المكرمـة (١٤٠١ هـ) قراراً يدعو إلى حل عـادل سلمي، وتشكلت لجنـة من السنغـال والأمانة العامة للمؤتمـر لإجراء الاتصـالات اللازمـة لذلـك، وعرض نتـائج عملها على مؤتمر وزراء خارجية العالم الإسلامي القادم[٥١].

ومن الأعمال التنصيرية:

١ - **الحقد الامبراطوري الصليبي**: فقد شهـدت المنطقـة عنفاً شـديداً عـلى المسلمـين من ملوك الحبشة بـدءاً من القرن التـاسـع عشر حتى يحملوا المسلمين على التنصير بالقوة أو مغادرة البلاد. وجاء الملك يـوحنّا فـأمر

(٥١) المرجع السابق. من ص ٥٩ - ٧١ وانظر حواشيه.

بتعبئة عامة صليبية على المسلمين، ووصف الجنرال غوردون يوحنا فقال: إنه مثلي، متعصب في الدين، إنه يشعر أنه يحمل رسالة وأنه سوف يحققها، تلك الرسالة هي أن ينصّر جميع المسلمين.

٢ ـ **التآمر البريطاني الأمريكي الصليبي**: سبق دعم بريطانيا للأسرة المسيحية الحاكمة في الحبشة عموماً، وبعد الحرب العالمية الثانية أضاف الاستعمار البريطاني الأمريكي ظلماً جديداً: بإخضاع (أريتريا) إلى الأسرة المسيحية الحاكمة في الحبشة ثم أنشأ الأمريكيون أكبر محطة تنصيرية للإذاعة العالمية في (أديس أبابا) باسم (صوت الانجيل)[٥٢].

ومن الوقائع المؤلمة والمتكررة أن المعالجة الطبية لا تبدأ على يد المنصرين الغربيين، قبل أن يركع المرضى ويسألوا المسيح أن يشفيهم[٥٣]... إلى جانب وقائع أخرى تظهر (خداع) الأطباء (الإنسانيين) بالمرضى والمتألمين.

٢ ـ **أوجادين (الصومال الغربي)** جنوب أثيوبيا ويقرب سكانها من (٦,٥) مليون، والمسلمون منهم ٨٠٪ أي يزيدون على (٥) ملايين مسلم، وهو امتداد للصومال ديناً ولغةً وتقاليداً، وتعتبره الحبشة جزءاً هاماً منها. ويشبه تاريخها العام، والتنصيري، والتحرري تاريخ (أريتريا)، فقد استولت ايطاليا على الحبشة ١٩٣٤ ومنها (أوجادين) ثم عاد الأمبراطور (هيلا سلاسي) الهارب في الحرب العالمية الثانية يحرض البريطانيين على غزو الحبشة (١٩٤١)، ودخلها الأمبراطور بمساعدة بريطانيا بعد الإنتصار على إيطاليا وتوقيع معاهدة ١٩٤٢ التي تنص على أن تظل اوجادين تحت النفوذ البريطاني، ثم سلمتها إلى اثيوبيا (١٩٥٥) على الرغم من عدم موافقة الشعب الصومالي في الأوجادين. لهذا ثار الصوماليون وعرضوا قضيتهم على المحافل الدولية وكان رد اثيوبيا هو شن هجوم عسكري على الصومال ١٩٦٤

---

(٥٢) مقتبس من التبشير والاستعمار ص ٢٤٥، ٢٤٦.
(٥٣) المرجع السابق، ص ٥٣ وتقدم.

وتدخلت منظمة الوحدة الأفريقية لحل النزاع سلمياً، وباءت الجهود بالفشل. ثم تأسست جبهة تحرير الصومال الغربي ١٩٦٣ ضد الامبراطور هيلاسلاسي واستمرت (٣) أعوام نتج عنها اعتداء أثيوبيا على الصومال. ولم يكن النظام العسكري الأثيوبي (١٩٧٤) أقل تطرفاً على المسلمين فقد تعرضوا لمذابح كبيرة، مما صعّد العمليات الحربية للثورة الصومالية التي دفعت بالمجلس العسكري الحاكم إلى الاستعانة بروسيا وكوبا كما سبق الكلام، حتى اضطرت (جمهورية الصومال) إلى سحب قواتها[٥٤].

وكثر اللاجئون إلى السودان والصومال مما جعل البعثات التنصيرية تتغلغل داخل معسكراتهم وتقدم لهم الغذاء والدواء والتعليم، فهناك (٢١) منظمة كنسية تقوم بدور (إنساني) ظاهري ولكنه في الحقيقة دور تنصيري إستعماري.

ومن أكبر ولاياتها (هرر) التي تعد أغنى المناطق الصومالية من مستعمرات الحبشة وأكثرها سكاناً وكلهم يدينون بالإسلام، وقد احتلتها الحبشة أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٧/١/٢٦).

يقول مسؤول ميداني في جبهة التحرير الصومالي في رسالته عن تآمر الصليبية والماركسية ضد الإسلام والمسلمين فيها مبيّناً دور الماركسية في تدمير المنشآت الاسلامية والشباب المسلم والتعدي على قرى (هرر) وغيرها والمساعدة في نقل المبشرين والملحدين إليها[٥٥]:

«كذلك قامت الحكومة الحبشية الماركسية بحملة واسعة النطاق بتجنيد الشباب المسلمين لإرسالهم ليقاتلوا ضد إخوانهم المجاهدين في الصومال الغربي والمجاهدين العفريين في سلطنة أوسا الإسلامية وضد الجبهة الاريترية

---

(٥٤) مقتبس من السابق، ص ٧٢ ـ ٨٨.

(٥٥) من رسالة محمد جاتور ابو بكر إلى جريدة الشرق الأوسط ١٩٨٧/١/٣١، وانظر التبشير والاستعمار من ص ٥٠ وبعدها فقرة الغاية تبرر الواسطة عندهم.

وحين رفض الشبان أن ينصاعوا لأوامر سلطات الحبشة الاستعمارية، وحين اختفى الشباب عن أنظار الحكومة طلبت من آبائهم وأمهاتهم تسليمهم لها ورفض أولياء الأمور بحجة أن أولادهم ليسوا تحت رعايتهم ملئت بهم السجون بدون أي ذنب ارتكبوه.

وقد فر مسلمو مستعمرات الحبشة وهرر (الصومال الغربي) إلى الصومال بكثرة بحثاً عن الأمن والاستقرار وممارسة شعائر دينهم الحنيف بحرية، لأن النظام الماركسي البغيض قد منع منعاً باتاً فتح المدارس الدينية وحلقات تدريس العلم في المساجد وفي الزاويات الدينية تحت الأشجار في الحقول والمراعي، وبهدم أكثر المساجد وحوّل بعضها إلى ملاءٍ ليلية، كما جعل من بعضها مستودعات للجيش ومنع المصاحف الشريفة والكتب الدينية من دخولها للبلاد. كما قام بمصادرة شرائط التسجيل للقرآن الكريم من الحجاج في مطار أديس ابابا. كما قام بمصادرة أوقاف المساجد والمدارس الاسلامية الأهلية والأراضي الزراعية في هرر ومنحها للقوات الحبشية، وقامت القوات الحبشية ببناء المنازل لعائلاتها وأقاموا فيها المزارع الخاصة بهم وصارت بهذا جميع المزارع تابعة للقوات المسلحة!

وقامت الحكومة الماركسية الحبشية بهدم القرى في ضواحي هرر ومنعت الزراعة إلّا في المزارع الإشتراكية. كما أمر النظام الشيوعي الصليبي بتجميع المسلمين في عدة قرى تعاونية لتيسير مهام وتنقل المبشرين والملحدين من قرية لأخرى وللدعوة إلى النصرانية والإلحاد وبذلك يتيسر لهم هدم المساجد. وحين قام المسلمون في هرر (الصومال الغربي) بإقامة المساجد في القرى الجديدة منعوا من ذلك وسجنوا، وقتل البعض الآخر بقوة السلاح، وهذا مما سهل انتشار المجاعة والمرض والبطالة بين المسلمين ولجأ شعب هرر (الصومال الغربي) وشعوب المستعمرات الأخرى إلى الصومال وما زالوا يتدفقون بالمئات والألوف على الصومال حتى كتابة هذا المقال. وقامت جمهورية الصومال بتضحيات كثيرة لأبناء المسلمين بنفس ونفيس بتيسير

المعيشة في الصومال وخارجه وتحملت كل الضربات من العدو البغيض ضد شعبها من قنابل ثقيلة تسقطها طائرات النظام الماركسي البغيض والمدافع الثقيلة التي كانت يضرب بها مدينة بورما سنة ١٩٨٤م. وقتلت الأطفال والنساء ومات مئات الأهالي وشرد البعض وصاروا بدون مأوى».

إن تآزر القوى الأجنبية شرقية وغربية تآزراً معلناً أو ضمنياً ينبه إلى أهمية العالم الإسلامي استراتيجياً وبشرياً واقتصادياً كما يدل على أنهم مصممون على اتخاذ التنصير ذريعة آمنة وغير شريفة لأغراضهم النفوذية، ولذلك فهم غير مستعدين أن يتخلوا عنه ولا أن يحجموا عن وسيلته، فهما موضوع إرضاء أقوامهم وكنائسهم، وإن كان الماركسيون يناصبون العداء للأديان ومعابدها.

٢ً- السودان الجنوبي:

ومن المعروف أولاً أنه لم يكن ثمة فصل عسكري وإقليمي بين شمالي السودان وجنوبه، وأن نفوسه الذين يزيدون على (١٨,٥) مليون نسمة تتجاوز نسبة المسلمين فيه ٧٥٪ والبقية من المسيحيين والقبائل الوثنية كانوا في طريقهم إلى الإسلام، في الوقت الذي كان انتماء القطر السوداني جميعه للعروبة يميز شخصيته الفكرية والسياسية والعربية الإسلامية.

ولا ريب أن تقسيم السودان اجتماعياً في أول الأمر إلى شمالي وجنوبي قد عزز العمل التنصيري: الكاثوليكي والبروتستانتي حيث استأثر التنصير بالجنوبي منه، في إقامة التعليم أو بالتبشير تحت ستار التعليم، ومنذ عام ١٩٢٦ جعلت الحكومة الإنكليزية المنتدبة على السودان تعطي المبشرين إعانة من (ميزانية) السودان مساعدة لهم على التعليم. وكان الامبراطور هيلاسلاسي الحبشي والأرثوذكسي يساعد (الإرساليات) الأجنبية: بروتستانتية أو كاثوليكية على التبشير في السودان[٥٦]...

---

(٥٦) التبشير والاستعمار ٢٤٠، ٢٤١.

وأسس الإنكليز مدارس عدة ومن أهمها: كلية (غوردن) وهو ضابط إنكليزي (١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م) والمعروف بـ تشارلس غوردن باشا وكان قتل ١٨٨٥ حين حرر المهدي (الخرطوم).

ويقول (جب) فيما يسميه (فضيحة كلية غوردن): إن الحكومة الإنكليزية لما قررت فتح هذه الكلية، جمعت لها (مئة) الف جنيه من إنكلترا، ولكنها أغلقتها في وجه التبشير المسيحي، ثم يستغرب (جب) كيف أن هذه الكلية تعلم القرآن ولا تعلم التوراة والإنجيل ويقول: وما دام غوردن مسيحياً فيجب أن تكون الكلية التي سميت باسمه تبشيرية مسيحية، لا أن تكون حجاباً بين السودانيين وبين التوراة[٥٧]...

ومن وقائع (الخداع) الصحي ما كان يقوم به نفر من المنصرين حين إنشائهم مستوصفاً في (الناصرة)، أنهم كانوا لا يعالجون المريض أبداً إلّا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح... فقد كان التنصير والتطبيب يسيران جنباً إلى جنب كما يقول (ميلجان)... وحملت أم طفلها المريض مرة وجاءت به إلى المستوصف، ولكن الطفل مات في أثناء الطريق الطويلة، فلم يعزّ الطبيب الأم الثكلى بل جلس (يكرز) عليها، كما سبق[٥٨].

ولا ريب أن السلطات البريطانية قبل معاهدة ١٩٣٦ كان لها أسوأ الأدوار في تنصير السودان عموماً، وقسمه الجنوبي خصوصاً.

فقد قررت الكنيسة البريطانية إلحاق السودان بالقدس مثل سوريا ومصر والحبشة، ثم انفرد رئيسها (شو) بأخذ القرارات الكنسية وعمل مع آخرين: مراكز تبشيرية مثل: مر كز تبشير جوبا، ومركز تبشير أوباري، ومركز تبشير مريدي،ومركز تبشير لوي. وراحت الإدارة البريطانية تمنح الإرساليات مناطق واسعة لإنشاء مراكز أخرى في الجنوب بإيجار (جنيه واحد في السنة) ولفترة (٨٠) عاماً قابلة للتجديد. وركزت نشاطها التنصيري على المزرعة

(٥٧) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٥٨) المرجع السابق، ص ٦٢ وتقدم.

والمستوصف والمدرسة ونوعوا التعليم ضمن المخطط التنصيري من مدارس أولية، ومدارس تلقين المبادىء المسيحية، ومدارس اللاهوت، والمدارس الابتدائية، والابتدائية المهنية، ثم مدارس تدريب المعلمين. . .

ومن أهم المستشفيات في الجنوب: مستشفى لوي بين المورو، وكان (د. فريزر) أول طبيب يعمل بإرسالية (غوردن) كما كانت (لو) أول ممرضة فيه، كما أنشأت هذه الإرسالية مستشفيين آخرين و (٨) مستوصفات. وسبق ما كان يعانيه المرضى في مراجعاتهم إليها.

ورافق فصل الكنيسة الانكليزية إجراءات (فصلية) أخرى منها: التخلص من التجار الشماليين الذين كانوا حلقة الاتصال بين الشمال والجنوب قبل وصول المبشرين، وأداة فعالة لنشر الاسلام واللغة العربية بين الوثنيين.

وكذلك التخلص من الجنود الشماليين الذين يعدون قوات عربية وإسلامية، قادرين على التأثير في أبناء الجنوب، حيث تطلب ذلك إنشاء المدارس والمساجد وبعض المؤسسات الإسلامية التي تساعد على انتشار الإسلام والعربية فيه.

وتبع هذا استئصال الموظفين الشماليين بسهولة حيث تم نقلهم إلى بلادهم في الشمال، وكان يحل محلهم الأقباط وهم ليسوا من الجنوبيين.

ثم تخلصت السلطات الجنوبية من اللغة العربية، وحلت محلها الانكليزية في إرسالياتها كلغة تدريس وخطاب، ثم وجد المبشرون الكاثوليك استخدام اللهجات المحلية أخف وطأة وأكثر فائدة لهم، فتعلموها وراحوا يخاطبون بها القبائل الجنوبية، وحين انفصل الجنوب عسكرياً منذ (٤) سنوات وسمى نفسه: (بجيش تحرير السودان)، اشتدت الخصومات بين المنشقين والحكومة السودانية، وأصبح من العسير سيطرة الدولة الشرعية عليه.

وقبل المنشقون معونات مالية ودعماً عسكرياً من الدول الغربية والشرقية،

بينما أنشأوا دولة صليبية تنصيرية وطائفية متطرفة، تقض مضاجع الشعب والحكومة السودانية.

وعلى الرغم من جهود الحكومة السودانية العسكرية في تأديب المنشقين، ومحاولة اعادة الشطر الجنوبي فإن العمليات العسكرية البرية والجوية لم تثن السلطات الجنوبية عن عنادها التنصيري مع أنه قتل منهم في موقعة واحدة حوالى (١٠٠) على يد الميليشيات المدعومة من السلطات السودانية.

ومن الناحية السياسية فإنه يبدو من تأييد الدول العظمى للجنوب صعوبة التفاهم والحل المشترك. وفي هذا وذاك ما يجعل هيئات الإغاثة العالمية تمتنع أحياناً عن مواصلة جهودها لإيصال الإمدادات الغذائية والدوائية إلى مئات الآلاف من اللاجئين الذين تهددهم المجاعة والأمراض بسبب الحروب التي يفتعلها الجنوبيون ولا يمكن أن يسكت عليها الشماليون.

والمشكلة القائمة هي الدعم المالي والعسكري والبشري الأجنبي الذي يحصل عليه الجنوب ليستطيع الوقوف على قدميه، وذلك ليؤدي مهمته التنصيرية لا في الإقليم وحده وإنما لتصبح المنطقة منطلقاً هاماً للتنصير الافريقي بوجه عام، ومن ثم ليستمر النفوذ الأجنبي بأشكاله على القارة السوداء.

بينما كان السودان بشطريه مؤهلاً للقيادة الإسلامية عبر الدول الإفريقية في أقلياتها الاسلامية، وكذلك في الدول الإفريقية الأخرى التي ما تزال على وثنيتها وجهالتها[٥٩].

١ - في غير المسلمين:

حيث يمكن القول بأن التنصير نجح إلى حد كبير في تحويل جماعات وقبائل كثيرة وهذا ما يجعل الإرساليات والمؤسسات تستمر في جهودها، وقد

احع: مستقبل الاسلام في السودان: الصادق المهدي، و: التبشير ...سودان ووادي النيل: د. ابراهيم عكاشة.

حصلت على (دول) افريقية متنصرة، كما يمكن أن تأمل بالمزيد.

أ ـ التنصير المذهبي: وهو غرض سعى إليه المنصرون قبل ريموندلل (ت ١٣١٥) وحتى الوقت الحاضر. وقد مر معنا شيء من نشاطاتهم في رد (الهراطقة) و (النصارى الشرقيين) إلى الكاثوليكية المتعصبة، كما مر معنا (التنافس) وأحياناً (المواجهات) والخصومات فيما بينهم لكسب الأتباع إلى فرقة كل منهم.

وهذا، وإن كان لا يهمنا من قريب أو بعيد، فإنه ينبغي أن نعلم أن جميع (الفرق) التنصيرية متفقة على أن تعمل كل واحدة منها بشكل مستقل وأحياناً متعاون، من غير أن تكيد الواحدة منها للأخرى.

ب ـ تنصير الوثنيين: وهو مجال رحب وفسيح للعمل في كل مكان وزمان تسنح للمنصرين الفرص أو يستغلونها تحت وطأة الضغوط المختلفة، وذلك في غياب الدعوة والدعاة إلى الإسلام أو التقصير في الإعداد للجهاد البياني الخالص.

ويبرز (الملف الأسود) تقريراً أعده (ديفيد بيرت) محرر الموسوعة المسيحية العالمية الصادرة عن جامعة (اكسفورد) جاء فيه ما يلي: خلال السنة الماضية نقص عدد المتنصرين في العالم بمقدار (٩) ملايين شخص، أي كان مجموعهم (١٣٠٠) مليون نسمة بنسبة ٢٧,٣٪ حيث كانت نسبتهم في العام الماضي (١٩٨٦) ٢٧,٩٪ من مجموع سكان العالم، ولوحظت زيادة عدد النصارى حيث تم كسب (٢٤) مليوناً، لكن الزيادة في عدد سكان العالم فاقت الزيادة في النصارى الجدد... وأضاف التقرير أن (٩) ملايين شخص قد دخلوا المسيحية بأمريكا اللاتينية[٦٠]...

ومن المرجح أن التقرير (الرسمي) السابق والمعد بموافقة الكنيسة العالمية

---

(٦٠) صحيفة أخبار العالم الاسلامي العدد ٩٨٠ سنة ١٩٨٧، ويلاحظ ان التقرير يبين عدد المتنصرين الجدد سواء كانوا من أصل اسلامي أم غير اسلامي.

قد قلل من الأرقام لأي سبب تراه وجيهاً كما أن من المحتمل جداً حجب معلومات سرية تقتضي مصلحة الكنيسة عدم نشرها، وهي في التقارير السرية الخاصة.

ومع هذا فإن أسوأ الاحتمالات الرقمية في تنصير المسلمين لا تتجاوز (٢) مليون عبر عشرات السنين، وإذا كسب التنصير (٢٤) مليوناً في(١٩٨٧) فقط فإنه يبدو لنا مدى نجاحه في القبائل الإفريقية الوثنيةومدى خسارة المسلمين لهم خسارة مضاعفة في الحجم العددي وفي ارتفاع قوى التنصير نوعياً.

٢ ـ نجاحات إسلامية:

ومع النجاح المحدد للتنصير والخسارة للمسلمين فإن (تصدي) الجهود الإسلامية الفردية والجماعية والحكومية والشعبية يعبر عن جانب من (الدعوة) التي يراد لها العموم والشمول، كما تدل على تحمل العمل الاسلامي (مسؤوليته) في حالات:الدفاع والفتح والبناء.

ونوجز الكلام على شيء من هذا النجاح فيما يلي:

أ ـ الطبقة المثقفة: إن المراكز الإسلامية، والجمعيات الداعية في أوروبا وأمريكا تشهد نجاحاً وئيداً ومطرداً في قبول الطبقة الاجتماعية العليا للإسلام، وقد عرفت قناعات العديد من أعلام وعلماء القانون والدين والطبيعة والفلسفة والآداب والأطباء والمهندسون، بالدين الإسلامي بعد اطلاعهم عليه وكشفهم عن فضائله، وموازنتهم له بالأديان السابقة في أصوله وثبوت نصوصه ومجالاته الحضارية وقيمه الإنسانية، وأذكر على سبيل المثال: (جاك كوستو) عالم البحار و (آرثر ألسون) عالم الفيزياء البريطاني، و (روجيه جارودي) و(د. موريس بوكاي) وغيرهم كثير. حتى إن الكنسيين أحياناً يرغبون في الإسلام بعدما أثقلت نفوسهم طقوس الكنيسة الوثنية التي لا تمت إلى النصرانية الأصيلة بصلة.

ومـا تزال تنشر من وقت لآخـر مقـالات عن سبب إسـلامهم، كـما تنشر كتب في المـوضوع نفسـه تنوه بـأحقية الإسـلام ذاتياً وحضـارياً، وبـأهميته في الصراع المذهبي وحل المشكلات الإنسانية المعاصرة.

وهذه مزية كبرى وفضيلة خاصة لم تعرف لأي دين أو مذهب آخر.

ب ـ نمـاذج شعبية وغـير شعبية مـتزايدة: ففي الـرئاسـة العامـة لإدارات البحوث العلمية والافتـاء تفد أفـواج الناس إلى الإسـلام فقد أشهر (١٠١) شخص في وقت واحد إسـلامهم وهم من العـاملين في المملكـة العـربيـة السعودية، ومعهم (٦) أشخـاص في جدة، وفي كـراكاس رجـل وعشر نساء من فنزويلا، و (٥٧) شخصاً في غانـا جلهم من أصل مسيحي وبعضهم من أصل وثني والعدد في ارتفاع.

وفي الـوقت ذاتـه يحسن أن ننـوه بـإسـلام العـديـد من رجـال الكنيسـة والمنصرين. ومنهم: أكثر من (٢٠٠) منصر مسيحي في نيجيريـا وذلك عقب قيام سكرتير احدى الكنـائس هناك بمحـاولة حـرق نسخة من تـرجمة معـاني القرآن الكريم ونتج عنه احراق يدي السكرتير، مما أثر في نفوسهم[٦١].

ج ـ تنامي الاسلام في أوروبا: فقد كتبت جريدة «فلت سونتاج» الألمـانية الغربية مقالاً حول انتشار الإسلام في اوروبا، قالت فيـه: إن الإسلام ينتشر بسرعـة هائلة في أوروبـا، وأنه يبلغ تَعـداد المسلمين في العـالم حوالى (٨٠٠) مليون مسلم، ولكن الاسلام لم يبق محصـوراً في الرقعـة التي تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهـادىء، بل وصـل إلى داخل أوروبـا، وبدأت المـآذن ترتفع من المراكز الإسلامية الموجودة في المدن الأوروبية.

ففي روما عاصمة إيطاليا سوف يبنى أكبر المراكز الإسلاميـة في العالم، وفي فرنسا وبلجيكا والنمسا اصبح الدين الإسـلامي في المرتبـة الثانيـة من حيث

(٦١) الأخبـار السابقـة في الدخـول بالإسـلام وردت في عدد واحـد من صحيفـة أخبـار العـالم الإسلامي، العدد ١٠٠٥.

الأتباع، كما استطاع المسلمون في هذه الدول إقناع السلطات باعتبار الإسلام الدين الثاني في البلاد.

وفي النمسا: أصبح لإمام المركز الاسلامي الحق في إعطاء درس ديني في التلفزيون النمساوي في أفضل ساعات البث، وفي المانيا أصبح للمسلمين جذور قوية أكثر من أية دولة أوروبية حيث أن عددهم مليون ونصف، ويؤثرون في الحياة الاقتصادية الألمانية، فهم يشكلون العمود الفقري لكثير من الشركات الألمانية مما اضطر هذه الشركات أن تفتح مساجد لعمالها المسلمين. وهناك الآن حوالى ٥٠٠ مدرسة لتحفيظ القرآن، و٧٠٠ مسجد لتحافظ على معتقدات العمال المسلمين في ألمانيا[٦٢].

د ـ استعادة المسلمين مساجدهم في الصين: فقد أعلن رئيس الاتحاد الإسلامي في الصين الشيوعية أن حوالى (٣٠) ألف مسجد تمت إعادتها للمسلمين هناك، بعد أن كانت مصادرة، وأصبح الآن بمقدور المسلمين في الصين أداء الصلاة في المساجد القريبة من منازلهم[٦٣].

ويحسن أن نقتبس من (نتائج التبشير) ما يلي[٦٤]:

لا شك في أن المبشرين قد أخفقوا في البلاد الإسلامية في هدفهم الذي كانوا قد أعلنوه منذ مطلع العصور الحديثة: نقل الناس إلى النصرانية اعتقاداً وعملاً. لقد انتقل أفراد قليلون وجماعات قلائل إلى النصرانية في عدد من البيئات التي يسودها الجهل والفقر وتسيطر فيها الدول الأجنبية المستعمرة، وخصوصاً في الشرق الأقصى وفي أواسط افريقيا وغربيها. غير أن هؤلاء المرتدين كانت الكثرة الغالبة منهم من غير المسلمين.

هؤلاء الذين دخلوا النصرانية حباً بالدنيا لم يهنأوا بالدنيا، لأنّ الدول

---

(٦٢) صحيفة المدينة، العدد (٦٤٨٩).

(٦٣) صحيفة اخبار العالم الإسلامي، العدد ١١٠٣.

(٦٤) التبشير والاستعمار، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٦.

المستعمـرة لم تحمل هؤلاء عـلى النصرانية حتى تمتعهم بمـا يتمتع بـه النصراني الأوروبي والنصراني الأمريكي الأبيضان، من أجـل ذلك جعلت لهم كنـائس بـدائية خـاصة بهم ومـدارس فطريـة خاصـة بهم وحرمت عليهم كـل نشاط يـريده البيض لأنفسهم ثم انتـظرت منهم أن يكونـوا دائماً في خـدمتهـا ضـد قومهم وأبناء جلدتهم.

ومن حسن الحظ أن هؤلاء المـرتـدين قـد عملوا بمـا أراده المستعمـر منهم وكانوا عيوناً له وأيادي في وطنهم.

ولقد كان من المنتـظر أن يتراجـع المد التبشـيري بعد زوال الاستعـمار عن الأقطار التي قام فيها المبشرون بنشاطهم، وإن كان زوال هذا الاستعمار رمزياً فقط. وقد رأى أحد المبشرين هذه الحقيقة وكتب فيها كتيباً يبسطها فيه.

في عام ١٩٦٤ أصدر المحترم (القس) بيرس بيفر كتاباً صغير الحجم اسمه «من الإرساليات (المتعددة) إلى الإرسالية (الموحـدة)» أي: وجوب قيـام اتجاه واحـد في التبشير بـدلاً من الاتجاهـات الكثيرة المختلفـة المتعاديـة والمـوجـودة حالياً.

قال مؤلف هذا الكتاب:

«في القرن التاسع عشر وأوائل القـرن العشرين كانت الحضـارة الأوروبية والسيطرة السياسية والقوة العسكـرية تجتـاح العالم؛ وكـانت النصرانية تتسنم غارب هذا المد من الجاه الأوروبي الأميركي وتسير على سطحه هوناً فلا تلتقي في آسيا وإفريقيـا إلاّ بنظم اجتـماعية متصـدعة وثقـافات متفسخـة (ص١١ - ١٢).

«وأصبحت الطريق ممهدة أمـام المبشرين، فانتشرت النصرانيـة مع اتسـاع السيـطرة الأوروبية (في العـالم). ولقد قـام الاستعـمار والسيـطرة العسكـريـة بدورهما في نشر النصرانية (ص ١٣).

«أمـا الآن فقد تبـدلت الحال، إن الحـربين العـالميتين قـد حـطمتـا الجـاه

الأوروبي في عيون الآسيويين والأفريقيين، فإذا هؤلاء لا يتقبّلون النصرانية (اليوم) على أنها جانب من حضارة راقية متفوقة (ص ١٤) كما كان الشأن بالأمس.

«لقد أصبح يقال عن المبشرين إنهم عملاء للاستعمار، ولا يزالون يتهمون بأنهم ادوات لتغلغل النفوذ الأجنبي وللتخريب (ص ١٤).

«ثم تبنت حكومات كثيرة في آسيا وإفريقيا كالهند، وبورما واندونيسيا والسودان هذه النظرة، فأخذت تضع العراقيل في وجه التبشير. وتبدو هذه العراقيل واضحة جدا في رفض تلك الحكومات منح المبشرين سمات الدخول إلى بلادها (ص ١٥).

والذين كانوا قد اعتنقوا النصرانية على يد المبشرين «لا يقبلون اليوم أن يقال في النصرانية إنها دين إنساني (عام)، وهم يصفونها بأنها دين عصبي خاص بالرجل الأبيض الذي يعزل الشعوب الملونة عنه حتى في (الكنيسة)».
ويقال اليوم إن اعتناق (الرجل الملون) لدين الرجل الأبيض يجعل منه خائناً لأبناء جنسه ولأمته (ص ١٦).

«إن البلاد التي نشأت فيها الكنائس الجديدة (انتشرت فيها النصرانية على يد المبشرين). . . هي اليوم بلاد ثورة. هذه البلاد تسد اليوم الطريق على التبشير سداً محكماً. ونصارى هذه البلاد على وشك ان يخلعوا العقيدة النصرانية لأنها في نظرهم جزء أصيل في السيطرة الغربية وفي الاستعمار (ص ٤٠).

«وكان أحد خبراء وزارة الخارجية (الأميركية) في الشؤون الأفريقية يخطب في اجتماع للمؤرخين الكاثوليك كانوا يتحاورون في النزاع بين النصرانية والإسلام فقال لهم: مما لا جدوى فيه للأميركيين وللأوروبيين أن يظلوا إلى اليوم يتكلمون وكأن في استطاعتهم أن يقرروا مصير إفريقيا، إن أبناء إفريقيا هم الذين سيقررون دين إفريقيا المقبل: أهو النصرانية أو الاسلام أو

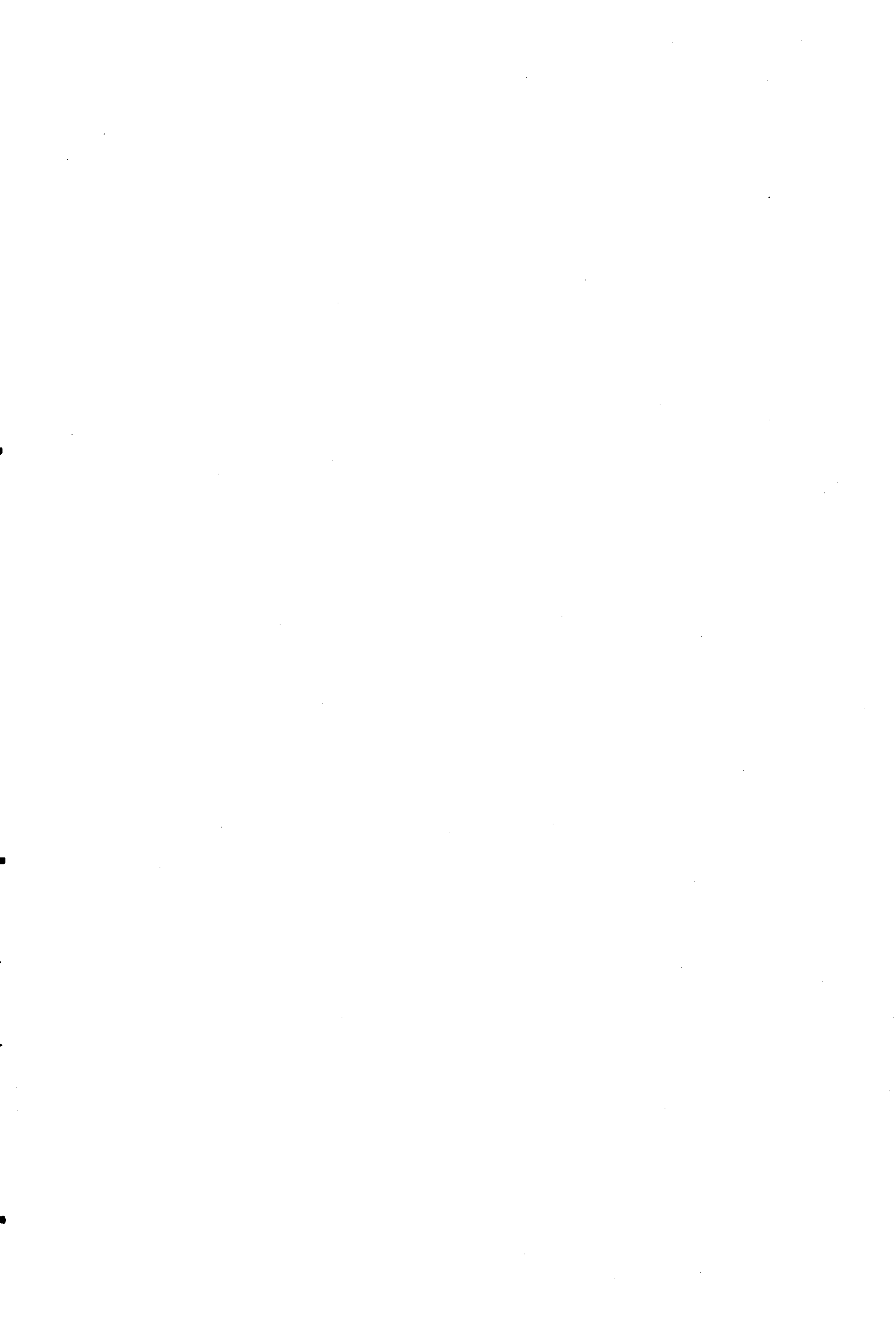
الوثنية القبليّة، وعلى كل حال، فإن الدين الذي سيسود في إفريقيا لن يكون أوروبياً (ص ٤٣).

«ويأسف المؤلف لأن الكاثوليك والبروتستانت، في أماكن كثيرة، لا يبدون كأنهم أبناء دين واحد» (ص ٦٦)».

هـذه المختارات تمثـل الكتـاب الـذي أخـذت منـه، ثم هي تنكشف عن حقيقة واقعة ومُرَّة أيضاً ـ لنا ولأصحابها ـ حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ولا إلى إنكار نتائجهـا، وهي أن التبشير قـد جاء إلى البـلاد التي نجح فيهـا كثيراً أو قليلاً بالاستعمار وبالسيطرة الغربية وبالتحـريش بين أبنـاء الوطن الـواحد من غير أن يأتي بشيء من القيم الروحية. ولا شك في أن التمييز العنصري الذي تمارسه الحكومات البيضاء في إفريقيا خاصـة دليل واضـح على أن التبشـير قد سلب طـوائف الناس أسمى مـا تأتي بـه الأديان كلهـا: قـد سلبهـا المسـاواة والتسامح.

والمبشرون لم يقـوموا بهـذه الجهـود في البـلاد ذوات الاستقـلال القـاصر، كدويلة بيافرا المنقرضة، بل في البلاد ذات الاستقلال الصحيح مثل الجزائر. إن عمل المبشرين في الحقيقة ليس متصلاً بالإحسـان والدعـوة الصالحـة، بل متصل بالاستعمار والتجسس.

وإذاً فإن نجاح التنصير في نشاطه الأول لم يستمر فقـد وعت شعوبـه ذات الأصـل الـوثني إلى مصـيرهم الكنسي الاستعـماري مثـل مـا رجـع كثـير من المتنصرين إلى إسلامهم بعدما وجدوا الرعاية والتعاون من سائر المسلمين.



الاستشــراق

أولاً ـ معنى الاستشراق[1]

حدد المستشرق ميكائيل إنجلو جويـدي: (العلوم الشرقية أو الاستشراق) في محاضرة له ألقـاها في الجمعيـة الجغرافيـة الملكية بـالقاهـرة عنوانها: (علم الشرق وتـاريخ العمـران)، نشرتها مجلة الـزهراء في عـددها الصـادر في ربيع الأول ١٣٤٧هـ.

يقول: ليس صاحب علم الشرق (أو المستشرق) الجدير بهذا اللقب الذي يقتصر عـلى معرفـة بعض اللغات المجهـولة، أو يستـطيع أن يصف غـرائب عادات بعض الشعوب، بـل إنه هـو من جمع بـين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق وبين الوقوف على القوة الروحية والأدبية الكبيرة التي أثرت على تكـوين الثقافـة الإنسانيـة. هو من تعـاطى درس الحضارات القـديمـة، ومن أمكنه أن يقدر شأن العوامل المختلفة في تكوين التمدن في القـرون الوسـطى مثلاً، أو في النهضة الحديثة .

وفي فصل: **المدارس الاستشراقية**: يقول : وهـذه المدارس الاستشراقيـة تتسم فيما بينها بخصائص عامة مشتركة فهي (علمية مطلقة) مع كل ما للعلم الحديث من مقتضيات ومـوجبات وروح طُلَعـه، وهي نقديـة محللة، ناخلة،

---

(١) من كتابي: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ط ٢، ص ٣١، وانظر حواشيه.

مغربلة، تتجلى فيها روح النقد العلمي المقارن دون مراعاة أو محاباة لأي عامل من عوامل الأثرة والغرض. وهي إلى هذا وذاك نموذجية قياسية، بمعنى أن الاستشراق يأخذ ببحثه على وجه من منطق العلم وجوه البحث في الطريقة والسياقة والاستطراد، والتوسع والعرض والبسط، بحيث تتضح أمامك المعالم وتستبين الصور، وهي إلى ذلك كله موسوعية أو جامعية، بحيث أنه إذا ما تناول مستشرق موضوعاً استفرغ منه المناحي، واستظهر منه الخوافي، فلا يدع فيه مزيداً لمستزيد، كل هذا إلى وضوح وجلاء ونقاء ونصاعة، وتتبع، تستفيض منه الحقائق التاريخية على أنوار كشافة من التتبع المضني والنقد العسير.

وهناك تعريفات أخرى لا تبتعد كثيراً في معانيها وسماتها عن التعريف السابق، وتعريفات لاذعة متطرفة:

ومما يلاحظ على التعريف السابق ما يلي:

١ - تعميم الآفاق الثقافية الشرقية التي يتناولها المستشرق، سواء كان ذلك متصلاً بالعلوم والمعارف التراثية الإسلامية والعربية، أم متصلاً بالمعارف الشرقية وحضاراتها القديمة، من صينية ويابانية، وفارسية وهندية.

٢ - اختصاص (المستشرق) بهذه المعارف، وتفرغه لدراستها، وانقطاعه لمعرفة لغاتها وأساطيرها لا يعني أنه قد سلك في الواقع منهجاً علمياً، إلّا بقدر ما يتخلى عن دوافعه الذاتية ورواسبه الموروثة، وتجرده للحقيقة الثقافية وحدها.

٣ - إن السمات العلمية التحليلية التي طرحها الكاتب على الاستشراق لا تعبر عن أعمال المستشرقين عموماً، وليست نتيجة لجهودهم المدرسية، فإن العلمية والموسوعية، والنموذجية، والقياسية، والجامعية سمات يندر أن تجمع في بعضهم، إن لم نقل يستحيل أن تتوفر في أحدهم، وإن كان ظهر منهم أعلام لهم سمعتهم الثقافية المرموقة.

ومثل ذلك ما جمعه الكاتب من سمات أخرى لهم: كالصفاء والموازنة والنقد والصراحة والمنطق، فإن من العسير - حين تعالج على واقع العلم والنقد - أن يجوز عليها ويلتزم بها. ويغلب عليه أن تكون إعجاباً وافتناناً وانبهاراً أكثر منها دراسة منهجية موضوعية.

ويحدد (بارث) الألماني مفهومه وإطاره الجغرافي[٢]: الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة مشتقة من كلمة شرق وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي. فالشرق بالنسبة للألمان يعني العالم السلافي، العالم الواقع خلف الستار الحديدي. أما الشرق الذي يختص به الاستشراق فمكانه جغرافياً، الناحية الجنوبية، الشرقية بالنسبة للألمان والاستشراق في ألمانيا حالياً وفي العالم الأوروبي الحديث كله مادة علمية وهناك عدد عظيم من وظائف المدرسين والمعيدين في تخصص الاستشراق إلى جانب الأساتذة.

وتعمق دراسة مفهوم الاستشراق (الشرق) في تطوره: اتصل اليونان قديماً ومن قبل ظهور الرسالات السماوية الكبرى عن طريق علمائهم بحضارة الشرق القديمة ووفد قسم منهم إلى مصر وبابل لينهلوا من علومهما ويفيدوا من حضاراتها. فكان هؤلاء (طليعة المستشرقين) وفي استنتاج بعض المفكرين أن كلمة (الشرق) لها دلالة واسعة ممتدة عبر التاريخ، فهي عبارة عن اصطلاح سياسي - جغرافي - تاريخي - يشير إلى النزاع بين الفرس واليونان في القديم وبين الاسلام والمسيحية في القرون الوسطى وإلى الإصطدام بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية في العصور الحديثة، كما يتضمن شعوراً بالفروق في العقلية والثقافة والحضارة بين شعوب أوروبا من جهة وشعوب آسيا وإفريقيا من جهة ثانية[٣].

---

(٢) مقتبس من: الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية: ص ١١، ١٢، رودي بارث، ترجمه د. مصطفى ماهر.

(٣) من مقال للمؤلف في: منار الاسلام العدد ٩ السنة الثالثة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.

فالاتفاق قائم على أن الاستشراق: طلب علوم الشرق، أو كما يعرِّفه محمد كرد علي: علم المشرقيات.

والمستشرق غالباً، أوروبي أو أمريكي، أو سوفييتي، وأحياناً عربي متجنس بإحدى الجنسيات الأجنبية، متخصص في دراسة الثقافة الشرقية، وفي مقدمتها: الثقافة العربية الإسلامية التي تشمل الأصول والمعارف الاسلامية كما تشمل التاريخ الإسلامي في بطولاته الفكرية والعلمية والعسكرية، بالإضافة إلى دراسة الواقع الاسلامي وحاضره.

ثانياً: الفرق بين الاستشراق والتنصير:

إذا كان الاستشراق انطلق أولاً بدافع كنسي ومن بيئة نصرانية وتغذى من المعارف الرهبانية فلا يمنع أن يفترقا في الأعمال والمظاهر والمؤسسات. فمن الفروق:

١ ـ الاستشراق اتجاه (بحثي) درسي يتفرغ فيه المستشرق لموضوع أو قضية شرقية وإسلامية، ومن خلال تناولاته يمكن أن يتخصص في ناحية من الثقافة أصلاً أو فرعاً، ثم ينشر بحثه في مجلات أو دوريات أو إصدارات مستقلة. وربما يحاضر فيه في جامعة أو مجمع عربي، وأحياناً يعده لمؤتمر يعقده المستشرقون على المستوى العالمي.

والتنصير يتجه إلى (الوعظ) الحي غالباً وربما يضيف إليه نشرات كنسية في أسلوب وعظي أيضاً، وغالباً ما يتجه التنصير في وعظه إلى معالجة الأمراض الاجتماعية وإثارة العواطف والتطلعات الروحية من وجهة نظره، فهو دعوة حية أو بوسائل الاعلام التنصيرية المختلفة تحمل معها وصايا الكتاب المقدس.

٢ ـ والاستشراق غالباً نبتة (إقليمية) لرسالة فكرية عامة فالمستشرق ينكب على مكتبته وفي بلده ليدرس مسألة من مسائل الثقافة، ولا يغادر بلده

إلا إذا كانت طبيعة موضوعه تقتضي التعرف على المكتبات الأخرى، أو دراسة ظاهـرة اجتماعيـة ودينية في بلد إسـلامي، ورحلته عمـل مؤقت يعود بعدها إلى وطنه ومكتبته ليتابع المسألة المعالجة. فيما يعيش التنصير في الأقاليم الأخرى بعيـداً عن وطنه، وذلـك على شكـل (إرساليـات) مزودة بالأجهزة الطبية والوسائل الاجتـماعية التي تسهـل المهمة الشـاقة التي يقوم بها، والمنصر مهيـأ أن يتحمل المشـاق والصعوبـات من أجل الدعوة التي يقوم بها.

٣ ـ المستشـرق لا يصرحَ غالباً (بغرضه) الكنسي وإنما يحاول إخفاءه ضمن عمله البحثي الـذي يعلي فيـه قيم الكنيسـة ويـوهن القيم الإسـلاميـة بالأساليب الملتـوية، حتى وإن كـان المستشرق راهباً أو ذا وظيفـة دينية فـإنه يحـاول أن يتظاهـر بالتجـرد الموضـوعي ويقدم دراستـه بعيدة عن التعصب الـطائفي الكنسي الـظاهـر، وربمـا تنـاولت دراستـه الأولى اللاهوت الكنسي وتعمق في تاريخ الأديرة والمذاهب الكنسية، ولكنه لا يجرؤ على إظهاره لئلا يتهم بالتعصب أو التحيز في الـدراسة. والتنصـير يقوم أصلاً على الدعـوة إلى النصرانية من غـير ما حـاجة إلى (التسـتر) وراء الأسـاليب والـتراكيب الغـامضـة أوالمستـورة. وربمـا اعتمـد عـلى دراسـات نفسية واجتـماعية وفلسفيـة في إبراز الـدعـوة التنصـيريـة لأن طبيعته واضحة في العمل والمقصد، ويستخـدم الوسـائل المبـاشرة وغير المبـاشرة للوصول إلى غـايته الـواضحـة، ولذا فـإن المنصر مختص بعلم الـلاهوت المسيحي الـذي قد تـترافق معـه دراسـات فلسفيـة ولغـويـة أخرى.

٤ ـ الاستشراق لا يتخذ (مؤسسات) أو (معاهد) خاصة في البـلاد الأخرى لتكون منطلقاً لفعالياته الدرسية سوى ما تهيىء لـه بعض الدول أمكنـة تعقـد فيها المؤتمـرات الاستشراقيـة بشكـل مؤقت، واهتـمامـه ينصب في الفكر والبحث في مجال الجـامعة والجمعيـة والمجمع ولا يهتم بالمنشآت

العمرانية التي تحتاج إلى إعداد خاص ملائم للعمل الاستشراقي أما التنصير فيقوم أحياناً على إنشاء معسكرات دائمة أو مؤقتة في الصحارى والقفار، وأحياناً يعمد إلى بناء (مستشفيات) ومعاهد علمية حديثة إلى جانب (منشآته) الاجتماعية من نواد وجمعيات وكنائس. وتكون منطلقات ثابتة للتنصير في البلد نفسه أو في القرى المجاورة له.

ولا نعدو الصواب إن قلنا: إن المستشرق باحث يتجه إلى الثقافة وفروعها، وان المنصر واعظ يحمل الوصايا الكنسية إلى الناس في طرائق تختلف حيناً وتتفق أحياناً.

ومع هذه الفروق فإن العمل الاستشراقي والتنصيري لا يختلفان كثيراً في حقيقة دوافعهما وأغراضهما وربما في مصادر ثقافتهما، حتى إن طبيعة العمل تتشابه أحياناً فيما بينهما وان اختلفت في وسائل الأول عن الثاني.

ويبدو لي من خلال تتبع تراجم كثيرة للمستشرقين والمنصرين أن الدفع الكنسي (المخطِّط) نظم فئة قادرة على البحث والفكر فكان (المستشرقون)، وجماعة قادرة على الاسلوب الدعوي الإعلامي فكان (المنصرون)، ثم التحمت الفئتان والجماعتان وكونت (الاستشراق التنصيري) الذي سبق الكلام عليه، ومهما يكن من أمر فإننا نجد فئة ثالثة وهم المستشرقون العلمانيون، وفئة رابعة هم المستشرقون اليهود الذين تتضح الفروق بينهم وبين المنصرين المنصرفين كلياً إلى الدعوة بدافع ديني أو استعماري...

ثالثاً: بين الاستشراق والاستعراب:

إذا خلط باحثون بينهما مصطلحاً فمن الصعب أن يستمر اللُّبس في الاختصاص والعمل، وإن صح مجازاً اطلاق الكل على الجزء فإن من الأهمية بيان كل منهما بما لا يدع مجالاً للخلط أو اللبس.

١ ـ فالاستشراق كما سبق: طلب العلوم الشرقية عموماً، وقد تكون

هنـدية أو صينيـة أو تـركيـة أو فـارسيـة، وأحيـانـاً عـربيـة. والاستعـراب: التخصص بالدراسات العربية وحدها، إما أنها كفـرع من الاستشراق، وإما أنها اتجاه مستقل إلى الثقافة العربية وتعمق في جانب أو عدد منها.

ومع أن المستشرق يمكنه أن يغني نواح في الدراسات العربية مما لـه علاقـة مشتركة بينها فإن الصفة الغالبة للمستشرق أنه يمهد بمعلوماتـه للمستعرب أو يقدم هذه المعلومات كوسيلة للربط الثقافي بين سائر الحضارات.

فالدراسات اللغوية والقانونية والمنجـزات الحضاريـة في العالم الشرقي تهم المستشرق كثيـراً لا لأنها معلومات حضـارية تـراثية وحسب وإنمـا لأنها تطلع المستعرب على صلات موهومة أو شبه موهومة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات المجاورة في أصولها الدينية ومنطلقاتها الفكرية وجوانبها اللغوية.

وهو ربط أو صلات يقصد منها طرح شبهات دينيـة ولغويـة وحضاريـة في المجالات الإسلامية لتؤكد لهم بشرية الإسلام وعـدم استقلاليتـه، كما تؤكـد لهم طبيعة الرسالة والرسول من وجهة نظرهم المشبوهة.

٢ ـ إن هـذا التفريق واضـح أكثر مـا يكون في البـلاد التي كـانت تعـرف بـ (الشرقية) مثل الاتحاد السوفياتي، فإن الصفـة الغالبـة على مستشرقيـه هي الاستعـراب، وهم المستعربـون، وقد نبـغ منهم كـراتشكـوفسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) أشهرهم وأغزرهم انتاجاً حيث يـربو عـلى (٤٥٠) أثراً بـين مصنف ومترجم ومفسـر ومنقود ورسالة باللغات الروسية والفرنسية والألمانية والعربية و: جـورد ليفسكي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٦) عضـو في مجمـع العلوم، و:بـرتلس (١٨٩٠ ـ ١٩٥٧) أستاذ الكلية الشرقية في موسكو، وعضو المجمـع العلمي العـربي بدمشق. وللدلالـة عليـه فقـد جمـع (المعصراني) كتـابـه عن العمـل الاستعرابي فيه بعنوان: الاستعراب في الاتحاد السوفياتي.

وكذلك فإن محمد كرد علي عمل مقالاً مستفيضاً لا يخص فيه بلداً أو أمـة شرقية أو غربية موضوعـه: أثـر المستعربـين من علماء المشرقيات في الحضـارة

العربية، تناول فيه شيئاً من مناهجهم في تحقيق المخطوطات الإسلامية ويقول: توفر المستعربون على طبع ما ظفروا به من كتبنا، ورأوا مصلحة للعلم والآداب، أو للسياسة والاستعمار غرضاً في احيائه قبل غيره. . . وكذلك فإن معجم (المستشرقون) د/العقيقي، يشير إلى مصطلح الاستعراب ومنهجه في الدراسات الاسلامية، يقول: . . . مما يتبين أن المستعربين لم يبتدعوا المنهج العلمي ابتداعاً، بل أشاعه في الغرب أعلام المفكرين، وطبقه المستعربون على علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقاً (صحيحاً)، ومن يراجع تراجم هؤلاء المستعربين فإنه يجد أن الاستشراق سلك مسلكاً قائماً بذاته[٤] . . . .

ولذا فإنني صنفت الغربيين المتخصصين بالعلوم الشرقية إلى: (مستشرقين فقط)، ويسمون بطلائع المستشرقين أحياناً ومنهم: وستر جارد (١٨١٥ - ١٨٧٨) من السويد، ودافيد كوفمان (١٨٥٢ - ١٨٩٩) من المجر، و: وتني (١٨٢٧ - ١٨٩٤) من بلجيكا. حيث إنني لم أطلع من تراجمهم على أي عمل أو إنتاج يتصل بالثقافة العربية الإسلامية. و(مستشرقين ومستعربين معاً): ويغلب عليهم طابع الاستعراب من حيث إنهم كانوا يتخذون الدراسات الاستشراقية مقدمة وبداية لدراساتهم في العربية والإسلام. . .

ومن هؤلاء: وليم بدويل (١٥٦١ - ١٦٣٢) من انكلترا، وتورنبرج (١٨٠٧ - ١٨٧٧) من السويد، ورودولف برونو (١٨٥٨ - ١٩١٧) من أمريكا، وغيرهم. حيث نجد انتاجهم مزيجاً من الشرقي والعربي الاسلامي. و(مستعربين) تخصصوا عموماً بالثقافة العربية ومنها الإسلامية فلا نعثر على شيء من انتاجهم الفكري خارجاً عنها، ومع ذلك فإنهم يعرفون بالمستشرقين أيضاً.

ومنهم: أ، ج. بيدرس (المولود ١٨٨٣) الدانمركي عضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق، و: هنري بيكر (١٨٧٦ - ١٩٣٢) الألماني منشىء مجلة:

---

(٤) انظر مقالي عن: مناهج المستعربين ومقوماتها، في المجلة العربية العدد ١٠ السنة ٤.

الإسلام (١٩١٠) ووزير المعارف في ألمانيا، وباسيه (١٨٩٢ - ١٩٢٦) الفرنسي مدير معهد الدراسات العليا في الرباط[٥]. . .

والتصنيف السابق لا يدل على شهرة بعضهم وعدم شهرة الآخرين، كما لا يدل على نزاهتهم الموضوعية واعتدالهم أو عدمه، فإن تقويمهم يحتاج إلى مناسبة أخرى.

على أنه لا بد من القول: إن المستشرقين والمستعربين الأعلام والمغمورين، المتعصبين والمشبوهين لا يقدمون فكراً جديداً ولا طريقة منهجية مبتكرة وإنما يطرحون شبهاتهم وافتراءاتهم على كل ما يتصل بالإسلام والمسلمين.

رابعاً: نشأة الاستشراق[٦]

ومن المسائل التاريخية الشائكة تحديد المرحلة الزمنية لنشأة الاستشراق، ويؤرخ بعض الباحثين ذلك بطغيان الأفكار الإستعمارية على العالم العربي والإسلامي، ويعدونه مدخلاً للقوات الإستعمارية العسكرية، وحملاتهم الحربية - قبيل القرن التاسع عشر - بمعنى أن التغريب الفكري والحضاري لم يسبق الغزو العسكري وحسب وإنما كان المظهر الفكري الذي سهل نفوذه من جهة، والتبرير لأعماله، والتسويغ لمفاسده من جهة ثانية.

ولكن بعض المشتغلين بآداب اللغة العربية يرون أن الاستشراق بدأ (من القرن السابع عشر)، فظهر أول كتاب في (قواعد اللغة العربية لأربانيوس ليدن سنة ١٠٢٢ هـ/١٦١٣ م وطبع كتاب (المجموع المبارك) في التاريخ (لابن العميد) سنة ١٦٢٥ م، مع ترجمة لاتينية، ونقل القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية وطبع حينذاك.

---

(٥) مقتبس من مقالي: مستشرقون ومستعربون في: منار الإسلام العدد الأول السنة الخامسة.

(٦) من كتابي: الرسول ﷺ من ص ٣٣ - ٣٤ وانظر حواشيه.

وإن أقدم المستشرقين المستعربين (بوكوك) الإنكليزي المتوفى سنة ١١٠٣ هـ/١٦٩١ م، تلقى العلم في أكسفورد، ورحل إلى المشرق، وأقام في سوريا مدة. ومن آثاره: طبع كتاب (مختصر الدول): (لابن العبري) سنة ١٠٧٤ هـ/١٦٦٣ م، مع ترجمة لاتينية، وترجم رسالة (حي بن يقظان) إلى اللاتينية، وكتاب (نظم الجواهر)، (لسعيد بن البطريق)، طبع في أكسفورد سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٥٩ م، وفي دار الكتب المصرية نسخ منه.

وخلفه مستشرق شهير في أواخر القرن السابع عشر، هو (دربلو) الذي وضع في تاريخ الشرق وآدابه معجماً سماه: (المكتبة الشرقية) في عدة مجلدات، وهي عبارة عن دائرة معارف شرقية باللغة الفرنسية، مرتبة حسب حروف الهجاء، تبحث في علوم الشرقيين، وتاريخهم وخرافاتهم، وآدابهم ونظمهم، وسائر أحوالهم الاجتماعية وعاداتهم وغيرها. وطبع ثانية سنة ١٧٨٣.

ويرى باحثون متخصصون أن الاستشراق أقدم من ذلك بكثير، فقد يرجع تاريخ الاستشراق في بعض البلدان الأوروبية إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وربما كانت هناك محاولات مروية قبل ذلك... (وكان أن سبق بعض ملوك أوروبا وباباواتها، وأخذوا العربية من علماء الأندلس وصقلية، وتعلّم أمراء الصليبيين وبعض قوادهم اللغة العربية في الشام، أيام غزواتهم الطويلة، ولما قام البابوات بإنشاء الرهبنات، لبثّ الدعوة الدّينية في الشرق بدا لهم أن يعلموا الرهبان لغاته، ولا سيما العربية، وبعض اللغات السامية العبرية والسريانية... فقضى (مجمع فينا) ٧١١ هـ/١٣١١ م برئاسة البابا (أكلنتس) الخامس أن يؤسس في باريز وأكسفورد وبولون... دروس عربية وعبرانية ليتسنى لهم تدريس الطب في كتب العرب. وفي سنة ٦٥٢ هـ/١٢٥٤ م أنشئت أول مدرسة عربية في (اشبيلية) من أرض الأندلس.

يقـول بارث[٧]: إذا نـظر المرء إلى الـوراء إلى تاريـخ تطور الاستشراق ولم يتردد في التبسيط رغبة في زيادة الوضوح فإنه يستطيـع أن يقول ان بـدايته في القـرن الثاني عشر، ففي عـام ١١٤٣ تمت ترجمـة القرآن لأول مـرّة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب (فينـيرا ابيليس) وكان ذلـك في اسبانيـا. ونشأ أول قاموس لاتيني عـربي في القرن نفسـه وفي القرن الثـالث عشر والقرن الـرابع عشر بذل رايموندوس لالوس جهوداً كبيرة لانشاء كـراس لتدريس اللغة وكان تعلم العربية على عبد عربي.

ويكـاد المؤرخـون يجمعـون عـلى أن الاستشراق انتشر في أوروبـا بصفـة جدية، بعد فترة عهد الإصلاح الديني.

ويتابع بعضهم القول في نشأة الاستشراق فيقول:

ولمـا كان القـرن السادس عشر هـو مسرح الإصلاح الـديني في الغـرب، كانت نهايته بداية اتصال الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي اتصالاً اقتصادياً سواء في كشف موارد الثروة فيه، أو في استغلالها ونقلها إلى الغرب في صورة تبـادل تجاري، أو في أيـة صورة أخـرى، حتى وصل منـذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى الربع الأول من القرن العشرين إلى ما يصل إليـه نفوذ قوي على ضعيف... لهذا فمنذ أن باشر النفوذ الغربي سلطتـه في رقعة الشرق الإسـلامي، من بدايـة النصف الثاني من القـرن التاسـع عشر، أخذ يعمل على تخلف المسلمين، وعلى التنفيس عن الحقد الصليبي.

وإذا كـان الاستشراق حركـة أو اتجاهـاً ثقافيـاً عالميـاً فإنـه يصعب تحديـد بدايته، فهو كتيار فكري يشبه الأمواج التي لا تعرف الأولى فيها من الثانيـة، ويمكن القول: إن الاستشراق بدأ مبكراً قبل القرن الثالث عشر الميـلادي ثم توسع واكتملت وسائله في القرن السادس عشر، ولكنه بلغ عنفـوانه وتسلطه وقوته في أواخر القرن التاسع عشر، ثم تـراجع عن شـدته وحـدته في العقـد

---

(٧) الدراسات العربية والاسلامية، المرجع السابق، ص ٩.

الخامس من القرن العشرين، وما يزال العمل الاستشراقي يعمل إلى اليوم وفي المستقبل بعنف وتطرف أقل ولكنه بالتزييف والتشكيك نفسه.

خامساً: دوافع الاستشراق:

تنوعت دوافع المستشرقين حسب المنطلقات والبيئات التي يحيونها أو يتفاعلون معها، ولكنها على تنوعها تنطلق من منطلق مشترك في: ايجاد روح التخاذل الروحي وتوليد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية.

ومن الدوافع:

١ ـ الدافع الديني والكنسي:

فقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركته من آثار مرة عميقة وجاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي، فشعر المسيحيون، بروتستانت وكاثوليك، بحاجات ضاغطة لإعادة النظر في شروح كتبهم الدينية، ولمحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التي تمخضت عنها حركة الإصلاح، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية، وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية، لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى وخاصة ما كان منها متعلقاً بالجانب اللغوي، وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أدياناً ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العربية[8].

ومن هنا فإن البيئة الثقافية والمعاشية التي رافقت معظم المستشرقين دفعت بهم إلى الدراسات الإسلامية باعتبارهم ناشئين في الكنائس ومتشبعين بآرائها ومعارفها.

---

(٨) المبشرون والمستشرقون: د. محمد البهي ص ١١.

وإذا استثنينا الرهبان المستشرقين مثل: ريموند لل، ولاماتس، وسالير، فإن المستشرقين الآخرين الذين لم يحملوا صفة أو لقب الرهبنة كانوا على درجة كبيرة من التأثر بالبيئة الثقافية والمعاشية الأولى من حياتهم.

فكثير منهم درس اللاهوت المسيحي مثل: كوزجاتين، وروجر ميكون كقاعدة راسخة في العمل الاستشراقي وبعضهم ألف كتباً جدلية للرد على المسلمين بعد قيامه بجولات استطلاعية مثل الأب بطرس وربما كان من أعنف المستشرقين أولئك الذين حملوا راية الاستشراق والتنصير على عاتقهم بعد أن حاولوا تشويه الحقائق الإسلامية في صورة علنية مكشوفة. ومنهم: ريموند مارتيني الاسباني ودي ساسي الفرنسي.

ولا أدل على ذلك أن بعضهم اتجه في تخصصه إلى التصوف والمتصوفين حيث وجد ارتباطاً أو تشابهاً في بعض المشاعر والمظاهر بينها وبين المسيحية الروحية، ومن هؤلاء: هنري كوربان الفرنسي البروتستنتي وماسينون الكاثوليكي الفرنسي، ونيكلسون الإنكليزي.

ومن الطبيعي أن يتأثر المستشرقون بهذه البيئات فيعالجون القضايا الإسلامية بالروح الكنسية والاتجاه الديني فتخلو أعمالهم من العمق البحثي والموضوعية المتحررة.

فقد عرف عن ماكدونالد الأمريكي نشاطه الكبير في التبشير المسيحي وفي اعداد المبشرين في مدرسة كندي للإرساليات التبشيرية. وجوينبل الهولندي الذي عين أولاً راعياً (قسيساً بروتستنتياً) في كنيسة قوية فوخوت قرب ليدن[9].

إن حماسة المستشرقين للكنسية وتطرفهم في إعلاء دورها دفعهم إلى التزود من ثقافتها ثم إلى جعلها مقياساً للدراسات الإسلامية التي تناولوها. أما المستشرقون اليهود مثل: جولد زهير المجري، وهورفتس الألماني، وسانتلانا

---

(٩) انظر ترجمتهم في موسوعة المستشرقين د. عبدالفتاح بدوي.

الفرنسي الإنكليزي فإن يهوديتهم لم تدفعهم للاتجاه الاستشراقي بقدر ما كانت تحملهم على طرح الشبهات وتعميق التشكيك في إنتاجهم الفكري.

وقريب منهم المستشرقون العلمانيون من أمثال: رينان الفرنسي ومرجليوث الانكليزي وكراتشكوفسكي الروسي.

٢ ـ الدافع التجاري الاقتصادي:

ويبدو من طلب بعضهم الارتزاق والحصول على الوظائف الإدارية والفكرية فقد لجأ قسم منهم إلى إشباع رغبات القراء الغربيين بما كانوا ينقلونه من صور خرافية عن البلاد الشرقية أو أعاجيب عن رحلاتهم ومغامراتهم في البلاد الإسلامية والشرقية.

وترجمت ألف ليلة وليلة إلى جميع اللغات الأوروبية وأخرجت في طبعات متعددة، وكذلك رباعيات الخيام، وما يسمى بأدب الرحلات التي يتحدث بعضها عن كل ما يستهوي الغربيين من أساطير شرقية، ومغامرات في اختراق الصحارى والغابات. ثم ما قدموه من أوصاف مثيرة لعصور الحريم والسراري وللأوضاع الاجتماعية البالية.

وربما دفع ببعضهم أن ينسب ذلك كله إلى الإسلام فيسيء إلى الحقيقة وإلى نفسه وإلى القارىء. ومن ناحية ثانية فلا بد أن يكون في حسبان المستشرق مراعاة الضغوط الكنسية من جانبها فهي مدرسته الفكرية والعقدية والمعاشية، وهي أيضاً تستخدم نفوذها الديني على الإصدارات المختلفة فتشجع مادياً وأدبياً ما يناسبها وتعادي أو ترفض ما يخالف وجهتها.

وفي كثير من الأحيان فإن المستشرق يقول ما يريده الآخرون، ويستنتج ما يعتقده المخالفون، وأما الحقيقة الصافية فلا يروجون لها إلا بمقدار ما تخدم وجهتهم الكنسية.

ومن هنا فقد صودرت مؤلفات وأعدمت أو أحرقت أخرى وحكم على

أصحابها بالهرطقة والمروق من الدين، وابتليت بالكساد.

بينما انتشرت دوريات ونشرات وكتب التزمت بالخط الكنيسي والتنصيري ودعمت بالأموال وطبعت في مطابع الكنيسة ودعا إليها ـ على علاتها ـ رجال الدين.

ومن ناحية ثالثة فإن الرقابة الرسمية التي قد تبلغ حد السلطان القاهر في الحكومات العقدية المستبدة تخضع الفكر والجهد الانسانيين إلى مصالحها الوطنية والعالمية بجانب مصلحتها الفلسفية الفكرية.

وحينئذ يوظف الفكر والجهد في اتجاه قسري لا يملك الباحث أن يتحرر منه، بسبب الإلزام الفكري والإغراءات المالية والوظيفية التي لا يحظى أمثاله بها. وضغوط اجتماعية وأدبية وفنية تدفع الباحث إلى أن يقول ما لا يريد.

إن الفكر الحر ينبغي أن يتجه إلى الحقيقة من غير أن يندفع من رواسب قديمة متهافتة، ومن غير أن يتأثر بالتيارات الشعبية الجماعية أو الرسمية أو التبعية الفكرية، ويتجاوز الإغراءات المالية التي لا يستطيعها في بعض الأحيان.

٣ ـ الدافع السياسي:

بينت الدراسات الحديثة صلة المستشرقين بالأجهزة السياسية والإستعمارية.

أ ـ إن عدداً كبيراً من المستشرقين كانوا في خدمة السياسة عموماً والسياسة الإستعمارية خصوصاً، ويكفي أن نعلم أن ١٠٪ من المستشرقين الفرنسيين استخدموا في أعمال فكرية إستعمارية في سوريا ولبنان والمغرب العربي وإفريقية، ويتبعه الاستشراق السياسي الإنكليزي ثم باقي الدول الإستعمارية.

ب ـ تأسيس منشآت ومعاهد دبلوماسية: فقد أنشئت المدرسة الوطنية

الشرقيـة الحية في بـاريس (١٧٩٥) للسفراء والقنـاصـل والتجـار إلى بلدان الشرق، ومن المدارس الدبلوماسية التي أنشأتها فـرنسا أيضـاً: المدرسة الشرقية في القسطنـطينية (١٨٠٢) وأشرف عليهـا مستشرقون مشهـورون، وكذلـك عملت إنكلترا معـاهـد عـديـدة منهـا: معهـد الـدراسات الشرقيـة التابـع لجـامعـة لنـدن (١٩١٧). ومعـروف أن (هـاملتون جب) كـان مشرفاً عـلى مركـز الشرق الأوسط في جـامعـة هارفارد في أمـريكا والـذي يدرِّس فيـه (٢٨) برنـامجاً وذلـك من سنة ١٩٥٥.

ج - تنوع صلات المستشرقين في أجهزة الحكومات الإسلامية: فقـد عرف لبعضهم رحلات ونشاط في المؤسسات الإدارية والتربويـة والسياسيـة للبلاد المستعمرة أو الواقعة ضمن النفوذ الأجنبي.

فكان (براون أدوارد) مستشاراً في دولة إيـران لوضـع دستور البـلاد، كما كان (فيبلي) مستشاراً خطيراً في العـراق والسعوديـة، و (تومـاس) مستشـار الحكومـة العـراقيـة، ومستشـاراً مـاليـاً في مسقط، كما كـان (كتنشر) رئيـس أركـان الحـرب في الهنـد، ومعتمـداً في مصر، ووزير الحرب في بريطانيا.

أما في المؤسسات الـتربويـة فنذكـر على سبيـل المثال (مـارتينيت) الاسباني مدير المركز الثقافي الاسباني بالقاهـرة، و (سونيـك) الفرنسي، مـدير المـدرسة الإسـلامية العليـا بقسطنـطينة، و (شـبرنجر) النمسـاوي الإنكليـزي رئيس الكلية الإسلامية بدلهي.

ولا ننسى المستشـار الفـرنسي الأكـبر (مـاسينـون) وعـلاقـاتـه الـوطيـدة بشخصيات مغربية وتونسية، و (فرموند) الألماني معلم الخديوي عباس الثـاني وشاه ايران وغيرهما.

وإذاً: إن قيام المستشرقين بوظائف دبلوماسية وأحيـاناً سيـاسية استعـمارية

يدفع بهم إلى دراسة البلاد الإسلامية من النواحي الدينية والاجتماعية واللغوية، وتقديم تقارير وخرائط طوبوغرافية وإعطاء معلومات هامة من أجل بسط النفوذ الأجنبي بعد تسهيل استعماره.

وحين يتم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية فإن من الدوافع الاستشراقية إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين ومحاولة تفتيت وحدتهم عن طريق تشكيكهم بتراثهم وقيمهم، ثم فصلهم عن الإسلام من خلال تشويه أصوله وهدم المقومات الأساسية للشخصية الإسلامية في الأفراد والمجتمعات.

إن (نابليون بونابرت) دعم حملته إلى مصر بالعلماء والمستشرقين الفرنسيين الذين كانوا يشرفون على التقارير والكتب والنشرات في مطبعتهم التي جلبوها معهم من أجل إرضاء الشعب المسلم بالاستعمار أولاً ثم لتصبح مصر مركز انطلاق إلى استعمار البلاد العربية الأخرى.

٤ ـ الدافع العلمي والشخصي:

وإذا كانت رحلات المستشرقين وإنتاجهم الفكري بدافع سياسي واستعماري فلا نعدم قلة منهم تحرروا نوعاً ما من دوافعهم ورواسبهم الاستشراقية.

فقد حققت لهم رحلاتهم فائدتين: ربط المعلومات النظرية والدراسات السابقة بالمعاينات الواقعية ومحاولة الموازنة بينهما في قربها أو بعدها عن الحقيقة العلمية والتاريخية. ثم كتابة مذكرات مقتضبة أو مفصلة عن تطور الأحداث والآثار المادية والمعنوية.

وحققت لهم جولاتهم العلمية الاتصال بالمراجع البحثية وبما تبقى من ذخائر التراث المتناثر في المكتبات الاسلامية، ثم دراسة الأحوال الاجتماعية وما يشمله من المآسي والبؤس الذي خلفه الاستعمار، ومعايشة بعض الأجواء الروحية التي افتقدوها في عالمهم المادي.

ونتيجة لذلك دخل في الاسلام كثيرون، وعرف عن بعضهم حسن إسلامه ففتحوا بيوتهم للدعوة إليه، وقاموا بإصدار مؤلفات ودراسات كانت لها أصداء حسنة بوجه عام.

فمنها: الاسلام على مفترق الطرق: محمد أسد، وكان اسمه ليوبولدفايس النمساوي (ت ١٩٥١؟).

و: محمد رسول الله، وأشعة من نور الاسلام: ناصر الدين، وكان اسمه: آتين رينه الفرنسي (١٨٦١ ـ ١٩٢٩).

و: رينيه جنيو الفرنسي وتسمى عبدالرحمن يحيى (ت ١٩٥١)

و: عبدالله كوليام الانكليزي، وهيدلي، وستنلي من إنكلترا، وغيرهم كثيرون.

ومن الثابت أن (بعد الثقافة الإسلامية الإنساني) وعمقها العالمي ساعد على أن يدفع ببعضهم مثل المستشرقين المسلمين وقلة من المعتدلين إلى الاستشراق بروح أقرب إلى الانصاف وباتجاه أبعد من التحيز والتطرف عن الموضوعية فتناولوا مسائل الاسلام وقضاياه من الجانب العلمي الأرحب.

وهذا المنطلق (الدافع) يبدو جلياً إذا علمنا أن الأوروبيين استطاعوا أن يضعوا أيديهم على (منابع) الثقافة الإسلامية و (وسائلها) التي اتسعت (مجالاتها) في الزمان والمكان والمعارف.

ولا شك أن (قوة) الإسلام، و (تنوع) و (خصوبة) ثقافاته كان وما يزال ميدان تنافس أو تعاون (دولي) دفع شرقي العالم وغربه للاستزادة من الدراسات الاسلامية وما يتصل بها.

وفي إقبال العالم حديثاً على الإسلام، والأوروبيين خاصة، والمستشرقين بصورة أخص، إقبالاً متنامياً، جانب من هذا البعد الانساني والعمق العالمي في الإسلام، مما يصوره في نظرهم رسالة علمية وعالمية خالدة.

ولذا فلا بد أن نوضح حقيقتين:

أولاهما: أن جهود المسلمين واستعانتهم بالعلوم المتنوعة والثقافات المتعددة القديمة كانت تهدف فيما تهدف إليه خدمة الاسلام في ذيوعه، ومعالم عامة لترد على شبهات المفترين، ولم يكن مجموعها مقصوداً لذاته، بدليل أن المسلمين لم يقبلوا من هذه الثقافات الا ما يناسب عقيدتهم، ولا من العلوم إلا ما ينسجم مع دينهم، في غالب الأحيان.

وثانيتهما: أن اندفاع المسلمين غير العرب إلى العربية، لأنها لغة الدين وأوعية الاسلام، ثم تعمقهم فيها لأنها الصورة المعجزة للبيان القرآني، وتفرغهم ـ أحياناً ـ للبحث والتأليف في علوم الإسلام، كان يلاحظ فيه فضيلة التقرب إلى الله علماً وعملاً ودعوة.

«ومن هنا فقد ورثت الحضارة الاسلامية مختلف المنجزات في الحضارات البشرية السابقة عليها، في مصر والهند والصين واليونان، وبذلك قامت لأول مرة حضارة ذات مضمون مدني متقدم في إطار (أساس) عقدي، على أساس التكافل الاجتماعي والأخوة الإنسانية»[١٠].

وهذا ما نلاحظه في (المقدمات) التي يضعها المؤلفون المسلمون لبيان مناهجهم في التأليف والتصنيف، في العلوم التطبيقية كالهندسة والطب والفلك والفيزياء وعلم الأحياء والكيمياء وغيرها.

وصمدت الثقافة الاسلامية وعلومها بصمود الإسلام وتمكنه في الأرض أمام الهجمات الفكرية والعسكرية المتلاحقة، وكان صمودها مثار دهشة المفكرين الأوروبيين وإعجاب الكثيرين به.

أوليس اجتياح الاسلام واستقراره سطحاً وعمقاً، باعثاً على الاهتمام العالمي بهذا الدين، وبثقافاته، وبمن حملوه، رغم التشوهات والشبهات التي

---

(١٠) أنور الجندي في: عالمية الإسلام.

أثارها الأجانب في كثير من الأحيان؟

إن هذه (الاهتمامات) الإنسانية ظهرت بأجلى صورها في الدراسات الاستشراقية والاستعرابية[11].

سادساً: مراحل الاستشراق وارتباطاته[12]:

والاستشراق في مراحله جميعها قد ارتبط بمؤسسات تبشيرية، وأغراض استعمارية، ومسؤوليات دولية أجنبية، لم تخف على أحد من الباحثين المتتبعين.

وهو عامل مع الكنيسة، أو عامل مع وزارات الإستعمار، لا يستطيع أن يخلص إلى الحق، وإنما يؤدي دوره في إثارة الشبهات، وتقديم الزاد الكافي لدراسات التبشير، ومعاهد الإرساليات، لخلق ظاهرة انتقاص العرب والمسلمين وفكرهم، ولغتهم وعقائدهم.

وإذا كان الاستشراق علماً، كما يحاول البعض أن يقول فأين شرائط المنهج العلمي القائمة على البحث المتجرد والإنصاف؟

إن هناك مرحلتين لتقسيم الاستشراق:

مرحلة عقدية سافرة، ومرحلة أخرى جديدة، يطلق عليها اسم: مرحلة علمية.

أما العقدية فهي تلك المرحلة التي هاجم فيها المستشرقون الإسلام بعنف وضراوة. فكشفوا فيها عن أغراضهم الاستشراقية الوقحة في كثير من الأحيان بدافع من أحقادهم الصليبية، حتى إن بعضهم كان ينسب للإسلام

---

(١١) من مقالي عن: الاستعراب والاستغراب. منار الاسلام العدد ٩ السنة الثالثة ١٩٧٨.

(١٢) من كتابي: الرسول ص ٣٤.

(١٣) مقتبس من الدراسات العربية والاسلامية، المرجع السابق ص ٩، ١٠.

وللرسـول صفات لا تليق بفضـل القيم الفكريـة والأخـلاقيـة، ولا بكـرامـة الإنسان العادي. وأسلوبهم المختار هو إعلان حقدهم بـالسباب والفحش في القـول والإسفاف في التعبير. ولذا فـلا يمكن لهذه النـوعية من الـدراسة أن تـرتقي إلى مستوى القبـول. طالما أنها محشوة بـالـطعـون والتجني والتشفي، وخالية من الموضوعية المنهجية.

يقول بارث: والهدف من هذه الجهود في القرون التالية هو التبشير، وهـو إقنـاع المسلمـين بلغتهم ببـطلان الإسـلام واجتـذابهم إلى الـدين المسيحي. وموقف الغرب المسيحي في العصر الـوسيط من الاسلام، هـو موقف الـدفع والمشاحنة فحسب. وكان العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام وكانوا يتلقفون بنهم كـل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام.

وأما المرحلة الجديدة، والتي تسمى: بـالمرحلة العلميـة، وهو وصف غـير صحيـح، فلو أنها وصفت بـأنها (سيـاسيـة) لكـان ذلـك أصـح وأصـدق. والمفكـرون المسلمون يعـرفون جميعـاً أنه في العقـدين الأخـيرين قـد تـراجـع الاستشراق عن أسلوبه القديم المبـاشر، واستعمل أسلوبـاً أشد مكـراً وأسوأ سبيلاً، وهو محاولة الدخول في المـوضوعـات من باب التقـدير والمـدح، حتى يخدع القارىء، ويكسب ثقته، ثم لا يلبث بعد ذلـك أن يثير شبهـات خفية متتالية في إطار هذا التقدير العام الكاذب.

يقـول بارث: وتختلف المـراحل الأولى للدراسـات العـربيـة والإسـلاميـة اختلافاً جوهرياً، منذ القرن التاسع عشر فالمستشرقـين عندمـا يقومـون اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسـلامية لا يقـومون بهـا لكي يبرهنـوا على صفة العالم العربي الإسلامي بل على العكس حيث يبرهن عن تقـديرهم للعـالم الذي يمثله الإسـلام ومظاهـره المختلفة[١٥]. ولقـد تنبـه لهـذا كثـير من

---

(١٤) المرجع السابق، ص ١٠ بتصرف طفيف.

(١٥) من كتابي، الرسول ص ٣٦ ـ ٣٨.

الباحثين المسلمين اليقظين وأشاروا إلى خطورته، وحذروا من الانخداع له.

وغالباً ما يكون هذا الأسلوب بعد دخول الاستشراق اليهودي إلى ساحة الاستشراق. ومن هؤلاء المستشرقين اليهود (برنارد لولي، رودنسون، جاك بيرك، م بيرجر).

ولا ريب أن الاستشراق في المجال العقدي يعمل على هدم الإسلام والقرآن، وفي المجال السياسي يعمل على هدم الأمة العربية، واللغة العربية والحضارة والتاريخ.

على أن الدكتور صلاح الدين المنجد يصنف المستشرقين في كتابه (المنتقى من دراسات المستشرقين) إلى ثلاثة ضروب:

١ ـ ضرب لم يملك الفهم اللغوي والبلاغي الدقيق، فأخطأ في نشر الكتب، وفي فهم النصوص، ولكنه حفل بأمور شكلية، لا فائدة لنا منها.

٢ ـ وضرب أثّرت في دراساتهم مآرب السياسة، والتعصب للدين، فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم، أو ما يسعون إليه، ومن المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذي يسمو به الإنسان لإذلال الإنسان أو استعباده أو الطعن في تراثه وعقيدته بغير الحق.

٣ ـ وفريق ثالث أوتي من سعة العلم، والتمكن من العربية والإخلاص للبحث والتحرير والإنصاف، ولكن يظهر أن الفريق الذي يكشف أخطاء المستشرقين الآخرين، ويجلي حقائق العربية والإسلام ـ وهو على قلته ـ يتنامى فترة بعد فترة ووقتاً أثر وقت.

(يقول الأب أنستاس الكرملي) ـ وهو ممن اتصل بالمستشرقين ـ إن علم المستشرقين عرضة للنقد والتحقيق، ولا بد من أن يُنتقدوا الانتقاد الصحيح، ولقد وجدنا هفوات لا تغتفر لهؤلاء المستشرقين في جميع الأمم، وفي جميع التصانيف وما نشروه من الكتب .

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن أشد المستشرقين تعصباً ضد الإسلام ورسوله، هم الفرنسيون فهو يقول: إنه من النادر أن تقرأ لمستشرق فرنسي شيئاً طيباً عن حياة الرسول، لأنه حتى لو وجدت شيئاً طيباً فإن لسانه لا يطيعه في كتابته، ولو قاله فإنه يتحفظ في قوله تحفظاً بالغاً، حتى يخيل إليك أنه يخشى الوقوع في النار.

ويرى الدكتور مؤنس أن الاستشراق، والاستعمار، والتبشير أشبه بالحلقات الثلاث المتداخلة التي يتخذها التعاون شارة له، دلالة على قوة التماسك.

كما نوه الدكتور محمد البهي في كتابه: الإستعمار وصلته بالفكر، أن جميع المستشرقين المغرضين، والمستعمرين المعادين، هم من الكاثوليك، حتى إنه على حد قوله ـ لم يجد مستشرقاً مغرضاً واحداً من البروتستانت.

ونتيجة لذلك فلا بدّ من أن نضع في أذهاننا عند أية دراسة استشراقية أموراً لها أهميتها وخطورتها:

أ ـ إن العصر الذي اشتد فيه أزر الاستشراق ـ وهو القرن التاسع عشر ـ يغلب عليه الطابع العلماني الذي ينكر فيه القوى الروحية التي لا تخضع لمختبراتهم، وهو العصر المادي الذي استطاع إلى حد كبير أن يتغلب على رجال الدين الكنسيين.

ب ـ إن المستشرقين لا يستطيعون أن يتحرروا من أفكارهم السابقة، ومشاعرهم الطاغية، كما أن كثيراً منهم استهدف من دراساته الاستشراقية أغراضاً تبشيرية مسمومة.

ج ـ إن كثيراً منهم جمع إلى غرضه التبشيري، أغراضاً استعمارية يمكنها أن تغرب الثقافة العربية والإسلامية، حين تقضي على قوى العالم العربي والإسلامي المعنوية والمادية.

د ـ إن غربة المستشرقين عن العربية والإسلام، لا يمكن أن تمنحهم الدقة المطلوبة، ولا الفكر المستوعب في البحث الموضوعي، حتى ولو اختص معظمهم طول حياته بقضية من قضايا الإسلام، وعكف على التراث تحقيقاً وتعليقاً ونشراً.

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أننا في القرن العشرين الميلادي فإذا كانت بداية الاستشراق ـ والإعداد الاستشراقي في القرن الثالث عشر للميلاد أو الثاني عشر فإن هناك ثمانية قرون على الأرجح ظل العمل الاستشراقي فيها يقوم بدور تخريبي للفكر الإسلامي وتدميري للثقافة الإسلامية وللمسلمين.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن العمل التنصيري في أعماله وأغراضه سبق الاستشراق زمنياً، وتزامن معه مرحلياً وعملياً فإن الغزو الفكري كان رهيباً جداً وكان هجمات قاسية على الإسلام والمسلمين ولكن الله تعالى حفظ دينه وأصوله فدفع الغيورين على الإسلام والمسلمين ودحضوا افتراءات وأكاذيب هؤلاء المستشرقين والمنصرين وما زالوا يفعلون.

سابعاً: من أعلام المستشرقين الخطرين[٢٢]:

يمكن أن نقدر ما يزيد عن (٣٠٠) من مشاهير المستشرقين الذين عرفوا عموماً بغزارة إنتاجهم، وعمق دراساتهم، وتجاوز شهرتهم إلى أقاليم واسعة

---

(١٦) نشر بعض هذه المجلات في: المستشرقون، د. العقيقي وبعضها من: المبشرون والمستشرقون د. محمد البهي ص ١٣.

(١٧) مجلة الزهراء، شعبان ١٣٤٣.

(١٨) انظر كتابي: مستشرقون سياسيون في: فقرة: مستشرقون مجمعيون.

(١٩) الموسوعة العربية الميسرة مع اضافات.

(٢٠) المستشرقون، د. العقيقي في فقرة: دوائر المعارف.

(٢١) المرجع السابق، باختصار ص؟.

(٢٢) التراجم عموماً من: المستشرقون د. العقيقي، وموسوعة المستشرقين د. عبدالفتاح البدوي، والأعلام: الزركلي.

في الغرب والشرق، كما عـرفوا بـأستذتهم للمستشرقـين الآخرين المغمـورين الذين يزيدون على ستة أضعاف الأعلام. وأشرت سابقاً إلى أن بعضهم يعد مدرسة فكرية خاصة تقترب أو تبتعد عن أخرى.

ويتصف هؤلاء أيضاً بمتابعـة الثقافـة الإسلاميـة والمسلمين لتكـوين الفكر المغرب لدى فئـة القادة في العـالم العربي والإسـلامي، ممن تتلمذوا عليهم في الفكر وحده أو في الفكر والمدارسة والإشراف.

كما يتصفون بطرح شبهاتهم بأسلوب بعيد عن الإقذاع والسباب والتشهـير ما عدا الأب لامـانس طبعاً، وحـاولوا أن يصلوا إلى أغـراضهم الاستشراقية بطريقة سياسية تبدو بشكل علمي موضوعي.

ولا يخفى أن خطورتهم لا تقتصر على صب أفكارهم في تلامـذتهم العرب والغربيين، وفي الاصدارات التي عملوها وترجم بعضها إلى العربية وحدها، وإنمـا يضاف إلى ذلـك فكرهم أو مهـماتهم الاستعماريـة والتنصيريـة في غالب الأحيـان. ثم حرص اليهـود والعلمانيين منهم عـلى التشكيك بـالقيم التراثيـة والفضائل الدينية ومزايا العربية والبطولات العسكرية والعلمية عـبر التاريـخ الإسلامي.

وإذا ظلت أفكـارهم وإصداراتهم متـداولة كتيـار ثقافي فـإن من المنـاسب جلاء شبهاتهم ورد افتراءاتهم وبيان ما لهم وما عليهم، ليس لأنه اتجاه فكري عالمي وحسب وإنما من أجل تحصين المسلمين من زيوفهم وطعونهم، ومن ثم الدفع بالمثقفين منهم إلى العمل الفكري الـدائب الذي يشمـل رد المفتريـات الغازية، كما يشمل متابعة البناء الفكري الإسلامي من منابعه الأصيلة.

الأول: جوزيف شاخت (١٩٠٢ ـ ١٩٦٩). Schacht-t, J ألماني،

تخـرّج من جامعتي بـرسـلاو وليبزيج ، متخصص في الفقـه الإسـلامي، ودراسات في الحديث النبوي.

عين أستاذاً في جامعة فرايبورخ (١٩٢٧) ثم في الجامعة المصرية (١٩٣٤)، وجامعة الجزائر (١٩٥٢) في: الاحداث العلمية،. . . وانتخب عضواً في مجامع وجمعيات ونواد عدة، منها: المجمع العلمي العربي في دمشق. وكان خان بلاده ١٩٣٩ فانتقل إلى لندن وعمل في إذاعتها لحساب إنكلترا والحلفاء ساخطاً على الحكم النازي وتجنس بالانكليزية، ولم تنفعه خيانته ثم عمل أستاذاً في جامعة ليدن.

ومن آثاره: نشر كتاب الحيل والمخارج للخصاف. . . وكتب أخرى في المذهب الحنفي، وعمل: دراسات في خزائن استنبول والقاهرة في ٣ أجزاء (١٩٢٨ - ٣١)، و دين الاسلام (١٩٣١) والجهادوالجزية وأحكام المحاربين من كتاب: اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري (١٩٣٣)، وشارك في: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث وكتب مقالات في:دائرة المعارف الإسلامية، وتراجم عن: محمد، الشافعي. ودراسات في: الشريعة والقانون في مصر الحديثة، و: تاريخ علم الكلام، وثلاث محاضرات في: تاريخ الفقه الاسلامي، و: القانون الاسلامي، و: الشريعة. . .

وأشهر كتبه: نشأة الفقه في الإسلام، أو بالتدقيق: أصول الشريعة المحمدية Origins of muhammdan Jurisprudence وكتاب: المدخل إلى الفقه الإسلامي Introduction To Islamic Law، بالانكليزية (اكسفورد) وهو عرض عام، ليس فيه أصالة كتابه السابق.

وإذا أنهى حياته أستاذاً في جامعة كولومبيا بنيويورك ١٩٦٩ فإن شهرة كتابه الأول الذي ألفه ١٩٥٠ بقيت إلى ما بعد وفاته وسنفصل الكلام عليه.

إن الكتاب يدور حول محورين:

- تبعية الشريعة أو الفقه الإسلامي إلى القانون الروماني وتأثرها به، وهي لهذا ليست لها مزية الأصالة التشريعية.
- الطعن بالسنة النبوية متناً وسنداً.

١ ـ أصالة الشريعة الاسلامية

فقد طعن فيها قبله (جولد زهير) في (العقيدة والشريعة)، ورددها بعده (أندرسن)، و (روبسون) و (كولسون)، وبعض المستغربين من المسلمين.

ويرى شاخت، تبعاً لذلك أن الشريعة، قضية[٢٣] (تقع خارجة عن نطاق الدين، وكان النبي ﷺ غير مكترث لها، وكذلك المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين)... وهو يغفل تماماً الأصل الاسلامي الأول (القرآن) الذي شرع الله فيه العبادات، والجهاد والعلاقات الدولية والنظام الاجتماعي، وأحكام الأطعمة، وأحكام المعاملات، والجنايات، إلى جانب ما ذكره من شرائع الديانات السابقة، وبخاصة اليهودية.

وقد احتوت معظم السور المدنية وبعض السور المكية الشريعة الإسلامية، وخص العلماء الأحكام الشرعية الواردة فيه ضمن مؤلفات مستقلة مثل: أحكام القرآن للجصاص، إلى جانب مؤلفاتهم في (التفسير). ولا ريب أن الموضوعات التشريعية الكبرى التي أجمل أو فصل القرآن فيها استرعت انتباه الكثير من الغربيين والمستشرقين منهم: غوايتاين الذي يجعل (التشريع) قسماً خامساً من أقسام القرآن.

بالإضافة إلى كتاب: تفصيل القرآن الحكيم، للمستشرق الفرنسي جول لابوم، ثم: مونتيه في المستدرك، حيث صنف لابوم فيه أبواباً كاملة في (التشريع) في جميع جوانبه التي وإن قصّر في استقصائها وبخاصة في الجانب الإقتصادي، فإنها تبرز القرآن دستوراً تشريعياً. إلى جانب أغراضه الأخرى.

وكذلك فإن (شيرل) عميد كلية الحقوق في جامعة فينا، يقول في مؤتمر الحقوقيين ١٩٢٧: إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد (ﷺ) لها، إذ

---

(٢٣) مناهج المستشرقين من بحث د. محمد مصطفى الأعظمي ١/٦٣ وانظر كتابه: دراسات في الحديث النبوي.

أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي عام[٢٤]. . .

ولكننا نفصل الكلام على (أصالة الشريعة) فنورد ردوداً مختصرة لطائفة من الفقهاء والقانونيين المسلمين وغير المسلمين.

يقول د/عبدالرزاق السنهوري: لم تسلك الشريعة الإسلامية في (**نموها**) الطريق الذي سلكه القانون الروماني، فإن هذا القانون قد بدأ (**عادات**)، ونما وازدهر عن طريق (الدعوى والإجراءات الشكلية)، أما الشريعة الإسلامية فقد بدأت كتاباً منزلاً روحياً من عند الله، ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقي والأحكام الموضوعة، إلا أن فقهاء المسلمين قد امتازوا على فقهاء العالم بعلم أصول الفقه. . .

ويقول محمد الشافعي اللبان: إن ما بين التشريعين الاسلامي والروماني القديم من اتفاق لا يكاد يذكر في بعض الجزئيات، ويجب ألا ينسينا مدى التباين والاختلاف القائم بينهما، ويظهر ذلك في مسائل: الأحوال الشخصية، وفي أحكام الملكية، وفي مبادىء العقود، وقواعد تعويض الضرر. . . ولم يتضح التلاقي في بعض الأحكام الا بعد أن تطور القانون الروماني وتحرره من الشكلية، وبعد أن التقى في تطوره بعوائد وتقاليد شعوب وأجناس مختلفة، فإذا قامت المقارنة بين الشريعة والقانون الروماني الحديث، فربما وجدت أحياناً في أحكام هذا القانون ما يلتقي بما جاءت به الشريعة من أحكام، ولكن إن صح القول هنا بالاقتباس، فالأولى أن يسند ذلك إلى القانون المتبع في القارة الأوروبية لتأخره في التاريخ، بل إن البعض وصف القانون الروماني لذلك السبب بأنه (**فقه إسلامي أخذ من الأندلس**).

ويقول فارس الخوري: إن المقايسة بين الشرع الإسلامي والشرع الروماني لا نراها مستقيمة، لاختلاف (**الهدف والسنن**) بين الشرعين: الأول

(٢٤) من كتابي، الرسول ص ٧٥، وانظر أقوالاً أخرى فيه.

منهما قائم على قواعد العدل المطلق، ومقتضيات العقول، والثاني: على المصالح والمنافع الدنيوية. فينبغي على هذا التخالف أن الشرع الإسلامي يمثل (مصلحة الفرد) في الدنيا والآخرة، وفي الشرع الروماني (مصلحة الجماعة) فقط، مثال ذلك: مرور الزمن إما أن يسقط الحق، أو تسقط الدعوى. أما الشرع الإسلامي فلا يمكن أن يقول بسقوط الحق لأن الحق في الذمة، والفرد لا تبرأ ذمته إلا بالوفاء أو بالإبراء مهما مر من الزمن على الحق. . .

وبعد أن يورد أمثلة على فكرة الحق المطلق يقول: ومن هذا القبيل قاعدة: أخذ العامة بجرائر الخاصة، وهو مستند للآية الكريمة (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (الأنعام: ١٦٤) فنهوا عن تحميل المغارم أهل القرى بالجملة لأجل الجرائم التي يقترفها أفراد منهم، وأنت ترى أن حكومات هذا العصر تفرض من الغرامات على أهل القرى، وتأخذ الطائعين بجريرة العاصين. . . وأقوالاً أخرى عالجت جوانب في هذه القضية معالجة قانونية فقهية مقارنة مثل ما ذكره صالح بن علي الحامد العلوي، ود/معروف الدواليبي ود/ صليب سامي[٢٥]. . .

٢ ـ طعونه في السنة النبوية:

يقول شاخت أولاً، في (متن الحديث): اخترع المحدثون بيانات مفصلة أو أحاديث وادعوا أنها من مرئيات أو من مسموعات أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وأنها وصلت الينا شفهياً بأسانيد غير منقطعة، وعن طريق رواة موثوقين. ومن الصعوبة بمكان أن نعتبر أي حديث منها خاصة فيما يتعلق بالأحاديث الفقهية صحيحاً موثوقاً به.

ويقول ثانياً في (إسناد الحديث): إن أكبر جزء من أسانيد الأحاديث

---

(٢٥) نقلها أنور الجندي في: الاسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب، من ص ٢٨٨ ـ ٢٩٢ وانظر أقوالاً أخرى فيه.

اعتباطي. . . ومعلوم لدى الجميع أن الأسانيد بدأت بشكل بدائي، ووصلت إلى كمالها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. . . وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين كان يختار تلك الشخصيات ويضعها في الإسناد.

وليس ما أضيفه رداً عليه هنا، عما قاله العلماء والمحدثون سوى أن أشير إلى النقاط التالية:

١ - (علم الرجال) مما اختص به المسلمون وجندوا له طاقاتهم في مختلف العصور وصنفوا فيه مئات المصنفات من نواحي كثيرة: منها: ضبط الأعلام وعدالتهم وضبط رواياتهم، واتصال شيوخهم ورواتهم، . . . كما اختصوا بـ (أصول الفقه الإسلامي) أيضاً.

٢ - ألفت كتب ودراسات في: السنة قبل التدوين، توضح اهتمام العديد من الصحابة في حياة الرسول وعقبها، بكتابة معظم السنة ونقلها مشافهة في: العقائد والعبادات والمعاملات والأقضية إلى جانب رسائل الرسول عليه الصلاة والسلام في الموضوعات نفسها وفي غيرها من الوثائق السياسية النبوية، إلى جانب خطبه وتوجيهاته للسرايا. . . وهذه النقطة وسابقتها ليست (اختراعاً) ولا (اعتباطية) وإنما هي (علم) اتخذ جميع وسائل (العلمية) في الشكل والمضمون.

٣ - لا يدّعي المحدّثون صحة كل ما نسب إلى الرسول، فقد صنف العلماء في (الموضوعات) وبخاصة: الروايات المدعاة من الفرق الدينية والسياسية و (نخلها) العلماء بالموازين الدقيقة. ثم إن شاخت يعترف ضمنياً بصحة بعض الأحاديث أو البيانات حين قال: اخترع المحدثون بيانات أو أحاديث. . . فليست إذاً كلها، كما أنه يعترف بصحة أحاديث غير الفقهية، وبصحة أحاديث لم تنسب إلى الأحزاب والفرق، إن كانت عبارته السابقة تحتمل ذلك.

٤ ـ إن شاخت الذي بدا (غرضه) في الطعن بالحديث (مسبقاً) وقبل أن يستدل عليه بأي دليل اضطر أن (يتناقض) فيما ساقه من الأخبار والنتائج، و (يفتري) على السنة النبوية، و (يسير) مع (هواه) و (يخالف المنهجية) الموضوعية حتى في الأساس الموضوعي للكتاب الذي ينسب فيه الشريعة إلى (محمد) عليه الصلاة والسلام.

الثاني: هاملتون جب Gibb, Sir, Hamilton, A,R (المولود ١٨٩٥)، انكليزي من مواليد الاسكندرية.

خلف (مرجليوث) في أكسفورد (١٩٣٧ ـ ١٩٥٥) عضو في مجمعي القاهرة ودمشق. يجيد العربية كتابة وإلقاء، درس على علماء مسلمين، ثم حاضر في العربية في جامعة لندن (١٩٣٠ ـ ١٩٣٧) وفي اكسفورد (١٩٣٧) وفي هارفارد الامريكية (١٩٥٥) وأصبح مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط (١٩٦٢)، ورحل إلى مصر وسوريا ولبنان وفلسطين والمغرب العربي، واجتمع بكبار الأدباء فيها، وكان من الداعين إلى الجامعة العربية (١٩٤٢). ومن آثاره: فتوح العرب في آسيا الوسطى وعلاقاتها الأولى ببلاد الصين (١٩٢٣)، والمدخل إلى تاريخ الأدب العربي (لندن ١٩٢٦ واكسفورد ١٩٣١) و: رحلة ابن بطوطة في آسيا وافريقيا (لندن ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢)، و: ما هو الإسلام؟ (لندن ١٩٣٢) و: كيان التفكير الديني في الإسلام، بالفرنسية (باريس ١٩٠٥)، و: النظرية الإسلامية عند ابن خلدون (١٩٣٣ ـ ١٩٣٥)، و: نظريات الماوردي في الخلافة (الثقافة الإسلامية ١٩٣٧) و: تفسير التاريخ الإسلامي (العالم الإسلامي ١٩٥٥)...

وأخطر كتبه ـ فيما يبدو لي: وجهة الاسلام Whither Islam، الذي ظهر إبان العنفوان الإستعماري ١٩٣٢ والاتجاه العلماني الغربي، وذلك لسببين: جماعية أو اشتراك الباحثين المختصين في الدراسات الاسلامية والشرقية من فرنسا وألمانيا وهولندا وانكلترا، ثم لوضوح غرض واحد مشترك بين الباحثين

في محاولاتهم (تغريب) العالم الاسلامي. ويقترن (التغريب) أو (الفرنجة) خاصة بأعمال (جب) وبصورة أخص في كتاب: وجهة الإسلام، الذي أشرف على جمعه وتأليف بحوثه والتقديم له بـ (١٠٠) صفحة، ثم كتابة الفصل السادس والأخير منه. ويبدو أن محور الكتاب يدور حول: اهتمام الغربيين بدراسة الاتجاهات الاسلامية، ومدى تأثير الإسلام في توجيه الحياة. ومبلغ ما بقي له من سيطرة عليها بعد هجوم الآراء الغربية الجديدة[٢٧]، وبتعبير موجز (مدى تغريب الفكر الإسلامي والمسلمين).

وبعد الوصف الموجز وبيان الغرض من الكتاب نعرض إلى أبرز أفكاره حسب ترتيبه ما أمكن.

١ - التغريب وأسباب الوحدة في الحضارة الإسلامية:

فمن المعلوم موقف الغرب واهتمامه في (تفتيت الوحدة الإسلامية) الذي (لم يجمع خبراء الغربيين في الشؤون الإسلامية والعربية على شيء مثل إجماعهم على توقع الخطر من جانب الشعوب الإسلامية التي يرون مظاهر اتحادها، وطلائع تكتلها حقيقة واقعة يصعب تجنبها...).

ويصرح جب في تقديمه بأن اهتمام الانكليز بدراسة الإسلام ناشىء عما يعرفونه من سيطرة تعاليمه على المسلمين، مما يجعل له مكاناً بارزاً في أي تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامي[٢٨]... وهو يقرر أن فصول الكتاب تعالج: مشكلة الاسلام اليوم[٢٩]: (أو مشكلة الصراع بين القديم والحديث).

ويحاول أن يتتبع أسباب وحدة الحضارة الاسلامية التي لم تستطع العوامل

---

(٢٦) مناهج المستشرقين من بحث د. الأعظمي، السابق ١/٨٣.
(٢٧) الاتجاهات الوطنية ٢/٢١١ بتصرف طفيف.
(٢٨) ص ١٢ من كتاب جب: وجهة الاسلام و٢/١٤٠ من: الاتجاهات الوطنية.
(٢٩) ص ٢٢ من كتاب جب و٢/٢١٢ من: الاتجاهات الوطنية.

الإقليميـة المختلفة أن تؤثـر فيها أو تنـال منها عـلى تعاقب الأزمـان، وتبـاين الأصقاع، مما جعل العالم الاسلامي كتلة سياسية خطيرة، ذلك العالم المترامي الأطراف الذي يحيط بأوروبا إحـاطة محكمـة تعزلهـا عن العالم. ويقـول: إن الإسلام قد انتشر انتشاراً سريعاً في فترة لا تتجاوز قـرنين ونصف، وقـد كان من أبرز آثار هذا الانتشار السريع الذي تكـونت خلالـه الحضارة الاسـلامية الكاملة أنها نشأت حضارة موحدة، إذ لم تكن فرصة لتأثير العناصر الإقليميـة المختلفة والثقافية المتباينة، فلما انتشر الإسلام بعد ذلك لم يكن ديناً ساذجـاً، ولكنه كان نظاماً كاملاً شـاملاً للحيـاة، ولذلـك نرى أن اتسـاع رقعة العـالم الإسلامي من المحيط الاطلنطي إلى المحيط الهادي لم تؤثر في وحـدة الحضارة الإسلامية على غير ما تقتضي به العادة[٣٠]. . .

وفي مقاله الأخير ينوه بوحدة العمل ووحدة الهدف كإحسـاس مشترك بـين الشعـوب الاسلاميـة[٣١] وهكذا فـإنـه يعـزو وحـدة الحضـارة الاسـلاميـة إلى (عاملين): سرعة انتشار الاسلام التي لم تمكن العناصر الإقليمية من تـأثيرهـا على الإسلام، وكمال حضارة الإسلام وشمولها، ثم وحدة العمل والهدف بين المسلمين في هذا العصر وما بعده.

٢ ـ التغريب والقوميات اللادينية:

يلاحظ جب أن وحدة الحضارة الاسلاميـة تمحو من الأذهـان، حيثما حلت، كل ما يتصل بالتـاريخ القـومي، لتحل محله الإعـتزاز بالتـاريخ الإسـلامي، والتقـاليد الإسـلامية، وهـو لا ينسى حين يتكلم عن الحـركات القـومية التي دعمتها دعايات الحلفاء القوية خـلال الحرب العـالمية الأولى، أن ينبـه إلى أن هذا النصر الذي حققته الاتجاهـات القوميـة لا ينبغي أن يصرف الغرب عن الإنتباه إلى تيار المعارضة الإسلامية الخفي، الذي يعارض في تفتيت الـوحدة

(٣٠) ص ١٥ ـ ١٧ من كتاب جب و٢/٣٠٦ من: الاتجاهات الوطنية.

(٣١) ص ٣١٦، ٣١٧ من كتاب جب. و٢/٢١٥ من: الاتجاهات الوطنية.

الإسلامية إلى قوميات لادينية، مبيناً أن هذه المعارضة هي أشد قوة في البلاد العربية.

٣ - التغريب وأهمية وحدة اللغة الفصحى في وحدة المسلمين:

يتحدث (كامفماير) الاستاذ بجامعة برلين، وكاتب مقال (مصر وغربي آسيا) في الكتاب نفسه عن أهمية الفصحى في الوحدة الثقافية والفكرية ويقول: إن من المؤكد أن العالم العربي، ولا سيما الكتلة المتحدة التي تكوّن مركزه الكبير، والمكونة من مصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا والعراق، ستلعب دوراً بالغ الأهمية، بل ربما كان حاسماً. فثقافة هذه البلاد في تطور مستمر يزداد على الأيام، وسيعين اشتراكها في اللغة الفصحى، وسهولة المواصلات بينها، على خلق وحدة ثقافية وفكرية فيها. إن بعث الاسلام في هذه البلاد حقيقة واقعة، وتغيير هذا الاتجاه مستحيل، فليس من الممكن أن يحدث في هذه الأقطار العربية شيء يشبه ما حدث في تركيا، ولن ينفصل العرب عن الماضي المجيد في التاريخ الاسلامي، وفي الأدب الاسلامي... لن يستبدل الناس في هذه المنطقة الحروف اللاتينية بالحروف العربية... إن حركة بعث الاسلام في هذه البلاد لا يمكن أن تنقطع أو تتوقف، لأن الناس في حاجة إليها، فهي أحد مقومات نهضتهم الوطنية[٣٢].

ولكن تبرز إلى الذهن قضيتان هامتان: الأولى: بتر أصقاع عربية شاركت أو تشارك في تكوين مركز الكتلة العربية المتحدة، مثل المغرب العربي، ولبنان والأردن... الثانية: الاتجاه القومي الذي لا يحسب للعالم الاسلامي حسابه في بعث الاسلام. وهو اتجاه لا يتعارض مع ظهور القوميات اللادينية الذي سبق ذكره، وإنما يربط (كامفماير) الاتجاه القومي هنا بالتاريخ والأدب الاسلاميين، وفي النهضة الوطنية. ويؤكد هذا أن العربية الفصحى لغة العالم الإسلامي الثقافية الوحيدة كما يقول جب[٣٣]، ثم استحالتها في تركية كما

(٣٢) ص ١٥٨ - ١٥٩ من كتاب جب و٢/٢١٤ - ٢١٥ من: الاتجاهات الوطنية

(٣٣) ص ١٢ من كتاب جب و٢/٣٦٤ من: الاتجاهات.

يقول (كامغماير): إن قراءة القرآن العربي وكتب الشريعة الإسلامية قد أصبحت الآن مستحيلة بعد استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية[٣٤].

٤ ـ مستقبل التغريب:

من الصعب أن يتغرب الفكر الاسلامي والمسلمون طفرة وفي زمن قصير، فالغربيون عموماً وجب خصوصاً لا يطمعون في كسب عاجل، ولا يطلبون انقلاباً كاملاً سريعاً، ولكنهم يقنعون بالتحول الهادىء الذي أشار إليه جب حين وصف تطور المجتمع الاسلامي المصري بأنه يسير سيراً هادئاً تدريجياً لا يكاد يسترعي الإنتباه[٣٥].

ولذا فإن (القبعة) مظهر مرفوض لدى المسلمين (وكأنهم بذلك يعلنون أنهم مهما يقبلوا من شيء فإنهم لا يقبلون أن تصبح رؤوسهم غربية، ويصرون أن تظل شرقية، وقد كلفت هذه القبعة أحد ملوك الأفغان عرشه حين إدخالها في بلاده)[٣٦].

ويمكن (تغريب) الاسلام والمسلمين في نظر جب باتخاذ الوسائل التالية[٣٧]:

أ ـ **الآراء الجديدة والحركات المستحدثة** التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية، بعد أن تهضم وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان هذه الدول الاسلامية، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها، وليست بالمظاهر الخارجية فهي ثانوية ما لم تؤثر الآراء الجديدة في فهم الروح والأصول[٣٨].

---

(٣٤) الاتجاهات، ٢/٣٦٥.

(٣٥) المرجع السابق، ٢/٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٣٦) المرجع السابق، ٢/٢٦٤ حاشية، وهو يقصد أمان الله خان ملك الافغان السابق الذي ثار عليه شعبه وعزله.

(٣٧) انظر في: الاتجاهات الوطنية، فقرة: ما يحسن اقتباسه وما لا يحسن ٢/٢٥٨ وفصولاً أخرى بهذا المعنى.

(٣٨) الاتجاهات: ٢/٢١٦ بتصرف.

ب - **التعليم والصحافة**: يقول جب: والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادىء الغربية، وعلى التفكير الغربي. . . والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفي شيئاً في قيادة الاتجاهات السياسية والإدارية، وللوصول إلى هذا التطور الأبعد - الذي بدونه تظل الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية - يجب ألا ينحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفاً إلى **خلق رأي عام**، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة.

ويقرر جب أن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها نفوذاً في العالم الاسلامي، بسبب معظم المديرين (التقدميين) وباحتوائها على مقالات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية في أوروبا وعلى مقالات مترجمة من الصحف الأوروبية، وعلى ما فيها من أخبار عن أحداث الغرب.

ج - **النشاط الثقافي والاجتماعي العام**: يقول جب: الواقع أن الإسلام بوصفه عقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه، ولكن الإسلام بوصفه قوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته، فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه، وهي - في كثير من الأحيان - تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً، ولكنها تشق طريقها. . . فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس، وللفلاح، اتجاه سياسي، ولم يكن له أدب، إلا الأدب الديني، ولم تكن له أعياد إلا ما جاء به الدين، ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجي إلا بمنظار الدين. كان الدين هو كل شيء بالقياس إليه، أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود، وتعددت ألوان نشاطه الذي لم يعد مرتبطاً بالدين. فقد أصبحت له ميوله السياسية، وهو

يقرأ ـ أو يقرأ له غيره ـ مقالات في مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين... وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الاسلامية لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من مشاكل، ولكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية قد لا يعرف أصولها ومصادرها، ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن... وبذلك فقد الاسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محدودة، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه... ثم يقول: وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه...

وبعد أن يمضي في تتبع التغريب من آثار بين المسلمين في روسيا والهند وأندونيسيا وافريقيا ينوه بدور القادة والزعماء في العالم الاسلامي في نجاح التغريب، ثم بدور الشباب خاصة، ثم يختم كلامه: إن العالم الاسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة لادينياً في كل مظاهر حياته، ما لم يطرأ على الأمور عوامل ليست في الحسبان فتغير اتجاه التيار.

د ـ **القضاء على المعاهد الشرعية**: وهذا واضح من ضيق جب بالدين وعلومه وقوته وسيطرته فهو يقول: ومع أن الوحدة الاسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية، ومع أن الثقافات القومية قد أخذت مكانها في المدارس، ومع أن الفوارق الاجتماعية قد أصبحت أكثر وضوحاً، ومع أن الثقافة الدينية التقليدية قد أصبحت محصورة في عدد قليل محدود، ومع ذلك كله فالمعاهد الدينية نفسها لا تزال قائمة، ولا يزال حفاظ القرآن ودارسوه كما كانوا، لم ينقص عددهم،

---

(٣٩) مقتبس من الاتجاهات ٢/٢١٦ ـ ٢١٧.

ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين. وربما كان تقديس شخصية محمد (ﷺ)، وما يثيره ذكره من حماس في سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم من أهم ملامح النهضة الإسلامية الحديثة[٤٠].

هـ - **تشجيع الحركات الإصلاحية (التقدمية)**: فهو يظهر أسفه على نظرات المسلمين المحافظين من حركة الشيخ محمد عبده الإصلاحية وغيرها فيقول: ولسوء الحظ ظل قسم كبير من المسلمين المحافظين ولا سيما في الهند، لا يخضعون لهذه الحركات الإصلاحية المهدئة، وينظرون إلى الحركة التي تزعمتها (عليكرة)، وإلى مدرسة الشيخ محمد عبده، نظرة كلها ريبة وسوء ظن، حتى لا يقل عن ريبتهم في الثقافة الأوروبية نفسها.

بينما يعلن تخوفه من الحركات الإسلامية بزعاماتها المخلصة فيقول: إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً، قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الإسترابة في أمرها، فالحركات الاسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد[٤١].

وإذا صح لنا أن نستنتج من الدراسة السابقة والزاخرة بالدس والخداع فيمكن أن نلاحظ ما يلي:

١ - عمق المعالجة الدرسية وشمولها وتسلسلها وفق الخطة الموضوعة تبرز خطورة مضامينها الفكرية مع ما تبرزه من المعرفة الغربية وبخاصة: خبرة جب في القضايا الإسلامية، فهو (أكبر مستشرقي انكلترا

---

(٤٠) المرجع السابق، ٢/٢١٨ - ٢٢٠.
(٤١) المرجع السابق، ٢/٢١٣، ٢٢٠.

المعاصرين . . . ومن كبار محرري وناشري دائرة المعارف الإسلامية، له كتابات فيها عمق وخطورة، وهذا هو سر خطورته)[42].

٢ ـ جماعية الدراسة بتعميم فكرها على معظم الدول الغربية التي شارك مستشرقوها في طرح قضية التغريب، كل باحث في طريق أو جانب معين منه قومي أو لغوي أو ديني، أو اجتماعي، وهي تدل على سريان روح غربية واحدة تتجاوز (الطرح) العلماني إلى الروح الصليبية الحاقدة.

٣ ـ فكرها وروحها الاستعمارية اللذين اتخذا إطار (التغريب) في الغزو الفكري عامة ودراسات المستشرقين خاصة. وهو بوسائله المتعددة يضمن للاستعمار نفوذه الإقتصادي إلى جانب أنواع أخرى من النفوذ السلوكي والديني بطريق (التغيير) التدريجي الهادىء. وهذا يؤكد خطورة العمل الإستشراقي المرتبط بعجلة الاستعمار، ويدفعنا إلى التحرر النفسي والفكري من شروره وذلك بتحصين فكرنا وبنائه بناء اسلامياً خالصاً، ثم الالتزام بالاسلام منهجاً وحضارة.

الثالث: د. فيليب حتي Hitti. P.K. (المولود ١٨٨٦)، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية:

تخرج من الجامعة الامريكية في بيروت (١٩٠٨) ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩١٥)، درّس في الجامعة الامريكية ببيروت (١٩١٩ - ١٩٢٥) وأصبح رئيساً لقسم اللغات والآداب الشرقية في جامعة برنستون في أمريكا (١٩٤٤ ـ ١٩٥٤)، وانتدب أستاذاً زائراً في جامعة هارفارد، وعين عضواً في مجلس أمناء جامعة بيروت الأمريكية، ورئيس لجنة التربية فيه، كما انتخب عضواً في جمعيات ومجامع عدة.

من آثاره: أصول الدولة الاسلامية (١٩١٦)، واللغات السامية المتكلمة

---

(٤٢) د. البهي في: المبشرون والمستشرقون ص ٢٤.

في سوريا ولبنان (١٩٢٢) و: سوريا والسوريون (١٩٢٦)، و: أصل الشعب الدرزي وديانته (١٩٢٩)، و: لبنان في التاريخ (نقله إلى العربية: د. أنيس فريحة، بيروت ١٩٦١)...

ومن بحوثه: تاريخ الدراسات العربية في أوروبا (الهلال: ٢٩ و٣٣ و٤٨)، والدراسات العربية والاسلامية في جامعة برنستون (عالم الاسلام ١٩٤١).

وأشهر كتبه: تاريخ العرب (١٩٢٧) ٣ أجزاء (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨) ونقل إلى العربية والاسبانية والبرتغالية والهولندية. وهو (مرجع هام يعتمد عليه الباحثون والجامعيون والكتاب، ليسره وسهولته بالرغم مما يحمل من الشبهات...). ويطريه بعض الجامعيين فيقول: ذلك السفر الخالد الذي يتفرد في العالم ببحث تاريخ العرب منذ وجدوا حتى وقتنا الحاضر، بحثاً علمياً دقيقاً، ويتميز بالتعمق والصحة والتجرد والتسلسل والشمول، وصوت العرب الداوي في أمريكا في الدفاع عن العرب، علم من أعلام التاريخ... تحدث عن العرب قبل الاسلام كما تحدث عن محمد رسول الله، وعن القرآن، والدين الإسلامي، وعن انتشار الإسلام، وعن الخلفاء، وعن فتح الأندلس...

ويختم (حتي) كتابه بقوله: العربي الذي ساهم في الماضي بقسط وافر في إغناء العالم علمياً يستطيع إذاً مرة أخرى أن يحتل مكانه في موكب الأمم الديموقراطية المتطلعة إلى المستقبل[٤٣].

والحق: أن طريقة (حتي) (السياسية) إن لم نقل (العلمية) تعرض الأخبار بأسلوب هادىء معزو إلى مصدره، غير واضح التأثر بما يكتب.

وفي الكتاب فصلان: القرآن كلام الله، محمد رسول الله، وعناوين فقرات: مثل: انتصار الاسلام، اليقظة الفكرية، وفصل: المآثر

(٤٣) مقتبس من: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ٥٥٦/١٩ د. فاخر عاقل.

الفكرية . . . سار فيها على طريقته السياسية المتزنة على ما فيها من شبهات وأخطاء وأباطيل.

ومع هذا فإن كتابه يتطلب نوعاً من التأمل ليدرك القارىء شبهاته الخفية، ودسائسه المستورة. ويواجه بعض المؤرخين المسلمين شبهاته فيقول:

١ - وإذا بدأنا في (تسمية الكتاب (تاريخ العرب) فإنه يشعر بوجهة نظرة الخاصة، فإنه يشعر بأن العرب، لا الإسلام محور هذا التاريخ وقاعدته، أما مادة الكتاب فلا تشعر بوجهة نظر تاريخية).

٢ - لم يحاول وضع مفهوم جديد للفتوحات، ولم يخرج عن رأي (كايتاني) رغم ما تعرضت له من هزات لأنه يرتكز على أسباب مادية.

٣ - في بعض نواحي الكتاب تلخيص لآراء حديثة لبعض المستشرقين تبين أنها واهية.

٤ - حديثه عن المذاهب الفقهية فيه قلق، وما كتبه عن الإسماعيلية والقرامطة يعكس ببساطة بعض الروايات الشائعة وكأنه لم يستفد من الدراسات الحديثة، وتفسيره للشعوبية بعيد كل البعد عن تحليل دوافعها واتجاهاتها، فهو يراها مجرد دعوة للتسوية مع الآخرين، في حين أن الحركة لها جذور عميقة في الوعي القومي والديني للشعوب الأخرى، وخاصة الإيرانيين.

٥ - قبل المؤلف أسطورة العباسة لتفسير (نكبة البرامكة) دون تمحيص.

ومع كل ما مضى فإن المتأمل في الكتاب يخرج بعد مطالعته بانطباع خاطىء ومحدد يغلب على الثقافة الاسلامية عامة والتاريخ العربي الاسلامي خاصة. ومن صور هذا الانطباع:

---

(٤٤) باختصار من د. عبدالعزيز الدوري ونقله أنور الجندي في كتابه: الاسلام والثقافة، المرجع السابق.

١ ـ بعث الإقليمية القديمة وما فيها من تقدم حضاري، ومنها: الفينيقية والكنعانية والبابلية في سوريا ولبنان والعراق[٤٥].

٢ ـ تأكيده على الدافع المادي والإقتصادي والشخصي في الفتوحات الإسلامية، وفي أسلمة أهل الذمة، واعتماده على رواية مرجوحة أو واهية لابن العبري[٤٦]، وإغفاله تماماً الدافع الديني.

٣ ـ تحامله على السلطنة العثمانية ووصفهم بالقوة العسكرية، والثقافة المزيجة من العناصر المتنوعة المتباينة، ولم يكن للأتراك سوى اليسير من الأدب المدون[٤٧]. . . ويصرح: بـ (احتلال) محمد الثاني الفاتح للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ ويقول عنه: وقد تمركز هذا الجبار الجديد على حافتي البوسفور واضعاً قدمه في آسيا وأخرى في أوروبا[٤٨]. . . ثم يتحدث عن الأسطول العثماني: وكان على أتم الاستعداد لتنفيذ سياسة الاحتلال أو الفتح في جميع أنحاء البحر المتوسط[٤٩]. . . وتحت عنوان: دول القراصنة، يوجه ـ من غير دليل ولا مرجع ـ أعمال (القراصنة) المسلمين ضد النصارى[٥٠]. . . ثم يقول: وكان الهدف الرئيسي فيها ليس مصلحة الرعايا بل مصلحة الدولة كما تتمثل بشخص السلطان الخليفة، وكانت الرعايا في الدولة مجموعة منوعة من أبناء القوميات والبلدان المختلفة من عرب وسوريين وعراقيين ومصريين وبربر وكرد وأرمن وسلاف ويونان والبانيين بأديانهم المختلفة ولغاتهم وطرق معيشتهم المتباينة، **وكان يجمعهم معاً سيف عثمان**[٥١]. . . فيلاحظ هنا

---

(٤٥) انظر، خاصة الجزء الأول من كتابه: تاريخ العرب، مطول.
(٤٦) المرجع السابق، ص ٤٤١.
(٤٧) المرجع السابق، ص ٨٤٢.
(٤٨) المرجع السابق، ص ٨٣٥.
(٤٩) المرجع السابق، ص ٨٣٦.
(٥٠) المرجع السابق، ص ٨٣٨.
(٥١) المرجع السابق، ص ٨٤٣.

التحامل في وصف العثمانيين بصفات لم يكن له عليها برهان، كما يلاحظ: فصل السوريين والعراقيين والمصريين عن العرب وخضوع الجميع إلى قهر الأتراك وسيفهم، من غير أن ينوه أو ينبه إلى مظلة الخلافة والرباط الديني الجامع.

٤ ـ أما مبالغته في دور النصارى الحضاري فهو وان كان في الأصل جانباً في الحضارة العربية الإسلامية وبدافع من تشجيع خلفائها وحكامها، فإنه يشبه من طرف معاكس في الحط من الشخصيات التاريخية الاسلامية مثل ادعائه أن البيعة آلت إلى أبي بكر نتيجة لخطّة سابقة دبر أمرها بينه وبين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح[٥٢]. ومثل وصفه عثمان بن عفان بأنه: أول خليفة اكتنز المال والتفت إلى الغنى والترفّه[٥٣]. ومثل افترائه على الامام أبي حنيفة بأنه من معتدلي المرجئة[٥٤]... وشخصيات إسلامية عظيمة أخرى.

٥ ـ وأما شبهاته في (توجيهات الرسول) و (عبادات الإسلام) و (المسائل الإسلامية) و (الفهم القرآني) و (التصورات العقائدية) الخاطئة، و (الاستنتاجات) أو (التعليلات) المنحرفة ومن وجهة نظره، فهي على اعتدال وعفة تعبيرها، تستغرق معظم الفصول والفقرات[٥٥].

الرابع: فنسنك (١٨٨١ ـ ١٩٣٩) Wensinck, A.J. هولندي:

أتقن اللغات السامية، وتخصص في أديان الشرق، وانتدب أستاذاً للعبرية في جامعة ليدن (١٩٠٨ ـ ١٩٢٧) ثم خلف (سنوك هرجرنيه) في كرسي العربية حتى وفاته، وعني بالحديث (١٩١٦) وسعى إلى وضع المعجم

---

(٥٢) المرجع السابق، ١٧٢.
(٥٣) المرجع السابق، ص ٣٤٥.
(٥٤) المرجع السابق، ٣٢٦.
(٥٥) انظر: المبشرون والمستشرقون ص ٢٥ وفيه عزو إلى مجلة: الاسلام، الانكليزية التي تصدر في كراتشي عدد ابريل ومايو ١٩٥٨.

المفهرس لألفاظه مع لفيف من المستشرقين كما سيأتي، وتولى تحرير دائرة المعارف الاسلامية بلغاتها الثلاث (١٩٢٤) وبدأ بإعداد طبعة مختصرة لها، قاصرة على المقالات الدينية، ولكنه مات ولم يكملها، فأصدرها (جب) و (كراموز) بالألمانية. وقام برحلات إلى مصر وسوريا ولبنان وبلاد العرب (١٩٣٠)، ثم عاد إلى مصر، وكان عضواً في مجمعها، إلى أن أُخرج منه.

أخلص لأستاذه: سنوك، فأشرف على طبع (مؤلفاته المتفرقات) تحت عنوان Verspreide Geschripten في (٦) مجلدات (١٩٢٣ - ١٩٢٧).

من آثاره: محمد واليهود في المدينة، باللغة الهولندية، وهي رسالته في الدكتوراه (ليدن ١٩٠٨). و: محمد واليهود (الإسلام ١٩١١)، والإسرائيليات في الإسلام (الإسلام ١٩١٣)، وقيمة الحديث في الدراسات الإسلامية (العالم الاسلامي ١٩٢١)، و: محمد والنبوة (الأعمال الشرقية: ١٩٢٤)، و: الخمر في الإسلام (العالم الإسلامي ١٩٢٨)، و: الشمس في تقاليد الساميين (منوعات هنري باسه ١٩٢٨)، والصوفية الشرقية في الآداب السريانية (ليدن ١٩٣٠) والعقيدة الإسلامية وتطورها التاريخي (كمبردج ١٩٣٢)، و: الأثر اليهودي في أصل الشعائر الاسلامية (المجلة الافريقية ١٩٥٤).

ومن أشهر كتبه:

١ - **مفتاح كنوز السنة**، صنفه بالانكليزية تصنيفاً لغوياً (١٩٢٧) في ٥٤٤ صفحة، ونقله إلى العربية فؤاد عبدالباقي (١٩٣٤) يكشف عن الأحاديث المدونة في كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة: في: البخاري وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي، ببيان رقم الباب، وفي: مسلم وموطأ مالك ومسندي زيد بن علي وأبي داود الطيالسي ببيان رقم الحديث، وفي: مسند أحمد بن حنبل وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ومغازي الواقدي، ببيان رقم الصفحات.

ورتبه فنسنك على المعاني والأعلام، وقسم كل معنى وترجمه إلى

الموضوعات التفصيلية المتعلقة بذلك، ثم رتب عناوين الكتاب على حروف المعجم (حسب اللفظ وليس حسب الأصل) اللغوي والاشتقاق، مثلاً كلمة: قاضي، في حرف القاف ثم الألف، وكلمة: أقضية، في الألف ثم القاف، وكلمة: القضاء، في القاف ثم الضاد. وهكذا.

ومن الصعوبات في مراجعته: اعتماد المصنف على طبعات خاصة مما نشره المستشرقون،مثلاً: اعتمد في مغازي الواقدي على الترجمة المطبوعة في برلين.

وكذلك لا بد أن تكون صلة المراجع بالحديث النبوي وثيقة جداً حتى يجد طلبته فيه، مثلاً: حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي. . . (أخرجه الستة).

هذا الحديث لم يعثر عليه في: بشرية الرسول، ولا في: الخصام وقد أحالها إلى المخاصمة، ولا في: القضاء وقد أحالها إلى: الأقضية، ولا في: قاضي، ولا في:اللحن ـ الحجة ـ الحكم. . .

وحديث: دع ما يريبك. ذكره في: الحلال والحرام والشبهات، وليس في: الريب.

وكذلك حديث: إن الله يجب أن تؤتى رخصه كما يجب أن تؤتى عزائمه. ذكره في: الحلال والحرام، وليس في: الرخصة أو العزيمة. . .

لهذا كله بادر (فنسنك) وغيره إلى عملٍ أكثر يسراً في فهرسة الحديث النبوي على أساس لفظي[٥٦].

٢ ـ معجم ألفاظ الحديث النبوي مع لفيف من المستشرقين: وباشروه (١٩٢٣) فلما مات كان قد صدر منه (١١) ملزمة، واستمر فيه (ميسنج) خليفته، ثم (فان لوون)، و(دي هاس) بمعاونة محمد فؤاد عبدالباقي، و(دي بروين)، فصدر منه أربع مجلدات (ليدن ١٩٣٦ ـ

---

(٥٦) انظر مقالي في: منار الاسلام العدد ١٢ السنة ٣، ١٩٧٨ ففيه تفصيل.

١٩٥٥)، وأشرف (برنارد لـويس) و (شارل بيـلا) و (جوزيف شـاخت) على الـطبعة الجـديدة. . . يقـول د. البدوي: في ١٩١٦ أعلن في مجلة ZDMG عن عزمه عـلى وضع معجم مفهـرس بحسب الألفاظ، وبـالترتيب الهجـائي للأحاديث الواردة في كتب السنة الصحـاح الستة، وفي مسنـد الدارمي، وفي مسند أحمد بن حنبل، وفي موطأ الإمام مـالك، (أي لتسعـة كتب من أمهات السنة النبوية).

واستعان بـ (٣٨) باحثـاً من مختلف البلدان للقيام بهـذا العمل، وأعـانته مالياً أكـاديمية العلوم في أمسـتردام، ومؤسسات هـولنديـة أخرى، وعـدد من أكاديميات بـلاد أوروبية، وبـدأوا في إعداد البـطاقات لهـذه المادة الهـائلة من الأحاديث. ثم أصدر الجزء الأول في (١٩٣٦) من حرف (الألف إلى حـرف الحاء). ومن ١٩٣٢ صار المشروع تحت رعاية الاتحاد الأكاديمي الـدولي. . . وتواصل ظهور باقي الأجزاء حتى اكتمل، (في الجزء السابع ١٩٦٩).

وفي الصفحات الأولى ثلاث تنبيهات وارشادات للمراجعين:

أولاً: أوردنـا الفعـل ثم الاسم لكـل مـادة، بمـراعـاة الـترتيب حسب الاشتقاق والمعنى، طبقاً لما هو مقرر في علمي الصرف والنحو.

ثانياً: أوردنا الحديث وأتبعناه بالمكـان الذي يـوجد فيـه لفظه، والأمـاكن الأخرى باعتبار المعنى فقط.

ثالثاً: النجم المزدوج يدل على تكرار في الحديث المنقول، أو في الباب، أو في الصفحة.

وهو على الرغم من بعض أغلاطه وعدم استقصـائه أحيـاناً، عمـل متقن وأمين، لا مجال للدس والتشكيك فيه، وسهل المراجعة، ومنظم.

٣ ـ **العقيدة الإسلامية**: نشأتها وتطورها. بالإنكليـزية (كمـبردج ١٩٣٢) السابق. وهو ضمن دراسـاته عن الأديـان، وبخاصـة: اليهوديـة، التي أكثر فنسنك التأليف فيها، مما يدل على وجهته الدرسية الغالبة، ثم لربطها بكتابه

السابق ما أمكنه الدس. يقول د. البهي[٥٧]: (هو) لدود للإسلام ولنبيّه، كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري، ثم أُخرج منه على أثر أزمة أثارها الدكتور الطبيب: حسين الهراوي، مؤلف كتاب: المستشرقون والإسلام، صدر في سنة ١٩٣٦، وحدث ذلك بعد أن نشر فنسنك رأيه في القرآن والرسول، مدعياً أن الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته. وناقشه د. الهراوي[٥٨] في مزاعمه عن صلة الإسلام باليهودية، وبديانة إبراهيم عليه السلام. وبيّن أن المستشرقين - وليس فنسنك الا واحداً منهم - يفترضون الفرض بما تمليه عليهم أهواؤهم وأغراضهم، ثم يلتمسون الأدلة على إقامته في النصوص الإسلامية القديمة، فيأخذون منها ما يؤيدون به مزاعمهم، بعد أن يبتروه عما قبله وعما بعده. ثم يهملون ما لا يتفق مع مزاعمهم، ويتجاهلونه، وقد قدم الهراوي في مقاله هذا طائفة من الآيات القرآنية التي تنقض زعم فنسنك من أساسه - مبيناً أنه قد تعمد إهمالها[٥٩].

ومما سبق يمكن أن نستنتج ما يلي:

١ - فكره القاموسي في تصنيف المعاجم للحديث النبوي حسب الترتيب الهجائي، المعنوي اللفظي في الأول: (المفتاح)، واللفظي فقط في (الثاني).

٢ - شغفه بالدراسات اليهودية المستقلة وذات الصلة بالإسلام.

٣ - دسه وافتراؤه على العقيدة الإسلامية، والقرآن، والرسول عليه الصلاة والسلام، وربط ذلك كله بالكتب الدينية والفلسفية السابقة. وكذلك ربطها بالتقاليد الساميّة في موضوع: الشمس، والصوفية الشرقية في الآداب السريانية.

٤ - وهو أكثر دساً وافتراء في مقاله: الأثر اليهودي في أصل الشعائر

---

(٥٧) د. البهي في: المبشرون والمستشرقون ص ٢٦.
(٥٨) راجع: المستشرقون والاسلام، د. حسن الهراوي.
(٥٩) الاتجاهات الوطنية ٢/٣١٤.

الإسلامية، ومقاله عن (الحج) في دائرة المعارف الإسلامية ـ واشترك معه غيره ـ على أنه خليط من الوثنية والسامية واليهودية. وأعرض هو كما أعرضوا عن الأصل الأكبر في الحج من التوحيد الخالص والعبودية المجردة والمنافع المشهودة، ثم إحالة شعائره إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام[٦٠]. وسيأتي تفصيل ذلك.

الخامس: لامانس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) Lammens, P.H. يسوعي بلجيكي المولد، فرنسي الجنسية:

انضم إلى الرهبانية (١٨٧٨)، من أوائل خريجي جامعة القديس يوسف، في بيروت، حيث حصّل اللغة العربية، ثم أصبح أستاذ (البيان) فيها، ثم تنقل شرقاً وغرباً (١٨٩١ ـ ١٨٩٧)، فدرس اللاهوت في انكلترا، وتولى إدارة (البشير) في بيروت، وعلّم في لوفان وفينا وروما، حتى استقر في جامعة القديس يوسف، وعهد اليه بالدراسات الشرقية فعكف عليها، حتى إنه قرأ (الأغاني) (١٧) مرة والقلم في يده... وسبق شيء من ترجمته وأعماله ومنهجه... من آثاره: في تاريخ الشرق الأدنى: سوريا ورسالتها التاريخية (محاضرة، القاهرة ١٩١٥)، والتطور التاريخي للجنسية السورية (محاضرة، الاسكندرية ١٩١٩)، وتاريخ سوريا: جزآن (المطبعة الكاثوليكية ١٩٢١)، وخمسون سنة على جامعة القديس يوسف في بيروت (١٨٧٥ ـ ١٩٢٥) (المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٥) وتاريخ نصارى الشرق (المشرق): ٣، ١٩٠٠، وتاريخ الإسلام والإسلاميات: (٨٠) مقالاً في دائرة المعارف الإسلامية (ليدن ١٩١٣ ـ ١٩٣٤)، و: الحكام الثلاثة أبو بكر وعمر وأبو عبيدة (منوعات الكلية الشرقية، ٤، ١٩١٠) و: اخلاص محمد (مباحث العلوم الدينية، ٢، ١٩١١) و: فاطمة وبنات محمد في ١٧٠ ص (روما ١٩١٢) و: مهد الاسلام: الجزيرة العربية الغربية قبيل الهجرة (روما ١٩١٤).

---

(٦٠) انظر مقالي في: التضامن الاسلامي السنة ٣٣ الجزء العاشر ١٩٧٩.

ويبدو من حياته العلمية اتجاهه العام: التاريخي والديني في أسلوب شديد التطرف تبعده عن المنهجية روحاً وطريقة:

١ - الاتجاه الديني: وهو معروف من مسلكه الكنسي اليسوعي ومنبته الرهباني، ثم في تدريسه في أعرق جامعة تنصيرية، وصلته بأعلام المستشرقين المعروفين بعدائهم للإسلام، وبالصحيفة الصليبية المشهورة (البشير) التي يعرف نشاطها وغرضها من اسمها.

وكتابه (مهد الإسلام) يمثل اتجاهه المتطرف في فهم البيئة التي نشأ فيها الإسلام، ثم عرض ذلك ضمن سلسلة دينية من أصول وثنية جاهلية ممتزجة بتصور الرسول الخاطىء عن النصرانية بسبب لقاء الرسول ﷺ ببعض رهبانها.

وكتابه (إخلاص محمد) وبعض مقالاته لها صلة باتجاهه الصليبي وإن كانت تبدو بالمنهج التاريخي ثم أنه يستشهد على القضايا الدينية بما حصّل عليه من شواهد أو أخبار من كتاب الأغاني الذي قرأه (١٧) مرة، مما يعيق نجاح الدراسة من الناحية المنهجية أيضاً.

٢ - الاتجاه التاريخي: وهو الأغلب على انتاجه حتى إن الاتجاه الديني كان يعرضه بصور تاريخية أيضاً.

وإذا أردنا الدقة فإن بعث الاقليمية أو الحضارة المحلية تشغل القسم الأعظم من إنتاجه، إلى جانب طرحه الطعون والزيوف على الشخصيات التاريخية الإسلامية. وفي هذا تأكيد للإقليمية على المستويين في التاريخ الإسلامي العام وفي تاريخ المناطق والأقاليم.

ويهمنا إيضاح اتجاهه التاريخي في السيرة النبوية وتراجم الصحابة خاصة، فقد نفذ منه إلى طرح صليبيته في إطار بحثي لم يحقق فيه أي كسب ثقافي أو كشف حقيقة علمية وتاريخية. قلت في مناسبة سابقة في (المجلة العربية):

إنه سلك في دراساته عموماً المنهاج العكسي أو المعاكس: ويقوم على

استخدام جميع الوسائل لعكس الحقائق والفضائل وقلبها رأساً على عقب وإظهارها بالصور الباهتة والأشكال المشوهة، فهو يعمد إلى أرفع الفضائل وأقدس المقدسات وأرقى المزايا ويعكس مدلولاتها ويقلب فضائلها ويعرضها بأوضع الخصال وأخس المزايا، كما أنه يأتي إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها متعمداً إلى عكسها، وكلما كان الخبر أوثق بدت ـ قوية جامحة ـ الرغبة في البراعة من ذلك الذي يتبع هذا المنهج، ويتبع هذا المنهج عدد من المستعربين وعلى رأسهم القسيس لامانس، فهو ذو هوى جامح عنيف ثائر، ومنهاجه ساذج يعتمد على إثارة الإنفعال عند القارىء المسلم، إنفعال الدهشة بدءاً ثم الاشمئزاز نهاية، والعجيب أنه لا يطبق هذا المنهج على الأناجيل لأنه لو فعل ذلك لوجب أن يعكس كل حسنة منها إلى سيئة، وكل منحرف إلى قديس. . . ولذلك أمثلة:

أ ـ يقول (لامانس): زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة، بل لقد عللوا النجاح في الفتوحات الإسلامية بما امتاز به العربي من صفات ومزايا، ولكنني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كل المبالغة. . .
ثم يقول لامانس: إن شجاعة العرب إنما هي نوع غير «سام». والرد على القسيس المستعرب هو أن يقرأ آلاف الشهادات في شجاعة العربي في حروبه الحديثة والقديمة.

ب ـ الرسول كان يكره الوحدة. . . ولكن من الثابت تاريخياً تحنث الرسول ﷺ في غار حراء منصرفاً كل الانصراف عن عالمه المادي، ومع ذلك فقد حبب إلى الرسول دعوة الناس إلى الله. . .

ج ـ الرسول كان كثير النوم. . . ولكنه بهذا يكذب أصدق وثيقة في الدنيا ألا وهي القرآن الكريم حين يقول الله عن رسوله: **﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾** (المزمل: ٦٠)

د ـ عمر بن الخطاب كان جندياً مسكيناً أدنى مرتبة من الوسط. . . ولكن

لامانس في كراهيته للإسلام وشخصياته ينسى أو يتناسى هذا الوصف حينما يريد أن ينقص ـ معاذ الله ـ من شأن الرسول الكريم، فيذكر أن عمر سيطر عليه هو وأبو بكر. ولكن من يصدق هذا الهراء بعد أن أطبقت الدنيا على قدر عمر العظيم واتباعه للرسول قولاً وفعلاً وأخلاقاً.

هـ ـ أبو جهل وأبو لهب والمنافقون في مقام رفيع يستحقون كل إطراء. . . فهو يلبسهم من الفضيلة ثوباً لامعاً خلاباً. . . ، والمنافقون بنظره هم أبطال الوطنية، . . . ولكن من هو الدخيل؟ لا نجد عند القسيس جواباً.

وهكذا فإن لامانس جريء جرأة نادرة تتمثل في أنه إذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة على خبر واحد يؤيد زعمه وهواه استغنى عن الخبر وثبت على مزاعمه الباطلة، وأحياناً يقول: إن هذا أمر عنى رجال الحديث والأخبار بكتمانه.

السادس: جولد زهير (إجنس) Ignaz Goldziher (١٨٥٠ ـ ١٩٢١) مجري:

يهودي من أسرة مجرية معروفة، حين كانت المجر جزءاً من الإمبراطورية النمساوية، درس في بودابست ثم انتقل إلى برلين ١٨٦٩ ثم ظفر بالدكتوراه الأولى ١٨٧٠ برسالته عن شارح يهودي في العصور الوسطى، شرح التوراة، هو (تنخوم أورشلمي)، درّس فترة قصيرة في جامعة بودابست ثم قام برحلاته إلى الشرق فأقام بالقاهرة مدة واختلف إلى الأزهر يحضر دروس الشيخ محمد عبده ويلتقي بعلمائه وهو مرتد الزي الأزهري ثم سافر إلى سوريا والتقى بالشيخ طاهر الجزائري وزار فلسطين. وفي سنة ١٨٧١ انتخب عضواً مراسلاً للأكاديمية المجرية ثم رئيساً لأحد أقسامها ١٩٠٧، وعرف عنه عدم اهتمامه بالأحداث المعاصرة، واهتمامه بالدراسات الإسلامية

عموماً وبدراسة الحديث والتفسير خصوصاً. من آثاره: كان غزير الانتاج حتى بلغت (٥٩٢) أثراً مختلف الحجم، ومنها: الظاهرية: مذهبهم وتاريخهم (١٨٨٤) فدرس فيها خصوصاً أصول الفقه والمذاهب الفقهية المختلفة، ودراسات اسلامية في جزئين:الأول ١٨٨٩ يتحدث فيه عن الوثنية والاسلام، والثاني: في الحديث النبوي: تاريخه وتطوره، وكشف عن قيمة الحديث باعتباره مصدراً لمعرفة الاتجاهات السياسية والدينية والروحية في مختلف العصور وبذلك أخرج الحديث عن وجهته الدينية والتشريعية والأخلاقية والمصدرية، ثم نشر كتاب: المعمّرين لأبي حاتم السجستاني ١٨٩٩ مع مقدمة. ومقدمة لكتاب: التوحيد لمحمد بن تومرت مهدي الموحدين، وفصول من كتاب المستظهري في الرد على الباطنية للغزالي (١٩١٦، ليدن). ولكن اشهر آثاره كتابان: الأول: محاضرات في الإسلام (هيدلبرج ١٩١٠) حيث بيّن فيه (تطور الشريعة) وتطور علم الكلام وعن الزهد والتصوف وبعض الفرق: كالخوارج والشيعة، والبابية والبهائية والسيخ والأحمدية.

أما الكتاب الثاني فهو: مذاهب التفسير الإسلامي[٦٢] في ٤١٨ صفحة، حيث بيّن فيه تكوّن تاريخ النص القرآني أولاً، واختلاف القراءات فيه، ولكنه ضل في بيان أسبابها، ثم تناول مدرسة ابن عباس القديمة في التفسير المأثور وما أخذه من اليهودية والنصرانية مع ما يتفق مع النص، ثم بيّن الاتجاه إلى التفسير العقلي الذي بدأته المعتزلة حتى انتهى بـ(الكشاف) للزمخشري، وبعده الاتجاه الصوفي في التفسير الظاهري والباطني مبتدئاً بإخوان الصفا حتى يصل إلى ابن عربي وكذلك الاتجاه الشيعي في التفسير الرمزي التأويلي، وأخيراً الاتجاه الحديث على تعدده: في الوجهة الحضارية كما فعل أمير علي،

---

(٦١) من مقالي في: المجلة العربية العدد ١٠ السنة الرابعة.

(٦٢) حاضرت عنه منذ أكثر من (٥) سنوات، والنسخة المترجمة عن الخانجي بمصر والمثنى ببغداد ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م.

والوجهة السلفية والعقلية كما فعل الشيخ محمد عبده...

ومن المعلوم أن رد الشيخ محمد الغزالي في: دفاع عن العقيدة والشريعة، أوضح فيه مفتريات جولد زهير في (تطور) العقيدة الإسلامية[٦٣] وربط الشريعة الإسلامية بالشرائع السابقة، بالإضافة إلى الردود والملاحظات على كتاب جولدزهير نفسه من مترجميه د. محمد يوسف موسى، و د. علي حسن عبدالقادر و د. عبدالعزيز عبدالحق.

وسنفصل بعض الإفتراءات والشبه على كتابه الأخير: مذاهب التفسير الإسلامي، فقد قال مترجمه د. عبدالحليم النجار: عمل مبتكر من حيث المنهج وأسلوب البحث، طريف في عرض مناحي الدراسات القرآنية وتاريخ الثقافات الإسلامية[٦٤].

ولكننا نجد ما يزيد عن (٦٠) موضعاً زاغ فيها المؤلف ورد عليه، مما جعله يصنف في عداد المستشرقين الخطرين الحاقدين على الإسلام وأصوله وثقافته ورجاله، متأثراً في كل ذلك بيهوديته سواء كانت متمثلة في (الطعون) أو (التشكيك) أو (التفسير الشخصي) أو فيها جميعاً، أو كانت في (نوعية) البحوث التي تناولها وبخاصة في الفترة المبكرة من حياته.

وكما أثنى الدكتور النجار على مؤلفه: مذاهب (اتجاهات) التفسير الإسلامي فإن د. البدوي يطنب في الثناء ويقول: الكتاب الذي توج به تلك الحياة العلمية الخصبة... ويختم (جولد زهير) الكتاب بعرض رائع للاتجاه العصري في تفسير القرآن. ثم يقول: وهكذا يقدم لنا جولد زهير في الظاهر تاريخاً حياً لتفسير القرآن، بينما هو في الحقيقة انما يعرض لنا فيه مرآة

---

(٦٣) والكتاب بعنوان: العقيدة والشريعة: تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الاسلامي ط ٢، دار الكتب الحديثة بمصر والمثنى ببغداد، وقدم له د. محمد يوسف موسى، رمضان ١٣٧٨ هـ/١٩٥٩ م.

(٦٤) من مقدمة المترجم.

صافية انطبقت فيها صورة قوية واضحة للحياة الروحية طوال ثلاثة عشر قرناً عند ملايين الملايين من المسلمين.

ولكن د. البدوي سبق أن تحدث عن منهج جولد زهير (التأثري)، فهو قد نما على حرارته جيل ضخم من أئمة المستشرقين، يعتمد على البصيرة والوجدان وينهج في أبحاثه منهجاً استدلالياً لا استقرائياً، فكان يقبل على النصوص وفي عقله جهاز من المقولات والصور الإجمالية يحاول تطبيقها على هذه النصوص والتوفيق بينها وبين ما يوحي به ظاهر النص... ولم يكن يتقدم إلى النصوص خالياً من كل شيء...

وعلى هذا فقد افتقد في المنهجية عنصرين هامين: التجرد والموضوعية والتأثر بالرواسب الدينية والاستشراقية، والتحكم بالنصوص وفق رصيده المعرفي المغرض وتجربته الذاتية في تفسير الروايات والأخبار البعيدة عن تفسير العلماء المختصين الموثوقين، مفضلاً عليه روايات مرجوحة أو ضعيفة تؤيد معرفته وتفسيره الخاص، مهما جانب الحقيقة ونأى عن المنهجية. وهو ما فعله خاصة في كتابه (المذاهب).

١ - يقول في مقدمة كتابه: ... فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله، مثل هذه الصورة من الاضطراب، وعدم الثبات، كما نجد في النص القرآني.

ففي هذا الكلام افتراء على سلامة النص القرآني بالتغيير والاضطراب، ويغفل عما صح تواتره من رواية القراءات القرآنية الثابتة. وهو جزء من مقدمته الطويلة المحشوة بالافتراء والتزييف والبالغة (٧٢) صفحة. فهي أشبه بالبحث المستقل الذي اعتبره أساساً لكتابه فيما بعد. والكلام السابق يحمل دلالات لا منهجية عديدة منها:

أ - أنه حكم (مستعجل) ونتيجة (مسبقة) لم يقدّم لها أي برهان، يحاول

فيه نقل التأثر الشخصي إلى الآخرين بطرح (حقيقة) زائفة.

ب ـ أنه خارج عن موضوع الكتاب في بيان (اتجاه المسلمين في تفسير القرآن) عبر القرون. فليس منه توثيق (نصه) وبيان (سلامته) من التحريف.

ج ـ أنه دعوى من غير برهان، فلم يعرف عنه اطلاعه على القراءات والروايات (الثابتة) في الكتب والصحف الدينية السابقة بدءاً من صحف نوح وإدريس وإبراهيم عليهم السلام ونهاية بالأناجيل المتعددة التي ضاعت أو فقدت أو ثبت تحريفها وتغييرها، ثم هو هنا تعميم خيالي يفسد المنهجية الموضوعية.

٢ ـ **الدس الفكري العقائدي**: ويبدو في الشكل والمضمون والطرح الفكري الدخيل.

أ ـ **في الشكل**: حيث جعل المقدمة وهي في سلامة النص القرآني جزءاً من العمل التفسيري وعنون له بـ (المرحلة الأولى من التفسير)[٦٥] ثم لم يعنون للمرحلة الثانية ولا للثالثة... وهكذا...

ب ـ **في المضمون**: فقد ربط دسه في القرآن بجوانب عديدة منها: موازاة القرآن بالإنجيل من حيث العقيدة مع أن القرآن ينكر انحرافات التغيير العقدي الإنجيلي. وكذلك الموازاة معه في أن (كل امرىء يجد فيه على الخصوص ما يطلبه) ص ٣، وهي دعوى لا يطلبها القرآن ولا الإنجيل من وجود أمور لا تليق بهما أو بأحدهما.

ج ـ **في الطرح الفكري**: فقد دس افتراءات لا صلة لها بالموضوع الأساسي منها: التوراة (مصدر الكلمات القرآنية)، والقرآن من صنع محمد ﷺ في قوله عند أول سورة الروم: أنا محمد فقد ساء تأثره من

---

(٦٥) ص ٣.

هزيمة النصارى إذ كانوا على كل حال أقرب إلى عاطفته، ولكنه في الوقت نفسه عبر عن ثقته بأن الدائرة ستدور قريباً على الفرس[٦٦]. . . وأن تصويبات (الحديث) بسبب الاحتياطات الدينية مثل تصويبات القراءات في القرآن. يقول: إن مثل هذه الاحتياطات الدينية قد دعت أيضاً في بعض الأحيان إلى إجراء تصويبات في الحديث، وإن كانت نصوصه من أول الأمر أكثر اضطراباً من نص القرآن[٦٧]. . . ثم يذكر مثالاً لا يصح الاستشهاد به لما يريد.

والقضية المطروحة الأخيرة لا تحمل شكه في القرآن والحديث معاً وحسب وإنما يبرزها في موضع عمل بحثي (غير ملائم) ضمن منهج موضوعي إلى جانب ما يثيره تعبيره من النفور الفكري في أن الحديث (أكثر اضطراباً) من نص القرآن. حيث يوهم جولد زهير أن القارىء قد اقتنع بالاضطراب النصي في القرآن فيوحي له أن الحديث أكثر اضطراباً منه.

٣ ـ الأسباب الواهية في تعليل القراءات: إن تعليلاته في اختلاف القراءات لا تستند إلى مصدر صحيح ولا إلى استنتاج مقبول لأنها قبل كل شيء تعتمد على النقل الصحيح المتواتر. ولكنه:

أ ـ يعتبر (التغيير) في اللفظة القرآنية تغييراً دخيلاً أو أجنبياً مع أنه (قراءة ثابتة) بالتواتر عن الرسول عليه الصلاة والسلام وقعت أثناء حياته وأقرها لكل من عمر وهشام بن حكيم في رواية صحيحة[٦٨] وإن كان جولد زهير يشك في جميع روايات الحديث لأنها أكثر اضطراباً.

---

(٦٦) ص ٣٠.

(٦٧) ص ٤٤.

(٦٨) صحيح البخاري في فضائل القرآن، باب انزل القرآن على سبعة أحرف ٤٩٩٢ وغيره، وفي مسلم في المسافرين، النووي ١٠٨/٦، وأحمد ٢٩٩/١ ومواضع أخرى.

أما (التغيير) بسبب القراءات الشاذة أو الأحادية فلا يعدها العلماء ثابتة.

ب ـ الاعجام والشكل: يقول جولدزهير: خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط... واختلاف الحركات... باختلاف مواقع الإعراب للكلمة[69]... ثم يأتي بأمثلة لاختلاف في قراءات (منكرة) مثل قوله: ﴿**ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون**﴾ (الأعراف: ٤٨) قرأ بعضهم بدلاً من تستكبرون بالباء الموحدة، تستكثرون بالثاء المثلثة[70]، وأمثلة أخرى من هذا النوع.

والسبب المذكور لا يصح في القرآن لأن المسلمين تلقوه وحفظوه شفاهاً قبل ومع تلقيه كتابة، ثم إن اختلاف قراءته في موقعة اليمامة ليس لأنه (مقروء) في كتاب ولكن لأنه (مسموع) من أفواه الصحابة الذين سمعوا قراءاته من الرسول، فكتابة القرآن تثبيت للنص المقروء والمحفوظ وتوكيد لسلامته وحفظه. كما أننا لا نقبل تعبيره عن بناء اللفظة القرآنية بـ (الهيكل) من يهودي متطرف في يهوديته. ثم إذا حرص علماؤنا في التراث عموماً، في الضبط اللغوي والرجال على التصريح فهل يقل حرصهم في ضبط القرآن لفظاً وكتابة عن ذلك؟

ج ـ الزيادة المفسرة: يتردد جولد زهير في إثباتها ونفيها ولكنه يميل تلميحاً وتصريحاً إلى نصيته فيما بعد يقول: وليس بواضح حقاً ما قصد من هذه الزيادات. هل قصد أصحابها من ذلك إلى تصحيح حقيقي للنص، أو إلى إضافة تعليقات موضحة فقط لا تغير النص في شيء

---

(٦٩) ص ٨ بتصرف طفيف جداً.

(٧٠) ص ٩ وأنظر الحاشية.

ونظر اليها جيل متأخر بالنظرة الأولى. . . فقد زاد ابن مسعود قوله: (وهو أب لهم) بعد قوله تعالى: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ (الأحزاب: ٦)[٧١]، كما زاد قوله (متتابعات) بعد قوله تعالى: (. . . **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام**. . .)[٧٢] (االمائدة: ٨٩) ولكنه لم يعرف عنه تصريحه بها ولا قراءته لها كما نسب إلى عائشة[٧٣]، وأنس بن مالك[٧٤] وغيرهما زيادات نصية.

د - التغيرات التنزيهية[٧٥]: كما سماها جولد زهير نفسه، وهي بزعمه ألفاظ لا تليق بالله ولا بالرسول فيغيرها القراء مثل قوله تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم**. . .﴾ (آل عمران: ١٨) يقول متخيلاً أمراً لا يليق بالله: أدرك بعضهم ما تثيره شهادة الله لنفسه، لا سيما مع قرن ذكره بالملائكة وأولي العلم على أنهم شاهدون معه، فاستعانوا على علاج ذلك بالاستعاضة عن قراءة الفعل (شهد الله) بصيغة الجمع (شهداء الله) ولم يجر مثله في الآية ١٦٦ من سورة النساء ﴿**لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون**﴾ فتركوها دون تغيير لصعوبة التعديل بها، ويعلق د. النجار على ذلك بقوله: وهذا دليل على أنه يبني أقواله على هواء، ولو أن القراءة الأولى كانت مبنية على ما ذكره (من التغيير التنزيهي) للزم أن يراعي ذلك أيضاً في آية النساء[٧٦].

ومثلها قوله: ﴿**قال رب احكمْ بالحق**. . .﴾ (الأنبياء: ١٢) قرأها الضحاك بن مزاحم: (قال رب أحكمُ بالحق. . .) بصيغة التفضيل

(٧١) ص ٢٢.
(٧٢) ص ٢٦.
(٧٣) ص ٢٥.
(٧٤) ص ٢٦.
(٧٥) ص ٣٢.
(٧٦) ص ٢٣.

(أي ربي أعظم حكماً بالحق من كل حاكم. . .)[٧٦]، ويرد عليه: (أنها) قراءة آحاد لابن عباس، ومن قرأ بها بعده اعتمد عليه، والضحاك ليس من ثقات القراء كما زعم، وإنما اشتهر بالتفسير. . . والمراد: طلب التعجيل والتشديد عليهم بالعدل في الدنيا، وقدم للمسلمين ذلك يوم بدر وما بعده[٧٧]. والتغيير التنزيهي بما لا يليق بالرسول على حد زعم جولدزهير جرى في قوله تعالى: ﴿**وما كان لنبي أن يَغُلَّ. . .**﴾ (آل عمران: ١٦١) يقول: وإذاً فربما بدا غير لائق في نظر بعض المؤمنين أن يفسح المجال لأدنى افتراض ينسب إلى الرسول عملاً غير صالح. . . بقراءة الفعل مبنياً للمجهول (وما كان لنبي أن يُغَلَّ. . .)[٧٨] . . . ويرد عليه: أن الإتهام حصل فعلاً من بعض المسلمين للنبي ﷺ وإن كان ذلك في سريرة نفوسهم ونزلت الآية في ذلك رداً عليهم وتعليماً للمؤمنين إذ كانوا حديثي عهد بالإسلام. . . (وفيه) حجة على أن الإسلام لا يداري ولا يواري. . . وقراءة (المعلوم) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم من السبعة ووافقهم ابن محيصن واليزيدي، وقرأ الباقون على (المجهول)، ومعناها متردد بين المعنى الأول، والمعنى الثاني وهو النهي عن أن يخون أحد النبي[٧٩].

هـ - ومنها حرية القراء وتسامحهم: وهو افتراء على حفظة كتاب الله من غير أن يقدم أي دليل صحيح. فـو يقرر قاعدة (زائفة) و (مسلمة) بقوله: كانت تسود حرية مطردة إلى حد الحرية الفردية[٨٠]. ويسوق دعماً لها أخباراً مكذوبة أو آحاداً لا تصح وهو يتعارض مع ما نقله عن

(٧٦) ص ٣٧.
(٧٧) ص ٣٧ د. النجار، الحاشية بتقديم وتأخير بسيط.
(٧٨) ص ٤٠.
(٧٩) د. النجار في الحاشية بتصرف طفيف، ص ٤.
(٨٠) ص ٤٨.

ابن مسعود قوله: فاقرؤوا كما عُلّمتم[٨١]. . . فأين هذا من التغيير بسبب الحرية الفردية؟ ثم يسوق خبراً غير صحيح في قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . .﴾ (آل عمران: ١٠٤) قال: أضاف عثمان زيادة لم تؤخذ في النص العثماني وهي: (ويستعينون الله على ما أصابهم). ويرد عليه: هذا الخبر غير صحيح وهو من أخبار الآحاد التي لا يعتد بها. . . كيف وقد ثبت أن عثمان قد أحرق كل مصحف يخالف مصحفه، وثبت أنه قتل وهو يقرأ في مصحف مكتوب من مصاحفه[٨٢]؟ ومع أن جولدزهير يشير إلى اعتراضات القراء على الحرية الفردية[٨٣] فإنه يقول: حصل في مسألة القرآن توفيق بين الحرية الفردية ومطالب التسوية بين القراءات المختلفة[٨٤].

٤ ـ **عيوب وأخطاء منهجية في الكتاب**: وعلى الرغم من ثناء بعض الباحثين على الكتاب فإن أية مزية فيه ان وجدت، تزول بسبب تأثر قضاياه ونتائجه بيهوديته ورواسبه الفكرية، وذلك لاستخدامها في الطعن بسلامة الأصل الأول: القرآن، والافتراء الفاحش على توثيقه واستقامته.

ومن العيوب:

أ ـ التعارض في الأقوال: يقول جولدزهير: . . لم يحرز الميل إلى التوحيد العقدي للنص (القرآني) الا انتصارات طفيفة[٨٥]. . . ثم يقول: وتجاه هذه القراءات يسود الميل إلى التسامح في اختلافها، فلم تستبعد مثل تلك القراءات المختلفة[٨٦] وواضح أن القول الأول يعني

---

(٨١) ص ٥٠.
(٨٢) ص ٤٨ الحاشية.
(٨٣) ص ٥٢.
(٨٤) ص ٥٥.
(٨٥) ص ٥.
(٨٦) ص ٧.

توحيد النص القرآني والانتصار له، بينما القول الثاني يصرح بتعـدد وجوه النص وعـدم تـوحيـده. ويقـول: وتـرجـع نشـأة قسم كبـير من هــذه الاختـلافات (في القـراءات) إلى خصوصيـة الخط العربي[87]. . . وهـذا يعني نشـوء القراءات متـأخراً عن الخط العـربي. بينما يتقـدم قولـه: هذا النص (القـرآن بقراءاتـه) يعرض منـذ أقدم عهـود الاسلام في مـواضـع كثيرة، قراءات معتمدة على الروايات الموثوق بها[88]. . . وهذا يعني قـدم القراءات قبل نشوء الخط العربي. . . ويؤكـده قولـه فيما بعـد: . . . أنه فيـما يتعلق بإقـامة النص المقـدس في الإسلام الأول كـانت تسود حـريـة مطردة[89].

ب - قصور في مذهب التفسير الإسلامي - الأخرى فلم يشتمل بحثـه على مـذاهب العلماء في التفسـير الفقهي التشريعي كـما في تفسـير القـرطبي، وتفسير أحكام القرآن، ولا على التفسير اللغوي النحـوي كما في كتب أبي عبيدة والزجاج والفراء، ولا على التفسير الكوني والطبي[90]. . .

ج - أخطاء مقصودة وغير مقصودة: فقد نسب جولد زهير خطأً تفسير ابن العـربي (ت ٦٣٨ هـ) الصـوفي المشهـور إليـه، بينـما هـو في الحقيقـة لتلميذه القاساني، كما نسب كثيراً من أقوال محمـد رشيد رضـا إلى الشيخ محمـد عبده[91]، ولكن الأخـطاء الفكريـة والدينيـة بدافـع من التعصب الاستشراقي أكثر من أن تحصى،فلا يخلو منها صفحة من كتابه وبخاصة في مقدمته الطويلة، ولا غرو فإنها منطلقة من هواه ونزعاته المنحرفة.

ثانياً: أغراض المستشرقين:

إذا دفعت المستشرقـين إرادة تخـاذل المسلمـين وتغـريبهم وتثبيت القـوى

---

(٨٧) ص ٨.
(٨٨) ص ٦.
(٨٩) ص ٤٨.
(٩٠) من مقدمة المترجم.
(٩١) المقدمة أيضاً.

الإستعمارية في بلادهم فإن أغراضهم لا تبتعد كثيراً عن هذه الدوافع طالما أن كل دافع منها يتضخم فيصبح هدفاً وغرضاً. ولكنا من الناحية المنهجية لا بد من أن نبين أغراضهم أيضاً لترتسم صورة العمل الإستشراقي واضحة في دوافعه ومقاصده معاً.

١ ـ الغرض الصليبي التلمودي:

وقصد إليه فئتان: المستشرقون الرهبان، والمستشرقون الطلائع وهؤلاء وأولئك قد تربوا في الأديرة والكنائس وأخذوا من معارفها، وجمعوا إلى دراساتهم اللاهوتية المتعصبة دراسات إسلامية مغرضة، فنمت ثقافتهم بالمتعارضات من الأفكار والحجج، والتطرف من الطرائق والأساليب، والتركيز على الطعون والتزييف في الحقائق الإسلامية.

ومع هذا فإن حرصهم في تزييف التراث العلمي واللغوي الإسلامي نقلاً وترجمة وتعلماً لم ينته إلى حد، سوى استيعابهم هذا التراث من مكتبات الأندلس وصقلية وبلاد الشام ومدارسها وينابيع معارفها، وبدلاً من أن تأخذ حياتهم طريقها في الوعظ الشعبي العام ضمن الإرساليات الكنسية انصرفوا إلى (تنصير) الفكر الإسلامي عموماً والمثقف خصوصاً بشكل سافر ومقذع في أول الأمر ثم بشكل خفي مجامل فيما بعد.

ولذا فإن طعوناً فكرية تعلموها، وافتراءات على الحقائق الإسلامية تناولوها من الرهبنة المتطرفة ثم حاولوا أن يفرضوها في المكتبة الإسلامية، أو يبحثوا عنها بمنهجية من التشكيك والافتراض، وتوهين المقدسات ليكرسوا الافتراءات الكنسية في إطار من الطريقة الموضوعية المفتعلة.

ولاحظ الدارسون أن تدمير الثقافة الإسلامية بتزييف حقائقها من أخطر الأعمال الاستشراقية. واستنتجوا أن المنهجية البحثية لا تقبل مثل بحوثهم ودراساتهم، لأن الغرض الكنسي واضح من بيئتهم العلمية والمعاشية السابقة، فهم متأثرون بعنف الأفكار المسبقة التي يحاولون الاستدلال عليها من غير مصادرها.

لذا فإن دراساتهم تفقد أهميتها المنهجية، وبالتالي فإن استنتاجاتهم المتأثرة لا ترقى إلى القناعة والقبول. ومع هذا فإن المعارف الكنسية المتأثرة بالمزاجات الشخصية والاستغلال العلمي والروحي والاجتماعي والسياسي استطاعت أن تجذب اليها فئة من المثقفين وتجهز عقليتهم برواسبها كما تربي نفوسهم على أحقادها، فيشغفوا بجمع الاعتراضات والردود التي يمكنها أن تبني رصيداً فكرياً متهافتاً في مادته وطريقته، فدرسوا القضايا الدينية في العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق، كما تناولوا القضايا التاريخية واللغوية والسياسية والاجتماعية في تاريخ الإسلام وواقع المسلمين.

فمن المستشرقين الرهبان: جيوم وسميث ولامانس واندرسن.

ومن الطلائع: أولر أون باف، وبطرس (المحترم) و(روجر بيكون).

وهناك فئتان أخريان من المستشرقين ساهموا في النشاطات الاستشراقية وعرفوا بها، وهم العلمانيون واليهود وهؤلاء وأولئك لم يقصدوا من أعمالهم تحقيق مكاسب كنسية معروفة.

فرينان مثلاً في القضايا العقدية والفلسفية كان متأثراً بالاتجاه العلماني أو الإلحادي الغربي وعالج دراساته بهذه الروح المادية محاولاً التقليل من روعة التراث الإسلامي ومشككاً في فضائله وقيمه.

والمستشرقون اليهود مثل: جولدزهير وكراوس وكوفمان لم يقبلوا على الاستشراق بأي غرض ديني سوى إثبات فضل اليهودية على الإسلام (بادعاء ان اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول، ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً، ثم دولة ثانياً)[٩٢].

والملاحظ هنا اشتراك جميعهم بالدراسات العبرية والإنجيلية ثم تآزرهم في حملات صليبية فكرية غازية في صور استشراقية متطرفة وأكثر تطرفاً.

---

(٩٢) د. البهي في: المبشرون والمستشرقون ص ١٢.

٢ ـ تزويد الأعمال المبكرة أو الممهدة للاستعراب:

فبالاضافة إلى دراساتهم الصليبية واليهودية المتحيزة فإن انبهار المستشرقين بالرصيد الثقافي الإسلامي الضخم الهائل جعلهم يتحيرون في طريقة استيعابه والإحاطة به، ومن ثم استغلاله فكرياً لتأييد وجهة نظرهم.

يقول بارث[٩٣]: وعمل المستشرقين يسعى إلى هدف بعينه هو: اختراق الأفق الفكري الذي تفرضه البيئة حولهم، وإلقاء نظرة إلى عالم الشرق، لكي يتعلموا من الكيان الغريب عليهم كيف يحسنون فهم امكانيات الوجود الإنساني، وكيف يحسنون بهذا فهم ذاتهم في نهاية المطاف.

فلا بد من أن يقربوه ويجمعوه إلى من بعدهم في إنشاء موسوعات جامعة وتحقيق الأصول الثقافية التي تسهل لهم الحصول على المعارف من أيسر سبيل.

وهي أعمال وإن لم يختص بها المستشرقون الطلائع يمكن اعتبارها طابعاً عاماً للمتقدمين والمتأخرين، فإنها غلبت على أعمالهم ونشاطاتهم.

أ ـ فقد (ترجم) القرآن مبكراً باعتباره الأصل الأول في اللغة والتشريع والفكر والتربية والثقافة الإسلامية عموماً، فكانت أول طبعة للقرآن في نصه العربي عام ١٥٣٠ تقريباً في البندقية، ثم طبعت منه بعض السور مع ترجمتها إلى اللاتينية وأحياناً بحروفه العربية أو الحروب اللاتينية.

ومن أشهرها في أوروبا طبعة المستشرق (جوستاف فلوجل) (١٨٣٤) في ليبسك حيث وضعها: النص العربي بحسب المخطوطات والمطبوعات، وبحسب قراءات أفضل المفسرين والمؤلفين، وحققها وزودها بفهرس عام لجميع سوره. ولذا فإن فهرسته للقرآن من أقدمها إن لم تكن أقدمها على الإطلاق، وعرفت بـ (نجوم الفرقان) ولكن أشهر طبعاته المترجمة وأكثرها

---

(٩٣) الدراسات العربية والاسلامية ص ١٣.

انتشاراً طبعة جورج سيل الانكليزية ١٧٣٤ وما تزال إلى اليوم، وطبعة بلاشير الفرنسية، وكلتاهما ناقصتان ومغرضتان في المقدمة والنص[٩٤].

وتأخرت اهتمامات المستشرقين بالسنة النبوية عن القرآن، وفي مقدمة المختصين بفهرستها (أرند جان فنسنك) الالماني (ت ١٩٣٩) في كتابه (مفتاح كنوز السنة) بالانكليزية ومكث في عمله عشر سنوات، وهو يدلنا كما سبق على مواضع الأحاديث والأخبار حسب موضوعاتها بمراجعة أخص كلمة فيها تدل على أصل الموضوع ثم ما يليها من فروعه وضعه للكشف عنها في ١٤ مصنفاً من أئمة كتب الحديث والسيرة والطبقات[٩٥].

وقضى (فلوجل) (٢٥) سنة في جمع مخطوطات نص كتاب (الفهرست) لابن النديم، ونشر دي خويه (ت ١٩٠٩) تاريخ الرسل والملوك للطبري وفي آخره (١٥٠) صفحة فهارس، و (الطبقات الكبرى) لابن سعد بتحقيق وفهرسة زاخاو وزملائه في ثمانية أجزاء بدءاً من سنة ١٩٠٥، كما حقق انطوني بيغان، نقائض جرير والفرزدق في (١١٠٢) صفحة، ومراجع أخرى في الأصول اللغوية والتاريخية والفقهية . . .

ب ـ **أما الموسوعات والمعاجم العامة**: فهي دراسات شاملة لمواد ومصطلحات إسلامية حسب الترتيب الهجائي غالباً. فمنها: معجمان أشرت إليهما: المعجم العام للمستشرق هوبلر (ت ١٦٩٥) الفرنسي، وهو دائرة معارف في بضعة مجلدات تبحث في علوم الشرقيين وتاريخهم وآدابهم وأديانهم ونظمهم وعاداتهم وأساطيرهم . . . إلا أن قلة المصادر في عصره وعجز الفرد عن إنشاء دائرة معارف وحده أوقعاه في بعض الأخطاء والضلالات والنواقص.

---

(٩٤) راجع د. البدوي في: موسوعة المستشرقين عند مادة قرآن، وكتابي: مستشرقون سياسيون.

(٩٥) انظر مقدمة الكتاب.

(٩٦) راجع مقالي في مجلة: الفيصل العدد ٤٧، والمجلة العربية العدد ١٠ من السنة الخامسة.

وقريب منه: معجم الإسلام بالانكليزية (لندن ١٨٨٥) للمستشرق الانكليزي (هيوز) (لندن ١٨٨٥) وهو دائرة معارف إسلامية عامة تضم بحوثاً ودراسات على الطريقة المعجمية. محشو بالأباطيل والأغلاط[٩٧]. إن مثل هذا الانتاج يعد تمهيداً للمستعربين المتأخرين لمتابعة بحوثهم وأعمالهم، حيث قامت طلائع المستشرقين غالباً بجهود تصنيفية وإحصائية تتصل بالثقافة الإسلامية مباشرة وبعضها يتصل بالثقافات المجاورة لها.

حتى إن الدراسات اللغوية والتاريخية والإسلامية المتأخرة اعتمدت بصورة فعالة على أعمال المتقدمين. وفي هذا ربط الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى ربطاً عقدياً ولغوياً وحضارياً من ناحية غير مباشرة.

٣ ـ بعث التاريخ واللغات المحلية أو الإقليمية:

وهو مقصد حضاري يراد منه اعلاء الدور الحضاري للبلاد المفتوحة إسلامياً على الحضارة الإسلامية واعتبارها (مرحلة) في مسيرة الحضارة العربية ثم الإنسانية. ولا ريب أن الدراسات فيه من أسباب التجزئة الفكرية والسياسية بين المسلمين، في واحدات إقليمية ووطنية بدلاً من الوحدة الفكرية الجامعة.

(وأعانت الدول المحتلة ـ كل في منطقة نفوذه ـ على تدعيم قداسة هذه الأوطان الجديدة في نفوس الناس بأسلوب علمي منظم وذلك بمساعدتها على إحياء التاريخ القديم لكل قطر من هذه الأقطار، ونشط الحفر عن آثار الحضارات القديمة السابقة على الإسلام في كل من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن ومصر، لتوهين عرى الجامعة العربية، ولتشتيت القلوب التي ألف بينها الإسلام وجمعها على لغة واحدة، فاستيقظت العصبيات الجاهلية، وراح كل بلد يفاخر البلاد الأخرى بمجده العريق، وشغلت الصحف بالكلام عن الكشوف الأثرية الجديدة وما تدل عليه من

(٩٧) انظر التفصيل في مقالي: منار الاسلام العدد ١٢ من السنة الثالثة ١٩٧٨.

حضــارات البـابليــين والآشــوريــين والكلدانيــين والحثيــين والفينيقيــين والفراعنة. . .

(وأعلن (روكفلر) الأمريكي اليهودي ١٩٢٦عن تبرعه بعشرة ملايين دولار أمريكي لإنشاء متحف للآثار الفرعونيـة في مصر، يلحق به معهـد لتخريـج المتخصصين في هذا الفن. واشترط لمنح هذه الهبة أن يوضع المتحف والمعهد تحت إشراف لجنــة مكـونــة من ثـمانيــة أعضــاء ليس فيهــا الا عضــوان مصريان. . . ثم استرد هبته لرفض الحكومة شرطه)[٩٨]. والحضارة الإسلامية لا تمـانع في بيـان التاريـخ اللغوي والسكـاني لما قبـل الإسلام لا عـلى سبيل التفاخر بالأمجاد الوثنية والأحساب الجاهلية، فتلك مراحل حضارية لها دورها الوقتي أو العالمي.

كما أنها لا تمانع من ذكر مزايا حضارية وفضائل خـيرة في التقدم الانسـاني ضمن المعايير السليمـة لأية أمـة أو مجتمع ينفـر من نتن الشرك والوثنية، فقد صحّ عن الرسول عليه الصـلاة والسلام قـوله: النـاس معادن، خيـارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا[٩٩].

ولكنها تمنع الغلو في إبراز الدور الحضاري والتكلف فيها لا يليق بالفضائل الإنسانية على حساب الدور الحضاري الإسلامي، فمثل هـذا الاتجاه يقتضي تحقـير الشخصيات الإسـلامية، في التـاريخ وفي ميـادين السياسـة والمجالات العلمية والبطولات العسكرية، وما يتبعها من مجالات التقدم المدني والثقافي.

يضاف إليه إهمال أو توهـين الدور الحضـاري للإسـلام في الآفاق العـالمية الثقـافية والإنجـازات العلمية والعمليـة التي استوعبهـا التراث الإنسـاني عبر آلاف المؤلفات والمؤلفين وعبر الإنجازات الحضارية المنتشرة.

---

(٩٨) الاتجاهات الوطنية ١٣٧/٢ و١٣٩.

(٩٩) صحيح البخاري ٣٣٨٣. الأنبياء وأحمد ٢٥٧/٣ ومواضع أخرى.

فحين يظهر مستشرق البطولات العسكرية في الفتوحات على أنها سفك دماء وقسوة في العلاقات فهو يهدم معلماً في التاريخ الإسلامي الحربي.

وحين يزيف الحقائق الجلية في المجالات السياسية والاجتماعية والعلمية فيعد العرب والمسلمين مقلدين متنازعين ناقلين فهو يسيء إلى الحضارة الإنسانية والإسلامية ليعلي من شأن الحضارات القديمة الإقليمية أو المحلية، فهو مفرّط في الأولى ومفرط في الثانية.

وربما كان من أخطر النتائج وأشدها توزيع العرب والمسلمين إلى قوميات ووطنيات وأقاليم لا تربط بينهما لغة واحدة وفكرة جامعة.

٤ - تشويه مزايا العربية الفصحى:

فالعربية وعاء التراث والأصول الإسلامية، وهي على قداستها من هذه الناحية من أغنى اللغات ذاتياً وأدقها تعبيراً وأوعبها معنى.

ولكنها عند بعضهم لغة بداوة لا تصلح للتعبير عن الحياة المعاصرة وما فيها من المصطلحات والشروح القانونية والعقلية، والتعبير الوافي عن التقدم المادي والرقي في العلوم التطبيقية. وعند بعضهم الآخر لغة عسرة لما فيها من الإعجام والشكل والإعراب والصرف والمترادفات، وعند هؤلاء وأولئك لغة لا تستوعب جميع المخارج الصوتية مثل اللغات الحية الأخرى فيعترضون على رسم الحروف ونطقها ويحاول الاستبدال بها لهجات محلية وحروفاً أجنبية. ولكن الدراسات اللغوية المقارنة تظهر خصائص العربية: في دقة قواعدها وغزارة مفرداتها، وخصب مناهجها في الاشتقاق، وقياسية أوزانها، واختصاص كثير من هذه الأوزان للدلالة على معان معينة، وسعة صدرها حيال التعريب والمجاز والكناية والنقل، وشدة حرصها على جمال الأسلوب وبلاغة العبارة، وتوخيها الوصول إلى الغرض من أقرب الطرق، وأكثرها ملاءمة لمقتضيات الأحوال... وهي خصائص توضح أنها أعظم اللغات كفاية وأكثرها مرونة، وأقدرها على التعبير عن مختلف فنون القول.

تاسعاً: مظاهر نشاط المستشرقين:

عرفنا فيما مضى أن العمل الاستشراقي يتركز في الدراسات والبحوث التي يتناولونها من خلال وجهات نظرهم وأن هذا العمل الفكري له خطورته في المجال الثقافي وخاصة عند الفئة المثقفة الرائدة التي سيكون بيدها قيادات فكرية وسياسية واجتماعية وأدبية. ومن الجدير أن نتنبه إلى أن هذه الدراسات قد شملت معظم قضايا الإسلام والمسلمين كما شملت القضايا التي لها صلة بهما من دراسات الحضارات القديمة والهندية والفارسية والمصرية والفينيقية وغيرها.

وبرزت لهم أنواع النشاطات في الدراسات الفكرية والكتب المختلفة وألقوا المحاضرات المختلفة في العالم العربي والاسلامي والغربي حاولوا من خلالها أن يشككوا المسلمين بقيم إسلامهم ويبشروا بالمسيحية التي كانوا قد تربوا عليها وعلى مبادئها، وهذه الدراسات والمحاضرات تقتضي أن يجمعوا لها الأموال ويعقدوا لنجاحها المؤتمرات بالاضافة إلى الدوريات التي كانوا يقومون بها من صحف ومجلات.

أ ـ إنشاء الجمعيات وإصدار المجلات:

نيفت المجلات على (٣٠٠) مجلة خاصة بالاستشراق، ما عدا مئات تتعرض له في موضوعاته العامة، كمجلة القانون المقارن، ومحفوظات التاريخ، ومباحث العلوم الدينية.

١ ـ أنشأ الفرنسيون جمعية من مستشرقين سنة ١٧٨٧ م وألحقوها بجمعية أخرى تعاضدها وتتعاون معها في سنة ١٨٢٠ م ثم أصدرت هاتان الجمعيتان (المجلة الآسيوية).

٢ ـ في انجلترا تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية في عام ١٨٢٣ م وكان ملك انجلترا الرئيس الفخري لها، وأصدرت على أثرها مجلة (الجمعية الآسيوية الملكية).

٣ - في عام ١٨٤٢ م أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة في وقت واحد باسم (الجمعية الشرقية الأمريكية). وفي العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم، وكذلك فعل المستشرقون في كل من النمسا وإيطاليا وروسيا.

٤ - ومن المجلات التي أصدرها المستشرقون الأمريكيون في هذا القرن مجلات تطبع الاستشراق (بالطابع السياسي) وتوجه معظم أبحاثها ودراساتها نحو السياسة الإستعمارية المبطنة التي تحاول فيها أمريكا أن تبسط نفوذها على الشرق عامة وعلى العالم العربي والاسلامي خاصة. ومن هذه المجلات مجلة (جمعية الدراسات الشرقية) وكانت تصدر في مدينة (جامبير) في ولاية أوهايو، ولها فروع في معظم عواصم أوروبا في لندن وباريس وغيرها، ومثلها مجلة (شؤون الشرق الأوسط) ومجلة (الشرق الأوسط) وطابعهما على العموم طابع الاستشراق السياسي.

٥ - وربما كانت من أخطر المجلات التي يعنى بها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر (مجلة العالم الإسلامي) التي أنشأها زعيم المستشرقين المنصرين صمويل زويمر في سنة ١٩١١ م وخطورة هذه المجلة قريبة من خطورة المجلات السياسية والاستشراقية حيث أنها تعنى بالاستشراق التنصيري وذلك لتشجيع الإرساليات التنصيرية (البروتستانت). وتناولت القضايا التي تتصل بتنصير العالم الإسلامي وقد انتشرت هذه الإرساليات بالفعل في مناطق سوريا ولبنان ومصر والخليج العربي وبعض أقطار العالم الاسلامي.

ومن المجلات التبشيرية التي تتجه اتجاهاً (كاثوليكياً) مجلة العالم الاسلامي الفرنسية التي تشبه في روحها واتجاهها المجلة الأمريكية السابقة ونقتبس بعض التفصيل عنها وعن مؤسسيها وكتابها وغرضها[١٧]، فقد أظهرت في نوفمبر سنة ١٩٠٦ بادارة (المسيو ألْفْرد لو شاتُلْيِه A. Le Chatelier) الأستاذ

في كليـة فـرنسـا، واشـترك في تـأسيسهـا المسيـو (لـويس مـاسينيـون L. Massignon) والسيـو (مارتـين Martin) مديـر الكلية العـربية في مـرّاكش، والمسيو (ميشو بلّير Michaux Bellaire) رئيس القسم الاجتـماعي في الإدارة المرّاكشية، والمسيو (انطون كاباتون A. Cabaton) الأستاذ في مدرسة الألسنة الشرقية، والمسيو (فينسـون Julien Vinson) استاذ اللغـة الأوردية، والمسيـو (فيسْير A. Vissiere) أستاذ اللغة الصينية، والأستاذ ماله. وانضمّ اليهم من غـير الفـرنسـويـين الاستـاذ (سنـوك هــورغـرنــج C. Snock Hurgronje) الهولندي، والمستر رابينو القنصل البريطاني العامّ في أزمـير وكان قبـل ذلك في إيران، والمسيو مينورسكي رأس تراجمة السفارة الـروسية في طهـران، والمسيو نيكيتـين نائب قنصـل روسيا في إيـران، والسنيور بـومـا الـذي كـان قنصـلا لايطاليا، وابن عـلي فكار أستـاذ العربيـة في ليون، وأبـو بكر عبـدالسلام بن شعيب، ومـيرزا محمد خـان، وآخرون من الـترك والإيرانيـين الـذين كـانـوا يوقعون برموز غير أسمائهم.

وكـان بوفـا السكرتـير العـام لمجلة العـالم الإسـلامي Revue Du Mond Musulman وقد أخذ على عاتقه قبل الحرب العظمى مهمة مراقبـة الصحف والمجلات التركيـة في تركيـا وأذربيجان وتـرديد صـداها في (المجلة الآسيـوية Journal Asiatique) وسـلسلة (محـفــوظــات المـغــرب الأقصى Archives Marocaines)، كـما أخذ عـلى عاتقـه مهمـة مـراقبـة الصحـافتـين العـربيـة والفارسية ليردّد صداهما في هاتين المجلتين وفي مجلة العالم الإسلامي.

يقـول بـوفـا: والغـرض من هـذه المجلة اجتـماعي، وهي تـابعـة لـدرس الاجتـماعيات الإسـلامية في كليـة فرنسـا وكانت تصـدر مـرة في الشهـر، ثم صــارت تصـدر أربــع مـرات في السنــة، وتبحث في الــدين والتــاريــخ والاجتماعيات والاقتصاديات والجغرافيا والآثار القديمة والفنون الجميلة وسائر الشؤون المهمة والأخبار والمطبوعات الإسلامية.

---

(١٠٠) مقتبس من: فقه اللغة ص ٢٧٦، د. عبدالواحد وافي.

ويتبين مما مضى أن الدوريات التي أنشأها المستشرقون يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أنواع: -

أ - انها علمية درسية اخبارية تحليلية في ظاهرها، تتناول القضايا الفكرية من جانب ثقافي لتطرح عليه الشبهات وتظهره على صور تؤدي بالفكر الإسلامي إلى الشك والحيرة والتردد، وهذا طابع وإن غلب عليه العلمانية فإنه يقصد هدم أصول الإسلام وإضعاف المسلمين.

ب - مجلات استعمارية سياسية تقصد بسط الفكر الاستعماري في الأمة العربية والاسلامية وتحاول أن تقيم دراساتها لتحقق هذا الغرض وذلك بأن تبرز حاجة المسلمين إلى المدنية الغربية وجهلهم بالتقدم العلمي وعدم قدرتهم على مواصلة البحوث المتطورة في عالم الصناعة، وبهذا الغرض يمكن أن يخضعوا الأمم الإسلامية إلى نفوذهم حيث يستطيعون أحياناً أن يتدخلوا في بعض الشؤون الداخلية والخارجية والتعليمية والاقتصادية طالما أن الغرب يشعر بالسيادة وأن الشرق يشعر بالحاجة والافتقار والتبعية.

ج - المجلات التنصيرية وهذه وإن كانت تقصد إلى ارتداد المسلمين وتنصير الوثنيين فإن هذا الغرض يخط هدفاً سياسياً من وراء تحقيقه فإن أمريكا والدول الغربية لا تقصد تحقيق النصرانية الا بقدر ما يعود عليهما بالمصلحة القومية والنفع لأوطانهم ولذلك فإن فرنسا التي تتزعم الكاثوليكية وأمريكا التي تتزعم البروتستانت يتنافسان في بسط النفوذ الديني الذي يقصد من ورائه النفوذ الاستعماري في الأصل.

٢ً - المعاجم ودوائر المعارف:

ان المعجميين المستشرقين أفادوا كثيراً من المعاجم الإسلامية المتقدمة منهاجاً ودقة. وسبق معنا شيء من المعاجم المفهرسة للقرآن والسنّة، ونتمم الآن بعضها:

١ـ المعاجم: وهي على أنواع:

أ ـ لغوية وأدبية:

وفي مقدمتها: تاريخ الأدب العربي: بروكلمان، وهو مشهور في الأوساط الأدبية واللغوية والعلوم الاسلامية، وتاريخ الأدب العربي، (٧) مجلدات: هامر بورجشتال، وترجم لـ (٩٩١٥) أديباً وشاعراً، ومن أضخمها: معجم فينشك الروسي (١٩٠٢ ـ ١٩٣٩) عمله في (١٥) سنة وتمكن من تسويد (٣٠٠) ألف بطاقة، وتوفي ولم يكمله، ويشمل اللهجات في سوريا ولبنان وفلسطين خاصة، ومن أعظمها[١٨]: معجم فيشر اللغوي الأدبي المقارن باللغات السامية القديمة والذي جمع فيه اللغة العربية من دواوين امرىء القيس والقرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة.

ب ـ معاجم عامة:

وهي أقرب إلى (الدراسات) أو (الموسوعات) أو (التراجم) ولكنها جهود فردية، ومنها: المعجم العام هوبلر الفرنسي (١٦٢٥ ـ ١٦٩٥) ومعجم الإسلام بالانكليزية، هيوز (لندن ١٨٨٥) ومثلها: الموسوعات الأجنبية التي تعرض القضايا الإسلامية الجامعة بلغات أجنبية شتى، وعرفت بدوائر المعارف، التي تتميز بالجهود المشتركة والعالمية تدعمها المؤسسات الخاصة والرسمية. وفي مقدمتها وأخطرها دائرة المعارف التي سنفصل الكلام عليها.

ج ـ دائرة المعارف الإسلامية:

ظهرت بين عامي ١٣٣١ هـ/١٩١٣ م و١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م في (٤) مجلدات وملحق في ٢٨٦ ص وكان كل جزء يزيد على ألف صفحة، واشترك في تأليفها بعض كبار المستشرقين وقد ترجم جزء منها حتى الحرف (ط) في ١٦ مجلداً، إلى العربية (١٩٣٣ ـ ١٩٦٥) حسب الترتيب المعجمي العربي. وبدأت لجنة من المستشرقين المحدثين ١٩٥٤ باشراف: كراموز، وجب، وبرنارد لويس، في إخراج طبعة جديدة باللغات الانكليزية والفرنسية

والألمانية[١٩]. وأشرف هوتسما على تحرير الدراسات المتعلقة بالإمبراطورية العثمانية وفارس وآسيا الوسطى والهند الهولندية. ثم حل محله فنسنك ١٩٢٤.

وتولى تحرير النسخة الفرنسية: رينه باسيه فأشرف على جميع الأبحاث المتعلقة بشمالي افريقيا، ثم خلفه ابنه هنري باسيه كما تولى تحرير النسخة الانكليزية: أرنولد، فأشرف على جميع الدراسات المتعلقة بالبلاد المتصلة ببريطانيا ما عدا مصر. وعهد بالمقالات المختلفة في كل موضوع إلى علماء يوقعون على ما يكتبون ـ وهم مسؤولون عنه ـ ومن أشهر المؤازرين فيها: من الهولنديين: دي خويه، وفنسنك، وجونيبل، للعربية، ودي بوير للفلسفة الإسلامية، وبوختر للفارسية... ومن الألمان: بيكر، وبروكلمان... وموريتس، وكالة وليتمان للعربية، وهرسفيلد للآثار وسينوك للجغرافية، ومن الفرنسيين: هيار، وكارادي فو، ومارسه، وبل، وماسينون، وليفي بروفنسال، وفييت. ومن الروس: بارتولد، وكراتشكوفسكي، ومينورسكي، وكوفالفسكي. ومستشرقون من الانكليز والايطاليين والسويسريين والمجريين.

ومن عادة المترجمين إلى العربية أن يعطوا بعض البحوث الاسلامية إلى جماعة من العلماء والباحثين المسلمين ليعلقوا عليها، أو ينقدوها، أو يصححوا ما فيها من أخطاء، ومع ذلك فنجد مواد كثيرة تحتاج إلى مزيد من التعليق والتعقيب والتنقيح.

وخطورة هذه الدائرة (سعة) انتشارها، و (ترجمتها) إلى اللغات الحية العالمية، و (اختصارها) لتكون في متناول الجميع، وبخاصة (اقتصارها) على الدراسات الاسلامية التي تعنيهم وتهمهم أكثر من غيرها. ثم إن (تنوع) موضوعاتها و (استيعاب) الثقافة العربية الإسلامية عند (المختصين) ممن لهم دراية وعلم بها، يزيد من خطورتها في تزييف الحقائق الإسلامية وتشويه نصاعتها، إلى ما فيها من أخطاء وجهالة في أحيان كثيرة.

ومن الأخطاء المنهجية فيها:

١ - **تأثرها أو منهجها التأثري**: فيغلب على موادها المنهج التأثري المنطلق من رواسب تنصيرية كنسية أو من خلفيات علمانية، أو من رواسب يهودية. وهذه في معظمها يستخدمها الفكر السياسي الاستعماري لمصالحه القومية. وقلما نجد قضية هامة عولجت متحررة من ذاتية الباحث وأفكاره المسبقة.

ولكن من الممكن الحصول على مسائل متفرقة ليست لها سمتها أو صلتها الإسلامية أو العربية مثل التعريف ببعض الأماكن والأنهار والوديان والقرى التي لا تتخذ دلائل على قضية أو مسألة لغوية ودينية.

٢ - **مصدريتها**: فإن معظم الموضوعات المعالجة تستند إلى دراسات استشراقية ومعاجم أجنبية سابقة وقلما تذكر المصادر العربية الإسلامية مع أن الموضوعات فيها عربية وإسلامية.

ولا تبدو في هذه المتابعة المصدرية ثقة اللاحق بالسابق بقدر ما يبدو فيها إتمام حلقات السلسلة الفكرية المغرضة بإقناع المثقف المسلم وغيره بشبهات المتقدمين من المستشرقين والمتأخرين.

وأحياناً يعزف الباحث عن المصادر الأمهات إلى مؤلفات أخرى غير اختصاصية، وأحياناً مطعون بأخبارها وروايتها من قبل العلماء المسلمين.

٣ - **ظاهرة الدسّ والتحريف**: وتجاه هذا يشعر الباحث المسلم أن انحراف المستشرق عن المنهجية يهدف إلى تدمير الحقيقة الدينية الناصعة بما يطرح عليها من ألوان الدس والتحريف.

ومن هنا فقد أحسن العرب مترجمو دائرة المعارف الإسلامية صنعاً، بعرض القضايا العربية والإسلامية على العلماء والمحدثين واللغويين المسلمين

ليعقبوا عليها ويصححوا أخطاءها، وأحياناً يضطرون إلى إعادة صياغة المادة من جديد، كما في مادة: الحديث، الله، الحج . . .

٣ً ـ مؤتمرات المستشرقين:

وهي مؤتمرات دولية زادت على (٢٥) مؤتمراً من سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣ م المؤتمر الأول إلى سنة ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م المؤتمر الأخير، وكان نشاطها بارزاً في إصدارات متعددة، أشهرها: مؤتمر ليدن ١٨٨٣ حيث أصدر أربع مجلدات ومؤتمر فينا سنة ١٨٨٦ في خمسة مجلدات، أما مؤتمر هامبورج ١٩٠٢ وكوبنهاجن ١٩٠٨ فقد أصدر كل منهما مجلداً واحداً، ثم لم يعرف للمؤتمرات الباقية إصدارات فكرية.

وتعقد المؤتمرات مرة كل سنتين أو ثلاث سنوات أو أربع وتشرف على كل مؤتمر لجنة من علماء الدولة التي يعقد فيها. ويضم المؤتمر مئات العلماء من أعلام المستشرقين وأقطاب الوطنيين في الغرب والشرق، فقد اشترك في مؤتمر اكسفورد (٩٠٠) عالم عن (٢٥) دولة و (٨٥) جامعة و (٦٩) جمعية علمية. وينقسمون إلى أربع عشرة جماعة عادة تنفرد كل منها بقسم من جدول الأعمال.

فالمؤتمر السادس والعشرون اشتمل جدول أعماله على:

١ ـ علم الآثار المصرية.
٢ ـ الدراسات السامية.
أ ـ البابلية والآشورية. . .
ب ـ الدراسات العبرية.
٣ ـ الدراسات الحيتية والقوقازية.
٤ ـ الدراسات التركية.
٥ ـ الدراسات الإيرانية.
٦ ـ الدراسات الهندية.

٧ ـ دراسات جنوب شرقي آسيا.

٨ ـ دراسات شرقي آسيا.

٩ ـ الدراسات الإسلامية.

١٠ ـ الدراسات الإفريقية.

ناقشها (١٢٠٠) عالم من شتى أنحاء العالم فأجمعوا على أنه أصبح للدراسات الشرقية رسالة جديدة بعد أن بدلت المدنية الحديثة من سمات الحضارات القديمة.

ولم تقف المؤتمرات عند نشر أعمالها بل تجاوزتها إلى تقديم الجوائز لأنفس المصنفات في مآثر العرب، ومن ذلك اقتراح المؤتمر الثامن على العلماء المختصين بتاريخ العرب تصنيف كتاب في تحديد لفظ (العرب) قبل الإسلام، وبيان أنسابهم ومشاهير رجالهم، وذكر مساكنهم وعاداتهم في المأكل والمشرب والزواج، وتفصيل مجامعهم ومفاخرهم ومعتقداتهم وعلومهم وصنائعهم، مع إقامة الدليل عليها من الشعر الجاهلي والقرآن والأحاديث والسير والتواريخ الصحيحة.

وقد نال كتاب (بلوغ الأرب في أحوال العرب) (٣) أجزاء: للسيد محمود شكري الألوسي العراقي، الجائزة، ووساماً ذهبياً من ملك السويد والنروج، وكان المؤتمر الثامن عقد في استكهولم عاصمته.

ولم يكتف المستشرقون بمؤتمراتهم الدولية بل دعوا إلى مؤتمرات إقليمية أو جامعية، كمؤتمر المستشرقين السوفيات (لينينغراد ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧)، وحلقة المستعربين السوفيات (طشقند ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨)، ومؤتمر القانون المقارن (باريس ١٩٥١) ومؤتمر بوردو (١٩٦٥) برعاية جامعة شيكاغو، وكان موضوعه «التراث الثقافي في العالم الإسلامي، من العصر الوسيط إلى منتهى القرن الثامن عشر»، وحلقة المستشرقين في بروكسل، نشرت أبحاثها في كتاب بعنوان: تطور العقيدة الإسلامية (باريس ١٩٦٢).

٤ - دخولهم الجامعات والمجامع العربية:

فقد استقدم العديد منهم لتدريس الادب والتاريخ والفلسفة العربية وقدموا آثاراً علمية جمعت من محاضراتهم التي يغلب عليها الطابع الاستشراقي المغرض وتأثر بهم كثير من العرب والمسلمين، وكذلك فإنهم أصبحوا أعضاء شرف في المجامع اللغوية المصرية والسورية والعراقية واللبنانية وكانت دراساتهم على مستوى عال من المعرفة حيث إن بعضها قد خضع للنقد والتعديل.

ولنا أن نستنتج من النشاطات الاستشراقية ما يلي:

١ - تآزر العمل الاستشراقي والاستعرابي في أرحب مجال فكري وواقعي هو (العالم الإسلامي) ماضياً وحاضراً، وان شئنا فنقول: ان النشاط الفكري في العلوم الإسلامية والعربية دفع بالمستشرقين إلى توسيع المجال الدراسي حتى شمل ما يحيط بالعرب والمسلمين من حضارات ومدنيات شرقية لها صلاتها المباشرة وغير المباشرة بالعالم الإسلامي.

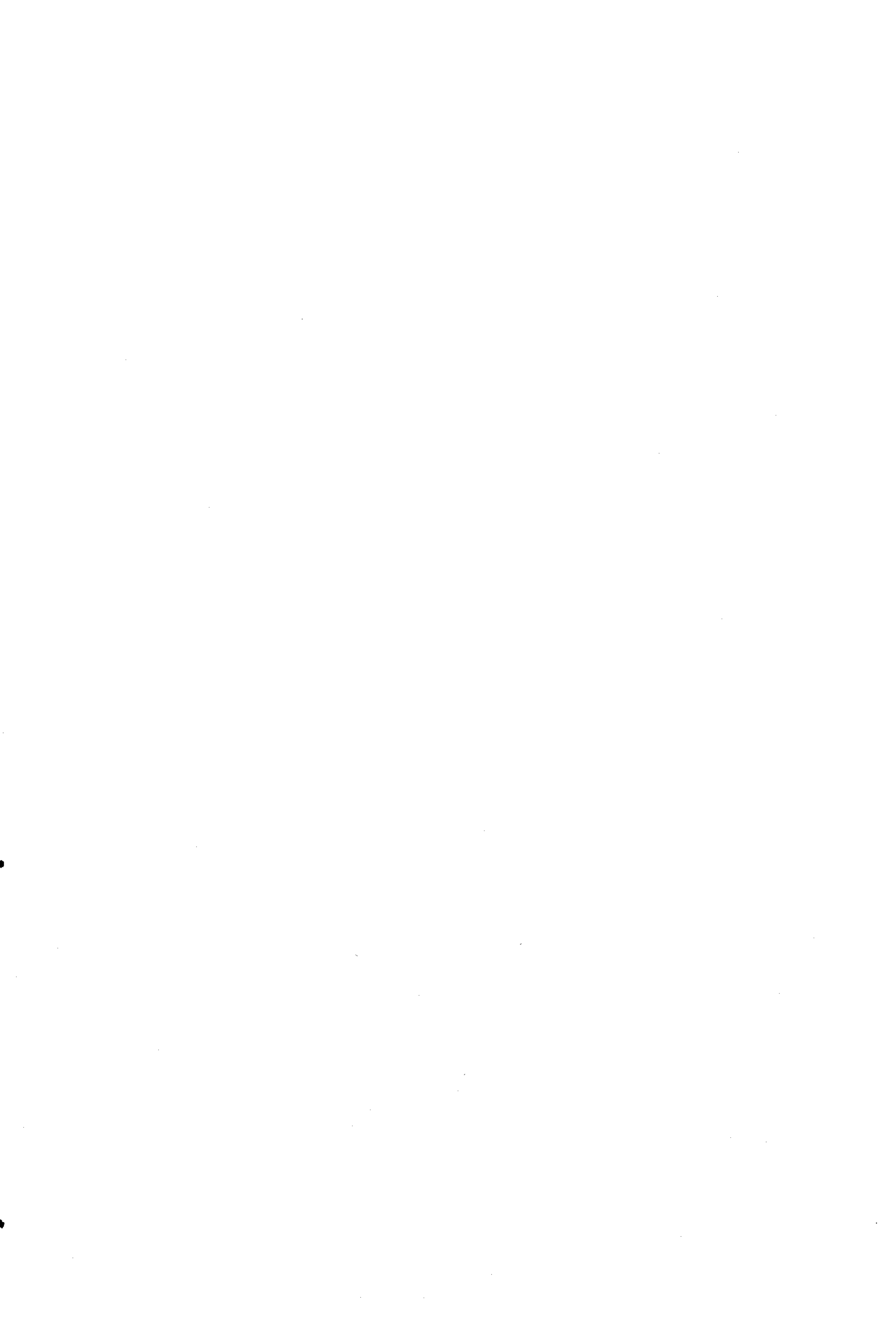
٢ - جدولة الدراسات الثقافية الشرقية والإسلامية وعالمهما ضمن التخصصات التاريخية والأدبية والعلمية والفنية، والإلحاح في معظم مؤتمراتهم إن لم يكن في جميعها على نوعين من الدراسات: العربية الاسلامية، والعبرية، وفي هذا محاولة إبراز (الصلات) الموهومة بينهما، إلى جانب ما فيه من آثار الدراسات اليهودية في المسار الثقافي الاستشراقي، وأثر الدارسين اليهود فيها.

٣ - تزامن المؤتمرات قبيل الأحداث الاستعمارية وأثناءها وبعدها من عام ١٨٧٣ - ١٩٦٤، واشتراك أعلام المستشرقين المعروفين بولائهم الاستعماري وفكرهم وأعمالهم السياسية مثل: ماسينون، ورينه باسيه، جب، وسانتلانا يرجح اتجاههم أو اتجاه العديد منهم الوجهة الاستعمارية وتؤكده الدراسات المعاصرة والتاريخية التي قاموا بها عن

تركية وايران والهند وجنوب وشرق اسيا، ثم في البلاد العربية، . . .
ويقوي هذا الترجيح وقوف المؤتمرات كلياً أو جزئياً بعد انحسار الاستعمار عن العالم الإسلامي في الوقت الحاضر.

٤ ـ صور الدعم الأدبي والمادي من الجامعات والجمعيات والهيئات في المستويات الشعبية يسير جنباً إلى جنب مع الدعم الحكومي والرسمي في أعمال المؤتمرات وإصداراتها العامة، والخاصة، ويمنح هذه الأعمال اهتمامات دولية متلائمة مع النشاطات الفكرية والاستعمارية، بينما تشارك المؤتمرات الاقليمية في ألوان من التأييد لإنتاج دراسات فكرية طاعنة في العقيدة والنظم والحضارة الإسلامية مثل: تطور العقيدة الإسلامية، . . .

وهي استنتاجات تزداد حجماً وتتوسع نوعاً في دراسات العلماء المسلمين للإصدارات المشبوهة والمزيفة، حيث يتمكنون من القاء الأضواء على جوانب من نشاطات المستشرقين (العالمية) و (الجامعية) و (الحوارية).



الاستعمار وسيلة فعالة في الغزو الفكري
(الضغوط الاستعمارية)

أولاً ـ الاستعمار تاريخاً ونوعاً:

نشأت الامبراطوريات وامتد سلطانها منذ فجر التاريخ مثل: امبراطوريات مصر، وما بين النهرين، وآشور، وفارس، وبلغ الاستعمار في العصور القديمة ذروته في الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية... وفي الغرب ظهر الاستعمار بظهور الدول القومية الحديثة، كما ظهر في عصر الارتياد والاستكشاف، ويقصر الآن معنى (الاستعمار) على هذا اللون من الامبراطوريات، فبرزت سيادة أوروبا بالاستحواذ على مستعمرات تقطنها شعوب استذلت بالقوة، واغتصبت أراضي أهلها الوطنيين.

وأقام الأسبان والبرتغاليون امبراطوريات تجارية، أما البريطانيون والفرنسيون فشيدوا امبراطوريات «استيطان» وكان الدافع الأكبر لهذه الحركة انتشار المذهب التجاري في بدء النهضة الحديثة لتوسيع نطاق التجارة، واحتكار حاصلات المستعمرات، واستغلال مواردها الطبيعية.

واتجه امتداد النفوذ في روسيا نحو الشرق، أما في الولايات المتحدة فسار قدماً لاستعمار الجهات الغربية ولم تقم امبراطورية الا بعد الحرب الأسبانية الأمريكية (١٨٩٨)، ولم تدخل ألمانيا وإيطاليا واليابان ميدان الاستعمار إلا في أخريات القرن (١٩).

ومبدأ حرية التجارة والديموقراطية يتعارضان في أسسهما مع الاستعمار،

غير أنهما طُرحا جانباً من أجل النضال لامتلاك أسواق لبيع المنتجات الصناعية العائدة للدول الاستعمارية الكبرى.

وكانت الولايات المتحدة قد عملت على تحرير المستعمرات من السيطرة الأجنبية، فمنحت الفليبين دون المسلمين استقلالها من غير قتال استجابة للرأي العام في بلادها ١٩٤٦، وأعقبتها الدول الاستعمارية الأخرى فتخلت ظاهرياً عن مستعمراتها بعد أن قوي الاتجاه التحرري العام عقب الحرب العالمية الثانية، حتى شاهدنا اليوم حركة كبيرة تدفع الدول الاستعمارية الكبرى الى التخلي عن مستعمراتها في (إفريقيا) و (آسيا)[١] التي أخذت تستيقظ من غفوتها وتأخذ بأسباب الرقي وتسير في ركب الحضارة[٢]... ومن صور الاستعمار المغلف:

١ - نظام الانتداب:

وأنشأته عصبة الأمم المتحدة عقب الحرب العالمية الأولى، لتطبيقه على الأقاليم التي انتزعت من ألمانيا وتركيا... ونص العهد على أن الغرض من الانتداب هو مساعدة هذه الأقاليم التي لم تصل بعد إلى الدرجة التي تمكنها من الاستقلال بأمرها.

وقسمت الانتدابات إلى ثلاث فئات، ووضعت البلاد العربية في الفئة الأولى لأنها (وصلت إلى درجة من التقدم تسمح بالاعتراف مؤقتاً بوجودها كدول مستقلة، على أن تقدم اليها إحدى الدول المعونة الإدارية، وبشرط أن تراعى رغبة البلد المشمول بالانتداب لتعيين الدولة المنتدبة).

وقد اتفق الشراح غير المتحيزين على أن نظام الانتداب إنما كان (ستاراً) لرغبة الحلفاء في السيطرة على تلك الأقاليم، وأن رقابة (العصبة) في تنفيذ الدول المنتدبة لالتزامها كانت رقابة (إسمية)[٣] فاجتاحت الجيوش الانكليزية

---

(١) انظر: الأقليات المسلمة في افريقيا وآسيا فهي تبين تاريخ استعمارهما وضغوطه عليهما.

(٢) مختصر من الموسوعة الميسرة.

(٣) المرجع السابق، بتصرف.

فلسطين وشرقي الأردن والعراق، والجيوش الفرنسية: سوريا ولبنان، وأقامت في هذه البلاد احتلالاً عسكرياً استعمارياً مستغلة ضعف البلاد العربية وتخلفها، وتفوق الغربيين عسكرياً وتقدمها صناعياً، ثم تآمر الدول الكبرى في عصبة الأمم وغيرها على تقسيم العالمين العربي والإسلامي مادياً وفكرياً.

فاتفق الحلفاء فيما بينهم على تقسيم البلاد العربية، وعملت انكلترا وفرنسا معاهدة (سايكس بيكو) ١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠ م لمد نفوذهما، كما تعهد بلفور ١٣٣٦ هـ/١٩١٧ م بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وكانت مصالح فرنسا تقوم على اعتبارات اقتصادية وعلى سياسة المحافظة على اسمها وسمعتها مقابل النفوذ البريطاني وعلى تقاليد الصداقة القديمة التي تعود إلى أيام الصليبيين.

أ ـ فنزل الجنود الفرنسيون لبنان سنة ١٢٧٧ هـ/ ١٨٦٠ م بموافقة الدول الكبرى. وكان لبنان قد بدأ حياته السياسية بعلاقات طيبة مع الانتداب وتمكن أخيراً من تحرير نفسه منه ١٣٦٢ هـ/١٩٤٣ م وبلغ تذمر السوريين واستياؤهم من الانتداب ـ الذي دخل بلادهم (١٩٢٠ ـ ١٩٤١) ـ أشده، وكانت سياسة الموظفين الفرنسيين أنهم استعملوا الطرق الاستعمارية نفسها التي استعملوها في شمالي افريقيا . . . حيث فرقوا البلاد أحزاباً وشيعاً وجعلوها تتخاصم فيناهض بعضها بعضاً وعمدوا إلى تدابير الضغط والإكراه مستعينين بوسائل الجاسوسية والسجن والنفي، وقسموا البلاد إلى دول متعددة لأغراض إدارية وملأوا البلاد بمؤسساتها التنصيرية، فاندلعت الثورة في تموز ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥ م وانتشرت حالاً في دمشق والمدن المجاورة، ولم تخمد حتى طرد آخر جندي فرنسي سنة ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥ م.

ب ـ وأخذ العراق بسياسة العداء للانتداب البريطاني بعد أن دخلت

جيوشه إليه (١٩١٧) ونشبت ثورة ١٣٣٩ هـ/ ١٩٢٠ م فحول البريطانيون حكمهم المباشر إلى حكم غير مباشر، ثم توج الملك فيصل بن حسين ملكاً عليه ١٣٤١ هـ/١٩٢٢ م وعقدت بعد ذلك معاهدات وأهمها معاهدة ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠ م حيث تخلت عن حقها في الانتداب واعترفت بسيادة العراق التامة[٤].

٢ ـ نظام الحماية:

وهو نظام دولي يقرر خضوع دولة لدولة أخرى تشرف على شؤونها الخارجية، وتعقد المعاهدات مع الدول الأخرى بالنيابة عنها. . . وغالبية حالات الحماية في التاريخ الدبلوماسي كانت حمايات استعمارية فرضتها الدول الاستعمارية على الدول الصغرى[٥]. . .

أ ـ **ففي مصر**: تدخلت بريطانيا وفرنسا عام ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٩ م، بشؤون مصر المالية ثم خلع الخديوي اسماعيل وصارت السلطة بيد الدولتين المذكورتين، ونتيجة لفرض الضرائب الباهظة ونظام السخرة وطغيان الاستعمار استاء الجيش المصري فقام بقيادة أحمد عرابي بثورته للتخلص من النفوذ البريطاني، ثم أخمدت بانتصار بريطانيا ١٣٠٠ هـ/١٨٨٢ م، وبعد الحرب العالمية الأولى أعلنت بريطانيا (حمايتها) لمصر ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م وكان الشعب المصري بروحه العربية الإسلامية يناضل الاحتلال البريطاني حتى اضطره إلى توقيع معاهدة ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م تنص على انسحاب الجيش البريطاني إلى منطقة القناة، وإعفاء بريطانيا من مسؤوليتها عن حماية الأجانب وممتلكاتهم، وتنص كذلك على وجوب المساعدة العسكرية المتبادلة، واستعمال الموانىء والمطارات ووسائل النقل، بينما نشط البروتستانت وجعلها مركزاً للتنصير في إفريقيا والعالم العربي. ثم ألغيت الامتيازات ١٣٥٦هـ

(٤) مقتبس من: تاريخ العرب مطول ٣/ ٨٨٥.

(٥) الموسوعة الميسرة مختصراً.

/١٩٣٧هـ واستقلت عن بريطانيا نهائياً[٦].

ب ـ وفي تونس: كانت فرنسا استولت على الجزائر (١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م) في عهد (حسين باي) حاكم تونس ثم طمعت باحتلال تونس جارتها، وأدت الديون عليها إلى تدخل بريطانيا وفرنسا وايطاليا في شؤونها الاقتصادية (١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩ م)، ثم احتلتها فرنسا ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨١ م بالرغم من معارضة ايطاليا، وجعلتها (محمية) يحكمها مقيم فرنسي عام، وظل (الباي) الحاكم الإسمي، وظلت تونس على ولائها لحكومة (فيشي) وأصبحت ميدان الحرب في شمالي افريقيا، وتغلغلت الثقافة الفرنسية في معظم مرافقها حتى أضحت (الفرنسة) عامة، ثم نشطت الحركة الوطنية والدينية، وحدثت اضطرابات عنيفة حصلت بعدها على استقلال ذاتي (١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥ م)، ثم على الاستقلال الكامل (مارس/آذار ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦ م)[٧]. وخضع جل البلاد الإسلامية الأخرى للنفوذ الأجنبي، إما بنظام الاستعمار أو الانتداب أو الحماية وجميعها تشترك باحتلال الجيوش العسكرية لها، وتثبيت مصالحه فيها وعلى حسابها واقتضى ذلك وحشيات الإنسان الغربي في القرن العشرين في القتل الجماعي والتدمير الشامل للمؤسسات والمنشآت الوطنية، وانتهاك حرمات الناس ومقدسات المساجد والاعتداء على الأبرياء والضعفاء، بدوافع صليبية حاقدة، زادت من ضراوتها وإحكامها القبضة الاستعمارية، بينما أفادت من مؤسساتها التنصيرية فائدة عظمى قبل الاحتلال وأثناءه وبعده.

ثانياً ـ الاستعمار اصطلاحاً:

الاستعمـــار:

امتداد النفوذ السياسي لدولة ما إلى دولة أخرى، وهو ما اتفق عليه

---

(٦) مقتبس من: تاريخ العرب مطول ٣/٤٨٣ ـ ٤٨٤. (٧) الموسوعة مختصراً.

الباحثون، واختلفوا فيما بعد ذلك، فقال فريق: إن هذا النفوذ لا بد أن يصحبه احتلال عسكري، وقد يكون النفوذ السياسي سابقاً لهذا الاحتلال العسكري أو لاحقاً[٨]. وذكروا أن امتداد النفوذ غير المصحوب بالاحتلال العسكري، حماية، مثل: امتداد نفوذ الاتحاد السوفييتي إلى دول شرق أوروبا، فلا يسمى استعماراً، ومثله: الاحتلال وحده قد لا يسمى استعماراً مثل: احتلال الولايات المتحدة أجزاء من انكلترا، بناء على اتفاق بينهما، واحتلال أجزاء من ألمانيا دون اتفاق بينهما، ومثل احتلال انكلترا لمصر الذي لم يجعلها مستعمرة بريطانية ولم تتبع وزارة المستعمرات.

ويقول آخرون ومنهم كيلر: إن الاستعمار لا يحمل هذا الاسم إلّا إذا توفرت ثلاثة شروط هي: امتداد النفوذ، الاحتلال العسكري، والهجرة الجماعية.

ويرى هاري جونستون: أن كل نفوذ لدولة أو لجماعة من الناس تغاير جنسيتهم جنسية البلد المقيمين فيه هو استعمار، ويعتبر لهذا مجيء العرب إلى مصر وشمال افريقيا في القرن السابع استعماراً رغم أن النفوذ العربي لم يسفر عن استغلال الأرض أو السكان.

والقانون الدولي يطلق لفظ (المستعمرات) على الأقاليم التي تسكنها شعوب متأخرة، والتي تضمها دولة لأراضيها وتباشر عليها سيادتها المطلقة.

والدكتور (نكروما) في كتابه: تحرير المستعمرات يقول: الاستعمار هو السياسة التي تقيد بها الدولة الأم مستعمراتها وتربطها إلى نفسها بروابط سياسية من أجل تحقيق غرض جوهري هو ترقية مصالحها الاقتصادية الخاصة. وكذلك قال جول فيري رئيس وزراء فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر: ان (شعوب أوروبا تطمع في الاستيلاء على مستعمرات لأغراض

---

(٨) ومثله: البعثات التبشيرية التي كانت مقدمة لزحف الحضارة الأوروبية حيث اخذت في تأسيس المدارس والمستشفيات التي ادخلت العلوم والفنون الأدبية ص ١٥.

ثلاثة هي: الطمع في خاماتها، ثم الاستحواذ على أسواقها لبيع ما تنتجه من مصنوعات، وأخيراً لاستثمار رؤوس الأموال الفائضة بها.

ويستنتج د. زاهر رياض معنى الاستعمار: امتداد نفوذ لدولة ما إلى دولة أخرى، على أن يصحب هذا النفوذ ضياع للشخصية المعنوية للدولة التي امتد إليها النفوذ، واستغلال للأرض والسكان لصالح الدولة صاحبة النفوذ[9]...

والاستعمار الجديد: هو جعل اقتصاديات الدول المستقلة حديثاً تسيطر عليها الدول صاحبة السيادة السابقة عليها.

ويقال بأنه: الارتباط بين الدول حديثة الاستقلال والدول التي كانت تسيطر عليها بجعل هذه الدول الأخيرة صاحبة المكانة الأولى في تقديم المساعدات إلى الدول الأولى.

وفي تعريف ثالث: جعل اقتصاديات الدول حديثة الاستقلال في يد طبقة الرأسماليين، وترتبط برباط المصلحة مع رأسماليي الدولة صاحبة السيادة الأولى.

بينما يفسره الاتحاد السوفييتي: بأنه مجرد وجود الحكم في يد طبقة تتجه إلى الدول الرأسمالية بتفكيرها فترتبط معها في سياستها المستقلة.

ويبدو أن التعاريف السابقة على اختلاف اتجاهات مجتمعاتها تتفق في النواحي التالية:

١ ـ الطبقة الرأسمالية صاحبة السيادة والمستفيدة اقتصادياً في الدول المستعمرة مؤكدة على الأطماع الاقتصادية في الدول المستقلة عنها.

٢ ـ الارتباط المصلحي بين الدولتين: فلا تسمح الدول الاستعمارية بالاستقلال حتى تضمن لنفسها إقامة العلاقات بينهما ومن ثم تستمر

---

(٩) الأقوال السابقة من: استعمار القارة الأفريقيا واستغلالها: د. زاهر رياض ص ٣ ـ ٩ دار المعرفة ١٩٦٦.

هذه العلاقات التي يغلب عليها طابع المصلحة الاستعمارية القديمة.

٣ ـ السياسة الاقتصادية وحدها محور الاستعمار الحديث في الدول الغربية. ومنه المساعدات المالية والعسكرية بين الدول. بينما يوسع السوفييت موقف الاستعمار فيربطه بالسياسة الوطنية الرأسمالية المرتبطة مع الدول الغربية، وهم يقيمون (اتحادات) بين الجمهوريات لإخضاعها فكرياً واقتصادياً إلى البلد الأم، كما يقيمون (معاهدات) مع سائر البلاد.

٤ ـ اشترك الاستعمار القديم والحديث والمعاصر بمحاولاته في إضعاف البلاد الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً عن طريق غزوه الحربي والفكري، وإخضاعها إلى سيطرته سواء كان عن طريق الاجتياح أم عن طريق إرسالياته التنصيرية أو عن طريق إبرام المعاهدات الثقافية والاقتصادية.

ثالثاً ـ الضغط الاستعماري الإداري:

فالسياسة الاستعمارية كانت تعمد إلى زيادة الموظفين عموماً ومن المستعمرين وعملائهم خصوصاً وتسليمهم الوظائف الهامة. وبذلك يطمئن إلى نفوذه في طبقة عريضة من المجتمع ونفوذه في الطبقات الأخرى التي هي دائمة العلاقة بالموظفين، ثم من أجل تحرير السياسة الاستعمارية والاطمئنان إلى عبورها داخل أفراد المجتمع على أساس توجيهات استعمارية مغرضة.

وتبدو هذه السياسة أسلوباً ضاغطاً عاماً في العالم العربي والإسلامي. فقد كان التفوق الوظيفي في المستوى الاجتماعي واستعلائه على الآخرين باعتبار صلاته الرسمية بالاستعمار ثم تعلمه لغة المستعمر ومحاكاته في كثير من سلوكياته يهيء للاستعمار أفضل البيئات لنفوذه الفكري وذلك عن طريق المؤسسات العلمية والتعليمية.

وحرص (كرومر) على حرمان المصريين من المشاركة في إدارة شؤون البلاد وجعلها جهد المستطاع إدارة بريطانية.

فمن عام ١٨٩٦ ـ ١٩٠٦ ازداد عدد الموظفين في الحكومة المصرية من

١٩٣٤ موظفاً إلى ١٣٢٧٩ موظفاً، وازداد من بين هؤلاء عدد الموظفين الأجانب من ٦٩٠ ـ ١٢٥٢ موظف أي إلى نحو الضعف. . . وكانت الوظائف الصغيرة من نصيب المصريين مثل: سعاة البريد وعمال السكك والتلغراف، في حين أسندت الوظائف الكبرى إلى الأوروبيين وخاصة الانكليز.

وفي عام ١٩٠٤ تضاعف عدد الموظفين الانكليز، ثم في عام ١٩٠٦ كان هناك مستشار انكليزي في نظارة الداخلية وكذلك المستشار المالي ووكيلاها ومراقب الضرائب بها من الانكليز، وكان في وزارة الأشغال مستشار ووكيلان ومفتش عام للري، كما شغل الانكليز أيضاً منصب وكيل نظارة الحربية، والقائد العام للجيش المصري، وشغلوا كذلك مناصب المستشار القضائي والمدعي العمومي والمفتش العام للنيابات في نظارة الحقانية، وبذلك سيطر الانكليز من مستشارين ووكلاء للنظارات ومديرين للمصالح على جميع النظارات عدا نظارة الخارجية لقلة أهميتها بالنسبة لمصر.

وواضح من هذه الأمثلة أن الاحتلال البريطاني كان يعمل عامداً على إبقاء المصريين في حالة من القصور والعجز والاعتماد على الانكليز في القيام بشؤون الوظائف المهمة[١١].

وكذلك فإن الإجراءات التعسفية الانكليزية في فلسطين تضغط في جانبها الإداري على السكان العرب وتنشط الهجرة اليهودية إليها.

فقد فتح باب الوظائف العامة لليهود حتى أصبحوا أربعة أضعاف الموظفين من العرب الذين تركت لهم الوظائف الصغرى[١٢]. وعلى سبيل المثال: في سنة ١٩٢١ منح امتياز توليد الكهرباء إلى صهيوني يدعى بنشاس

---

(١٠) المرجع السابق، ص ٥٥.

(١١) مقتبس من: دراسة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر د. عمر عبد العزيز، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٥، من ص ٣٥٢ ـ ٣٥٤.

(١٢) المرجع السابق، ص ٤٦٤.

روتمبرج لمدة (٧٠) عاماً وتعيين موظفين لاستغلال معادن البحر الميت ضمن شركة برأس مال بريطاني أمريكي، وفي الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز واصدارات كانت بيدهم، بالإضافة إلى إنشاء «حاميات» صهيونية لمنع العمال العرب من العمل في المؤسسات والمزارع الصهيونية. . . وفي الغالب ينفذ الموظفون السياسة الاستعمارية ويكونون صلة الوصل بين المسؤولين المستعمرين وسواد الشعب، ثم إنهم الفئة الأولى التي تعنى بثقافة المستعمر وبخاصة لغته وسياسته.

وحين يضطر إلى توظيف الوطنيين فإنه يخضعهم إلى مسؤول استعماري أجنبي فيكونون مسؤولين أمامه في تنفيذ تعليماته الإدارية والسياسية.

رابعاً ـ في الفكر الاستعماري الغازي:

أشرت فيما مضى إلى شيء من الأفكار والممارسات الاستعمارية المختلفة على العالم الإسلامي، حيث ظهر من غرضها الأعظم تدمير الإسلام وإخضاع المسلمين بدافع من الروح الصليبية الحاقدة. ويحسن أن نفصل الكلام على صنفين من الاستعماريين: المفكرين والجامعيين، والسياسيين الدبلوماسيين.

١ ـ المفكرون المستعمرون:

إن التنصير استطاع أن يطوي هذه الفئة ضمن نشاطاته تماماً مثل ما استطاع الاستعمار أن يسخرها (التنصير) لفعالياته المتنوعة.

فالجامعات التنصيرية في الوطن العربي إنما أنشئت بدافع كنسي ولغاية تنصيرية، وهي مقامة على معظم البلاد الإسلامية في الهند وإيران ومصر ولبنان والسودان والمغرب العربي وتركيا وبعضها لا يعلن هدفه التنصيري مثل كلية روبرت في استنبول، وكلية غوردن في الخرطوم، والكلية السورية الإنجيلية في بيروت، بينمايصرح بعضها به مثل: الجامعة اليسوعية في بيروت. . .

يقول رشتر عن الجامعة الأمريكية: إن الكلية مؤسسة تبشيرية، وليس هذا فقط بل هي كما يقول جب: أوضح سياسة دينية وتبشيرية من سائر المدارس الأمريكية في الشرق. ويقول رشتر: إنها أرقى مدرسة في الامبراطورية العثمانية، إن عمل الكلية التبشيري يتناول المسلمين في الدرجة الأولى... إذ هي التي تهيء المدرسين المبشرين للمدارس الأمريكية المنثورة في الشرق الأدنى...

وكان الكاتب الروسي برنهارد نشر في الكتاب السنوي الروسي ١٩٠٥ مقالاً عنوانه (أمريكة في الشرق) صور فيه الكلية السورية الإنجيلية على أنها محاولة مدروسة لتمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية... ورد عليه رشتر السابق: إن مثل هذا الرأي في هذه المؤسسة يصدق على ناحية واحدة منها ويضلل عن هدفها الحقيقي[١٣]...

وعرف أن الجامعة الأمريكية كانت قد احتضنت حركتين متصلتين بالاستعمار اتصالاً وثيقاً: حلف بغداد، ثم الدعوة إلى اللهجة العامية مكتوبة بالحروف اللاتينية.

إن (ماسينون) كان يحب أن (يلوّن) فكر الشباب بالمدنية الغربية. وكان (لافيجري) يعد رجاله على النمط الإسلامي من حيث اللباس وبيوت العبادة، وتسميتهم بأسماء إسلامية ليخدع بها أهل الجزائر المسلمين وبخاصة البدو منهم، حتى مزج العمل الوطني الفرنسي بالعمل التبشيري، وقال عنه رينه بوتيه: كانت القلوب تخفق لرؤية العلم المثلث الألوان خفقاناً شديداً كان يثيره ذلك العلم المتموج فوق أحد الأبراج والمشرف على أرض أجنبية، تلك هي فرنسة... أراد لافيجري: أن يحبب فرنسا إلى الناس باسم المسيح.

---

(١٣) التبشير والاستعمار ص ٩٨.

وكان الأب اليسوعي (مييز) يتحدث عن سياسة فرنسا الدينية في الشرق ويقول: إن الحرب الصليبية الهادئة التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر، لا تزال مستمرة إلى أيامنا، إن الرهبان الفرنسيين والراهبات الفرنسيات لا يزالون كثيرون في الشرق(١٤).

٢ ـ السياسيون المستعمرون:

وهم الفئة الكبرى المخططة والمنفذة للسياسة الاستعمارية بمقتضى تصوراتهم وخبراتهم وتطلعاتهم وهم على استعداد لأن يفعلوا أي شيء أو يتخذوا أية وسيلة لينجحوا في مخططاتهم ويكسبوا أمجاداً قومية، أو توسعات امبراطورية، تفيد منها أمتهم ووطنهم.

أ ـ فقد بدأ استيلاء البرتغاليين سنة ١٥١٥ على مسقط وهرمز والبحرين، ثم زحفوا إلى جنوب شرقي آسيا، ووصل الاسبان إلى الفليبين ١٥٦٥، وسموا سكان المنطقة (المورو) الإسم الذي كان أطلقه الاسبان على مسلمي أسبانيا، ومعهم جاءت الأفكار والعقائد المسيحية، وحروب (المورو) التي بدأها الأسبان التي كان هدفها استعمار وتنصير المسلمين، والآن يعتقد غالبية المسيحيين الفيلبينيين أن المسلمين لن يكونوا مواطنين صالحين ما لم يصبحوا مسيحيين(١٥).

لذا فإن المسلمين ينالون الآن صنوفاً من القهر والاستعباد والحرمان من حقوق المواطنة والعبادة، وعزلهم عن الحياة الاجتماعية.

ب ـ قدم وزير الحربية الفرنسية لمليكه (شارل العاشر) بعد استيلائه على الجزائر ١٨٤٧ يقول: لقد أرادت العناية الإلهية أن تستثار جلالتكم بشدة في شخص قنصلكم بواسطة ألد أعداء المسيحية، ولعل الزمن

(١٤) المرجع السابق، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(١٥) قيصر اديب مخول. في: المسلمون في الفيلبين من ص ١٧ تعريب نبيل صبحي.

يسعدنا لنشر المدنية بين السكان الأصليين ونصرهم، إنك يا مولاي فتحت بجيوشك باباً للمسيحية في افريقيا[١٦]. فالمسلمون الجزائريون أشد أعداء المسيحية، والاستعمار لتمدينهم بالقيم المسيحية.

وصرح المارشال (ليوتي) المقيم الفرنسي بالمغرب: يجب أن تكون المدارس الموجودة في مراكش فرنسية الروح والغاية، مسيحية الاتجاه، وليس لنا فائدة من التدريس فيها باللغة العربية، أو التركيز على الثقافة الاسلامية فالقاعدة الاستعمارية الثابتة هي تطبيق المناهج الغربية وباللغة الغربية أيضاً[١٧].

ج - خطب اللورد (غلادستون) رئيس الوزراء البريطاني في مجلس العموم يقول: ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولن تكون نفسها هي في أمان. وقال جورج براون ١٩٤٤: لقد كنا نخاف شعوباً مختلفة ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف، بيد أن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع، وقوته في الإخضاع، وحيويته في الإنتشار، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي.

فالقرآن حصن المسلمين يعتصمون به، وأوروبا مهددة بالمسلمين، والخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، ذاتية الإسلام قادرة على التوسع، الاسلام حاجز للتوسع الاستعماري[١٨].

د - كانت انكلترا منذ عام ١٩٠٠ تشجع المبشرين البروتستانت والكاثوليك على السواء في السودان... ولما لم تستطع الجمعيات التبشيرية أن تخطو في التبشير خطى منتجة استعانت بالدول المستعمرة، فأعانتها في أماكن متعددة كالبحرين واليمن، وبعد أن

(١٦) صلاح العقاد في: تطور السياسة الفرنسية في الجزائر ص ٤ - ٥.
(١٧) محمد جميل بيهم في: الحلقة المفقودة في تاريخ العرب ص ٢٠٣.
(١٨) د. حسان محمد حسان في: وسائل مقاومة الغزو الفكري ص ٤٥.

استولى الانكليز على عدن اتخذ المبشرون (عدن) مركزاً يرسلون منه نشراتهم التبشيرية إلى قلب بلاد العرب، أو يخالطون القوافل ليبشروا فيها، وكذلك فعل المبشرون في جزر الهند الشرقية: في جاوة وسومطرة وسواهما[19].

فالمبشرون سلاح استعماري فعال لتأمين المصالح التجارية الانكليزية، و (عدن) منطلق التبشير في سائر الجزيرة العربية.

وأعلن (غي موليه) رئيس الوزراء الفرنسي: إن الحركة الإسلامية التي تتسع في أفريقيا هي التي تهدد الأمبراطورية في المغرب وسيأتي تصريحا (اللنبي وغورو) حين احتلالهما القدس ودمشق. و (جورج بيدو) وزير الخارجية الفرنسية الأسبق وقال: إنه لن يترك الهلال يتغلب على الصليب. والواقع أن الاحتلال كان منذ البدء يحمل هذا المعنى من (الحرب الصليبية)[20].

خامساً ـ دور الاستعمار في ممارسات الغزو الفكري:

تقدم معنا نماذج من أحقاد الصليبية التي كان الاستعمار يستغلها لمصلحته، وتخويف الغرب من ذاتية الاسلام الفعالة، ودفع المنصرين إلى مزيد من النشاط ضمن الإطار الاستعماري. وهو كما يلاحظ دور هام في مساندة المنصرين الذين تزدوج مهامهم في العمل السياسي والتنصيري معاً.

١ ـ دعم السلطة الزمنية مادياً ومعنوياً:

فإذا كان أول مبادىء الكنيسة إبعادها عن السياسة والساسة فإنها ومن أجل التنصير تقبل على الحكام والمسؤولين، فيفيدوا منهم سلطة زمنية مع سلطتهم الدينية وعندئذ يقوى نفوذهم في المستويين معاً.

(١٩) التبشير والاستعمار ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٢٠) المرجع السابق، ص ١٧٨، للكاتبين: كولييت وفرانسيس.

واتخذ الدعم صوراً عدة:

أ - **تأمين البيئة اللازمة**: فالاستعمار أرسى (الأمن) في المناطق التي يعمل فيها المنصرون حتى يأمنوا على أنفسهم وممتلكاتهم، فالمبشرون القدماء كانوا يعملون دائماً إما في وجه حادثة مثيرة أو على خوف من كمين بدوي، أو طلق ناري من مصدر مجهول، أو معرضين لقطاع الطريق، أما اليوم فلم يبق أثر للبنادق - فقد صادرها الفرنسيون - ولقد دفع الذين حاولوا الإعتداء على المبشرين ثمناً غالياً[21].

ب - **الموظفون المسيحيون**: فالسياسة الاستعمارية تشجع المسيحيين على التوظف ليكونوا صلة (موثوقة) بين المسلمين والمسؤولين، وفي هذا تأييد للمنصرين بإيجاد جيش من الموظفين ممالىء في مرافق الدولة يمكنهم تقديم أكبر المعونات التي تقوي نفوذهم. ففي خروج انكلترا من الهند ١٩٤٧ سيقود - في رأي الكاتب (كينث لاتورت) إلى تبدل أساسي في مشروع التبشير في الهند نفسها، لقد كان الموظفون، في أثناء الحكم البريطاني، يؤخذون من النصارى بنسبة لا تتفق مع عددهم بالإضافة إلى المسلمين أو الهندوس...

ج - **رعاية الدولة للمصالح التنصيرية**: فالدعم المادي بتغطية نفقات الإرساليات وإقامة المنشآت، خطة عامة للساسة. فقد رعى ملك فرنسا بنفسه شؤون التبشير منذ القرن الثالث عشر، واهتم ببناء الكنائس، وبدأت فرنسا تستقبل رجال الدين اللبنانيين، وتعلمهم في مدارسها الدينية على حسابها، وواصلت فرنسا رعايتها للإرساليات في الشرق بالرغم من اضطهادها لها في فرنسا نفسها[22].

والمستشرقون عموماً والسياسيون منهم خصوصاً يشتركون في كثير من

---

(٢١) المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٤٧، ١٥٣،

مظاهر الدعم الاستعماري المادي والمعنوي، فهم يمنحون رتباً عسكرية، ومناصب دبلوماسية، ومساعدات مالية سخية ليقوموا برحلاتهم العلمية وجولاتهم الاستكشافية ويقدموا دراساتهم وتقاريرهم عن البلد الذي يراد استعماره لغوياً ودينياً واجتماعياً.

٢ ـ حماية الغزو الفكري رسمياً(٢٣):

فمن المعروف أن فرنسا اعتبرت نفسها حامية الكاثوليكية في البلاد الإسلامية، وأن انكلترا وبعدها أمريكا راعية الكنيسة البروتستانتية، وروسيا حامية الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، والمنصرون في هذه الكنائس المختلفة يعدون رعايا عند دولهم فلا تستطيع الدولة العربية أو الإسلامية أن تفرض عليهم قانونها مهما كانت أعمالهم مخالفة له.

ومن صور هذه الحماية:

أ ـ **الضغط الاستعماري**: فقد كانت الدول الكبرى تمارس ضغوطاً سياسية مبطنة بروح الغدر والتهديد لتقلق الدولة العثمانية التي كانت تعد نفسها مسؤولة دينياً عن أوضاع المسلمين، ومن ذلك أنها كانت تلوح بين الوقت والآخر بحمايتها للمنصرين، فكثيراً ما حاولت إغلاق مدارس المبشرين ولكنها كانت تتراجع أمام ضغط الدول الكبرى فتلين وتعيد فتحها. وأحياناً يهب الحاكم المسلم أرضاً للإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية تحت تأثير ضغوطهم كما فعل الخديوي سعيد عام ١٨٦٢م.

ب ـ **حماية العمل التنصيري السافر**: فالسفراء والقناصل كانوا يمنعون تدخل الدولة العثمانية وبخاصة حين أصبحت تدعى بالرجل المريض ـ من إعاقة نشر الكتب والمواعظ بين عامة المسلمين، وكانت انكلترا

(٢٣) انظر في السابق فقرتي: السلك الخارجي يحمي المبشرين ص ١١٧ وبعدها الجنسية الاجنبية.

ذات نفوذ كبير فيها، فاشترك قنصلها مع قناصل الدول الأخرى في تدخلهم لعودة باعة الأناجيل المتجولين في المدن والقرى ونجحوا في ذلك.

وأحياناً كان المبشرون يتدخلون في السياسة الداخلية ويثيرون المشكلات الطائفية فيها، فإذا حاولت الدولة إيقاف تدخلهم فإن الدول الكبرى - الأمريكية والانكليزية - عن طريق قناصلها، تطلب تنفيذ الدستور العثماني الذي ينص على احترام الحرية الدينية.

ج - **إقامة المنشآت التنصيرية**: وواضح أن هذه وسيلة لدعم التنصير كما سبقت الإشارة، ولكنها من ناحية ثانية حماية لهم من يد القانون المعمول به باعتبار أن هذه المنشآت لها (حصانة) دبلوماسية لا يستطيع أحد اقتحامها. فقد حدث أن روسيا القيصرية أخذت تشتري أراض واسعة في فلسطين خاصة لتقيم عليها الأبنية، وتتدخل عند الحاجة في الأمور الدينية والسياسية، وذلك حين أعلنت أنها حامية البطارقة والأساقفة الأرثوذكس وتجعل منهم وسيلة إلى تحقيق أطماعها السياسية.

والمستشرقون باحثون ومنصرون كانت لهم نشاطاتهم التنصيرية أيضاً مثل (المستشرقين الرهبان) في حماية الدول الاستعمارية مثل غيرهم من المبشرين.

وهم باحثون وسياسيون موظفون في السلك الخارجي ووزارات الحربية والاستخبارات كمستشارين وقناصل وسفراء لهم (الحصانة) الدبلوماسية الدولية حتى وإن كانوا من صغار الموظفين في سفاراتهم.

سادساً - في الخطط الاستعمارية:

أ - من مشاريع مقاومة الروح الأفريقية ما أعلنته فرنسا دون مشاورة مع سكان المستعمرات عن (اتحاد الشعوب الفرنسية) وهو النظام الذي نص عليه دستور فرنسا الذي صدر في ٢٧ اكتوبر ١٣٦٦هـ-

١٩٤٦م. وهو يجمع بين فرنسا والمقاطعات المعتبرة أجزاء منها كالجزائر وجزيرة ريونيون وغيرهما، وكذلك المستعمرات الفرنسية كالسنغال وساحل العاج والسودان الفرنسي وغينيا ومدغشقر والكمرون، وكذلك الدول التي ترتبط مع فرنسا بمعاهدات خاصة كتونس ومراكش في نطاق اتحاد واحد يعمل كوحدة من أجل مصالح الجميع.. ثم إنشاء الجماعة الفرنسية فيما وراء البحار، أو في تعبير آخر: (افريقيا المتكلمة بالفرنسية).

ثم اتجهت فرنسا سنة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م إلى رفع مستوى شعوب الامبراطورية الفرنسية عن طريق مشروع جديد هو مشروع (الجماعة الفرنسية) أي جعل فرنسا الأم ومستعمراتها (وحدة واحدة) يتمتع فيها أهل المستعمرات بنفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون في فرنسا، وهي وإن كانت فكرة حديثة ينادي بها الجنرال (ديغول) إلّا أنه سبق أن نادى بها المؤرخ الفرنسي (جيريل هانوتو)، في بداية هذا القرن، فالامبراطورية في نظره: كائن حي يجب أن ينمو ويتطور، وأن قوتها مستمدة من الأنظمة التي تربط المستعمرات بالوطن الأم، ولكن انتشار الوعي الأفريقي اضطرها إلى الاعتراف بمستعمراتها الافريقية جمهوريات مستقلة سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م مع الإرتباط معها بمعاهدات ثنائية تضمن لفرنسا مركزاً ممتازاً بها، لا سيما في الناحيتين الاقتصادية والثقافية.

ب - والقانون الأساسي لعلاقة المستعمرات بالبرتغال يضع القواعد العامة للسياسة الوطنية. منها: وجوب مراعاة مصالح الوطنيين في كل التشريعات التي تصدر عنهم، ومنع تسخيرهم في الأعمال الخاصة، وذلك في قانون ١٩٤٥.

وبعد تعديله سنة ١٩٥١ جعل المستعمرات البرتغالية أجزاء من الوطن البرتغالي، أي مقاطعات منه تقع فيما وراء البحار. وأُنشئت

وزارة بنفس الاسم: (وزارة المقاطعات فيما وراء البحار). وأصبح لها ممثلون في المجلس الوطني.

ج - وتتجه انكلترا إلى شكل (الحكم غير المباشر) الذي يعني إدارة الحكم بواسطة الزعماء الوطنيين... فتمنحهم مسؤوليات سياسية، وإن كانت بطيئة، وغرضهم من ذلك واضح كما ذكر (بيفن) وزير الخارجية البريطانية: (أعط واحتفظ)، وهو يعني أنه بالانسحاب الإختياري في الوقت المناسب يستطيع البريطانيون أن يحتفظوا بالعلاقات الطيبة مع سكان المنطقة، وبذلك يمكن دعم (الكومنولث) البريطاني[٢٤].

كما أنشأت انكلترا سنة ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م مؤسسة (تنمية المستعمرات) برأس مال قدره (١١٠) مليون جنيه، وقد ضوعف هذا المبلغ سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، على أن تقوم السلطة الحاكمة في كل مستعمرة بوضع خطة محدودة للتنمية كشرط أول للحصول على نصيبها من المعونات اللازمة لتمويل الخطة.

ولكن النتيجة أنه ما من مستعمرة في القارة مكنت من تنفيذ الخطة التي وضعتها[٢٥].

د - وأمريكا استعانت بأموالها لتصور للصوماليين انها الوحيدة القادرة على بذل المساعدة التي يحتاجها الصومال، وبدأت فقررت خلال سنة ١٣٧٤ - ١٩٥٤/١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م مبلغ (٦٠٠) ألف دولار من أجل تنفيذ بضعة مشاريع منها مشروع ري نهر (جوبا) ونهر (شيبلي)، ومشروع تنمية (الثروة الحيوانية)، وغير ذلك، كما أرسلت بعثة للتنقيب عن البترول...[٢٦].

---

(٢٤) نجد هذه الخطط في: استعمار القارة الافريقية واستغلالها في ص ٣١، ٣٢، ٣٩، ٤٠.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٤٩، ٥٠.

(٢٦) المرجع السابق، ص ٢٨٣.

هـ ـ ويتجه الاتحاد السوفييتي اتجاهاً معاكساً: فهو يحاول إفادة شعوب المنطقة بالأموال والمساعدة السوفييتية أولاً، ثم إشراك الاتحاد في بعض هذا الخير ثانياً عن طريق فوائد هذه القروض، وعن طريق إقامة صناعات تعتمد على العلم السوفييتي، وكذلك تصريف لمصنوعات وآلات سوفييتية، وأخيراً تأتي المرحلة الثالثة: وهي دخول هذه البلاد في النفوذ السوفييتي[٢٧].

مخطط استعماري للمسلمين:

ونقتبس تحقيقاً عن خطة الإستعمار الانكليزي في جنوب افريقيا: تقول الدراسة[٢٨]: لقد قامت السلطات الاستعمارية بتنفيذ مخطط للقضاء على الإسلام في روديسيا أو زيمبابوي حيث يتجاوز عدد المسلمين فيها (المليون):

أ ـ استولت على الكتب الإسلامية الموجودة بالمساجد أو لدى المسلمين، وفرضت حظراً على دخول المصاحف إلى البلاد، وأغلقت المؤسسات الإسلامية ومنعت تعمير المساجد حتى تهدم أغلبها، وقامت بمحاربة اللغة العربية، وفرضت حظراً على النشاط الإسلامي، ومراقبة تحركات زعماء الدعوة الإسلامية لمنعهم من نشر الوعي الديني بين المسلمين في البلاد.

ب ـ **عزل المسلمين**: واستطاعت السلطات الاستعمارية أن تمنع اتصال المسلمين في زيمبابوي بإخوانهم المسلمين في الدول المجاورة، ونشطت وسائل التنصير للعمل بين صفوف المسلمين فتم لهم إنشاء المدارس الابتدائية التنصيرية لتستوعب الأطفال وتربيهم وفق التعاليم المسيحية، كما تم إنشاء العديد من المستوصفات والملاجىء، وانتشر المنصرون في كل مكان لنشر عقيدتهم بالترغيب والترهيب.

---

(٢٧) المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٨) مجلة رابطة العالم الاسلامي. العدد ٢٥٨ وانظر: الأقليات الاسلامية في افريقيا واستراليا.

ج - **خطة لنشر الجهل**: وأهمل التعليم لعدة أسباب: منها إهمال البيض تعليم الأفارقة لإجبارهم للعمل في المناجم والحقول، وإعراض المسلمين عن تعليم أبنائهم بمدارس التنصير خوفاً على عقيدتهم الإسلامية، ومنها: إنشغال الأفارقة هناك بتجنيد الصبية وتدريبهم على استخدام السلاح للانضمام إلى صفوف المقاومة للاستعمار قبل الإستقلال. وقامت إحدى السفارات العربية بإجراء بحث عن التعليم في زيمبابوي... يقول التقرير: إن نسبة تعليم الأولاد من أبناء الأوروبيين قد بلغت ١٠٠٪ في المراحل الابتدائية و٩٠٪ في المراحل الثانوية، أما بالنسبة للأفارقة فإن نسبة التعليم قد بلغت ٣,٠٪. ويكشف التقرير أن نظام التعليم قد أعد على أساس إبعاد ٩٧٪ من الأفارقة عن التعليم. ففي نهاية نوفمبر ١٩٧٨ أي قبل الاستقلال بأقل من عامين، تم إغلاق (١٠٠٠) مدرسة وترحيل أكثر من (٣٥٠) ألف تلميذ إفريقي إلى مناطق أخرى.

د - **معاهدات صداقة؟**: وكان (سيسيل رودوس) تمكن ١٨٨٨ من توقيع معاهدة صداقة مع الملك (لوبنجويلا) ملك روديسيا الجنوبية (زيمبابوي) سمح بموجبها بتأسيس شركة جنوب افريقيا البريطانية لاستغلال الثروة المعدنية بالبلاد ولم يرتض المسلمون بهذه الامتيازات من خلال المعاهدة وطلبوا إلغاءها، وحين رفض الملك طلبهم اضطر المسلمون إلى تكوين فرقة للمقاومة، فقامت انكلترا بإعداد حملة عسكرية قوية سيطرت فيها على الأراضي التي كان المسلمون يتمركزون فيها، وطردتهم من أراضيهم بعد أن قتلت الآلاف منهم.

وكان (رودس) يتسلى بقتل المسلمين ببنادق الصيد، كما استخدم أسلوب العنف في معاملة الأسرى من المسلمين وملأ بهم السجون والمعتقلات.

والمخطط الاستعماري البرتغالي والفرنسي والهولندي قادر على أن يلون ممارساته الاستعمارية وفق ظروفه وحاجاته وهو في أي بلد إفريقي أو آسيوي

إسلامي لا بد من أن ينال من المسلمين الذين يعترضون رغبته في نفوذه واستعماره. وستأتي تفصيلات أخرى عن مخططاته الاقتصادية والفكرية.

وما دام هدف المخطط واحداً فإنه قد يمكر بالمسلمين بإقامة مؤسسات تعاونية خادعة كما تقدم، ولكنه على أية حال لا يغيب عن مخططه إعاقة المد الإسلامي في الحركات التحررية الإسلامية، ثم محاولة استعباد الضعفاء من المسلمين عن طريق التنصير أو غيره، وهذا يعني فسح المجالات الواسعة أمامه لتغطية النفوذ الاستعماري بدافع من الغزو الفكري إلى رقاع كبيرة في الشعوب الوثنية والبائسة.

التآزر بين التنصير والاستشراق والاستعمار

إن العالم العربي الاسلامي وقع تحت غزو غربي ما يزيد عن سبعة قرون، تتعاقب أو تتعاضد عليه وسائل الغزو في حملات صليبية مسالمة وعسكرية، وفي زحف استشراقي استعماري.

ويبدو هذا التآزر في جهتين: **الموافق والشخصيات**.

أولاً: المواقف المشتركة:

فإذا اتفقت وسائل الغزو في أغراضها ومنطلقاتها ودوائر أعمالها فهذا يدل على وحدة أو اشتراك مواقفها العدائية والغازية.

فالأغراض العامة للغزو - كما سبق - هي مقاصد هنا لا يتجاوزها ولا يحيد عنها.

والمنطلقات المختلفة التي تدفعه للأعمال المحاربة هي نفس الدوافع والبواعث التي تنطوي عليها نفوس الغزاة.

أما الأعمال فهي متنوعة بأشكالها الظاهرة، ومتلونة بالوسيلة التي انبثقت عنها، ولكنها حلقات متكاملة في إحكام الغزو الفكري على رقاب المسلمين.

وتبرز المواقف المشتركة في المجالات التالية:

١ ـ أخلاقية العمل الصليبي التلمودي:

فالمنصرون والمستعمرون والمستشرقون يتخلون عن أخلاقية العمل وأمانة البحث وإنسانية الغالب.

وربما كان الحقد حلقة وسطى بين الكراهية والمحاربة، تعمق الإنفعال الآثم والمشاعر الشريرة في نفوس الغزاة وتنطلق بها إلى أعمال عدائية في الفكر والعقيدة، وعلى المنشآت والقرى والمدن الإسلامية.

ويمكن أن نتصور مشاعرهم الحاقدة العنيفة في الجوانب التالية:

أ ـ في مواقف القادة العسكريين:

فقد رضعوا أحقادهم ضمن حياتهم العلمية والعسكرية، ونشأت حياتهم العقلية والعاطفية على اعتناقها منذ الحملات الصليبية العسكرية ١٤٩٦م. وامتدت ما يزيد على خمسة قرون إلى الاستعمار الحديث في اجتياحه العالم العربي الإسلامي.

وهي أحقاد معلنة على ألسنتهم وأمام الظافرين من بني قومهم، أنها صليبية واستمرار للصليبية. فقد أعلن الجنرال غورو الفرنسي (١٩٢٠) بعد سيطرته على دمشق بجيشه المدجج بالسلاح أمام الشعب السوري الأعزل وبجوار قبر صلاح الدين الأيوبي قوله: ها نحن عدنا يا صلاح الدين. وهو يرد عليه حين قال: إنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه.

كما أعلن الجنرال اللنبي الانكليزي بعد دخوله القدس (١٩٠٩) مستعلياً بانتصاراته العسكرية بقوله: الآن انتهت الحروب الصليبية.

ب ـ في أعمال المستشرقين والمستعمرين:

فقد وصفت هجمات المستشرقين الفكرية بأنها أشرس الهجمات التي تعرض لها الاسلام والمسلمون، حين غزيت أصوله الفكرية والعقائدية ولغته وتاريخه.

فمن المستشرقين اليهود المعروفين بعدائهم الديني: المستشرق المجري (جولد زهير) (ت ١٩٢١) تكلم في سلامة النص القرآني وتطاول عليه مفترياً أنه لم يُعرف نص مقدس بلغ من التغيير مثل ما بلغه القرآن كما تقدم وذلك في كتابه: مذاهب التفسير الإسلامي. والمستشرق الألماني (هورفيتش) (ت ١٩٣١) عمل: مباحث قرآنية، سلك فيه منهج التحليل التفصيلي للغة القرآن، ولكنها تحليلات ثبت ما فيها من مغالاة وافتعال، مما جعل نتائج بحثه مشكوكاً فيها منذ البداية، ومرفوضة كلها فيما بعد[١].

والمستشرق الألماني أيضاً (فايل) (ت ١٨٨٩) عمل: النبي محمد، حياته ومذهبه، في ٤٥٠ص، وهو أول سلسلة من كتب المستشرقين في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكنها من أسوئها وأشدها تحاملاً وبعداً عن الموضوعية العلمية والدقة التاريخية[٢].

ومستشرقون آخرون يهود وصليبيون أعلنوا حقدهم حول الثقافة الإسلامية والتراث العظيم. عرضنا لبعضهم ونعرض لبعضهم الآخر فيما بعد.

ومن ناحية ثانية فقد كانت جرائم الاستعمار العسكرية، وترويعه أمن البلاد الاسلامية، ومظالمه المستطيرة أشد مما تصفه الكلمة أو تعبر عنه.

إن قصف المدن بما فيها من مدارس ومشاف وأطفال ونساء ثم إزهاق الأرواح المسلمة من البلاء العظيم الذي كان يعزز سلطان المستعمر ويقوي نفوذه وإن أدى ذلك إلى كراهية شديدة من المسلمين.

ويضاف إلى هذا التعديات على حريات العبادة والكلمة والاجتماع.

فقد كانت الدولة المستعمرة تفرض منع (التجول) في المدن الكبرى في الليل بحجة المحافظة على الأمن، فيضيع على المسلمين حضور الجماعة في صلاتي العشاء والصبح.

(١) د. البدوي في موسوعة المستشرقين.
(٢) المرجع السابق.

وكـانت تعـطل الإنتـاج الفكـري فـلا تسمـح بـالإصـدارات المنـاهضـة للاستعمار، ولا بالمقالات والكتب الباعثة على التحرر من السيطرة الأجنبية.

وتهاجم الجمعيات والنوادي والأنشطة الإسـلامية والاجتـماعية وتصـادر ما فيها من النشرات والبيانات، وتعطل المحاضرات واللقاءات، وأحياناً تحـاول شراء الضمائر والنفوس المريضة لمصلحتها الاستعمارية.

وهـذه الأعمال العسكـرية كـانت مترافقـة مع الغـزو الاستشراقي والعمل التنصيري في مؤسساته ومنشآته، وهي تدمر الشخصية الإسلامية، وتستنـزف أموالها وخيراتها بألوان من التخريب والتشكيك.

ج - في الحروب الصليبية المتآزرة:

إن اقتسام البلاد الاسلامية بين الاستعمار الفـرنسي والانكليزي حـديثاً لا يدل على اختلاف المقتسمين الغـانمين بقـدر ما يـدل على أن العـالم الإسلامي أضحى نهباً لأطماعهم وغنيمـة رابحة يحـرصون عليهـا، كل منهم يحـاول أن يحظى بنصيب أوفر من الآخر.

فـالاختـلاف في الأنصبـة يـدل عـلى الإتفـاق في أصـل العمـل والفـرض والمكاسب، ثم هو قبل هذا وذاك يـدل على الـروح الاستعماريـة السائـدة في القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين.

والمعـاهدات التي عقـدهـا الغـربيـون مثـل: معـاهـدة لـوزان ١٩٢٣[٣]، ومعـاهدة سـايكس بيكو ١٩٢٠، ووعـد بلفور ١٩١٧ أصـدق المواقف عـلى التعاون المختلف.

ومثل هذا التعاون كان ممتداً عبر القرون التاريخية: قبل الحملات الصليبية وأثناءها وبعدها.

---

(٣) كرزون رئيس الوفد الانكليزي فـرض المعاهدة على تركيا، عرفت بشروطها الأربع ومنها: إلغاء الخلافة ومصادرة أموال الخليفة. ثم اعقبها فصل المقاطعات الأوروبية عنها.

فقد اتخذت خطة الهجوم من أوروبا منذ عام ٦٣٢م ليس على سوريا وآسيا فحسب، بل على إسبانيا وصقلية أيضاً. واستعان (الفونس) الأول المعروف بالأذفوش، ملك (ليون) و (قشتالة) بأسطول صليبي يحمل جماعة من الانكليز والألمان، كانوا في طريقهم إلى الشام للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية. . .

أما صور التآزر الأكثر وضوحاً والأشد ضراوة فهي تلاقي الزحف الصليبي من معظم الدول الغربية بدافع الصليبية البابوية، في بلاد الشام والعراق ومصر، إبان الحملات العسكرية وتقسيمها البلاد المستعمرة إلى إمارات وممالك صليبية مدة قرنين من الزمان.

ولكن استمرار العداء الصليبي ومن ورائه العداء التلمودي بعد فشل الحملات العسكرية لم يتوقف على المستويين العسكري والفكري حتى بلغ أعظم عنفوانه في الاستعمار العالمي الحديث.

يقول محمد أسد في كتابه: الإسلام على مفترق الطرق[٤]: إن الإصطدام العنيف الأول في أوروبا المتحدة من جانب، وبين الإسلام من جانب آخر ـ أي الحروب الصليبية ـ يتفق مع بزوغ المدنية الأوروبية. . .

ولقد كانت الحروب الصليبية في ذلك حاسمة لأنها حدثت في أثناء طفولة أوروبا، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها وكانت لا تزال في طور تشكلها. . . وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عنيفاً. . .

ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة (مسلم). . .

إن روح الحروب الصليبية ـ في شكل مصغر على كل حال ـ ما زال يتسكع فوق أوروبا، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامي موقفاً يحمل آثاراً واضحة من ذلك الشبح المستميت في القتال.

---

(٤) مقتبس من ص ٥٢ ـ ٥٩.

٢ ـ النفوذ الاستعماري، صور منه:

وإذا كانت قلة من الرهبان تنشط للتنصير بدافع ديني بحت فإن أقل منهم وهم المستشرقون انطلقوا للعمل البحثي بدافع علمي. ولكن هؤلاء وأولئك غالباً قد طغى عليهم الاتجاه الاستعماري حتى أضحوا نماذج متكررة من العمل المتميز الذي يعد اضطراداً في القاعدة الاستعمارية العامة.

أ ـ فمن المعروف صلة التنصير بالاستعمار وبالعكس قبل الاجتياح العسكري وأثناءه وبعده.

ب ـ وصلة الاستشراق والمستشرقين بالتنصير والمنصرين في: طلائع المستشرقين، وفي استشراق الرهبنات البندكتية واليسوعية والدومينيكية.

ج ـ وصلة التنصير والاستشراق معاً بالاستعمار وبالعكس في جميع فترات النشاط العقائدي والفكري والعسكري. والصلات الفكرية العقائدية كافية وحدها في تثبيت النفوذ الاستعماري ثم في استمراره بعد جلائه في المعاهد العلمية والأديرة والكنائس. ثم في المؤسسات الاجتماعية والرياضية والطبية التي تخلفه بعد الجلاء، وهي استمرار لنفوذه وسلطانه مهما بعدت الديار ونأت الأقاليم، وأشيع نوع من العلاقات الاقتصادية والثقافية بين البلد المستعمِر والمستعمَر.

ونجد أشكالاً متلونة ومظاهر عديدة في التغريب الفكري واللغوي والإجتماعي منتشرة في العالم العربي والإسلامي. مثل عناية بعض الدول الإسلامية غير العربية باللغات الاجنبية وبالمحلية طاغية على عنايتها باللغة العربية. واهتمامات بعض البلاد العربية باللغة الأجنبية المستعمرة سابقاً في تسمية شوارعها وحدائقها وميادينها ومؤسساتها وشركاتها وهي تعد ظاهرة منحرفة عن أصالة البلد واللغة العربيين.

والمناهج الأجنبية في المدارس الرسمية والخاصة من حيث المنحى العلماني والاتجاه التربوي التي تضع أمام الباحث مشكلة خطيرة في الانتماءات الغربية

وضياع الشخصية الإسلامية في فكرها ومعتقدها.

وربما كان الإعلام الأجنبي يزحف إلى عقول الناس العاديين رجالاً ونساء صغاراً وكباراً يحكم قيد النفوذ الأجنبي في جميع فئات المجتمع المثقفة منها والعامة.

حتى إن إقليمية الإعلام واتجاهاته الشعبية ومسايرة ميوله والمغالاة في اتخاذ لهجاته المحلية بأسلوب مشوق تعد وسيلة للأجنبي يوعز بها إلى المسؤولين للمحافظة على نفوذه. فتفترق وحدة المسلمين، وتبتر منهم أصولهم وتراثهم الفكري العقائدي.

أما التشريعات القانونية الغازية والقديمة فإن فكرها القانوني يستعمر أجهزة الحكم والقضاء والإدارة، والعلاقات الاجتماعية والدولية، ليس في التطبيق المدني والجزائي وحسب وإنما في مصدرية الفكر التشريعي الأجنبي أيضاً.
وإذاً فالعقيدة واللغة والإعلام والتشريع والأسس الفكرية للمنشآت الاجتماعية والرياضية والطبية وكل ما يتصل بالثقافة الإسلامية بمدلولها والعسكرية فقد فصلت (العلمانية) الدين عن الحياة العلمية والأدبية والفنية والاجتماعية، كما فصلته عن النشاطات السياسية والمعاملات المدنية.
كما فصلته عن النشاطات السياسية والمعاملات المدنية.

وهدمت (الإلحادية) المادية جذور الدين الفكرية بإضعافها الإيمان بالغيب واعتمادها على المحسوس ودوائره المحدودة. وصنع أئمتها منها فلسفة فكرية عقدية بدلاً منها.

والغت (الوطنية) المفرقة، الفوارق الدينية والمذهبية، ونحت بالإصلاح الديني نحو التعليم اللاديني وحاولت القضاء على التعليم الشرعي أو التقليل من أهميته في مجالات الدراسة والتوظيف.

وحوّرت (التطورية) و(التقدمية) ما يلائمها من الفكر الديني (بما يناسب الزمان والمكان، وبما يساير الحضارة الغربية... ومن أبرزها تعديل الأحوال

الشخصية، وتقييد تعدد الزوجات، والطلاق ومساواة المرأة بالرجل في الميراث. . .)[5].

وأقامت الدعوات (الإنسانية) و (العالمية) سلسلة من المذهبية الهدامة كالمذهب الماسوني والشيوعي والروحاني والدعوة إلى التوفيق بين الأديان، وتولت الصهيونية العالمية كبرها في محافل ماسونية ومؤسسات الروتاري في العالمين الإسلامي والغربي.

فالنفوذ الفكري العقائدي يشمل جميع المساحات الفكرية والعقائدية وما يتصل بها، فهو يشمل:

- طرح شبهات الاستشراق والتنصير وافتراءاتها.
- الطعون الجدلية فيه والمطاعن المادية في مؤسساته.
- ظلم أهله ومعتنقيه وإبعادهم عن مجالات الحياة ونشاطاتها.
- إيجاد بدائل فكرية في مذاهب ونظريات فكرية أجنبية.
- إضعاف وسائله المعنوية من لغة وتراث، ووسائله المادية من إعلام وأجهزة تعليمية وقانونية.

كما أن النفوذ الفكري العقائدي منطلق من الاستعمار العالمي في المعسكرين الغربي والشرقي، ولا يفترق أحدهما عن الآخر في طعونه وظلمه وبدائله، سوى أن الأول أصبح يعتمد طريقة الترويج المذهبي بعد أن سلك طريق الاستعمار العسكري، وأن الثاني يعتمد طريقة الإكراه والترويج معاً.

٣ ـ النفوذ السلوكي الأخلاقي:

فإذا شاعت المذهبية الفكرية الأجنبية سهل على الناس الإقتناع والإلتزام بها خلقاً وسلوكاً.

أ ـ فمن المعروف صلة الفكر الأجنبي في إفساد المرأة والأسرة المسلمة،

---

(٥) الاتجاهات ٢/ ٣١٠.

وهو يعمل على هدم الحصن الأول في البناء الاجتماعي، باسم (تحرير المرأة) وإعطائها (حقوقها) الطبيعية.

ب - صلة اليهود في إفساد (طاقات) الأمة الإسلامية البشرية وفي مقدمتها الشباب، وانحلاله أخلاقياً، ودفعه ليكون أداة تخريب وتدمير باسم الحرية التي تندفع بلا حدود ولا قيود.

ج - صلة الاستعمار بفتح حانات الخمر وإشاعة الدعارة والعبث بالآداب والفنون وتحويل الأنشطة الرياضية والاجتماعية إلى منطلقات الرذيلة والإباحية باسم المدنية الحديثة التي تقدس حرية الكلمة والعمل.

د - وإجمالاً صلة الاستشراق والتنصير في (هدم الدين) لا من حيث أنه عقيدة وفكر وحسب وإنما من حيث إنه التزام وممارسات عملية وخلقية باسم القيم الغربية التي تدفع المجتمعات إلى التجديد والتقدم العلمي والحضاري والإصلاحي.

فقد حررت التصورات الفلسفية المادية الأخلاق من (ثباتها) و (قيمها الأصيلة)، وربطتها بالمنافع العاجلة والمزاجات والأهواء الشخصية، فعملت على (تطورها) و (تناسبها) مع البيئات والأغراض.

وجردت مقومات الحياة من أطرها الأخلاقية، وصيرت معاملاتها مادية بحتة، وعلاقاتها مصلحية شخصية، وخلا الاقتصاد من دوافعه المبدئية، والسياسة من وسائلها وأغراضها النبيلة، والعلمية من فضائلها وسمّوها. ومسختها إلى سلوكيات شخصية وأخرى اجتماعية، فتجاوزت عن منكرات الأولى، وراقبت انحرافات الثانية ثم حاسبت عليها فقط باعتبار صلتها بالآخرين.

وساوت بين الإباحية والحرية، وبين الدين الملتزم بالفضائل والدين بمجرد الأشكال والطقوس، وتجاوزت الأعراف والمشاعر الدينية والنظم الاجتماعية تحت شعار الليبرالية السلوكية خاصة، وباسم التربية الحديثة عامة.

وعبثت بمحاسنها عند طرح مذاهبها العلمانية في العبثية الفوضوية من وجودية وهبية، فضاعت مقومات الشخصيات السوية بحجة الفلسفات القائمة والماديات المتبادلة، وتجاوزت ذلك إلى إنتاج الإنسان العلمي والأدبي والفني، ضمن مؤسسات ونشاطات موبوءة وهدامة.

ففسدت الآداب، وانحطت الأخلاق، وتزلزلت العادات الاجتماعية. وفقد الآباء سلطانهم الأدبي في الأسرة وشاعت الخمرة والمقامرة، وانتشرت المخدرات وتجارة الرقيق الأبيض ودور البغاء، وحبب إلى بعض الناس حياة الإسراف والتبذير والانغماس في الترف، كما حببت إليهم أساليب المعيشة الأوروبية. بينما نشر الاستعمار الجهل والفقر والمرض، ليساهم في نشر الجرائم والتعدي على أمن البلاد، والتراخي عن مجالات العمل الشريف، فسادت البطالة، والأمراض الاجتماعية والصحية، وتراكم التخلف والبؤس والإذلال، وخلت البلاد من أي تقدم في فعالياتها العلمية والاقتصادية والتقنية.

٤ ـ النفوذ الاقتصادي:

وربما كان منتهى غاياته وأحدث أعماله التي لا تعدم وسيلة في الاستفادة من خيرات البلاد الإسلامية من مخططات اقتصادية على المستويين الرسمي والشعبي.

أ ـ فمن المعروف صلة الدعم الاقتصادي الأمريكي الخاص في الاقتصاد الصهيوني، حيث يقدم له سنوياً بليون دولار[٦] إضافة إلى الدعم الأمريكي الرسمي، حتى تستطيع الصهيونية أن تقوم بدورها الاستعماري التوسعي.

ب ـ وأن واردات دول عربية من بعض الدول الأوروبية وأمريكا بنسبة

---

(٦) صحيفة المدينة العدد؟

٩٥٪ وفق ما أكدته إحصائيتها الرسمية، وهو أقصى ما يطمع به الإقتصاد الاجنبي في نفوذه بالاقتصاد العربي.

ج - وأن واشنطن رفضت طلبات مصر الخاصة بتخفيض حجم الفوائد على القروض العسكرية البالغة (٤٥٠٠) مليون دولار من ١٤٪ إلى حوالى ٧,٥٪، كما رفضت إعادة ترتيب سداد الديون[٧].

د - وأن الاستعمار الانكليزي احتل مصر عام ١٨٨٢ بسبب عجزها عن سداد دينها وفوائده في عهد الخديوي اسماعيل وأن فرنسا استعمرت الجزائر عام ١٨٣٠ من أجل افتعال مشكلة اقتصادية، وإيطاليا زحفت بجيوشها لاحتلال ليبيا ١٩١١ بسبب أطماعها الاقتصادية.

هـ - وأن الشركات التجارية الرأسمالية انتشرت في العالم العربي الإسلامي، تضاعف من أرباحها، واستثماراتها مع مداخلاتها السياسية والاقتصادية، وفي طليعتها شركتا الهند الشرقية البريطانية والفرنسية. ثم بقاء نشاطها التجاري مستمراً بعد جلاء القوات العسكرية.

والقضية هنا ليست في مستوى (التبادل) الاقتصادي ومنافعه التي تعود على البلدين، وإنما هي (نفوذ اقتصادي يتصرف بأحوال البلاد المستوردة عامة والاقتصادية خاصة، وهو نفوذ (نفسي) أيضاً يزيد من مشاعر الخذلان الروحي، والحاجة المتزايدة لكل ما هو أجنبي، ثم هو نفوذ (تخريبي) في معظم فعالياته العدائية والهدامة، حيث كشفت أجهزة الأمن المصرية عن أعضاء في شركات أمريكية أنهم يحملون الجنسية الإسرائيلية بصفة رسمية إلى جانب جنسياتهم الأمريكية وهم يعملون في العاصمة المصرية[٨].

ويبلغ التخريب العدائي مداه حين تعمد الصهيونية إلى احترافها تجارة

---

(٧) صحيفة الشرق الأوسط ١٩٨٧/١/٣١.

(٨) صحيفة أخبار العالم الاسلامي العدد ١٠٠٤.

(المخدرات) وتهريبها إلى مصر، فقد شهد المجتمع المصري انتكاسة في مجال محاربة المخدرات، حيث اكتشف المختصون أن جهودهم ومعاركهم الطويلة ضد هذا الوباء قد انهارت نظراً لقيام عصابات صهيونية محترفة بإدخال كميات هائلة من المخدرات بجميع أنواعها إلى مصر، والعمل على نشرها بين فئات الشباب من الجنسين[٩].

وتتوسع مجالاته حتى تعم الدول الغربية والشرقية، فقلما تتعامل دولة عربية وإسلامية معها من غير (فائدة) ولتصريف بضاعتها العتيقة غالباً، ثم لإحكام نفوذها عليها من الجوانب الاقتصادية والسياسية والمبدئية.

إن تصدير البضاعة (الاستراتيجية) غير العسكرية له خطورته في المجال الاقتصادي الإسلامي وفي المجالات الآخرى فكيف إذا كانت هذه البضاعة من الكماليات التي تستنزف الأموال، أو كانت من المحرمات والممنوعات التي توهن الاقتصاد والخلق معاً؟.

ثانياً ـ في الشخصيات والأعمال المشتركة:

إن تعاضد المكتبات الحضارية من الأمم المجاورة، وصهرها في الحضارة الإسلامية ثم تقديمها وفق أصول الإسلام، يبرز شكلاً ومضموناً حضارياً مرناً وفريداً والشخصيات التي قبست من حضارة الإسلام أصبحت ينابيع له تفيض من خيراته وعطاءاته دعوة وعلماً وتمثلاً في عملية متلاحمة بين جوانب الحضارة.

ولذا فلا بد أن تلتقي جهود المنصرين والمستشرقين مع أعمال المستعمرين في متابعة الزحف الحضاري والهجوم الثقافي المكثف، وما تبعه من السيطرة الاستعمارية والاقتصادية.

١ ـ فالنشاطات الفكرية والعسكرية واحدة في جوهرها وأغراضها وإن

(٩) الصحيفة السابقة، العدد ١٠٠٠.

تلونت حسب مصادرها ووسائلها. فالمستشرقون الذين يقدمون معارفهم ذات الأصل الكنسي من أجل الإجتياح الاستعماري، ويساهمون في العمل التنصيري بصراحة فهم: المستشرقون الرهبان، أو بشكل مستور مع المستشرقين الآخرين.

ومثلهم: المنصرون الذين يقوم بعضهم بالدعوة والوعظ والأعمال الاجتماعية والطبية، وبعضهم الآخر يتخذ طريقة البحث فيجمع اللاهوت والدراسات الإسلامية.

والاستعمار يحتضن هؤلاء وأولئك ويدعم جهودهم.

٢ ـ وأحياناً تتجمع النشاطات الفكرية والعسكرية، أو بعضها في شخصية واحدة ذات قدرات متفوقة من التنوع الفكري والعملي، فتقدم خدمات كبرى، تستحق تقديرهم ودهشتنا بقدر ما حملت من القدرات الجامعة والإنتاج... الغزير المتنوع. ومنهم: (بالمر) الانكليزي، و(زويمر) الأمريكي، و(ماسينون) الفرنسي.

وعلى هذا فمن المناسب تصنيف شخصياتهم وأعمالهم إلى:

١ ـ طلائع المستشرقين.
٢ ـ المستشرقون الرهبان.
٣ ـ المنصرون الاستعماريون.

١ً ـ طلائع المستشرقين:

وتقدم أن عددهم يقارب الثلاثين، تربّوا في الأديرة والكنائس، واستمرت صلاتهم بها وثيقة، فهم وإن لم يتخذوا أعمال الرهبنة منهج حياتهم الفكرية، لكنهم لم يتخلوا عن الخط الكنسي المرسوم لهم، كما أنهم تفرغوا في الغالب للأعمال الاستشراقية العامة، فتخصصوا بالحضارات الشرقية مثل: الهندية والفارسية والتركية والصينية.

١) من أعمالهم :

١ ـ عمل معاجم وإحصائيات تمهيدية ومقدمات لا بد منها لدراسات المستعمرين فيما بعد.

٢ ـ اعمال يقصد منها إبراز صلات التبعية بين مصادر الإسلام الأصيلة كالقرآن والسنة وبين الكتب السماوية السابقة.

٣ ـ إيجاد قناعات (باطلة) بنسبة بشرية الإسلام إلى الرسول مثلاً، واهتزاز الصورة المشرقة الصافية عن الإسلام[١٠].

٢) ومنهم: أدلر أوف باف (١٠٧٠ ـ ١١٣٥) وبطرس الملقب بـ (المحترم) أو (المكرم) (١٠٩٤ ـ ١١٥٦) وروجر بيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) وتقدمت ترجماتهم وأعمالهم.

ويمكن أن نستنتج من حياتهم وأعمالهم ما يلي:

١ ـ تتوزع اتجاهات المستشرقين الطلائع في جانبين: الجانب العلمي، والكنسي، ويغلب الإتجاه العلمي على الدراسات الكنسية، وبتعبير أدق: إن الإتجاه العلمي وإن كان الغالب فإنه كان في خدمة العمل الكنسي من ناحيتين: تزويد الأوروبيين عموماً بالثقافة العلمية التطبيقية العربية، وإهمال أصولها العربية وبقاء ترجماتها اللاتينية، ثم فصل المسلمين عن تراثهم العلمي بقصد اعتمادهم على الأوروبيين.

٢ ـ توسع ثقافاتهم في الحضارات المجاورة والقديمة من النواحي اللغوية والدينية والعلمية مثل تخصص الكثير منهم في الفينيقية والكنعانية والبابلية والعبرية إلى جانب العربية والإسلامية، وذلك من أجل إيجاد صلات بينها (موهومة) في معظم الأحيان و(حقيقية) أحياناً. ولتصبح زاداً ثقافياً للمستشرقين المتأخرين فتساعدهم على بحوثهم ودراساتهم.

---

(١٠) مقتبس من: منار الاسلام العدد ١، السنة الخامسة ١٩٧٩.

ثم لتقديم بعضها كمعلومات تاريخية للاستعمار عموماً وللصهيونيين خصوصاً. مثل ما تقدم في عمل الأب: سالير (ولد ١٨٩٥) الأمريكي في الآثار الفلسطينية والأردنية وقدم كتاب: ذكريات موسى وقومه في جبل مؤاب في ٣ أجزاء، وموجز بالنصرانية في شرقي الأردن.

يقول بارث في (بداية الاستشراق)[١١]: كل من يشتغل بالإستشراق، حتى ولو بجزء صغير منه يحس بالامتنان لتراث الاستشراق، ويعترف بالشكر للجهود العلمية التي بذلها آخرون قبله، علماء فرادى، أو أجيال كاملة من العلماء، والميدان العلمي، الذي وهب أمثالنا أنفسهم له، ميدان يختص بعالم لا نتصل نحن به بصلة الانتماء. . . ثم يقول: فنحن بحاجة إلى كتب في قواعد اللغة وإلى قواميس لنشق بها طريقنا إلى اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة التركية. . . لم تنشأ كتب النحو والقواميس هذه مرة واحدة بل جاءت ثمرة جهود مضنية بذلتها الأجيال المتعاقبة. . إلى أن يقول: إن كل شيء في حركة متصلة، كل عالم يكمل البناء على أساس أرساه آخرون سبقوه. .

٢ً ـ المستشرقون الرهبان:

وتقدم معنا أنهم جمعوا بين التنصير والاستشراق وعرفوا (بالآباء)، من الرهبنات البندكتية والفرنسيسكانية والدومينيكية واليسوعية.

وتتلخص أعمالهم:

١ ـ التأليف في مسائل جزئية أو فرعية يمكن أن تخدم أغراضهم المزدوجة كاللهجات المحلية، مثل: لغة حماة وحمص ودمشق، والعادات أو الأعراف الدينية لبعض الفرق: كالدروز والنصيرية.

٢ ـ احتضان الكاتدرائيات المختلفة العمل الاستشراقي مع رعايتهم المادية والمعنوية للمستشرقين، وهو عامل بيئي ساعد على أخذ دراساتهم طابع

(١١) الدراسات العربية والاسلامية ص ٨.

البحث الموجه كنسياً وإن بدا عليه طابع علمي أو لغوي أو اجتماعي.

٣ ـ الإتجاه التعليمي والتثقيفي: من فتح المدارس والمعاهد لتخريج دفعات منهم للعمل المزدوج مستفيدين من المطابع التي جلبوها معهم، والمكتبات التابعة لأديرتهم وللمؤسسات التعليمية الأخرى، ومن ثم إنشاؤهم المجلات والإصدارات المختلفة.

٤ ـ نشر الحركة الاستشراقية التنصيرية في بلاد واسعة وتنافس عجيب بين فرقهم، لا من أجل غرض ديني خالص، وإنما من أجل تثبيت نفوذ البلد الذي قدموا منه، أو المذهب الذي انطلقوا للتبشير به ومن ثم محاولة اجتياحهم فكراً وعقيدة البلاد (النامية) و (المتخلفة) في آسيا وافريقيا، ودراسات أوضاعها الجغرافية والقبلية.

٢) ومنهم:

١ ـ الأب كايروت (١٥٨٨ ـ ١٦٥٣) وتقدم أنه من اليسوعيين، أرسل إلى حلب، وتوفي في دمشق، وآثاره: معجم بسبع لغات: الإيطالية والفرنسية واللاتينية والعربية ـ عامية وفصحى، واليونانية ـ عامية وفصحى.

٢ ـ الأب جيرولو بوفيتش (١٨٦٥ ـ ١٩٤١) من الفرنسيسكانية، ولد في القسطنطينية، وتخرج من مركز دراسات الكتاب المقدس في القدس، ومن آثاره: مجموعة من الكتب التاريخية عن رؤساء الأراضي المقدسة (١٢١٩ ـ ١٨٩٨)، وذيلها بملحقين يتضمنان وثائق عربية غير منشورة...

٣ ـ الأب جوسين (ولد ١٨٧١) وتقدم انه فرنسي من الدومينيك، بنى ديراً بالعباسية (١٩٢٨ ـ ١٩٣٣)، ومن آثاره: مقالات الشيخ سعد الدين والجن في نابلس، في مجلة الجمعية الفلسطينية الشرقية (١٩٢٣)، وعلى: مزار الست سليمة (١٩٢٥). بالإضافة إلى (سالير) الفرنسيسكاني الذي سبق ذكره.

ويمكن أن نستنتج من حياتهم وأعمالهم ما يلي:

١ ـ الحرص على معرفة كل ما يتصل ببلاد الشام خاصة من النواحي الدينية واللغوية والتاريخية والأسطورية، لكشف الحياة العلمية والمعاشية والحضارية عموماً فيها، ثم لتزويد اليهودية بالمعلومات المطلوبة.

٢ ـ الاهتمام الخاص بالمعاجم اللغوية في ألسنة شتى ولهجات متعددة عامة ولهجات منطقة أو بلدة خاصة، وذلك من أجل ربط تاريخ المنطقة اللغوي والتاريخي والديني بالحضارات القديمة وبخاصة ما قبل الإسلام.

٣ ـ إبراز دور الأساطير والاتجاه الشعبي في الآداب المحلية، وبيان الآثار الدينية واللغوية فيها وآثارها في الدين واللغة لمعرفة الثروة الشعبية من الأخيلة والقصص الخرافي، وربما نسبة ذلك كله أو بعضه إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة.

٣ً ـ المنصرون الاستعماريون:

وهم موجودون بكثرة في كتب التبشير، والإرساليات التبشرية، مثل وجودهم في كتب الاستعمار والمستعمرين، ونخص بعضهم بالذكر هنا دون المستشرقين المنصرين.

١) من أعمالهم:

١ ـ تسهيل مهام الأعمال الاستعمارية قبل الاجتياح العسكري وبعده، وتثبيت نفوذه بإشاعة قيمه ومنافعه في ربوع البلاد المستعمرة، للحصول على أعظم المكاسب المادية والمعنوية.

٢ ـ التظاهر بفصل الدين عن الكنيسة مبدئياً مع الانغماس في الأعمال السياسية ومجالاتها عملياً، ثم لتكريس الاتجاه الإستعماري البغيض وما

يرافقه من مآسٍ ووحشيات في الأمم المغلوبة.

٣ - الاستغلال أو التسلط الصليبي في جميع مرافق الحياة، وبروزه كقوة لها أهميتها في فعاليات المجتمع المتنوعة بسبب مداخلاته الاجتماعية واستغلاله الديني.

٤ - تزويد السلطات المستعمرة بالمعارف والتقارير الهامة لتكريس النفوذ الاستعماري، ثم لتوظيف الكفاءات الشخصية والعلمية والدينية في خدمة المصالح الاستعمارية في المنطقة.

٢) من أشهرهم:

١ - هنري جسب البروتستنتي الأمريكي - Jessup, H وهو من أعلام الحركة البروتستنتية في العالم وبخاصة في سوريا ولبنان. وكتابه: Fifty-Three Years in Syria, N. Y. 1910 من أخطر الكتب الصريحة في التسلط الكنسي والحقد الصليبي الاستعماري، خمسة وثلاثون عاماً في سوريا.

فهو يود أن يمحى الاسلام من العالم، ويوضح أهمية التعليم في التنصير، ويدعو إلى بناء المدارس للجنسين وبخاصة للبنات، ويهتم بالاتجاه التنصيري في الجامعات الأمريكية، والجامعات الأخرى، ويدفع الحكام النصارى إلى متابعة جهودهم في حكم المسلمين، ودور المنصرين في استغلال جهودهم لخدمة دولتهم[١٢].

٢ - لورانس براون الإنكليزي Lawrance, Brown من مشاهير المنصرين البروتستانت العالميين. وكتابه: Islam and Missions London 1947 الإسلام والإرساليات، من أشد كتب التنصير في معالجة (دور الاسلام في وحدة العالم الإسلامي)، فهو يقول: الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي.

---

(١٢) التبشير والاستعمار، على التوالي ص ٣٦، ٦٦، ٨٦، ٩٦، ١١٠، ١٤٦.

ويصرح بالعامل الديني والصليبي الاستعماري في الحروب الغربية على السلطنة العثمانية فيقول: وكذلك شنت الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين حروباً عدوانية على الحكومات المسلمة، ثم انتزعت منها أراض ضمتها إلى سلطانها هي.

وينادي مع المنصرين، بمؤازرة اليهود الذين كانوا يخشون من خطرهم وخطر الروس بعد أن يعلل ذلك فيقول: إن المسلمين يختلفون عن اليهود في أن دينهم دين دعوة، وأن الاسلام ينتشر بين النصارى أنفسهم وبين غير النصارى... من أجل ذلك نرى المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين في فلسطين[١٣].

ومن المنصرين المستشرقين الاستعماريين:

٣ ـ **لافيجيري Lavigerie, CH** (١٨٢٥ ـ ١٨٩٢)، كردينال افرنسي، رئيس أساقفة افريقيا ومؤسس مشروع: مدارس الشرق، وجمعية الآباء البيض، ثم أصبح كاردينالاً، ثم صاحب الولاية على جميع أساقفة افريقيا. بدأ لافيجيري حياته مبشراً في شمالي افريقيا والسودان، كلفه بذلك البابا (بيوس) التاسع (١٨٤٦ ـ ١٨٧٨) نفسه[١٤]. وينقل عنه زميله رينه بوتيه في كتابه: الكاردينال لافيجيري، ومدى نشاطه التنصيري في المغرب العربي خاصة:

أ ـ **نشاط الإسلام متجدد في إفريقيا**: يقول لافيجيري: وبينما كان الإسلام على وشك ان ينهار في أوروبا مع عرش السلاطين (من آل عثمان) كان لا يزال ناشطاً في تقدمه وفتوحه على أبواب مملكتنا الافريقية[١٥].

---

(١٣) المرجع السابق، على التوالي ص ٦، ١٢٩، ١٨٤.
(١٤) المرجع السابق، ص ٤٤.
(١٥) المرجع السابق، ص ٤٥.

ب - **خداع المسلمين في المغرب العربي**: فحين استحال على المبشرين الافرنسيين أن ينصروا أحداً من الجزائريين بالقوة أو بالدعوة أرادوا أن يصلوا إلى نفوسهم بالحيلة، واقترح لافيجيري أن يجعل من مدينة بسكرة الجزائرية، زاوية مسيحية وأن تسمى الزاوية المسيحية، بيت الله، ثم اقترح أن يكون لباس «رواد الصحراء» المسلحين، أو الإخوة المسيحيين الذين يعيشون معه في الزاوية، مشابهاً للباس «الإخوان» المسلمين، ما عدا لباس الرأس حيث يكون (قبعة) فوق الكوفية عمامة المسلمين[١٦].

ج - **وضوح الغرض الاستعماري في عمله التنصيري الطويل**: أراد لافيجيري أن يكتسب البدو في صحراء الجزائر ثم يقدمهم عطية إلى فرنسا... ويأسف كثيراً لأن أمانيه لم تتحقق...

يقول بوتيه: إن العمل الوطني الذي قام به لافيجيري بدأ مع عمله التبشيري، بدأ بنشره على السوريين... إنه جعل فرنسا محبوبة (لدى السوريين)، وأضاف إلى الحقوق القديمة التي كنا نملكها (نحن الفرنسيين) على تلك المنطقة حقوقاً جديدة... ولكن في الجزائر استطاع ان يهب كل ما في استطاعته لإظهار حبه لفرنسا... تلك هي فرنسا التي لم يحب لافيجيري ان يراها عظيمة وجميلة فقط، بل كان يود أن يراها أيضاً أشد قوة وأكثر سكاناً... أراد لافيجيري «أن يحبب فرنسا إلى الناس باسم المسيح...»[١٧].

ويمكن أن نستنتج من حياتهم وأعمالهم إضافة إلى ما مضى ما يلي:

١ - ربط العمل التنصيري بالفكر الاستعماري، وتعميق الحب والولاء للدولة المستعمرة التي تتظاهر بالعلمانية ودعمها مادياً ومعنوياً لكل النشاطات التنصيرية، وهو برهان يؤكد على تآزر وسائل الغزو الفكري المختلفة.

---

(١٦) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(١٧) المرجع السابق، ص ١٢٦.

٢ ـ تنوع العمل التنصيري الاستعماري في الوعظ والإعلام الحي وبناء المؤسسات الاجتماعية والطبية والمعاهد العلمية، إلى جانب النشاطات التنصيرية السياسية والفكرية العامة التي كانت في معظم الأراضي الإسلامية.

٣ ـ طغيان الوسائل الماكرة للوصول إلى الأغراض الاستعمارية، فلا مانع عند بعضهم من التمويه على المسلمين الملتزمين بإسلامهم، بمظاهر عمرانية ضخمة وأعمال معاشية ودينية خادعة.

٤ ـ فشل النشاط التنصيري المترابط مع الأعمال الاستعمارية ليس بعد جلاء القوات العسكرية فحسب وإنما في أثناء سيطرته على البلاد الإسلامية، فلم يعرف في تاريخه تأثيره الجماعي في تنصير المسلمين بالقوة وبالدعوة، وذلك على الرغم من خطورة التآزر بين وسائل الغزو.

إن مناعة الإسلام في ذاتيته، وكراهية المسلمين للتنصير المتآزر مع الاستعمار البغيض، وتجمعهم في حصونه، والتزامهم بفضائله وفي مقدمتها جهاد المستعمر، حفظت الإسلام وحررت بلاد المسلمين من السيطرة الصليبية الاستعمارية.



محاولات الغزو الفكري في الفصل الكلي والجزئي بين الإسلام والمسلمين

حاول الغزاة وما يزالون، بشتى الوسائل الفكرية والسلوكية أن يقيموا حواجز بين الإسلام كعقيدة وعبادة ونظام، وبين المسلمين كواقع وحاضر، فيفصلوا بينهما بما يقدرون عليه من إقامة السدود الحاجزة.

دواعي المحاولات:

١ - فالإسلام بالنسبة إلى المسلمين قضية تراثية ومصيرية، فهو حضارتهم وتقدمهم وذكرهم الذي عرفوا به بين الأمم لأنه دينهم الذي أتمه الله لهم. فحين يفصلون عنه أو يفصل عنهم، فإما أن يبقوا بغير حضارة وحينئذ يسقطون من مصاف الأمم الحضارية، وإما أن يتقبلوا الحضارة الغربية بديلاً عنه، فيعيشون بشخصيات مستغربة، وفي كلتا الحالتين فإن ذلك خسارة كبرى لهم وللعالم.

٢ - والإسلام لا يشبهه دين آخر في المجال الحضاري والمصيري والتراثي فهو عز المسلمين ومجدهم في المجال الدولي، وهو فكرهم وثقافتهم ومنطلقهم في عالم المذاهب والأديان والثقافات، ثم هو روحهم الذي يمدهم بمقومات الوجود الإنساني المتميز مثل ما كان أساس وجودهم الحضاري عبر التاريخ.

٣ - فقد قدم للإنسانية عقيدة ناصعة واضحة الأسس والمعالم بينما تخبط

العالم وما يزال في عقائد وثنية ومذاهب وضعية وفرق منحرفة ضالة، ويتفرد الإسلام بتصور كامل واضح عن الألوهية والكون والوجود. وبتقديم الخير والحق والعدل والمساواة والحرية الحقيقية والأخوة السامية ضمن ما يقدمه من الفضائل الفكرية والخلقية، إلى الإنسان في أقطار الأرض جميعها.

٤ ـ ومع هذا وذاك فقد أدهش الفكر القانوني العالمي بما يشمل من الأنظمة التشريعية الشاملة في السياسة والقضاء والاقتصاد والأسرة والجزاء والأحوال المدنية والشخصية ضمن إطارين واسعين: الإطار الفكري الكلي، والإطار المبدئي الأخلاقي.

٥ ـ إن دواعي الفطرة الإنسانية ومتطلبات البشرية في أي زمان ومكان تتفتح لها العقول والقلوب، وتستجيب لمنافعها المناهج والأنظمة والمستويات العلمية المعنوية والمادية التطبيقية.

وكيف لا تحقق أهدافها الخيرة وهي (العقلية) و(المبدئية) و(الفطرية) و(النظامية) و(المنهجية العملية) ولم لا تواجهه (الصليبية) وهي تعرف (صفاءها) و(قدرتها) و(إنسانيتها) و(روحها العلمية والعملية).

٦ ـ فالإسلام إذاً يقدم أفضل ما يتمناه الإنسان، وأروع ما تحكم به البشرية، وأصدق ما تتطلبه الحكمة والفضيلة، وأقوم ما ترنو إليه التربية وصياغة الإنسان.

ومن هنا فإن خشية الفكر الغربي من الإسلام وتخوف الكنسيين من انتشاره، ومنازعة الصهيونية العالمية لسلطانه تفرض محاربة الإسلام وعزله بعيداً عن الساحة العملية نظريات ومنطلقات محددة، أو عرضه مشوهاً ممزقاً، وحينئذ يتم لهم إبعاده عن الحياة والأحياء.

ولو افترض أن الإسلام خلا أو افتقد هذه الخصائص أو معظمها فهل

يقف منه الغزاة موقفهم المحارب فيشوهوا صورته ويبددوا خصائصه؟

ولو قبع في دياره فلم يتجاوزها بالدعوة وتقديم الخير والقضاء على الجهالات والوثنيات في انحاء العالم فهل يحاول الغزو إيقاف مده والتعرض لدعاته؟

وليس هناك وسيلة أنجح لتحقيق نفوذه سوى الفصل بين الإسلام والمسلمين بتشويه صوره امامهم وتحقير مبادئه في قلوبهم وتحريف حقائقه في عقولهم.

الفصل الكلي:

إن حرابة الإسلام وخصام فضائله تعني محاربة الثقافة الإسلامية والحضارة الدينية العالمية والأنظمة والمنهاج الرباني الشامل الذي يقدم الخير والحق والعدل للناس جميعاً.

ولكي ينجح الغزو في حرابته عمد إلى قطع صلات المؤمنين به وعزله عنهم، فحاول أن ينتزع الإسلام من عقول وقلوب وأعمال المسلمين بطرح افتراءات تستأصل الإسلام وتدمر جذوره الثابتة.

فطعن بالنبوة ووضع مسلمة الاعتقاد ببشرية القرآن، وأن الاسلام مزيج من الشرائع السماوية والوضعية. ونظر إلى الأصول الإسلامية بارتياب أو إنكار في بناء الإسلام العقدي والعبادي والتشريعي والأخلاقي ومثل هذه القضايا الكلية تحجز بين المسلمين وبين دينهم، وتبقيهم بلا دين أو تردهم عنه إلى أي شيء آخر وربما خططوا في التشكيك بأحقيته والارتياب بمقوماته الكبرى حتى يعيش المسلمون في الضياع والضعف. فالفصل الكلي إذاً يقصد به دراسة القضايا الكبرى في الإسلام من وجهة نظر الفكر الغازي من أجل إنكار كلي للدين أو اعتقاد باطل في الجوانب الهامة فيه، وبالتالي قطع الصلة به قطعاً نهائياً.

وفي الفصل الكلي ينسلخ المسلمون من اسلامهم كلياً، في الفكر والسلوك والإلتزام.

ومن أعجب ما يحاوله الغزاة ـ وفي مقدمتهم المستشرقون ـ بيانه، أن ينزعوا قدسية الإسلام ومكانته السامية من نفوس المسلمين، ويزلزلوا اعتقادهم به في أساليب شتى لا يخضع أي منها للبحث العلمي المنهجي.

وسنبرز أهم قضايا النبوة التي تدور حولها دراساتهم وأعمالهم في هذا الجانب من الفصل وسنخصها ببعض الشواهد والأقوال والأفكار من المستشرقين أنفسهم.

١ ـ بشرية القرآن الكريم.

٢ ـ تجريد الرسول عليه الصلاة والسلام من النبوة.

٣ ـ تبعية الإسلام للشرائع والمذاهب السابقة.

وواضح ما بين هذه القضايا من صلات عضوية معنوية وتلازم فكري عقدي، وتداخل أو تلاحم درسي، يقصد منها إنكار الإسلام كدين سماوي وبالتالي انكار الوحي القرآني، ونبوة الرسول عليه الصلاة والسلام.

١ ـ بشرية القرآن الكريم:

عرضت دراسات جادة لهذه القضية، وبيّن بعضها موقف المستشرقين والمستغربين ونوّهوا بالوحي القرآني بأدلة وبراهين متعددة، وفي مقدمتها: تحليل د. محمد البهي في كتابه: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، مبيناً صلة د. طه حسين، التأثرية الفكرية بالمستشرق الانكلو أمريكي: هاملتون جب.

وما دامت القضية أصلاً في الفكر العقدي فهي تستوعب نظرات جديدة وإضافات واستنتاجات مناسبة، تعد استكمالاً أو تتمة بحثية يمكن لدارسين آخرين أن يضيفوا ويستنتجوا أكثر فأكثر. . .

فالقضية كانت وما زالت هدفاً كبيراً لدراسات المنصرين والمستشرقين وبخاصة السياسيين منهم، وفي مقدمتهم (جب) في كتابه (المحمدية)، و (آربري) وزير الأنباء الانكليزي، في كتابه (القرآن المقدس).

فهؤلاء ينكرون (مصدرية) القرآن الإلهي، ويفترونه من قول إنسان أو عدد منهم. ويفضل بعضهم أن ينسبه تمويهاً وخداعاً إلى الرسول، فهو على حد قولهم: أعظم أثر صنعه محمد في حياته... وتكثر في عباراتهم نسبة آياته إليه سواء عرضت في مقام المدح أم القدح، كما تتعدد الصور الفكرية التي يقررونها كأنها حقائق مسلمة يتداولها المتقدمون والمتأخرون من الغربيين.

وتبعاً لهذا، فإنهم:

١ ـ يؤكدون أن القرآن كأي كلام آخر، لا يمكن أن يرتقي إلى مستوى الألوهية والربانية مهما حاول المسلمون أن يرفعوا من شأنه.

٢ ـ ولا يدركون فيه إعجازاً بيانياً أو علمياً أو تاريخياً أو تشريعياً، أو أي وجه من وجوه الإعجاز المعروفة.

٣ ـ وينفون له أي تأثير في البيان العربي والتشريع الإنساني والثقافة الهامة، فهو بنظرهم ونظر تلامذتهم من العرب المستغربين: نوع مستقل من الكلام العربي الذي يقسمونه إلى: نثر وشعر وقرآن.

٤ ـ ولم يتأثر به المسلمون بلاغة وتشريعاً وأخلاقاً، وإنما هابوه ورفعوا مكانته لما عرض في آياته من مشاهد غيبية لم تألفها عقولهم في التصوير المبدع ليوم القيامة. ولذا فلم يحاول أحد تقليده أو محاكاته، حتى إن بعضهم يتطاول عليه فيدعي أن في القرآن أغلاطاً نحوية وبلاغية ولغوية...

ويمكن الرد على الفرية الكبيرة بالأدلة التالية:

أولاً ـ الدليل التاريخي:

١ ـ فالقرآن نفسه لدى متنزله ذكر هذا الافتراء الذي كان يروجه العرب ومعهم اليهود والنصارى فيروي المفسرون أن المشركين والكتابيين كانوا يتهمون الموالي، (جبر) النصراني، و (بلعام) اليهودي يمليان القرآن على الرسول بسبب ترددهما إليه، والرسول يتابعهما عليه، ويؤولونه من وجهة نظرهم الوثنية.

وهـو نفسـه افـتراء المستشرقـين في الـزمن الحـديث، فــرد الله عليهم مـا أفحمهم في وقت النبـوة، ومـا يقنـع غـيرهم في أي وقت آخـر فهـو يقـول: **﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾** (النحل: ١٠٣).

فالآية مكية وتقرير الإفتراء فيها قديم، عرض بصورته المؤكدة، وهـو قول لعدد منهم (يقولون)، جرى في أسلوب تعليمي، فـالقرآن ـ كـما تشير الآيـة ـ تعلمـه الرسـول جميعه من البشر في طـول الحياة النبـوية وبخـاصـة في مكـة المكرمة.

والمستشرقون يفترون قريباً من هذا، فهو إذاً قديم وحديث.

أمـا الرد القـرآني فهو تقـرير لحقيقـة لا تحتاج إلى مؤكـدات، هي: الفرق الشاسع بين البيان العربي الإلهي المبين وبين بيان الموالي والأعاجم.

فالعجمة لا تبين، والرسول العربي أعرف الناس بالبيان، فهـو من قريش واســترضـع في بني سعــد، وفي الـذروة من البيــان البشري، فكيف يتعلم العجمـة من إنسان لا يبـين؟ وهل يتصـور أن يتتلمذ عـلى الأعاجم في أخـذ (المعنى) أو (الموضوع) ثم يصيغـه بالأسلوب (العـربي) بعد أن نفى القـرآن أصل القضية؟.

وإذا قرر القرآن هنا الحقيقة السابقة من غير المؤكدات فـإنه عـرض لها في كثير من الآيات مقرراً ومؤكداً البيان العربي المنزل من الله[1].

ب ـ والمؤمنون به متأثرون بـإعجازه، وبفـاعليته في نفـوسهم، علموا أنـه وحي الله إلى نبيه، فصدقوا برسالته وآمنوا بنبوة رسـوله، وهم أهله وجـيرانه والقبائل المحيطة به وقومه العرب وغير العـرب، وجرت أسـاليبه في خـطابهم وأحـاديثهم، وزخرت معـانيه في عقـولهم وقلوبهم، وأفحم الشعراء والأدباء

---

(١) انظر في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكـريم المواد التـالية: عـرب، نزل، وحي، علماً أنني أشرت إلى هذه القضية في كتابي: رسول الله ﷺ في كتابات المستشرقين. ص ١٢.

جاهليين ومسلمين وكان تأثرهم به شاملاً للجوانب الفكرية والتاريخية والبيانية والدعوية والعملية الخلقية.

ثم إن تقديسه عبر التاريخ الطويل، واهتمام المسلمين وغير المسلمين به حتى الآن، وإيمان أكثر من ثلث سكان العالم في الوقت الحاضر، وهم يزدادون وقتاً بعد آخر، يبرهن على تنزيله وحياً على محمد ﷺ.

ويذكرنا هنري دي كاستري بأخبار تاريخية فيقول: ... آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عباراتها لإقناع عمر بن الخطاب، فآمن برب قائلها، وفاضت عين نجاشي الحبشة بالدموع حين تلا عليه جعفر ابن أبي طالب سورة مريم...[٢].

ج ـ التحدي القرآني: فقد تحدى العرب ببيانه كما تحدى غيرهم بمنهاجه في آيات معروفة متلوة، فأعجز (المتنبئين) أن يصيغوا صياغة جادة مثله أو قريباً منه، كما أعجز (الشعوبيين) مع محاولاتهم المتكررة، وأدهش (المؤرخين) و(الأثريين) بالحقائق التاريخية والأثرية القرآنية، وبهر (الحقوقيين) بتشريعه الفذ، و(المربين) بفضائله وتوجيهاته.

ومثل هذا التجمع الحضاري من الناحية الثقافية لم يشهد لها مثيل في العهد النبوي، فلم تكن من معلومات أحدهم حتى ولا من معارف علمائهم وأحبارهم.

فالإعجاز العلمي القرآني تبرز صورته في المقاييس العلمية الحديثة وفي مقدمتها: الحقائق الطبيعية والطبية والإنسانية. فهل استطاع إنسان أو جماعة أن يقبل التحدي فيعمل على شاكلة القرآن بياناً وعلماً وتاريخاً وتربية؟

وإذاً فإن الدليل التاريخي من جميع جوانبه يثبت استحالة أن يكون القرآن من بشر، فهو من مصدر فوق طاقة البشر، فهو كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، وصفات الله لا تماثلها صفات المخلوقين.

---

(٢) أخباره في: اعجاز القرآن: الباقلاني، ص ٢٧.

ومن عجيب افتراءاتهم التاريخية هي أن الرسول كان يرتب آياته عندما كان يتحنث في غار حراء قبل أن ينبأ بقوله: ﴿إقرأ﴾ ويرسل بقوله: ﴿يا أيها المدثر...﴾.

وهذاالكلام:

١ - لا تؤيده رواية مقبولة.

٢ - وهو مستبعد بالنسبة للفترة الزمنية التي تردد فيها الرسول على غار حراء فلم تتجاوز ثلاث أو أربع سنوات.

٣ - وغير معقول بالنسبة للأحداث الداخلية والعالمية المستقبلة مثل فتح مكة وغلبة الروم. وجميع المغازي، وقد وقعت جميعها في المستقبل البعيد، والحالات المجهولة الغيبية.

وقد تنبه بعض المستشرقين إلى ثبوت النص القرآني وسلامته من التغيير عبر القرون المتطاولة واستدلوا من ذلك على وحيه من الله، ولم يتأت لمحمد ﷺ ولا لغيره، كما سبق قول (هنري دي كاستري).

ولكن (د. لورا فيشيا) تؤكد على مصدر القرآن الإلهي بصفاء النص القرآني عبر القرون إلى أيامنا هذه وإلى ما شاء الله. تقول: ولا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة، هو أن نصه ظل صافياً غير محرف طول القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء، وعدم التحريف بإذن الله ما دام الكون.

وربما كان هذا وحده الدافع الأعظم للإقبال على الإسلام في الأزمنة الماضية، وتزايد المسلمين من الأديان الأخرى في الزمن المعاصر خاصة.

يقول ناصر الدين (آتين دينيه): إن نفراً من النصارى في مختلف الأقطار الأوروبية دانوا بالإسلام في الأعوام الأخيرة... ويكثر عددهم على مر الأيام. وفي لندن، وليفربول جماعات إسلامية ذات شأن حقيقي، فهم فريق من أعيان الإنكليز... ورأى أن الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا من

المسيحيين وغيرهم إنما هم من الخاصة، سواء كانوا في الهيئات الاجتماعية الأوروبية أم الأمريكية، كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه،لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية. . . إلى أن يقول: ونذكر منهم على سبيل المثال: اللورد هيدلي، وكريستيان شرمسي.

ثانياً ـ الدليل النقدي التقويمي:

إن الرسول (تعلم) القرآن من (الله)، فالقرآن المادة العلمية بمعناه الشامل، والمعلم (الله) الذي هو عالم الغيب والشهادة، وهو (معلم) الأنبياء جميعاً في وحدة مصدرية إلهية، وطلاب العلم محمد عليه الصلاة والسلام وإخوانه الأنبياء في (مدرسة) الله.

١ ـ موازنة تقويمية بين علمين:

١ ـ فالمضامين العلمية في الكتب والصحف السماوية (علم) الأنبياء جميعاً، فإذا بلغوها فإنما يبلغون علم الله، وإذا حدثوا بها أو بجزء منها من كلامهم فإنما يتحدثون بعلم الله من مصدر فريد لا يتجاوزونه إلى غيره، سوى ما يضاف إلى هذا من (التجارب) و(المعارف) التي تحصل لبعضهم عن طريق الأعمال الدنيوية من صناعات الأنبياء وتجاراتهم ورحلاتهم واطلاعاتهم على علوم عصرهم، ولكن هذه ليست ذات صلة بـ (العلم الإلهي) المقرر من (الله) والمبلغ من (رسوله) لأن النبي لو لم يكن (نبياً) لما بلغه من العلوم الإلهية مثل ما بلغه، ولا كلف بتبليغها مثل ما كلف.

ولذا فإن المدرسة (الربانية) هي التي كونت الشخصية (النبوية) كما كونت مدرسة (الحياة) الشخصية (البشرية) في تعاملها (الحياتي) و(المعاشي) العاديين.

والمعاني أو المعارف (الربانية) ليست من مصدر (بشري) وإنما هي من الله، تستوي في ذلك الآيات المنزلات، والأحكام الدينية التي نطق بها

الـرسول من كـلامـه، لأن الحيـاة الإنسـانيـة لا يمكن أن تصبـح مصـدرهـا ومنطلقها.

فالوحي الإلهي رسالة من الله ودينه سواء كانت آيات قرآنية، أم أحاديث قدسية أم نبوية. وعندئذ فالرسول (وعاء) لهـذا الوحي و (مبلغ) لـه على أيـة حال.

والوحي القرآني (علم عظيم) تجاوز المعارف الإنسانية في عصر الرسالة حيث كان الرسول واحداً من العرب الذين اطلعوا عليها وعلموا بها، وحين يعلمه الله إياه فإنه يرفعه به إلى مستوى النبوة فيصبح الرسول عالماً بعلم الله المبثوث في آياته التي لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان قبلها.

ومثله الـوحي الإلهي الإلهامي لا الإستبـطاني الداخـلي، فالإلهـام فرع من الوحي لأن الرسالة هي الصفة البارزة والشاملة في الرسـول، ثم يقره الله لـه فيما بعد بـوحيه المستقـل أو يصرفه عنـه، حين يـظهر عقب اجتهـاد أو إعمال نظر.

أما الإستبطان ـ كما سيأتي ـ فهـو حالـة انفعاليـة تأثـرية بـالبيئة وبـالناس المـوجودين فيهـا قد تحـدث لأي مصلح أو فيلسوف، أو غيـور على مصـالـح الآخرين ومنفعتهم، ومثل هذه الحالة من مبتكرات المستشرقين الذين يجردون الرسول من نبـوته إلى أيـة صفة أخـرى من القيادة الـدينية أو الإصـلاحية أو الزعامة...

والـرسول ـ كما سبقت الإشارة ـ تعلم من الله، فحفظ عنـه كتابـه، كـما استوعب عنه كـلامه القـدسي، ومن المؤكد أن محمـداً عليه الصـلاة والسلام ـ بـاعتباره طـالب العلم ـ لا بد من أن يتـأثر بمـا تعلمه في الحـالات النفسية

(٣) في كتابي: الرسول ص ٧٥ نقلاً عن: الاسلام والثقافة، ص ٣٠٧. أنور الجندي.

(٤) كتـابي السابق ص ٧٦ ـ ٧٧ راجـع كتبه: الشرق في نـظر الغرب، واشعـة خـاصـة بنـور الاسلام، والحج إلى بيت الله الحرام.

الربانية، وفي البيان النبوي أيضاً ولا يقبل أن يتساوى علم المتعلم والمعلم، ونجد هذا واضحاً في (الاقتباسات) في حديثه العام. وفي (التفسير) النبوي الخاص.

ففي الأولى مثل ما صح عن الرسول ﷺ من حديث أبي سعيد عن الزلزلة: . . . وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكْرى، وما هم بسكْرى ولكن عذاب الله شديد، فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله أيّنا ذلك الرجل؟ قال: ابشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل، ثم قال: والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة. . .[٥].

وفي الثانية مثل ما صح عنه من (تفسيره) القرآن وهو قريب من جزء في صحيح البخاري، كالاستشهاد فيما روته عائشة قالت سمعت رسول الله يقول: ما من نبي يمرض إلاّ خيّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فعلمت أنه خُيّر[٦].

(وكالتعيين) في الصلاة (الوسطى) من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: صلاة الوسطى صلاة العصر وقريب منه تفسير الصحابة[٧]. . .

ويؤكده تصريح القرآن أن علم الرسول من علم الله في كثير من الآيات منها: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلاّ الله**﴾ (محمد: ١٩) و ﴿**الرحمن علم القرآن. . .**﴾ (الرحمن: ١ - ٢) و ﴿**علمك ما لم تكن تعلم**﴾ (النساء: ١١٣) و ﴿**وما علمناه الشعر. . .**﴾ (يس: ٦٩).

---

(٥) جزء من حديث البخاري في الصحيح ٦٥٣٠ باب قوله عز وجل: إن زلزلة الساعة شيء عظيم، وانظر فيه أيضاً قصة موسى (٤٧٢٥).

(٦) صحيح البخاري ٤٥٨٦ باب: فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، وانظر قصصه عن الأنبياء، ومثله تفسير الصحابة ٤٧٧٩، ٤٨١٤.

(٧) الترمذي في: الصلاة (١٨١) وقال: حديث حسن صحيح، وانظر أيضاً حديث ١٨٣.

كما يؤكده الرسول نفسه في أحاديثه عن (البشرية) و(المرض) و(الزواج) و(الطعام)... فهناك علمان لا علم واحد: علم الألوهية وعلم البشرية والرسالة.

والموازنة بين علم الله وعلم الرسول لا تصح إلّا بمقدار ما تصح الموازنة بين علم الله (الخالق) وعلم الرسول (المخلوق) أو بين (الأصل) الأول الذي ترجع إليه (الأصول) جميعاً، والأصل الثاني من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام. وبمثل هذه الموازنة تتضح الفروق بين العلم الشامل والمعجز والمطلق والعلم النبوي المفسر والآخذ، فلا يتساويان.

٢ ـ موازنة تقويمية بين البيانين: فالبيان خاضع أو ظاهرة للأسلوب، الذي يختلف في الإيجاز والإطناب والتقرير والتصوير، والجمع والتفريع، وفي الأسلوب الأدبي والعلمي عموماً...

فإذا ثبت أن لكل بيان أسلوبه المتميز وفرديته الواضحة والخفية فإن الصور اللفظية القرآنية المعجزة تختلف عن الصور اللفظية النبوية البليغة، وإن كان تأثر الرسول بالقرآن واضحاً في حديثه.

فتظهر في البيان الإلهي علويته الربانية، وتراكيبه الموجزة، وصوره الفريدة ونسق الجملة القرآنية المبهر في سجع خاص منغم، والمرصوفة على صورة آيات تختلف فيما بينها في الطول والقصر باختلاف الموضوعات والمعاني التي عرض لها، ثم في (الجرس) الداخلي والظاهر الذي لا نجد لها مثيلاً في أصلها إلّا في بعض القصائد الشعرية الرائعة.

أما طريقته الحوارية وفنية المشخصات الحية في الجمادات، وعرض المجردات في أسلوب محس، وانتقاء اللفظة الموحية والجملة المعبرة، فهي من مزايا الإعجاز القرآن البياني.

ومثل هذه الخصوصية في البيان القرآني تفرقه عن أي بيان عربي أصيل معروف النسبة، حتى وإن كان ذلك بيان الرسول عليه الصلاة والسلام.

أ ـ نصوص من البيان القرآني والنبوي[8]:

فمن المعروف أن رسول الله أفصح من نطق بالضاد، ولم يماثله في فصاحته أحد من معاصريه، فقد تميز بالتوضيح والترسل غالباً إلى جانب جوامع كلمه، وبيانه المصور الموجه المعبر عن الأحداث بما تقتضيه رونق البلاغة البشرية.

وإذا كان الترغيب والترهيب بأسلوب الإثارة والحماسة واقعاً أكثر في خطبه ورسائله فإنه قد يتخذ أسلوباً آخر في غرض آخر، ففي بيانه الأحكام وقصصه النبوي وتوجيهه الحكيم طرائق متعددة تتوافق مع (مقتضى الحال).

يقول الرسول ﷺ فيما رواه جندب في (الرياء والسمعة): من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به[9].

قال الخطابي في تفسيره: من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه[10]...

فالحديث جملتان شرطيتان أو متضمنتان معنى الشرط توضحان جزاء المرائي، والمقام يقتضي خلوه من الصور الأدبية المعروفة...

بينما نجد الموضوع نفسه في القرآن الكريم ولكن بالبيان القرآني. يقول الله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً...﴾** (البقرة: ٢٦٤).

يقول سيد قطب: يريد القرآن أن يبين للناس أن الصدقة التي تبذل رياء، والتي يتبعها المن والأذى لا تثمر شيئاً ولا تبقى، فينقل إليهم هذا

---

(٨) اقتصر الباقلاني على عرض بعض خطب الرسول عليه الصلاة والسلام.
(٩) صحيح البخاري ٦٤٩٩، باب الرياء والسمعة ـ الرقاق.
(١٠) فتح الباري: لابن حجر ٣٣٦/١١.

المعنى المجرد في صورة حسية متخيلة... ويدعهم يتملون هيئة الحجر الصلب المستوى، فإذا وابل من المطر يصيبه، وبدلاً من أن يهيئه للخصب والنماء - كما هي شيمة الأرض حين تجودها السماء - إذا به - كما هو المنظور - يتركه صلداً، وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره، وتخيل فيه الخير والخصوبة[11].

وفي الحث على (التواضع) ينبه الرسول إلى عدد من الأحاديث منها ما رواه أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إن حقاً على الله ألّا يرفع شيئاً من الدنيا إلّا وضعه[12].

قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا على الله، والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو في محل الضعة، فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويقل منافسته في طلبه.

فالحديث يتضمن المؤكدات اللفظية والمعنوية وطباق بين رفع الدنيا وإهانته عند الله... مما يقتضيه الحال.

أما القرآن فيصور (كبر) الكافرين المعاندين المكابرين في صور مخيفة في المخبر والمظهر يزيد من روعتها مسحة الجبروت الإنساني في الاستعلاء على الحق المبين الذي يظهر على ألسنتهم وأعمالهم.

يقول الله تعالى: **﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا: إنما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون﴾** (الحجر: ١٥).

ويقول: **﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه في أيديهم لقال الذين كفروا: إن هذا إلّا سحر مبين﴾** (الأنعام: ٧).

و(مشاهد القيامة) زاخرة بأروع البيان النبوي والقرآني مع الفارق بينهما أن الأول في ذروة البلاغة البشرية، والثاني في البيان الإلهي المعجز.

---

(١١) التصوير الفني في القرآن: سيد قطب ص ٣٩.

(١٢) صحيح البخاري، ٦٥٠١ باب التواضع، الرقاق.

يقول الرسول من رواية أسامة: يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه[13].

وهو مشهد مفزع للمنافق وغيره ممن لا يلتزم بالقول والعمل معاً.

والقرآن صور مثل هذا النموذج كثيراً كما صور الكافرين على اختلاف أحوالهم في مشاهد أكثر فزعاً ورهبة وعذاباً.

﴿... فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد. كلّما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ (الحج: ١٩ ـ ٢٢)..

وفي ذلك يقول الباقلاني (ت ٤٠٣) معتمداً على قدرة البليغ في التفريق بين البيانين ـ وهو ما افتقده معظم المستشرقين: فإن كان لك في االصنعة حظ، أو كان لك في هذا المعنى حس، أو كنت تضرب في الأدب بسهم، أو في العربية بقسط ـ وإن قلّ ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب ـ فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول الله ﷺ في خطبه ورسائله... إلى أن يقول: ... لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهي، وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي[14].

وينوّه بالبلاغة النبوية بقوله: والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعرين وكلام الخطيبين في الفصاحة.

كما ينوه بالفرق بين البيانين فيقول: ... إذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور، وبين نظم القرآن تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله

(١٣) صحيح البخاري ٢٣٦٧ باب صفة النار وأنها مخلوقة، بدء الخلق.

(١٤) إعجاز القرآن، ص ١٣٦.

عـز وجل وبـين كلام النـاس، فلا معنى لقـول من ادعى أن كلام النبي ﷺ معجز، وإن كان دون القرآن في الإعجاز[15].

ويشير إلى امتناع أن يتخذ أديب أو خطيب أسلوبين متمايزين فيقول: ولـو كان القرآن من كـلامه لكـان البون بـين كلامـه وبينه (القـرآن) مثل مـا بين خطبة وخطبة ينشئهما رجل واحد[16].

إلى أن يقول: وقد يعلم الشاعران وجوه الفصاحـة، وإذا قالا الشعـر جاء شعر أحدهما في الطبقة العالية، وشعر الآخر في الطبقة الوضيعة. . . وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون مع العلم بكيفية النظم. . .

ب ـ نصوص من البيان القرآني والجاهلي:

فإذا لم تصح تسمية الحديث بالإعجاز، وكان البون بين القرآن والحـديث كبيراً فلا تصحّ موازنة أي بيان آخر بالبيان القرآني.

١ ـ **فالشعر** ـ كما ينوّه الباقلاني ـ لا يجوز أن يوازن بـه القرآن حتى من كـان في المنـزلة الـرفيعة فيـه، مثل امـرىء القيس من الشعراء الجـاهليـين، والبحتري من الشعراء الإسلاميين.

ويقـول في معـرض كـلامـه عن البحـتري: والشعـر قبيـل ملتمس مستـدرك، وأمـر ممكن مطيـع، ونـظم القـرآن عـال عن أن يعلق بـه الوهم، أو يسمو إليه الفكر، أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب[17].

وكان قال قريباً منه في معرض كلامه عن امرىء القيس ونقـد قصيدتـه (اللامية) ومطلعها:

قـفـا نـبـك مــن ذكـرى حــبـيــب ومــنــزل
بــسـقـط الــلـوا بــين الــدخــول فــحــومــل

(١٥) ص ٤٤١ في القولين.
(١٦) ص ٢٩٤.
(١٧) ص ٢٤٣.

قال: ونظم القرآن جنس متميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير متخلص. . .[18].

وعلى هذا فلاتصح الموازنة بين القرآن والشعر ـ من وجهة نظره ـ لأنهما جنسان في الكلام.

٢ ـ **والنثر**: وهو على قلته أفصح البيان الجاهلي. وعقد علماء البلاغة موازنة بين نصين قصيرين في القرآن والنثر الجاهلي، وأبانوا عن الفروق الكبيرة بينهما في الشكل والمضمون.

فالله تعالى يقول: ﴿**ولكم في القصاص حياة. .**﴾ (البقرة: ١٧٩).
وعرف عن العرب أقوال في هذا المعنى. مما دفعهم إلى الموازنة بينهما.

يقول الرازي: اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعاني باللغة بالغة إلى أعلى الدرجات، وذلك لأن العرب عبروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة، كقولهم: قتل البعض إحياء للجميع، وقول آخرين: أكثروا القتل ليقل القتل، وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم: القتل أنفى للقتل، ثم إن لفظ القرآن أفصح من هذا، وبيان التفاوت من وجوه: (أحدها) أن قوله ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾ أخصر من الكل، لأن قوله (ولكم) لايدخل في هذا الباب، إذ لا بد في الجميع من تقدير ذلك، لأن قول القائل: قتل البعض إحياء للجميع لا بد فيه من تقدير مثله، وكذلك في قولهم: القتل أنفى للقتل فإذا تأملت علمت أن قوله (في القصاص حياة) أشد اختصاراً من قولهم: القتل أنفى للقتل (وثانيها) أن قولهم: القتل أنفى للقتل ظاهرة يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال، وقوله (في القصاص حياة) ليس كذلك، لأن المذكور هو نوع من القتل وهو القصاص، ثم ما جعله سبباً لمطلق الحياة لأنه ذكر الحياة منكرة، بل جعله سبباً لنوع من أنواع الحياة (وثالثها) أن قولهم القتل أنفى للقتل، فيه تكرار للفظ القتل

(١٨) ص ١٥٩.

وليس قوله (في القصاص حياة) كذلك (ورابعها) أن قول القائل: القتل أنفى للقتل لا يفيد إلّا الردع عن القتل، وقوله (في القصاص حياة) يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرهما فهو أجمع للفوائد (وخامسها) أن نفي القتل مطلوب تبعاً من حيث إنه يتضمن حصول الحياة، وأما الآية فإنها دالة على حصول الحياة وهو مقصود أصلي، فكان هذا أولى (وسادسها) أن القتل ظلماً قتل، مع أنه لا يكون نافياً للقتل بل هو سبب لزيادة القتل، إنما النافي لوقوع القتل هو القتل المخصوص وهو القصاص، فظاهر قولهم باطل، أما الآية فهي صحيحة ظاهراً وتقديراً، فظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب.

ومن المناسب أن أعرض موقف د. لورافيشيا في المعجزة البلاغية للقرآن كلام الله ووحيه.

تقول: إن معجزة الاسلام العظمى هي (القرآن) الذي ينقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلال أنباء تتصف بيقين مطلق، إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته... إن آياته على مستوى واحد من البلاغة، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته، إنما نقع هنا على العمق والعذوبة معاً، وهما صفتان لا تجتمعان عادة، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد، وهو العربي الأمي[١٩]...

ثالثاً ـ الشخصية المحمدية المكية:

ويقصد به إبراز الصفات الشخصية والاجتماعية والبيئة الأولى في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة المكرمة حيث كانت وما زالت أم القرى ومهوى الأفئدة وبخاصة الحنفاء، على الرغم من شيوع الوثنية في حرمها العظيم وبين بيوتها المنتشرة.

---

(١٩) من كتابي الرسول، ص ٧٣.

١ ـ الجانب الشخصي:

فالرسول كما اشتهر من سيرته متفوق في القدرات الذهنية من الذكاء والفطنة وحسن التدبير والقيادة، اصطفاه الله من قومه وأعده لرسالته، وبعثه رحمة للعالمين.

وكذلك كان (أمياً) لم يتعلم القراءة والكتابة، مثل غالبية قومه الذين قال الله فيهم ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم...**﴾ (الجمعة: ٢).

والله الذي أعدّ نبيه لرسالته قادر على أن يهيء له من يعلمه القراءة والكتابة مثل القليل من العرب ولكنه اختاره كذلك لتظهر حكمة الله في الوحي القرآني الذي صرح بها في قوله ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ (العنكبوت: ٤٨).

فهذا إعلان من الله بالحقيقة التاريخية وهي (أميته) ثم بيان للحكمة منها، وهي (إبعاد الريب عن الوحي القرآني). وإذا ثبتت أميته فإن القرآن وحي من الله تعالى.

ومثل هذا الوضوح القرآني لا يقنع عدداً من المستشرقين الذين يلتمسون الأخبار الواهية والتأويلات الباطلة في معرفة الرسول القراءة والكتابة.

ولا شك أن مقصدهم من ذلك ليس هو وصف الرسول بالمعرفة وإنما هو من أجل تمرير صناعته للقرآن فهو أعظم أثر صنعه محمد كما يقولون.

يقول باريه[20]: والآية الأخيرة: ﴿**ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار، لا يؤده إليك إلّا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾ (آل عمران: ٧٥).

تجعل من المحتمل أن كلمة (أمي) أو (أميين)، وضعها أهل الكتاب

---

(٢٠) المرجع السابق، من ص ١٣٢ ـ ١٣٥ باضافات وانظر الحواشي.

(وربما كان واضعوها هم اليهود) للدلالة على الوثنيين، ويزيد في تأييد هذا الرأي أن (هورفتز) يبيّن أن لها مقابلاً في العبرية هو (أموت هاعولام). . ثم يقول: ويصعب الجزم بالمعاني التي كان يقصدها محمد من كلمة أمي. . ثم يذكر أقوالاً لبعض المستشرقين فيقول: وذهب (بول) أخيراً إلى أن كلمة أمي معناها «الذي لا يكتب ولا يقرأ» وليس معناها «الوثني». . ولكنه يعقّب على هذا الرأي فيقول: وهناك عوامل لغوية تجعل من الصعب أن نقول إن كلمة أمي معناها «الذي لا يكتب ولا يقرأ»؛ فلا الكلمة العربية «أمة»، ولا العبرية «أماً»، ولا الآرامية «اميتا» تدل على الأمة في حالة الجهالة. . وقد استدل قوم بإطلاق لفظ الأمي على محمد بأنه لم يكن يقرأ ولا يكتب، والحقيقة أن كلمة «الأمي» لا علاقة لها بهذه المسألة لأن الآية:

﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني وإن هم إلاّ يظنون﴾ (البقرة: ٧٨).

التي تدعو إلى هذا الافتراض لا ترمي الأميين بالجهل بالقراءة والكتابة بل ترميهم بعدم معرفتهم بالكتب المنزلة. . .

ولكن على ما في أقوال المستشرقين من تعارض وتناقض حول هذه القضية فإن هذه الشبهة يمكن ردها بما يلي:

١ ـ إن كلمة «الأمي» وصف الله بها نبيه ﷺ في آيتين من سورة الأعراف، وهي مكية، ولم يكن للنبي ﷺ صلة باليهود حتى يمكن الكاتب أن يزعم أن الكلمة أطلقها اليهود في ذلك الوقت على الوثنيين، ومقابلتها بالعبرية والآرامية لا يعني أبداً أنها من وضع اليهود لا أصلاً ولا اشتقاقاً ولم تكن دخيلة عليها. وإذا سلمنا جدلاً بدلالتها على (الوثنيين) فإنها لا تنفي عنهم غلبة الجهل بالقراءة والكتابة، كما هو المشهور من حياتهم الجاهلية، فهل يخالف المستشرقون في هذه الحقيقة التاريخية؟

٢ ـ إن كلمة «الأمي» جاءت في ست آيات من القرآن: الأعراف: ١٥٧

و١٥٨، وآل عمران: ٢٠ و٧٥، والجمعة: ٢، والبقرة: ٧٨. وسياقها كلها يدل على أن المراد بها هو من لا يعرف القراءة والكتابة، كما هو المعنى المعروف في لغة العرب، وبذلك فسرها أئمة اللغة العارفون بها، فمن ذلك قول الطبري في تفسيره: إن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب...
وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره: «الأمي» الذي لا يقرأ في كتاب ولا يكتب، نسب إلى الأم، لأنه ليس من شغل النساء. أما القرآن فقد صرح بأميته كما سبق في قوله:

﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾.

٣ ـ وأما آية (ومنهم أميون...) السابقة، التي ادعى الكاتب أن المراد منها: عدم معرفة العرب بالكتب المنزلة.. فإن هذا الرأي قد سبقه إلى نحوه بعض المفسرين، ونقل الطبري أثراً عن ابن عباس بتأويل الآية على معنى أنهم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ولا كتاباً أنزله الله، وأنه سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله. ولكن هذا الأثر ضعيف الإسناد، غير ثابت النقل لأنه من رواية الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس، ولكن الضحاك وإن كان ثقة فلم يلق ابن عباس ولا غيره من الصحابة، ثم لو صح هذا لكان له وجه على سبيل المجاز، ومع ذلك فقد رده الطبري فقال: وهذا التأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم...

القرآن ليس وحياً:

إن الشبهة السابقة تقوم عليها شبهة أخطر منها، وهي نسبة القرآن إلى الرسول على أنه من صنعه ومن كلامه، وهي القضية التي تتوقف عليها نبوة الرسول ووحي الله إليه بالقرآن، ومن العجيب أن المستشرقين المغرضين لا يرون فرقاً في الأسلوب والانبهار والإعجاز بين كلام الله وبين ذروة البلاغة الإنسانية في كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، وحين تحدى القرآن البشر عامة والعرب خاصة أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة من سوره، كان محمد ﷺ

أول البشر والعرب الذين وقع عليهم التحدي القرآني. حتى إن الرسول نفسه كان ينهي عن كتابة حديثه في حياته لمن يخشى عليهم اختلاط القرآن بالحديث. ثم هل يصح لمؤلف أن يعاتب نفسه أشد العتاب بفعل ما هو أولى ويعلن ذلك للناس؟ وهل عجز العرب ـ وهم أهل البيان ـ أن يفرقوا بين حديث الرسول وكلام الله؟

وكيف يتأتى لمفكر ذواقة بالبيان مدرك أسرار العربية أن يجحد وحي الله وقد شهد بنبوته العالم قديمه وحديثه؟

يقول أنور الجندي ناقلاً: وأخطر ما يقول هؤلاء إن القرآن انطباع في نفس محمد نشأ عن تأثير البيئة التي عاش فيها، أو أن القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحياً إلهياً، اعتماداً على القول بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه.

ولا ريب أن هدف إثارة هذه الشبهة محاولة قطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن، «فإنه إن كان من كلام محمد كان من عمل البشر، وبذلك فقدَ معناه الأسمى، وتفرق المسلمون وانتهى أمر الاجتماع عليه».

ويختم كلامه في هذه الشبهة فيقول: ونحن نعرف أن هناك فرقاً واضحاً بين كلام محمد وكلام القرآن في النسق والنظم، ولقد كان محمد ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وتلك حجة تدحض قول القائلين بأنه عرف ما في الكتب السابقة، لقد كان علمه بشؤون قومه لا يزيد على علم غيره، فمن الذي أطلعه على قصص الأولين؟

٤ ـ وأما قول (هورفتز): يصعب الجزم بالمعاني التي كان يقصدها محمد من كلمة (أمي)... فيرده أمران:

الأول: إن ورود هذه الكلمة في القرآن من كلام الله وليس من كلام الرسول فلا ينبغي أن يفترى على الله وعلى رسوله.

الثاني: إن الرسول العربي أعرف بالعربية وبمعانيها من (هورفتز) وأمثاله،

فحديثه الأصل الثاني في اللغة العربية، وأما قوله (يقصدها) فلا تدخل في برهان علمي أو لغوي، لأنها من المقاصد الخفية.

وأما ادعاء (بول) بصعوبة معناها في عدم القراءة والكتابة بسبب اشتقاقها من (الأمة) (العربية) أو (أما) العبرية... فهو جهل باشتقاق الكلمة الحقيقي، فإن علماءنا بينوا أنها نسبة إلى (الأم) وليست إلى (الأمة) كما سبقت الإشارة إليه في تفسير أبي حيان الأندلسي.

وكذلك دعواهم أن (الأميين) عدم معرفتهم بالكتب المنزلة، هو مؤيد لمعناها العام المشهور: عدم معرفتهم القراءة والكتابة، لأنهم لو عرفوها لما جهلوا الكتب المنزلة.

ولذا فإن المفسرين واللغويين متفقون على أن (الأمية) الجهل بالقراءة والكتابة، وهو المعنى العام والمتبادر ووافق عليه بعض المستشرقين.

أما معناها في آية (ومنهم أميون...) فيقول إبن كثير وقريب منه الرازي في الفخر: أي ومن أهل الكتاب، والأميون: جمع أمي: وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قاله أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي وغير واحد، وهو ظاهر في قوله تعالى (لا يعلمون الكتاب) أي لا يدرون ما فيه.

٢ ـ الجانب المكي:

ويشمل شبهات (جب) وغيره في بيئة الرسول الأولى (مكة) لينسب إليه القرآن ويجرده من الوحي الإلهي، وسيأتي تفصيلها والرد عليها.

٢ ـ تجريد الرسول من النبوة والوحي الإلهي:

وهي قضية وإن بدت متلازمة مع سابقاتها بحيث إنه يصلح بعض براهينها لها فإن إفرادها بالذكر ضرورة فكرية وعقدية وتاريخية، ثم هي ضرورة لبيان الحقيقة الشرعية منها بعد أن زيفها المستشرقون بأساليب شتى.

وكنت قلت: إن محمداً ﷺ متجرد من النبوة في كتاباتهم سواء وصفه المستشرقون مصلحاً اجتماعياً، وعبقرياً فذاً، وبطلاً من أبطال التاريخ، وقائداً من قادة الإنسانية، أم وصفوه بأقذع الصفات، وأعنف الملامح من خداع ونهم وجبن وقسوة وسفك للدماء واتباع لتعاليم الكتب السماوية السابقة وغيرها.

فسيان من نظر إلى شخصية الرسول نظرة إيجابية، ومن نظر إليها نظرة سلبية، ومن وزنها بميزان الإعتدال والنصفة، ومن وزنها بميزان التشويه والأغراض، فهم متفقون جميعاً على أنه رجل الجزيرة الأول ليس غير[٢١].

وأخبث من هؤلاء وأولئك من ينسب له النبوة من وجهة نظره وكما يريد، لا كما يريده الله له ويختار أي ينسبون إليه النبوة ويجردونه من الوحي الإلهي ورسالته، كما سيأتي التفصيل عليه.

وكلهم أو جلّهم يريدون أن يبعدوا الرسول من رسالته ونبوته، ويعز عليهم أن يتحدثوا عنه كواحد من الأنبياء الذين يؤمنون بهم كإبراهيم ويعقوب وإسحاق وموسى وعيسى عليهم السلام.

فهؤلاء يقسمون إلى فئات:

الفئة الأولى: المنكرة المكذبة وهي التي وصفت الرسول بأقبح الصفات والأخلاق، كما فعل بعض الجاهليين إبان عهد النبوة، حيث وصفوه بالكذب والسحر والكهانة، وصفات أخرى لا تليق بالإنسان العادي فكيف بمن يقدم نفسه رسولاً ويأتي لهم برسالة.

فقد اتهم (جورج سيل) في (ترجمته القرآن الكريم؟) الصادق الأمين بالكذب والخداع مثل ما فعله المشركون **﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾** (ص: ٤٠)، كما اتهمه (لامانس) بتأثيره

---

(٢١) المرجع السابق، ص ٢١.

الساحر في قلوب أتباعه مثل ما كان يقوله الكافرون ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين**﴾ (الأحقاف: ٧).

و (نولدكه) و (اديسون) قطعوا صلة الرسول بالوحي الإلهي وأنه راوٍ للأساطير ويعتمد في ذلك على التوراة والإنجيل مثل ما فعل الوثنيون والكتابيون في عهد النبوة: ﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً**﴾ (الفرقان: ٥)... وصفات منكرة أخرى.

ويلاحظ تماثل أو تقارب الأكاذيب والافتراءات بين الجاهليين والمستشرقين، ولكن الأولين كانوا يقولونها بدافع العصبية والتمسك بعبادة الآباء والأجداد والعواطف الهوجاء. والآخرون يضعونها في إطار (بحثي) وينصبون لها المقدمات ويأتون لها بأخبار باطلة وأحياناً يقدمونها هكذا تشفياً لأحقادهم وتطرفهم الاستشراقي من غير أي دليل أو خبر، حتى ملأوا مكتبتهم بالمطاعن القبيحة والسباب المقذع.

١ ـ السيرة النبوية العطرة:

ولكن السيرة النبوية حافلة بأضداد هذه القبائح قبل البعثة وبعدها: فأخلاقه المثل الأعلى، وصفاته القدوة الفاضلة، فقد عرف قبل البعثة بالصدق والأمانة ورجاحة العقل وحسن التصرف والقيادة... وهي صفات لا بد من أن تستمر إلى ما بعد البعثة. وقد تنبه إلى ذلك (هرقل) في حواره مع (أبي سفيان) قبل اسلامه قال هرقل:... وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[٢٢].

كما تنبه بعضهم إليها في أوقات قليلة: يقول غوستاف لوبون[٢٣]: كان محمد ﷺ شديد الضبط لنفسه كثير التفكير، صموتاً، حازماً، سليم الطوية،

(٢٢) صحيح البخاري ٧، بدء الوحي.

(٢٣) المعروف بعنصريته.

وكان صبوراً قادراً على احتمال المشاق، عالي الهمة، لين الطبع، وديعاً، وكان مقاتلاً ماهراً، فكان لايهرب أمام الأخطار، ولا يلقي بيديه إلى التهلكة، وكان يعمل ما في الطاقة لإنماء خلق الشجاعة والإقدام في بني قومه...

ويقول (بدلي): وسواء أقر الإنسان لكتاب من مناصري محمد، أم لكتاب من أعدائه فإنا لنجد أنهم جميعاً قد اتفقوا على البساطة الوقور التي كانت تعم حياته.

و (رينان) من أشدهم عداوة يقول: دلتني تجربتي العلمية أنه لا صحة لما أريد إلصاقه بالنبي محمد من كذب وافتراء، مصدره بعض العادات القومية التي أراد بعض المتحاملين كفولتير، أن يتوجهوا بها إلى الناحية التي تشفي سقام ذهنيتهم الوقحة، وتعصبهم الذميم[٢٤]...

وأكثرهم انصافاً (كارليل) الذي يقول: هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذلك الذي يبينه إلّا كومة من أخلاط هذه المواد، فما بالك بالذي يبني بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس؟ وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع، وما الرسالة التي أداها إلّا الصدق والحق، وما كلمته إلّا صوت حق صادر من العالم المجهول... وما هو إلّا شهاب أضاء العالم أجمع، وذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[٢٥].

٢ ـ دخول عشرات الألوف من العرب في الإسلام:

وإذا كان بعض المشركين المعمرين أبوا الدخول في الإسلام مثل: أبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، فإن أترابهم أسلموا وحسن إسلامهم، وكذلك أبناءهم وأقاربهم وعشيرتهم، حتى أصبحت قضية

---

(٢٤) من كتابي السابق ص ٤٨، ٤٩.

(٢٥) السابق، ص ٧٨.

الرسالة من المسلمات الفكرية لدى هذا الجيل. فلو أن محمداً كان متصفاً بالكذب والخيانة لما بلغ أصحابه في حجة الوداع (١٠٠) ألف صحابي، بالإضافة إلى الآلاف الأخرى الذين لم يحجوا.

ذاك في عهد النبوة، أما في العهود القادمة فقد دخل الناس في الإسلام أفواجاً وجماعات وأمماً وما يزالون حتى قاربوا الألف مليون وما زال العدد في ازدياد. فهل يعقل أن هذه الجماهير العريضة بدءاً من الصحابة يقبلون على أنفسهم أنهم يدخلوا في دين ليس له نبي أو رجل متنبىء؟

إنّ امتداد الاسلام في القلوب وامتداده في الأقطار الشاسعة، وظهوره الحضاري الفذ قديماً وحديثاً، وبخاصة عدالة العلاقات بين المسلمين وغيرهم عبر التاريخ دليل واقعي على نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣ ـ صمود الرسول امام المغريات والمصائب:

فقد عزف عن المغريات التي يتمنّاها أي زعيم، في الملك والسيادة والمال والنساء، وتخلى عنها جميعاً بثقة المبدأ الذي يعلنه والدعوة التي ينشرها.

والنموذج الخالد هو موقفه عند عمه قائلاً: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فقال رسول الله: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته[٢٦].

وما من نبي أوذي كما أوذي رسول الله وصبر كصبره، ولو أنه شك أدنى شك في نبوته وصدق رسالته فإنه يتخلى عن دعوته، وتنتهي الرزايا والنكبات والمصائب، فهو أول المؤمنين بهذه الرسالة **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه..﴾** (البقرة: ٢٨٥). ومن منطلق هذا الإيمان الراسخ تثبت نبوته،

---

(٢٦) سيرة ابن هشام ١/٢٦٦.

ويتأصل صدقه مهما لقي من الصعوبـات والمعوقـات. حتى انه بعـد ظفره في المدينة مهاجراً لم يكن صموده في وجه التيـارات اليهوديـة والنصرانية والـوثنية والغزوات والسرايا سوى وجه من وجوه الصمود النبوي.

٤ ـ المعجزات المؤيدة لنبوته:

وهي إيجاد الله أمورا خارقة للعـادة على يـد مدعي الـرسالـة للدلالة عـلى تصديق الله له يتحدى الناس أن يـأتوا بمثلهـا، والرسـول حين (ادعى النبوة والرسالة إلى الناس كافة، وأظهر المعجزات وعظيم الآيات التي لم تعـارض في جميع الأوقات دل ذلك قطعاً على صحة ما ادعاه... ورواها العدد الكثير في جميع الأعصار من الصحابة والتابعين مـن بعدهـم، ولم يزدد على مر الأيام إلاّ ظهوراً، ومجموع معناها بالغ مبلغ التواتر بين البر والفاجر... وأن تبلغ كـل واقعة منها بعينها مبلغ التواتر، بل وأكثرها في المجامع الحفلة والعساكر الجمـة من الصحابة رضي الله عليهم ثم ردوهـا عنهم كافـة، ولم يُرْوَ عن أحـد منهم مخالفة للراوي فيـما رواه... فسكوت السـاكت فهْمٌ لنطق النـاطق كثيراً مـا يحصل العلم الضروري بشيء لإنسان دون آخر...)[٢٧].

يقول ابن الربيع[٢٨]: إن أعظم معجزاته الباهرة، وآيات نبوتـه الظاهـرة، ودلائـل صدقـه معجزة القـرآن العظيم، المستمـرة على مـر الدهـور والأيام والأزمان...

ويقول الباقلاني: الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة، وإن كان أيّد بعـد ذلك بمعجـزات كثيرة، إلاّ أن تلك المعجزات قامت في أوقات خـاصة وأحـوال خاصـة وعلى أشخـاص خاصـة... فأمـا دلالـة القـرآن فهي عن معجـزة عـامـة، عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين[٢٩].

---

(٢٧) ابن البديع في: حدائق الأنوار ١/١٦٩.

(٢٨) المرجع السابق، ١/١٧٣.

(٢٩) إعجاز القرآن، ص ١٠.

ثم يوازن بينه وبين معجزات الأنبياء فيقول: ثم كانت هذه المعجزة؛ مما يقف عليها الأول والآخر وقوفاً واحداً، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة[٣٠].

وقد تأثر بذلك بعض المستشرقين مثل: بدلي ودرمنغم ولورافيشيا كما سبقت الإشارة إلى بعضهم.

ونوّه ناصر الدين دينيه بأهمية القرآن المجمعية الخالدة فيقول: «... بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية المعجزة الخالدة... كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وأنه لا مناص من الإعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات[٣١]... وأنه حقق معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها ذلك أنه مكّن للغة العربية في الأرض[٣٢].

فلا يرتاب متخصص في أن هذه المعجزة وشمولها وجوهاً عديدة تثبت أنها وحي من الله تعالى.

ومن ناحية ثانية فقد صحت الأحاديث والروايات الثابتة عن الرسول في إخباره عن الفتن التي ستقع بين المسلمين وبخاصة الصحابة، وأحاديث الفتوحات الإسلامية وخاصة عن طريق البحر، وأحاديث أمارات الساعة، ويوم البعث والجنة والنار، وإذا ثبت أو تحقق وقوع بعضه في تاريخ المسلمين فإن ثبوت الآخر واقع أيضاً بما علم الله رسوله من الغيب. وهو دليل على صلته بالله ورسالته إليه.

الفئة الثانية: تحاول تجريد النبوة بأوهام (الأعراض العصبية)، حيث سيطرت عليه بسبب الأحوال التي كانت تعتري الرسول إبان الوحي، من تغييرات صورية في بدنه، لم تصل أبداً إلى حالة (مرضية) مهما بالغوا في أعراضها، وزيفوا في صفاتها.

---

(٣٠) المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(٣١) كتابي: الرسول ٨٠، ٨١.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٧٣.

والعجيب أنهم يعمدون إلى أصح الحالات النفسية وأصدق الأوضاع العقلية فيغيرون مزاياها، ويوهنون فضائلها، ثم يظنون أن إفتراءاتهم (المتهافتة) يمكن أن يقبلها الطب النفسي، أو المنطق التاريخي السليم. ولكن عجبنا يزول حين نعلم أنه افتراء (جاهلي) قديم ليكذب المشركون الرسالة فأخذ المستشرقون منهم فريتهم وجعلوا منها موضوعاً درسياً أبعد ما يكون عن الموضوعية وأقرب ما يكون إلى السخف والتفاهة.

فقد اقترح الجاهليون عليه بأن يقدموا له (الأطباء) ليعالجوه من السحر، كما صوره القرآن **﴿إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾**(الإسراء: ٤٧، ٤٨). كما اتهموه بالجنون **﴿ثم تولوا عنه وقالوا: معلّم مجنون﴾** (الدخان: ١٤) في أكثر من مناسبة وربطوه بالوحي الإلهي **﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾** (الحجر: ٦).

والغريب هنا أن الجاهليين قديماً والمستشرقين حديثاً اهتموا بوسيلة واحدة من وسائل (التوصيل) القرآني وهي صورة صلصلة الجرس العنيفة، وتركوا وسائل أخرى ثابتة في سيرته وسنته حتى وفي القرآن العظيم نفسه.

فقد عرضت بعض الآيات إلى (جبريل) أمين الوحي رسولاً من الله إلى محمد عليه الصلاة والسلام **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء)** (الشورى: ٥١) وذلك ضمن وسائل أخرى للاتصال الإلهي بعبده ورسوله.

والرسول جبريل كان يأتي بصورته الملائكية، وأحياناً بصورته البشرية كما ثبت في حديث عمر بن الخطاب الجامع للعقيدة والعبادة والساعة والإحسان. فلماذا يبرزون وسيلة واحدة ويتركون الوسائل الأخرى؟ والصحابة عايشوا الرسول حياته ونقلوا عنها أدق التفاصيل... فكيف تفوتهم أحواله المرضية التي عاشت معه (٢٣) سنة؟ وإذا شهدوا بأنفسهم

جبريل مسلّماً و مستفهماً ومصدقاً فكيف يكذبون مشاهداتهم؟

الحالات العصبية للرسول:

. . . ويقول (شبرنجر): إن الحالات العصبية التي كانت تنتاب النبي قد ورثها عن أمه (بسبب الرؤى التي كانت تراها آمنة أثناء حملها. . وما هي إلّا من قبيل الخرافات). ولكن (بول) يرد هذا الزعم ويقول: . . . ويجب ألّا نستخدمها (الرؤى) كما فعل شبرنجر، ويعلق الشيخ محمد عرفة على ذلك بقوله: ويسرنا هنا أنهم ردوا على شبرنجر، في زعمه أن رسول الله كانت له حالات عصبية تنتابه، وأنه ورثها عن أمه، ولكننا لا نوافقهم على زعم أن الرؤى التي كانت آمنة تراها من قبيل الخرافات فليس من المستحيل رؤيا آمنة، والرؤيا لا تدل على أن صاحبها ذو حالات عصبية تنتابه. .

وقد تناول هذه الشبهة بالتفنيد العديد من الباحثين المسلمين والمستشرقين، وردوها من وجهتي علم النفس وعلم التاريخ، وبينوا بطلانها من دراسة الظواهر النفسية والتحليلات الصحية والمرضية للشخصية الإنسانية.

إذ إن نبوغ الإنسان وتفوقه وآثاره الفكرية ونتاجه الذهني المتساميين لا يمكن أن يتدفقا من نفسية مريضة بالصرع أو الغشيان، كما لا يمكن أن تتشابه حالات الوحي وصفاته مع الحالات العصبية المرضية،وقد فصّل الدكتورهيكل الحديث عن هذه النقطة بقوله: إن مباحث المستشرقين دلتهم على أن النبي كان يصاب بالصرع، وأن أعراضه كانت تبدو عليه، إذ كان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق وتعتريه التشنجات، وتخرج من فمه الرغوة حتى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول: إنه وحي الله إليه، في حين أنه لم يكن هذا الوحي إلّا أثراً من نوبات الصرع. ويرد «هيكل» ذلك بقوله: وتصوُّر ما كان يبدو على محمد ﷺ في ساعات الوحي على هذا النحو خاطىء من الناحية العلمية أفحش الخطأ، فنوبة الصرع لا تذر عنه من

تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطيل، هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك يصيب النبي العربي أثناء الوحي،بل كانت تتنبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه.

هذا ثم إن نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه، بل كان كثيراً ما يحدث والنبي في تمام يقظته العادية، وحسبنا أن نشير إلى ما أوردنافي هذاالكتاب من نزول سورة الفتح عند قفول المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد الحديبية... ثم ينهي كلامه مؤكداً المعنى السابق: فالصرع يعطل الإدراك الإنساني وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس، أما الوحي فسمو روحي اختص الله به أنبياءه ليلقي إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كي يبلغوها للناس.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الشبهة قد ردها ـ قبل الدكتور هيكل ـ مستشرقون ومعتدلون في بحوثهم ومؤلفاتهم مثل: آتين دينيه في كتابه: الرسول محمد، ودرمنغم في كتابه: حياة محمد، وآرفنج في كتابه: حياة محمد، وول ديورنت في كتابه: قصة الحضارة، ودوغويه في: مباحث شرقية، وسنوك هوغرنجه الذي يقول: يجب أن نقر بأن قيمة محمد إنما هي ما يميزه عن سائر الهستيريين، وغيرهم كثير قد عقدوا فصولاً مسهبة أحياناً في كيفية الوحي التي اعتمد بعضهم فيها على الأحاديث الصحيحة، والسيرة النبوية الموثوقة.

الفئة الثالثة: وهي كما أشرت، أعمقها تحليلاً وأمكرها أسلوباً وفكراً وفي مقدمتها (جب) (ت ١٩٧١) وتقدم في مناسبات عدة، في كتابه: المحمدية و (جولدزهير) (ت ١٩٢١ م)، في كتابه العقيدة والشريعة.

ونبدأ بالثاني لأنه لم يقدم (نظرية) كاملة عن (نبوة) الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان أسلوبه فيها واضح الدلالة، ظاهر المقصد، وإن كان أقل عمقاً وأضعف دراسة من (جب)، ولكنهما يلتقيان في (المصدر الذاتي). فهو يقول: ففي مكة كان (محمد) يشعر أنه نبي يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة، وأنه لهذا عليه مثل أولئك الرسل، أن يقوم بإنذار أمثاله في الإنسانية، وإنقاذهم من الضلال... ففي العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد الصور التي أوحتها إليه حميته الملتهبة في شكل وهمي خيالي حاد تلقائي ذاتي[٣٤]...

ويتضح من عبارة (جولدزهير) الموجزة في الأسلوب التقريري لحقائق تعتبر عنده (بدهيات) لا تحتاج إلى مؤيدات نفسية ولا إلى براهين توثيقية، مع أنها أخطر ما يتصل بالعقيدة الإسلامية عموماً ونبوة الرسول عليه السلام خصوصاً.

فهل يجدي (تقرير) (قضايا) هكذا على أنها (حقائق) عقدية وتاريخية من وجهة نظره وحدها كأنها مسلمات؟ وإذا لم تؤيد مثل هذه القضايا بأدلتها - وهي موضع نزاع عند المستشرقين - فكيف يعرضها (جولدزهير) بمثل التفاهة السابقة؟ إننا سنترك تفصيل البراهين على نبوة الرسول إلى ما بعد.

ولكننا نريد مقدماً أن نجلو من عبارته الافتراءات التالية:

أ - شعور الرسول بالنبوة: وهي حالة نفسية داخلية لا تعرف الا بتصريح من الرسول نفسه فيما بعد، أو بتطابق العمل الظاهر على الحالة النفسية الباطنة، وهذا لم يحدث في كلا الموقفين.

ب - اليهودية واضحة في كلامه حين قال: ... يتمم برسالته سلسلة

---

(٣٣) من كتابي ص ١٣٦ - ١٣٧ وانظر الحواشي.
(٣٤) العقيدة والشريعة ص ١٩، ٢١.

رسل التوراة. . . فهل يعد محمداً من الرسل اليهود؟ وإذا لم يحدث فهل أنبياء الله جميعاً من اليهود؟

ج - الوهمية الخيالية في الشعور النبوي: وهو افتراء وقح مقترن بأقبح منه في وصفه الرسول بالحمية الملتهبة، فقد سبق إليه مشركو الجاهلية ومن سبقه من المستشرقين. وهل القرآن والسنة جميعها أثر هذه الوهمية الخيالية؟ وهل حكومة الرسول ومن بعده وما نشأ عنها من روائع العدالة ومبدئية العلاقات نتيجة الوهم والخيال؟ وإذا توسعنا قليلاً فإننا نقول عن رأيه: هل إن الصرح الحضاري الإسلامي في صوره الثقافية والمدنية عبر التاريخ الإنساني هو امتداد للأوهام والخيالات أو هو قائم عليها!!

إن السخف الذي يقرره كحقيقة، والنظرة التلمودية إلى نبوة الرسول وهماً وخيالاً لا تستحق مزيداً من التنبيه والإشارة. ولنركز الكلام على افتراءات (جب) ومن ضمنه تطرف (جولد زهير) السابق.

أ - مفهوم النبوة وكيفية حدوثها:

وضح (جب) في كتابه السابق المحمدية، وقريب منها (درمنغهام) في كتابه (حياة محمد) (ذاتية) النبوة وأنها نتيجة (انفعال ديني) (باطني).

ونقول أولاً في موضوع كتابه: إن النبوة عنده هي (محمدية) وليست وحياً من الله، ولذا لم يطلق عليه أو ينسبه إلى (رسالته) أو (نبوته)، وهذا يدل على أنها قضية من رواسب الفكر الاستشراقي وليست قضية معروضة على البحث والدرس ليصل فيها إلى (حقيقة) أو إلى (الكشف) عنها بموضوعية وأمانة.

والكتاب يحلل في جانب منه حياة الرسول طفلاً وشاباً في مكة المكرمة ذات الطابع الديني المعروف بين القبائل العربية،ويبيّن في تحليل خاص ثورة الرسول النفسية على الوثنية والمظالم الجاهلية، ثم ينتهي باستنتاج: إن نبوته

حالة خاصة للرسول لم تعرف لنبي سابق، وهي نبوة (مكية) و (استبطانية انطباعية).

وواضح أن (جب) وأمثاله، يسلسلون حياة الرسول كما أشرت قبل ولادته وأثناءها وطفولته وشبابه ثم رسالته، وحكومته ووفاته، وبعد وفاته أيضاً.

ويربطون حياته الأولى بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية حتى يستنتجوا منها أن القرآن ليس وحياً من الله كسائر الكتب والصحف السماوية وإنما هو (انطباع) في نفسه، نشأ عن تأثره ببيئته التي عاش فيها، بمكانها وزمانها ومظاهر حياتها المادية والاجتماعية[٣٥].

وقبل أن أعرض لمفهوم عن النبوة عندهم وبخاصة (جب) في كتابه السابق، لا بد من أن أشير إلى أنني قسمت موقفه من النبوة أولاً، ثم أثر البيئة المكية فيها ثانياً.

١ ـ الجانب الأول:

فهو يدعي بلباقة الأسلوب وعفة العبارة، أن القرآن (انطباع) في نفسية الرسول عليه الصلاة والسلام متأثراً بالأوضاع الخارجية المحيطة به.

ويرى جب تأييداً لموقفه أن جوّ (مكة) بما فيه من زعامة اقتصادية وسياسية ودينية، ثم بما فيه من عيوب اجتماعية ـ كالرق والفوارق البعيدة المدى بين الطبقات هو الذي أثر في نفس محمد ﷺ ليكون صاحب ثورة، فـ (الحياة المكية) ـ بما فيها من عوامل إيجابية وأخرى سلبية ـ قد تفاعلت في نفسه، وهو يرتبط في رسالته بهذه الحياة أيما ارتباط، بحيث لو كان رجلاً غير (مكي) لما صادف هذا النجاح[٣٦]...

---

(٣٥) د. البهي في: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص ٢٠١، ط ٨، وهبة ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م.

(٣٦) المرجع السابق، ص ٢٠٢.

يقول جب: إن (محمداً) ككل شخصية مبدعة، قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية (عنه) المحيطة به من جهة، ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقاً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه، والدائرة في المكان الذي نشأ فيه... ثم يقول: وانطباع هذا الماضي الممتاز (لمكة) يمكن أن نقف على أثره واضحاً في كل أدوار حياة محمد[٣٧]... ثم يدعم موقفه (الانطباعي) بقوله: ولكن نواة هذه الثورة النفسية لم تظهر في صورة (اصلاح اجتماعي) بل بدلاً من ذلك دفعته إلى (اتجاه ديني)...

ومعنى هذا:

١ ـ أن (انطباعية) القرآن جوهر النبوة الذي نشأ عن (تفاعل) نفسي فهو مشاعر (استبطانية داخلية) ولكنه (ديني) المنزع والاتجاه.

٢ ـ وأن هذه (الانطباعية) شملت جوانب الحياة المكية بما فيها من زعامات سياسية وغيرها، وكان على وعي تام بها، ونرى آثارها في حياته: في قرآنه، وفي كفاحه إلى أن مات.

٣ ـ وأن (دعوة الإسلام) دعوة محلية، في جماعة خاصة، وفي حياة خاصة لأن القرآن أو الإسلام انطباع واضح لهذه الجماعة الخاصة...

٤ ـ ثم هي (توفيقية) بين محاولة (جب) في إنكار النبوة ضمناً في وحيها الإلهي وكما سنّه الله لأنبيائه، وبين ادعاء الرسول لهذه النبوة ثم إشاعتها في القرآن والسنة والسيرة. وعلى هذا فهو نبي كما يريد جب وليس بنبيّ كما يريده الله. أو هي نبوة من نوع (خاص) ليست لها صلة بالله وصلتها بالحياة (المكية) أشمل وأكمل.

يقول الدكتور البهي: ... أما الأمر الذي يجب أن ينكره البحث العلمي ـ بهذا التحديد ـ فهو أن يناقَش نوع من (الوحي) ويتشكك فيه باسم

---

(٣٧) ص ٢٧ من كتاب: المحمدية و٢٠٢ ـ ٢٠٣ من الفكر.

العلم، ثم يصان نوع آخر منه على أنه بديهي التسليم، وبعيد عن مجال الجدل العقلي النظري أو العلمي التجريبي. . .

و. . . قضية (الوحي) إذاً قضية عامة مشتركة، ما يصلح دليلاً عليها هناك (في عمومية الوحي للرسالات السابقة) يصلح دليلاً عليها هنا. . .

إن الطريقة (العلمية) التي يثبت فيها الغربي وحي الله إلى عيسى وموسى يصح أن تكون مؤيدة لوحي محمد ﷺ، فإذا كان (الوحي) كأمر غير عادي يخضع للطريقة العلمية الحديثة، أو لا بد أن يقف عند حد اعتقاد المؤمنين به في كل دين، فكل أنواع (الوحي) سواء في هذا أم ذاك[٣٨].

٢ـ ردود على افتراءاتهم:

تناول باحثون هذه القضية ودحضوا افتراءات (جب) وأمثاله.الموضوع يفتح آفاقاً من الأدلة نوردها وهذا لا يمنعنا أن نقتبس من أدلتهم أيضاً.

١ ـ في المصطلحات:

أ ـ **محمد ﷺ نبي ورسول:** ونبوته موضع اتفاق وإن كانت عند (جب) أشبه بالعبقرية والشاعرية والانفعالات الدينية الخاصة فهو عنده ليس برسول. . .

ولكن (الرسول) الذي وصف به محمد يقتضي (مُرسِلاً) و(رسالة)، ولا يعقل أن (ترسله) انفعالاته أو ذاتيته التي توهمه أنه رسول، ولا بد إذن أن يكون (المرسل) هو نفسه الذي أرسل غيره من الأنبياء وهو (الله).

وإرسال الله له بالرسالة يؤدي أن يتم بالوسائط الإلهية المتبعة التي منها وساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام. وفي القرآن ما يزيد عن (٥٢٠) لفظة يصرح فيها بالرسول ومشتقاته. ومنها آيات تسوّي بينه وبين إخوانه في

---

(٣٨) الفكر الاسلامي ص ٢٢٠ بتصرف طفيف.

الرسالة ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾(آل عمران: ١٤٤) وهي كآية ﴿ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ (المائدة: ٧٥). والرسالة اصطفاء من الله للناس والملائكة ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ (الحج: ٧٥) ومحمد أول المؤمنين برسالة ﴿آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه...﴾ (البقرة: ٢٨٥) ولا يقتصر على الإيمان بها بل لا بد من تبلغيها فإنها منزلة من الله ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك...﴾ (المائدة: ٦٧) أما وصف محمد بالرسالة والرسول وبأنه مرسَل وما يشتق منها وربط كل ذلك بالله فكثير جداً لا يتسع له المجال.

ب ـ الوحي إلهام وليس بانفعال ولا صراع: في الآية ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء...﴾ (الشورى: ٥١)نجد أن (الوحي) بمعنى (الإلهام)، كما جاء في آيات أخرى، هو ثلث أو ربع أنواع الوحي الإلهي، وليس الوحي نوعاً واحداً: الإلهام فقط، فكيف يصح الاقتصار عليه وإغفال الأنواع الباقية؟ ثم إن الإلهام لا يعني الانفعال أو الصراع النفسي، أو ثمرة هذا الانفعال والصراع، فلا نجده كذلك في اللغة وتفسير القرآن وشرح الحديث. ففي المقاييس: التهم الشيء: التقمه، ومن هذا الباب: الإلهام، كأنه شيء ألقي في الروع فالتهمه... ويعدد ابن كثير مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل فيقول: تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله أنه قال: إن روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب.

وينوع الفخر: إما على الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، وابن حجر يجعله نوعاً آخر: والنفث في الروع والإلهام... وقريب منه في العمدة[٣٩].

(٣٩) هو عمدة القاري شرح صحيح البخاري: العيني، محمود بن أحمد الحلبي ثم المصري ت ٨٥٥ عصر ابن حجر العسقلاني.

فالوحي إذن هو الإلهام في الآية أو نوع منه ليس فيه صراع ولا انفعال وإنما هي حالة نفسية تلقائية لاإرادية مفاجئة.

ج - **جبريل أمين الوحي**: فهو رسول الله إلى رسل الله بالوحي الرباني نزله على قلب الرسول محمد ﴿**من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله**﴾ (البقرة: ٩٧) فهو نوع آخر، يقول الفخر: وأكثر الأمة على أنه أنزل القرآن عليه لا على قلبه، إلا أنه خص القلب بالذكر لأجل أن الذي نزل به ثبت في قلبه حفظاً حتى أداه إلى أمته. ويوضح الطبري مهمة جبريل: ... أن جبريل وليّك وصاحب وحيي إليك... من يكن من الناس لجبريل عدواً، ومنكراً أن يكون صاحب وحي الله إلى أنبيائه وصاحب رحمته فإني له ولي وخليل... وأنه هو الذي ينزل وحي الله على قلبي من عند ربي باذن ربي له بذلك، يربط به على قلبي ويشد فؤادي... وهكذا سائر المفسرين. فالقرآن منزل من الله بوساطة جبريل على الرسول وعلى الأنبياء. أما مادة (نزل، وأنزل، والتنزيل) فلها دلالتها الصريحة في القرآن (المنزل)... وتفسر الأحاديث الصحيحة كيفية نزول جبريل على الرسول: فهو (أحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)[٤٠]، وفي بدء الوحي يقول: فجاءه الملك فقال: اقرأ[٤١]، وفي رواية أبي الأسود عن عروة عن عائشة: ... وكان أول ما رأى جبريل بأجياد، صرخ جبريل يا محمد... ثم استعلن له جبريل من قبل حراء[٤٢]... والملك قد تمثل رجلاً في صور كثيرة، ولم ينفلت منه ما أتاه، كما في قصة مجيئه في صورة دحية، وفي صورة أعرابي وغير ذلك، وكلها في الصحيح[٤٣]... وفي الحديث الطويل عن سؤاله عن الإسلام والايمان

---

(٤٠) صحيح البخاري ٢ في بدء الوحي، ومسلم في: طيب عرقه من كتاب الفضائل، ١٥/٨٨ بشرح النووي.

(٤١) الصحيح البخاري ٣، ٥ بدء الوحي.

(٤٢) فتح الباري ١/٢٣.

(٤٣) المرجع السابق، ١/١٩.

والإحسان. . . قال الرسول: هذا جبريل جاء يُعلم الناس دينهم[٤٤]، وقريب منه رواية مسلم .يقول ابن حجر[٤٥]: فيـه أن الملك يجوز أن يتمثـل **لغير النبي** ﷺ، فـيراه ويتكلم بحضرتـه وهــو يسمـع. . . ثم يقــول: واتفقت هـذه الروايات على أن النبي ﷺ أخبر الصحابة بشأنه بعد أن التمسوه فلم يجدوه.

والقرآن الذي يصرح بـاسم جبريـل يصرح أيضاً (بـرسالتـه) كما سبق في قـوله: ﴿**أو يـرسل رسـولاً فيوحي بـاذنه مـا يشاء**﴾ (الشـورى: ٥١)وقولـه: ﴿. . . **إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العـرش مكين**﴾ (التكـوير: ١٩، ٢٠).

٢ ـ في طبيعة الوحي وآثاره:

فالوحي القرآني ذو ثقل ﴿**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**﴾ (المزمل: ٥) وهي آية مكية. وفي البخاري عن زيد بن ثابت **عند** نزول قولـه تعالى ﴿**غـير أولي الضرر**﴾ قال: فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخـذه على فخـذي، فثقلتْ عـلي حتى خفت أن ترضّ فخـذي[٤٦]. وذكر ابن كثـير أن أحمـد روى عن عـائشة رضي الله عنهـا قالت: إن كـان ليوحى إلى رسـول الله وهو عـلى راحلتـه فتضرب بجرانها، وروى الـطبري بسنده عن عـروة بن الـزبـير، أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جـرانها، فما تستـطيع أن تتحرك حتى يسرّى عنه[٤٧].

وليس لغشيـان الوحي من آثـار كبيرة سـوى (تفصد جبينـه) بالعـرق، كما أخبرت السيدة عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليـوم

---

(٤٤) صحيح البخاري ٥٠، الإيمان.

(٤٥) في الفتح ١/١٢٤.

(٤٦) صحيح البخاري، ٢٨٣٢، الجهـاد وغيره، وانـظر لفظه في (٣٧٠) في الصـلاة، باب مـا يذكر في الفخذ، والترمذي في التعبير، والنسائي في الجهاد.

(٤٧) قال ابن كثير عند تفسير آية المزمل السابقة: وهو مرسل، ثم اختار أنه ثقيل من الوجهين: كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين وسبقه إليه الطبري في تفسيره.

الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[٤٨]، ورواية مسلم عنها: ثم تفيض جبهته عرقاً[٤٩]. وأحياناً (تربد وجهه) أي تغير البياض إلى السواد القليل فهو (احتقان طفيف)، وأحياناً تعروه حمرة. فكان في أول الوحي يتربد ثم يحمر أو بالعكس. ففي حديث عبادة بن الصامت قال: كان النبي إذا أنزل عليه الوحي كُرِبَ لذلك وتربد وجهه[٥٠]... وأن يعلى بن أمية نظر إلى النبي حال نزول الوحي وهو محمر الوجه[٥١]. وأحياناً ينكس رأسه ورؤوس الصحابة. ففي حديث عبادة قال: كان النبي إذا أنزل عليه الوحي نكَسَ رأسه، ونكَسَ أصحابه رؤوسهم، فلما أتلي عنه رفع رأسه[٥٢].

أما في اللقاء الأول فكان الرسول يرجف فؤاده... فرملوه حتى ذهب عنه الروع[٥٣] وهو الفزع. قال ابن حجر: دل هذا على انفعال حصل له من مجيء الملك[٥٤]... وليس الفزع والرجفان من الوحي نفسه، وقلما (يغط) ينفخ بسبب ثقل الوحي كما ورد في حديث صفوان بن يعلى أن يعلى أدخل رأسه فإذا الرسول محمر الوجه وهو يغط[٥٥].

وواضح مما سبق معاينة الصحابة لما يجري لرسول الله في الوحي ومشاركتهم له في ذلك أحياناً. ومثل هذه التغيرات الطفيفة تدل على أنه خارج عن ذاته، ويؤكده ما كان يحصل لصحابته. ولناقته كما سبق فهي حالات مدركة له وللصحابة ومعروفة لدى الجميع.

---

(٤٨) صحيح البخاري، بدء الوحي.
(٤٩) في: الفصائل، باب طيب عرقه، ١٥/٨٨ بشرح النووي.
(٥٠) صحيح مسلم في: حد الزنا، ١١/١٩٠ بشرح النووي و ١٥/٨٩.
(٥١) المرجع السابق، في: الحج، ١٥/٨٩ بشرح النووي.
(٥٢) المرجع السابق، ورواية البخاري بلفظ: انجلى عنه بمعنى: ارتفع عنه الوحي.
(٥٣) صحيح البخاري، ٣ بدء الوحي.
(٥٤) فتح الباري ١/٢٤، وانظر ص ٢٨ أيضاً.
(٥٥) صحيح البخاري في الحج ١٥٣٦ باب غسل الخلوق ثلاث مرات من الثياب وفي غيره، وأحمد ٤/٢٢٢.

٣ ـ الرسول ﷺ والوحي:

إن من أسباب افتراء (جب) على الرسول بالنبوة الباطنة هو كثرة ادعاء النبوة في المصدر العبري لبني اسرائيل في القرنين السابع والسّادس قبل الميلاد... فقد تكاثر الكهان والعرافون وأهل الكشف في بيت المقدس... وأطلق عليهم اسم الأنبياء وأطلق النبي على كل كاتب ملهم(٥٦)...

وكان النبي على علم تام بين القرآن والسنة، فهو يميز فيما ينطق به بين نوعين من (الإيحاء) هما: الآية القرآنية التي يأمر بتسجيلها فوراً، والحديث الذي يستودعه ذاكرة أصحابه فحسب، ومعلوم أن القرآن من حيث المقاطع الصوتية جزء مما نطق به النبي ﷺ(٥٧).

وكان اقتناع الرسول الشخصي أوضح برهان على صحة الوحي، فهو الشاهد الوحيد المباشر على صحة هذه الظاهرة، وما دام الرسول صادقاً مخلصاً مفكراً فإن شهادته عندئذ برهان على نبوته.

ومن قبيل هذا أننا نجد دراسات هؤلاء الكتاب تعكس تناقضاً مزدوجاً، فهي من ناحية تعتبر الوحي ظاهرة ذاتية، قولاً واحداً، ومن ناحية أخرى لا تتلقى على هذه الظاهرة شهادة الذات، المقترنة بها اقتراناً تاماً... إن تفكير النبي وإخلاصه وإرادته، وذاكرته وإحساسه، وسيطرته على ذاته تؤكد على أن اقتناعه حقيقة لا يمكن إغفالها(٥٨).

ثم إن هناك تباعداً رئيسياً في الحوار بين الذات المتكلمة الآمرة الحازمة، والذات المخاطبة المضطربة المجفلة... فهل يمكن أن نتصور هذا الاتحاد الزمني لعمليتين متباعدتين في ذات واحدة تنطوي على شخصيتي الحوار...؟

---

(٥٦) مالك بن نبي في: الظاهرة القرآنية ص ٩٥، ٩٦، ٩٧، مع الحاشية بتصرف.

(٥٧) المرجع السابق، ص ١٦٩ بتصرف.

(٥٨) المرجع السابق، ص ١٧٥، ١٧٦ بتصرف.

إن هاتين الحالتين ـ التباعد الجوهري والاتحاد الزمني ـ متعارضتان سواء تصورناهما في مجال واحد للذات، أم في مجالين مختلفين هما: الشعور وما وراء الشعور ولا ريب أن حضور (الذاتين) في عملية الوحي الإلهي تستنبط من القرآن نفسه الذي يصرح (بالتلقي) القرآني في قوله: **﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾** (النمل: ٦). فهي آية مكية يفهم منها بداهة أن ذاتين إحداهما (متلقية)، والأخرى (متلقى منها) من لدن حكيم عليم.

ويشبهها قوله في الآية السابقة **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾** (المزمل: ٥) وهي مكية أيضاً.

وإن مراجعة عامة لهذه (المادة) ومثلها مادة (نزل) السابقة توضح الحدث بين أكثر من شخص واحد مثلاً قوله: **﴿ويلقّون فيها تحية وسلاماً﴾** (الفرقان: ٧٥) **﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً﴾** (الأحزاب: ٤٤).

٢ ـ الجانب الثاني:المكي:

ويشمل ردوداً فرعية ومفصلة على أقوال (جب)[٦٠] في حياة الرسول عليه السلام بمكة، ومدى تأثره ببيئتها الدينية التي جعلت منه نبياً كما يشير إليه كلامه فيما بعد.

يقول جب: كان (الرسول) أحد سكان (مدينة) غير رئيسية... وليس هناك ما يصح أن نصوره بأكثر من أنه (بدوي) شارك في الفكرة والنظرة في الحياة التي كانت للبدو الرحل من الناس...

ونقول: من أي مصدر موثوق قرر جب (بدوية) الرسول مثل ما كان

(٥٩) المرجع السابق، ١٩٤، ١٩٥.

(٦٠) أقوال جب في: الفكر الاسلامي د. محمد البهي من ص ٢٠٢ ـ ٢٢٠.

للرحل منهم؟ وما المدينة الرئيسية الأخرى في الجزيرة العربيـة إن لم تكن مكة المعروفة بتراثها الديني ونشاطها التجاري؟

وإذا كـان للرسول الفكـرة والنظرة نفسهـا في الحياة فلماذا اختـاره الله نبياً دون سواه؟

إن مـا ذكره جب متعـارض بعضه مـع بعض لأن الرسـول إن كان أحـد سكان مكة فكيف يكون بدوياً رحلاً أيضاً؟ ثم يتعارض أيضـاً مع قـوله فيـما بعـد: و (مكة) في ذات الـوقت لم تكن خلاء بعيـداً عن صخب العـالم وعن حركته في التعامل. . . بـل وكانت مدينـة ذات ثـروة اقتصاديـة، ولها حـركة دائبة كمركز للتوزيع التجاري بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط.

ويتأكد التعارض بقولـه: إن (السيادة الـروحية) التي اكتسبهـا المكيون من قديم الزمان على العرب الرحل، زادت قوة ونمـواً بفضل الإشراف عـلى عدد من (المقدسات الدينية) التي وجدت داخل مكة وبالقرب منها.

ونناقش جب بشيئين:

الأول: إذا كـان جب يصف مكة بـالثروة الاقتصـادية والحـركـة الـدائبـة والمركز التجاري العالمي والسيادة الدينية فيبعد أن تكـون مدينـة ثانـوية، كـما يبعد أن يصبح أهلها رحلاً وغير مستقرين وبخاصة الرسول المعروف بأسرتـه وبقبيلته.

الثـاني: إنه مخـطىء في استنتاجـه الآتي وهو: (أن) انـطباع هـذا المـاضي الممتاز (لمكة) يمكن أن نقف عـلى أثره واضحـاً في كل أدوار حيـاة محمد. . . وبتعبير إنساني: إن محمداً نجح لأنه كان واحداً من المكيين.

أقول إنه استنتاج خاطىء لأن الرسول المتأثر بـ (المقدسات الدينية المكيـة) لم يحمـل التأثـر نفسه طـول حياتـه وإنما أنكـر ما فيـه من انحرافـات عقديـة وأخـلاقيـة وعـادات. ثم لأنـه وجـد (محمـديـون) آخـرون، ولم ينجحـوا في

دعوتهم، كما كان هناك غير محمد ﷺ من المكيين شاركوا الرسول حياته وتأثره بأجواء مكة ولكنهم لم ينجحوا أيضاً. . . وهذا يعني ورود عوامل أخرى غير التأثر الذاتي والبيئي، وهي النبوة التي خص بها دون سواه من المكيين.

ب ـ الاتجاه الديني وحده: ويرى (جب) أن ثورة الرسول النفسية لم تبرز في صورة (إصلاح اجتماعي)، ولم يقم على أنه مصلح للحياة المكية الاجتماعية، وإنما برزت في صورة (دينية)، وهي صورة أنه (رسول)، وذلك لأنه أراد أن يستغل قيم (المقدسات الدينية) بمكة في الزعامة والرواج الاقتصادي. . . ومعارضة المكيين إياه كانت معارضة في الزعامة السياسية، وخشية على ازدهارهم الاقتصادي من أن يضعف لو قبلوا دعوته، ولم تكن معارضتهم إياه بسبب العقيدة والإيمان، وإلا فالقرآن نفسه يدل على أن فكرة الوحدانية ـ وهي الفكرة الأساسية في الإسلام ـ كانت معروفة في غربي الجزيرة العربية.

ويؤكد فكرته السابقة بقوله: لقد كان وجود (الإله الأكبر) ـ وهو الله ـ مبدأ مقبولاً كأصل عام لدى محمد ولدى خصومه على السواء، والقرآن لم يناقش هذه النقطة أبداً، وحجته التي كان يقيمها فقط على أن: لا إله إلا الله.

ويمكن مناقشته بما يلي:

١ ـ في القرآن آيات تصرح بالإصلاح لعمارة الأرض **﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾** (هود: ١١٧) والعمل الصالح مقترن مع الإيمان في معظم الآيات **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾** (الكهف: ١١٠) والدعوة الإسلامية مبنية على الصلاح **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً﴾**(فصلت: ٣٣) وغيرهما كثير على أن القرآن والسنة زاخران أيضاً بـ (الهداية) و (المعروف)

و (الضلال) و (الإفساد). . . نعم: فهو رسول، ورسالته لإصلاح الناس، وإذا حذفنا الجانب الإصلاحي فيها فنهدم ركناً هاماً فيها جاز استنتاجه في (الاتجاه الديني) وحده، فما هي قيمة هذا الاتجاه في إزالة المفاسد والظلم والإجرام الجاثم على أهل مكة حينذاك؟ وهل يقصد من فكرته اقامة (دين جديد) بعيد عن الإصلاح الاجتماعي في إزالة الإستغلال والسوء والظلم؟

٢ ـ يبدو في كلامه الحالي تعارض خفي مع كلامه السابق، فهو في السابق يعلي من أهمية المقدسات الدينية والسيادة الروحية على غير المكيين، ثم إنه هنا يبرز أهمية العامل الاقتصادي والزعامة وأنهما مصدر المعارضة بين الرسول والمكيين. ومما يعاب فيه طرح صفة (الاستغلال) الديني في الزعامة والرواج الاقتصادي، على الرسول مع أن سيرته أبعد ما تكون عنها وعن مثلها. و (جب) لم يقدم دليلاً واحداً على سيطرة العامل الاقتصادي في معارضة المشركين العنيفة.

٣ ـ قضية التوحيد الاسلامي متأرجحة عنده بين اتفاق الرسول مع قومه عليها في التوافق مع (الله أكبر)، وبين حرص القرآن على إقامة حجته أن (لا إله إلا الله) ـ وهي ـ إلى أنها لا تعطي صورة واضحة عن صفاء العقيدة الإسلامية الأولى ـ فإنه من المعروف في سيرته والمتلو من القرآن اهتمام الإسلام بالتوحيد الخالص عن الوثنية والشرك في جميع صوره وأشكاله.

ج ـ **نشوء النبوة والحاجة إلى الاقتباس الديني**: يصور (جب) ذلك بقوله: . . . ولكن نواة هذه الثورة النفسية لم تظهر في صورة (إصلاح اجتماعي) بل بدلاً من ذلك دفعته إلى (اتجاه ديني) أعلنه في اعتقاد ثابت لا يتأرجح بأنه (رسول من الله). ثم يقول: ومحمد في البداية لم يكن يعرف نفسه على علم بأنه صاحب دعوة إلى دين جديد، بل كانت معارضة المكيين له، وخصومتهم له من مرحلة إلى أخرى هي التي قادته أخيراً ـ وهو في

المدينة ـ بعد أن هاجر إليها ـ إلى إعلان الإسلام كجماعة دينية جديدة بإيمانها الخاص وبمنشآتها الخاصة. . . وينهي كلامه بقوله: و(المكيون) لم يعارضوا شيئاً في القرآن سوى ما انتزعه (محمد) من اليهود والنصارى، كفكرة الجزاء الأخروي، وأوصاف الجنة والنار، فـ(إن فكرة الجزاء الأخروي) لم تكن منتزعة بالتأكيد من التقاليد العربية، ولكنها مأخوذة من المصادر المسيحية، ومقابلة المكيين لهذه الفكرة بالكفر العميق والسخرية تدل على أنها لم تكن معروفة تماماً لديهم. . . إلى أن يقول: وليست هذه الفكرة (الجزاء الأخروي) وحدها، بل ما يختص بالجنة والنار من تفصيلات تساوي تماماً ما في المسيحية السريانية.

ويمكن مناقشته عموماً بما يلي:

١ ـ دعواه أن الرسول أعلن الإسلام في المدينة بعد مراحل من المعارضة والضغط تنفيه (الآيات المكية) في التصريح بنبوته مثل: يا أيها المدثر. . . يا أيها المزمل. . . فاصدع بما تؤمر. . . كما أنها صريحة بالإسلام أيضاً في الفترة المكية، فرسول الله أول المسلمين ﴿**لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ (الأنعام: ١٦٣)، والإسلام مطلوب من الناس ﴿**فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون**﴾ (هود: ١٤) وصرح بالاسلام في قوله: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. . .**﴾ (الأنعام: ١٢٥) فهو نور الله ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**﴾ (الأنعام: ١٢٥).

٢ ـ المكيون على اطلاع على عقيدة اليهود والنصارى في الجزاء الأخروي بسبب الاحتكاك معهم ومجاورتهم، فإذا دعا الرسول إلى الإيمان بها فلماذا تحدث المعارضة الشديدة؟

والرسول لم (ينتزع) فكرة (الجزاء الأخروي) من دين سابق بدليل

أن هناك فروقاً بين التصور الإسلامي والمسيحي لها.

٣ ـ لم يعطنا صورة عن تفصيلات الجنة والنار في السريانية التي ادّعى أنها مساوية لما في القرآن، وإذا صح ما قاله فليس ثمة مانع من لقاء الديانتين في وصفها، وهذا يدل على صحة النص السرياني ـ على حد زعمه، وعدم صحة النصوص المسيحية الأخرى التي تنفي الجزاء المادي.

والاستنتاج العام من خلال هذه المناقشة:

١ ـ التعارض بين أطراف الكلام وعدم تناسق الفكر في إبراز نظرية واحدة مستقيمة.

٢ ـ الاستنتاج الخاطىء من الحياة المكية في الاتجاه الديني الخاص بالرسول.

٣ ـ الاقتصار في نشوء النبوة على عوامل مادية، ثم متابعة (جب) المستشرقين الآخرين في (تبعية) الإسلام للشرائع السابقة.

واستنتاجات أخرى تظهر عمق الغرض الاستشراقي في أفكاره وتحليلاته تعرف من سياق كلامه. أما (محلية) القرآن لكونه انطباعاً فقد ردت ورفضت من بدهيات القضايا الإسلامية التي تأخذ أبعادها الإنسانية والعالمية من الأصول الأولى القرآن والسنّة، وأكثر الباحثون من معالجتها بما فيه الكفاية كما عالجها بعض المستشرقين المنصفين، فليس لها هنا مناسبة.

وأما الاتجاه (التوفيقي) بين ما يريده (جب) وما أراده (الله) فلا يمكن لعاقل أن يقبله عملياً وعقلياً، فكيف يمكن قبولها من (جب) ويعزف عن الله؟

الفصل الجزئي ويقصد به: اقامة الحواجز الفرعية بين المسلمين وإسلامهم بسبب ما يطرحه الغزاة من شبه فرعية أو مسائل إسلامية يعرضونها من وجهة نظرهم ولغرضهم الفكري. وهو فصل لا يقتصر على مسألة أو جزئية

واحدة، وإنما يتناول الغزاة معظم الأحكام الجزئية فتتكامل صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين كلياً.

وقد تكون هذه المسائل متصلة بالعقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق والنظام، كما تكون في جوانب فرعية من حياة المسلمين التاريخية والمعاصرة، وما يتصل بها من أماكن وأنهار ووديان وقرى ولغات وعلاقات وثقافات مهما بدت بسيطة أو قليلة الشأن.

وهم يحاولون من وراء ذلك إلى تحقيق غرضين:

الأول: توزع مسائل الشبهات المتصلة بالإسلام والمسلمين على جمهور المفكرين الغربيين ليدس كل منهم افتراءه في المسألة المدروسة، وهكذا تتجمع لديهم مسائل كثيرة: هي الإسلام أو معظم جوانبه، ولكن بعد أن طرح كل منهم دسه وسمومه. وهذا يعني أن المسائل الجزئية التي يحاول الغزاة أن يحجزوا فيها بين الإسلام والمسلمين تتجمع لتؤدي إلى فصل (كلي) في آخر الأمر. وهكذا يتحقق لديهم (فصلان): جزئي وكلي.

ويظهر هذا عملياً بتجميع المسائل المطروحة ضمن إصدارات دورية ومستقلة، وفي مؤتمرات كنسية واستشراقية وغربية، وتصنفها في دوائر معارف اسلامية وعامة.

ويتسم هذا العمل الفكري حينئذ بـ (الجماعية) و (التخصصية) و (العلمية).

الثاني: تحقيق أهدافهم الغازية في انتزاع أو سلخ الإسلام عن المسلمين بإقامة الحواجز الفكرية بينهم وبينه، وذلك من أجل مد نفوذهم الاستعماري على الإنسان والأرض والمسلمين وبسط سيطرة مادية وثقافية على المسلم واستغلال خيراته. فيتحقق لهم (التغريب) و (السيادة) الغربية، و (الاستعمار) الفكري والمادي.

ومن المسائل المطروحة والمعالجة: إدريس، إبراهيم، إسحاق، إسماعيل، داود... والدنيا، القراض ومسائل في: الزكاة، الصلاة، الحج، الصوم، الجهاد... والحكم، المرأة.

ونفصل الكلام على مسألتين: الحج والجهاد في بعض أحكامهما:

الأولى: الحج[٦١]: وتبدو اهتمامات المستشرقين بها لا لأنها مجرد عبادة أو ركن في الاسلام وإنما لما له من أهمية فكرية وتعبدية وتجمعية ودولية، مما ليس له نظير في أية أمة أو دين أخر.

يقول (درمنغم): أبقى محمد ﷺ شعائر الحج كما كانت عليه قريش في العهد الجاهلي، خلافاً لآمال أهل المدينة، فأراد بذلك اجتذاب قريش إلى الإسلام والارتقاء بهم إلى ما فيه سمو الروح وتقريبهم من تعاليم الكتاب المقدس.

وهذه شبهة تحمل في طياتها شبهات متتابعة تأخذ الواحدة منها برقاب الأخرى، ولو لم ينسب المستشرق أعمال الحج إلى الرسول لآثرنا عدم مناقشته في هذه الشبهة. ويمكن تحليل الشبهة السابقة إلى:

أ ـ أن (درمنغم) يشعر القارىء أن أعمال الحج ومناسكه من صنيعه هو، أراد به أن يحقق آمال القريشيين، ويجتذب قلوبهم إلى الإسلام، ولكن متى كانت قضايا الإسلام والدين وأحكامه تابعة لأهواء نبي أو رسول؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤)

وهل يمكن أن يقتنع إنسان بأن هدف الزعامة السياسية، والتنازل عن مبادىء الحق، والمساومة عليها تخطر لنبي مشهود له بالصدق والأمانة والتبليغ؟ وإذا أراد هذا المستشرق أو غيره إقامة دعوى كهذه أو غيرها فأين دليلها؟ وأين مصدرها؟ وأين وجه الاقناع بها؟

(٦١) من كتابي السابق ص ١٤٢ ـ ١٤٥ والحواشي وانظر بحثاً مطولاً عن شبهات المستشرقين في الحج للمؤلف نشر في: التضامن الاسلامي، الجزء العاشر ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

ب ـ إن درمنغم يـريد أن يثبت أن منـاسك الحـج من متابعتـه قـريشـاً في حجهـا، وليس من ملة إبراهيم عليـه السلام، وهـذه أيضاً دعـوى لم يثبتهـا بحجـة ولا دليل شرعيـين أو تاريخيـين، ولكن الثابت عكس مـا ادعاه، ففي صحيح مسلم واللفظ له وأبي داود والنسائي والدرامي، وابن ماجه وغـيرهم عن جعفـر بـن محمد عن أبيـه قال: دخلنـا على جـابر بن عبـدالله فسأل عن القوم حتى انتهى إليّ فقلت: أنا محمـد بن علي فـأهوى بيـده إلى رأسي فنزع زري. . فقلت: أخـبرني عن حجة رسـول الله ﷺ، فقال بيـده فعقد تسعـاً فقال: إن رسول الله ﷺ، مكث تسع سنين لم يحج، ثم ذكر الحديث إلى أن قال: فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلّوا بـالحج، وركب رسـول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجـر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ، ولا تشك قريش إلاّ أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله حتى أتى عرفة فوجد القبة قـد ضربت له بنمـرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت لـه فأتى بـطن الوادي فخطب الناس. . .)[٦٢].

ومن التعليقات الاستنتاجية: «هذا الحديث فيه إبطال ما أدخلته الجاهليـة على الحج مما ليس في شريعة إبراهيم عليه السلام، وهو أن قـريشاً كـانت في الجاهلية تقف بـالمشعر الحـرام، وهو جبـل في المزدلفـة يقال لـه (قزح)، لأن المزدلفة من الحرم، وعرفة من الحل، ويقولون: نحن سكان الحرم فلا نخرج منـه، فظنت قـريش أن النبي ﷺ يقف في المشعـر الحـرام عـلى عـادتهم ولا يتجاوزه، فتجاوزه النبي إلى عرفة لأن الله أمره بذلك في قوله:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (البقرة: ١٩٩) أي سائر العرب[٦٣].

---

(٦٢) شرح مسلم للنووي ١٨١/٨ وأبو داود ١٨٧/٢، والترمذي ٣١/٣.

(٦٣) أخذ التعليق من دراسات تطبيقية في الحديث النبوي. د. نور الدين عتر، ص ١٩٨٠.

زعمهم أن الحج خليط من الوثنية والسامية:

١ ـ **رمي الجمرات**: زعموا أن رمي الجمرات شعيرة أخذها الإسلام عن الوثنية، فلم ينص عليها صراحة في القرآن، ولكنها ذكرت في سيرة النبي ﷺ وفي الحديث، ففي أيام الوثنية كانت لدى الجمرات أنصاب مخضبة بالدماء تنحر عندها الأضاحي. ويقول المرحوم أحمد محمد شاكر معلقاً: ليس رمي الجمرات من آثار الوثنية كما يظن كاتب المقال وإنما كانت من شعائر الحج قديماً في دين إبراهيم، وبقيت منه بقايا توارثها العرب ودخلها كثير من التحريف، فلما جاء الإسلام أعاد شعائر الحج عبادة خالصة لله وحده، والإسلام دين التوحيد، وكان رسول الله يحرص على أن لا يدخل على المسلمين في عملهم وقولهم واعتقادهم شيء من شائبة الإشراك بالله.

٢ ـ **الإحرام ومحرماته**، وزعموا أن الغسل للإحرام والتخضيب شعائر كانت تتصل قديماً بالصلوات التي يقصد بها طرد الشياطين. وثوب الإحرام ربما كان الثوب المقدس عند قدماء الساميين، لذلك كانت صورة الكهان وأردية الزهاد بيضاء، وليس الفعل عادة سامية، كذلك كان إهمال العناية بالبدن ظاهرة معروفة بين الشعوب السامية في الأحوال الدينية، وربما كانت عادة الصيام مرتبطة بغيرها من عادات الجاهلية فيما يشبه الإحرام.

والرد السابق صالح في هذا الموضوع، ويمكن إضافة توضيحية كما يلي: الإسلام شريعة الله، وهو ذو شخصية مستقلة عن الشرائع الأخرى ومتميز عنها، وغير متأثر بواحدة منها، وإذ وجد تشابه بين نسك إسلامي وعمل سابق تحققنا من نسبته إلى شريعة سماوية فالإسلام لا يمانع أن يقر النسك الإسلامي على أنه من دواعي الفطرة الإنسانية. مثلاً: فالغسل والتخضيب ولبس الأبيض وغيرها من الفطرة، وهي مما لا ينكره الإسلام طالما إنها مبنية على دعامة التوحيد الخالص. على أن دعوى وثنية أو سامية مناسك، وتشابهها مع مناسك الحج التي يفترضها المستشرق لم يقم عليها دليل تاريخي

موثوق إلاَّ ما كان يتصل بعبادة إبراهيم عليه السلام، وإهمال البدن الذي عرف بين الشعوب السامية لا يقره الإسلام لا في الحج ولا خارج الحج، فالوضوء والغسل والطهارة من عبادات المسلم في كل حين.

الثانية: الجهاد[٦٤] ومسائله: الجهاد قتال وإخضاع؟!:

فأكثر المستشرقين يعرض الجهاد على أنه سيف الإسلام المصلت الذي لم ينتشر إلاَّ به، وبالعنف وبالقوة اللذين استطاع بهما الإسلام أن يجتاح العالم بالسرعة الخاطفة التي لم تتحقق لدين آخر، وهو والموت صنوان لا يفترقان، وما يتصل به من تخريب وإفناء ووحشية، وما يدفع إليه من إرادة القتل والرغبة في سفك الدماء، وما يقيمه من استبداد في تحكيم المبْدأ بالسيف، وإجبار الإنسان على اعتناق الإسلام وقهره على ذلك. هي بعض مفترياتهم على الجهاد، حتى لكأن الدعوة إلى الله، ونشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وإقناع الفكر بالحقائق الإسلامية، واستجابة الشعوب للإسلام عن طواعية ورضى، وإعلان الإسلام حرية العقيدة والفكرة والكلمة بالمعنى الإسلامي وغيرها لم يدع إليها الإسلام في قليل ولا كثير.

يقول (ماكدونالد) ـ هكذا في مطلع دراسته لمادة «الجهاد»: نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة. ولتأكيد هذا المعنى الجهادي المحرَّف يشير إلى أمور أبعد ما تكون عن الصحة:

فكرة (إخضاع الناس) على حد قوله غاية الكتب والرسائل التي كان يرسلها الرسول إلى الأمم المجاورة، يدعوهم فيها إلى الإسلام، يقول (ماكدونالد): ثم إن قصة كتابته إلى الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام تبين أن هذا الموقف حيال الناس جميعاً كان يخالجه.

وقد عقب المرحوم أحمد محمد شاكر على ما مضى بقوله: من المفهوم أن

---

(٦٤) كتابي السابق ص ١٤٥ ـ ١٤٧ والحواشي وانظر مقالاً مستفيضاً عن الجهاد للمؤلف في: مجلة التضامن، عدد محرم ١٣٩٩.

كـاتب المقال يكتب متـأثراً بعقيـدتـه في الإسـلام وفي رسـول الله ﷺ، وأمـا المسلمـون والمنصفون فـإنهم إذا فهموا القـرآن حق فهمه، وعـرفوا مقـاصـد الإسلام وروحه، ودرسوا سنة الرسول وسيرته علموا أن التشريع الإسـلامي في الجهاد تشريع دقيق، ولم يكن عن تطور أو ارتجال في الرأي وإنما هو وحي من عند الله ليجعل هذا الدين دين الإنسانية كلها، ويظهـره على الـدين كله كما وعد الله وسيكون كما وعد:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (سورة صٓ: ٨٨).

وتصـوير الجهـاد الإسلامي عـلى هذا الـوجه الاستشراقي التبشـيري شوه الفتوحات الإسـلامية، وأهـداف الجهاد التي قصـد إليها الإسـلام «قصداً». يقول (كرين)(٦٥):

ويمتـدح شيوخ المسلمـين بصفـة عـامـة إكـراه أي شخص عـلى واجبـات الجهاد. ويعلق المرحوم أحمد محمد شاكر قائلاً: وأما الإسـلام وعلماء الإسلام فإنهما بريئان من إكراه غير المسلم على الدخول في الإسلام...

وهناك جهاد بالكلمة والدعوة، وجهاد بالعلم وطلبه ونشره، وجهاد بـالمال كسبه وإنفاقه، وجهاد النفس أهواءها مما يدخـل ضمن مفهوم الجهـاد بمعناه العام كما هو معروف ومشهور.

الإسلام دعوة تبشير ليس غير:

وهي شبهة مناقضة للشبهة السابقة، لأنهم يعدون الجهاد أنـه كان مـرحلة في عصر النبوة وانتهى أمرها، أما مـا بقي من الإسلام بنـظرهم فهو مـواعظ ورهبنة ودروشة، وربما قال بعضهم: إن الجهاد في الإسلام دفـاعي لا يقاتـل إلاّ حين يهاجم في عقر داره. يقول المودودي(٦٦): ... دعونـا نعتذر إلى القـوم

(٦٥) دائرة المعارف الاسلامية، ٩/٥٧٤.

(٦٦) من كتابه: الجهاد في سبيل الله.

نبدل الكلم عن موضعه ونقول لهم: ما لنا وللقتال أيها السادة، إنما نحن مبشرون، ندعو إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية، ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن حتى يؤمن من يؤمن... أما السيف والقتال فمعاذ الله أن يمت إليه بصلة، هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا القناع عن بعضها. ولا شك أن هذه الشبهة قد أفادت الاستعمار البريطاني في سيطرته على الهند بواسطة فرقة (القاديانية) التي كانت تشيع إبطال الجهاد القتالي في الوقت الحاضر.

ثبت المراجع

أولاً: القرآن الكريم، وتفاسيره، منها:

١ ـ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)، (الطبري) أبو جعفر محمد ابن جرير، البابي الحلبي، ط ٣، ١٣٨٨ هـ.

٢ ـ تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، (الفخر الرازي) محمد بن ضياء الدين، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠١ هـ.

٣ ـ تفسير القرآن العظيم، (ابن كثير) اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة ـ بيروت ١٤٠٢ هـ.

٤ ـ تفسير أبي السعود (ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، (أبو السعود) محمد بن محمد العمادي، احياء التراث العربي.

٥ ـ فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، (الشوكاني) محمد بن علي، دار الفكر.

ثانياً: الحديث النبوي وشروحه، ومنها:

١ ـ الصحيحان، (البخاري) محمد بن اسماعيل و (مسلم) مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ).

٢ ـ السنن، (الترمذي) محمد بن عيسى و (أبو داود) سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥ هـ) و (ابن ماجة) محمد بن القزويني و (النسائي) أحمد بن شعيب.

٣ ـ الموطأ، (مالك) بن أنس.

٤ - المستدرك على الصحيحين ، (الحاكم) أبو عبدالله الحاكم النيسابوري محمد ابن عبد الله ، وبذيله : التلخيص : للذهبي .
٥ - المسند، (أحمد بن حنبل).
٦ - صحيح ابن خزيمة، (ابن خزيمة) محمد بن اسحاق - المكتب الاسلامي ١٤٠٠ هـ.
٧ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (الهيثمي) علي بن أبي بكر، دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٢ هـ.
٨ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، (ابن حجر) العسقلاني، أحمد بن علي قرأ الأجزاء الثلاثة الأولى تعمياً وتحقيقاً الشيخ عبدالعزيز بن باز، ورقّمه : محمد فؤاد عبدالباقي، وأخرجه محب الدين الخطيب.
٩ - شرح مسلم، (النووي) يحي بن زكريا - دار الفكر دمشق ١٤٠١ هـ.
١٠ - الجامع الصغير والجامع الكبير، (السيوطي) عبدالرحمن بن أبي بكر.
١١ - الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين، (ابن عدي) عبدالله.

ثالثاً: المراجع العامة(*):

١ - الاتجاهات الوطنية في الشعر المعاصر: د. محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، ط ٣، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م.
٢ - الاسلام على مفترق الطرق: محمد أسد.
٣ - الاسلام في مواجهة التحديات المعاصرة: أبو الأعلى المودودي، دار القلم، الكويت، تعريب خليل أحمد الحامدي ط ٣، ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.
٤ - الاسلام والدعوات الهدامة: أنور الجندي.
٥ - الاسلام وموقف علماء المستشرقين: د. عبدالحميد متولي ص ١٩٨٣ م.
٦ - الاسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب، أنور الجندي.
٧ - الاستعراب في الاتحاد السوفياتي: ت محمد المعصراني.
٨ - استعمار القارة الافريقية واستغلالها: د. زاهر رياض، دار المعرفة، ١٩٦٦ م.

(*) انظر مراجع اخرى في: مستشرقون سياسيون وجامعيون ومجمعيون. علماً أن معظم المراجع موثوق بها وبعضها مشبوه ذكر للرد عليها. وأقلها للاستئناس.

٩ ـ أضواء على الاستشراق: د. محمد عبدالفتاح عليان ـ الكويت ـ دار البحوث العلمية ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.
١٠ ـ إعجاز القرآن: الباقلاني.
١١ ـ الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا: سعيد عبدالمجيد بكر من سلسلة دعوة الحق عن رابطة العالم الاسلامي العدد ٢٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
١٢ ـ الأقليات المسلمة في افريقيا: سعيد عبدالمجيد بكر، من سلسلة دعوة الحق عن رابطة العالم الاسلامي، العدد ٤٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٣ ـ البداية والنهاية في التاريخ: ابن كثير اسماعيل بن مصر، مصر ١٣٥١.
١٤ ـ البرهان في علوم القرآن: الزركشي محمد بن بهادر تحقيق محمد أبو الفضل البابي الحلبي ١٩٧٢ م.
١٥ ـ تاريخ العرب مطول: فيليب حتي وزملاؤه، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع بيروت ١٩٥٠.
١٦ ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر: د. عمر عبدالعزيز، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥.
١٧ ـ التبشير في جنوب السودان ووادي النيل: د. ابراهيم عكاشة.
١٨ ـ التبشير والاستعمار: د. عمر فروخ ومصطفى الخالدي منشورات المكتبة العصرية بيروت ١٩٨٢.
١٩ ـ التصوير الفني في القرآن: سيد قطب.
٢٠ ـ تطبيقات في الحديث النبوي: د. نور الدين عتر.
٢١ ـ تطور السياسة الفرنسية في الجزائر: صلاح العقاد.
٢٢ ـ الجهاد في سبيل الله: أبو الأعلى المودودي.
٢٣ ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار: ابن الربيع وجيه الدين عبدالرحمن بن علي، تحقيق عبدالله ابراهيم الأنصاري، مطابع قطر الوطنية.
٢٤ ـ الحركة الصليبية: د. سيد عاشور.
٢٥ ـ الحلقة المفقودة في تاريخ العرب: محمد جميل بيهم.
٢٦ ـ دراسات في الحديث النبوي: د. محمد الأعظمي.
٢٧ ـ الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية: رودي بارت، ترجمة

د. مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، دار الكاتب ١٩٦٧، القاهرة.

٢٨ - رسول الله ﷺ في كتابات المستشرقين: نذير حمدان، ط ٢، دار المنارة، جدة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

٢٩ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: لأبي شاقة: عبدالرحمن بن اسماعيل.

٣٠ - وذيل الروضتين: لأبي شاقة: عبدالرحمن بن اسماعيل.

٣١ - ذيل تاريخ دمشق: لابن القلانسي. حمزة بن أسد بن علي الدمشقي.

٣٢ - السلوك في معرفة الملوك: المقريزي أحمد بن علي البعلبكي الأصل.

٣٣ - السيرة النبوية: ابن هشام عبدالملك بن هشام تحقيق: السقا والابياري وشلبي. مؤسسة علوم القرآن.

٣٤ - الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق.

٣٥ - الكامل في التاريخ: لابن الأثير الجزري محمد بن محمد، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.

٣٦ - عقد الجمان: العيني محمود بن أحمد الحلبي صاحب العمدة.

٣٧ - العقيدة والشريعة: تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الاسلامي جولدزهير اجتيناس وقدم له د. محمد يوسف موسى ط ٢، دار الكتب الحديثة بمصر والمثنى ببغداد ١٣٧٤هـ/١٩٥٥.

٣٨ - الفتاوى: ابن تيمية أحمد بن تيمية، المعارف، الرباط.

٣٩ - فقه اللغة: د. علي عبدالواحد وافي، البيان العربي، القاهرة ١٣٩٩ هـ/١٩٥٠ م.

٤٠ - الغارة على العالم الاسلامي: شاتيليه.

٤١ - الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار: د. محمد البهي، ط ٨، وهبه ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م.

٤٢ - المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الاسلام (رسالة) د. محمد البهي مطبعة الأزهر.

٤٣ - مجموعة الوثائق السياسية: د. محمد حيدالله، دار الارشاد، بيروت ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م.

٤٤ ـ المستشرقون والاسلام: د. حسن الهراوي.
٤٥ ـ المحمدية: هاملتون جب.
٤٦ ـ مستقبل الاسلام في السودان: الصادق المهدي.
٤٧ ـ المسلمون في الفيليبين: قيصر أديب مخول، تعريب نبيل صبحي مؤسسة الرسالة.
٤٨ ـ مذاهب التفسير الاسلامي: جولدزهير اجتيناس، ترجمة د. محمد علي النجار، الخانجي بمصر والمثنى ببغداد، ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م.
٤٩ ـ مذاهب فكرية معاصرة: دار الشروق، بيروت ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.
٥٠ ـ مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.
٥١ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكري: د. حسان محمد حسان.

رابعاً: المعاجم والموسوعات:

١ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ط ٤، ١٩٧٩.
٢ ـ لسان العرب: ابن منظور محمد بن مكرم، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٠٨ هـ.
٣ ـ المستشرقون: د. نجيب العقيقي، ٣ أجزاء.
٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبدالباقي.
٥ ـ الموسوعة العربية الميسرة: فئة من الباحثين ط ٢، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٧٢.
٦ ـ موسوعة المستشرقين: د. عبد الفتاح بدوي دار العلم للملايين ط ١، ١٩٨٤.

خامساً: الدوريات:

أ ـ الصحف:

١ ـ صحيفة أخبار العالم الاسلامي.
٢ ـ صحيفة الشرق الأوسط.

٣ ـ صحيفة المدينة المنورة.

٤ ـ صحيفة الجزيرة.

٢ - المجلات:

١ ـ مجلة التضامن الاسلامي، وزارة الأوقاف في المملكة العربية السعودية ـ مكة المكرمة.

٢ ـ مجلة رابطة العالم الاسلامي، رابطة العالم الاسلامي ـ مكة المكرمة.

٣ ـ مجلة رسالة المسجد، توقفت.

٤ ـ مجلة الزهراء، القاهرة.

٥ ـ مجلة الفيصل، الرياض.

٦ ـ مجلة المجمع العلمي بدمشق، دمشق.

٧ ـ مجلة المجلة العربية، الرياض.

٨ ـ مجلة المسلمون.

٩ ـ مجلة منار الاسلام، وزارة العدل في دولة الامارات العربية المتحدة.

فهرس

الحملات الصليبية

التنصير

الاستشـراق

محاولات الغزو الفكري في الفصل الكلّي والجزئي بين الإسلام والمسلمين

ثبت المراجع

